عزيز نيسين

وهكذا سرنا

الصعود إلى القمة

ذكريات المراهقة والشباب

- II -



ترجمة

محمد مولود فاقي

الوطنية الجديدة

NESIN
Hakadha 'atina ilá al-hayah /
2

وهكذا سرنا

الصعود إلى القمة

* وهكذا سرنا... الصعود إلى القمة
«ذكريات المراهقة والشباب» ـ II
* تأليف: عزيز نيسين
* ترجمة: محمد مولود فاقي
* الطبعة الأولى ٢٠٠٤

* **الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع**
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٢٢٢٠٥
هاتف: ٤٤١٨٢٠٢ ـ ٤٤١٨١٧٢

* التوزيع في جميع أنحاء العالم:
الدار الوطنية الجديدة للنشر والتوزيع
* موافقة الإعلام: **٧٨٢٩١**

* العمليات الفنية: **مؤسسة سندباد**
سورية ـ دمشق ـ ص.ب: ٩٢٢٣ ـ هاتف: ٢٢٣١٠٥٥
فاكس: ٢٤٥٢٥٦٥ ـ بريد الكتروني: sindbad@scs-net.org

عزيز نيسين

وهكذا سرنا

الصعود إلى القمة

« ذكريات المراهقة والشباب »

الجزء الثاني

ترجمة

محمد مولود فاقي

عنوان الكتاب باللغة التركية

AZIZ NESIN

BÕYLE GELMIS

BÕYLE GITMEZ

YOKUSUN BASI

إلى ذكرى أبي

أبي يا أحسن أب في العالم
أحببتك في شبابك وكهولتك
أفكارنا معادية وأيادينا تنشد الوفاء
أبي أنت الوحيد الذي أقبل يده كل صباح
كنت تقول لي دائماً: متى تصبح إنساناً أعتمد عليه
أحترمك، أقف صامتاً خاشعاً أمامك
لقد أحَبْبتَ أمي كثيراً
وصلَّيتَ دائماً لراحة نفسها
قلبك مليء بالأمل للقائها
كنتَ تسخر مني وتقول: أنت كافر
إنك الوحيد الذي يسامحني
أحببتَ أطفالي، وأسعدتهم في فترات سجني
صارعت الموت ليعيشوا أطفالي
أُرغمتَ على الحياة من أجلي
النار في عينيك تنطفئ بنظراتك

أنت الوحيد الذي فهم طفولتي وشبابي..
أبي أنت نور حياتي وأملي!
تبقى ذكراك حية في جوارحي
يا أحسن وأجمل أب في العالم

* * *

(*) مات أبي عبد العزيز أفندي في ١١ شباط عام ١٩٦٢ في الرابعة والثمانين من عمره... وكتبت هذه الأبيات قبل موته بعشر سنوات.

القسم الثالث

أعمال الغد

ماذا حصل للإعلان؟ قصة الحيوانات ـ يجب أن أرسل لحسن علي «أطفال اليوم» رسالة إلى إيران ـ البريد ـ الذهاب إلى أورهان.. ملاحظات.. ماذا أعطيتم لهاربغون.. شراء ساعة كورال، مصباح مكتب من أجل أحمد بمناسبة عيد ميلاده.

كل ليلة يجب أن أدوِّن الأعمال التي سأقوم بها يوم الغد على ورقة. إذا لم تكن كل ليلة فلتكن كل ليلتين أو ثلاث.. أكتب في أعلى الورقة «أعمال الغد» أو «الأعمال التي سأقوم بها في الغد» وأضع خطاً تحتها. وبما أن يدي مفتوحة فتستطيع أن تقول بأني مسرف من جهة.. ومن جهة أخرى أتصرف بدقة وتستطيع أن تقول بأنني بخيل.. وبما أنني هكذا.. فأنا لم أُتلف الأوراق المكتوب عليها «أعمال الغد». فهي مجموعة على شكل قصاصات صغيرة.. مكتوبة من طرف وفارغة من الطرف الآخر، استعملتها لعدة أعمال دفعة واحدة.

غير «الأعمال التي سأقوم بها صباح الغد»، هناك.. الأعمال التي سأقوم بها في شهر وسنة. وهكذا كنت أقوم بتخطيطٍ يومي وشهري وسنوي على هذه القصاصات الصغيرة.

قديماً كنت أمزق هذه الأوراق وأرميها.. في أحد الأيام نسيت إتلافها وإلقاءها في سلة المهملات. وبقيت مرميَّة في إحدى الزوايا.. وعندما وجدتها بعد مرور سنوات طويلة، رأيت فيها أشياء كثيرة جذبت انتباهي، وجدتها غريبة حقاً.. لقد حظيَتْ عباراتها بأهمية كبيرة عندي.. وصار لها قيمة تاريخية وأثرية رائعة.. وجدت في هذه الكتابات الماضي الخاص بي، ورأيت نفسي كما الآن.

وهكذا.. بدأت أحتفظ بتلك الأوراق اليومية والشهرية والسنوية.. لم أعد أرمها.. أجمعها ضمن ملف خاص.. وعندما أعود إليها بين حين وآخر، أجد في تلك الكتابات أيامي الماضية والقادمة.. فهي عبارة عن وثائق تربط ماضيَّ بحاضري ومستقبلي.. أنظر إلى «الأعمال التي سأنفذها غداً» فلا أتذكر، أكثرها أصبح منسياً، وبعض الأعمال لم تنفذ أيضاً بقيت على حالها. كنت أتركها إلى الغد.. ثم إلى ما بعد الغد.. وهكذا. عندما أفكر بها.. أحس بحزن شديد.

ستظل الكتابات حاضرة في ذهني، أحفظها للأيام القادمة التي ستكون دوني. الأيام التي لن أكون فيها.. الأيام القادمة الخالية من وجودي. سأترك في هذه الأوراق المكتوبة ذكريات لحياتي.

أنظر الآن إلى الملفات إلى «الأعمال التي سأقوم بها غداً» كلها أعمال لم أنفذها، ظلت أعمالاً ناقصة، بقيت مديوناً للغد وما بعد الغد.. وللأيام القادمة الأخرى. ليس بسبب كسلي وإهمالي، بل من ثقل الأحمال التي فوق ظهري، وكثرة المسؤوليات والطلبات.

إذا لم أقم بتنفيذ الأعمال هذا اليوم كاملةً.. سأضطر لتنفيذها غداً، ومن سيقوم بتنفيذها لا يستطيع إلى أن يطاله الموت.. لأن هذا دين لا ينتهي.. دين أشعر به دائماً.. ما معنى أن يظل الإنسان مديناً للأيام القادمة؟ في هذه الحالة، يكون مرغماً على العيش كي يردَّ دينه الذي لا يُرد أبداً.. وسيزداد أكثر.

في ذلك الصباح الذي لن أكون موجوداً فيه، سيجدون أوراقاً صغيرة، «الأعمال التي يجب أن أقوم بها».. لم تنفذ كلها.. الشيء الباقي مني هو أنا.. ملفات ملأى بالأوراق.

أمامي الآن ملف مليء (بأعمال الغد).. سأختار منه ورقة وأقرأها لكم. «حلاقة، فطور، العناوين، تنظيف طاولتي أو مكتبي، سقاية

الأزهار، شراء دفتر طوابع لأحمد، البريد، جلب معلاق للقطط، كتب رفيق خالد، أستلم نقود من كوفلو، إعطاء قصة لمجلة أف بابا، تصحيح رواية زوبك، ومسرحية من فصل واحد».

كل غدٍ أراه قريباً.. لم أكن أعطي لهذه الأوراق أهمية. بحيث إنني لم أضع عليها تواريخ الأيام المتتالية.. لا نستطيع أن نعرف مسبقاً ونحن نعيش، أيّ الأشياء التي تركناها تملك من الأهمية أو لا تملك.

كل ورقة فيها عنوان.. أو ظرف.. أو ورقة ملاحظة.. أو حساب بقال.. تأخذ من القيمة والأهمية مع مرور الزمن.

ثمة عمل تركته في تلك الأوراق للغد وما بعد الغد.. إلى سنوات طويلة ولم أنفذها ألا وهي: كتابة الجزء الثاني من مذكراتي من «هكذا أتينا إلى الحياة». وهذه هي ورقة من تلك الأوراق «بما أنني أنهيت الجزء الأول من مذكراتي «هكذا أتينا إلى الحياة» في ١٥/ كانون الثاني/ ١٩٦٥.. وسأبدأ بكتابة القسم الثالث ـ الجزء الثاني منه في ١٥/ آذار/ ١٩٦٥.. وحتى ذلك الوقت أكون قد أنهيت كتاب نصر الدين جحا ـ ٤ ـ ٥/ كانون الثاني/ ١٩٦٥».

في أوراق أعمال الغد.. ثمة ملاحظات كثيرة أوردتها من أجل «هكذا أتينا إلى الحياة» كما يحصل الآن.. أحاول فيها دفع نفسي إلى الكتابة.. أعاهدها.. أعمل معها عقوداً.. أجعلها تربطني بالعمل الدؤوب.. ولكن عبثاً لم أستطع الدخول إلى هذا العمل وإلى هذه الكتابة.. تحت ظروف الحياة القاسية.. الكتابات اليومية والأعمال التي يجب أن أنفذها في يومها. كل ذلك منعني البدء بالجزء الثاني من «هكذا أتينا إلى الحياة».

مرت سبع سنوات طوال.. ولم أستطع إنهاء تصحيح الشيخ نصر الدين جحا، ولم أبدأ بـ «كتابة الجزء الثاني». أعتقد أن الجزء الثاني من

كتاب هكذا أتينا إلى الحياة.. هو دين يجب أن أرده.. كتاب يجعل من الكاتب فوق نفسه.. ومجبر على الكتابته بكل السبل والوسائل، لأنه من صُلب عمله.

ومع تأخير دام سبعة أعوام.. ها أنذا.. أرد قسماً من ديني هذا.. وأبدأ بكتابة الجزء الثاني ونشره على شكل حلقات في الجرائد.. وتم نشره بعد مرور عشر سنوات من إصدار الجزء الأول.

التوت والتين والعصافير

كانت أمي تحب التوت والتين أكثر من كل الفواكه.. وقد سمعتها مرة تقول لأبي:

- ازرع شجرة توت عند رأس قبري وشجرة تين عند طرف قدميَّ.

كان الصمت يسيطر بعض الوقت على غرفتنا.. ثم تبدأ أمي ثانية بالحديث وكأنها تقول شيئاً عادياً.

- العصافير.. وخاصة تلك الطيور الثرثارة المسماة /بالدوري/.. تحب، التين والتوت كثيراً.. لتأكل منها وتغرد كما تريد فوق قبري.

كان أبي قد أحضر معه من استانبول غرستين من التين والتوت. ذهبنا معاً إلى قبر أمي في /هيبلي آدا/.. أنا الذي حملتهما وأبي حمل الفأس والرفش. وزرع غرسة التوت فوق رأسها والتين إلى الطرف الآخر بمهارة وبدقة. وبواسطة صفيحة ملأى بالماء أخذناها من حارس المقبرة لسقي الغرستين.

كان أبي يذهب إلى المقبرة ويسقي الغرستين بين وقت وآخر.. وبعض الأحيان كنا نذهب معاً إلى هناك. وصار أبي يعطي حارس المقبرة نقوداً كي يقوم بسقي تلك الغرستين اللتين زرعناهما فوق قبر أمي. ومع هذا لم تعيشا.. عمد أبي إلى زرع غرستين أخريين أحضرهما من استانبول أيضاً.. تجمدتا في ذلك الشتاء. وكررنا زراعة التين والتوت أكثر من

خمس مرات على قبر أمي.. مع إن أبي كان شاطراً ومعلماً في مثل هذه الأشياء.. إلا أن الغراس لم تعش.

يموت الإنسان ويفنى جسده في التراب.. وبالطبع ستأتي الطيور لتغرد فوق قبره. ولكنه لن يسمع شيئاً من تغريدها وزقزقتها. ليس المهم سماع الميت صوت العصافير.. أو عدم سماعه.. المهم أن نجهز العصافير التي نريد سماع أصواتها.. في حياتنا.. ونحن نعيش على وجه الأرض.. أن نجهزها.. ونفرح.. هذا هو الشيء الجميل في الأمر.

أنا شخصياً أتمنى أن أسمع زقزقة العصافير في محطتي الأخيرة على أغصان التين والتوت التي ستغرس فوق قبري.. طبعاً لن أسمع شيئاً.. ولن أعرف.. ولن يكون لي علم بذلك.. ولكني أسمع وأرى جمال تلك اللحظة.. الآن.. لأني أخطُّها في كتابي وأجعل الطيور تغرد في مداري فرحة مستبشرة.. يعني أنا أعيش ما بعد فنائي.

خجل أسود

كان مدحت كمال كونتاي قد قال بعض الكلمات عن /محمد عاكف/: أنه يستطيع أن يسرد قصة حياته من بدايتها إلى نهايتها دون أن يلجأ إلى الكذب.

من المهم أن يسرد الإنسان قصة حياته دون اللجوء إلى الكذب والمراوغة ولكن ليس صعباً على الذين ليس لديهم حياة معقدة أن يسردوا قصة حياتهم ومذكراتهم بالشكل الذي يريدونه وبسهولة. ولكن الشيء الصعب والمهم.. أن من كانت حياته معقدة وفيها أحداث مخجلة أن لا يعمد إلى الوقوع في براثن العيوب والنواقص.. وقد يصل به الأمر إلى التطرف المؤدي إلى الخجل الأسود.. كما يقول الشاعر /نسيمي/: «حطمت زجاجة الناموس والعار بصرخة واحدة على الأحجار.. ما دخل الناس في هذا الأمر»؟.

ليست لدي حياة شفافة.. براقة.. سهلة.. كحياة محمد عاكف. حتى أكتبها بسهولة.. دون أن تصل عيوبي ونواقصي إلى نقطة تمنعني من كتابتها بصراحة وفصاحة، ولكني بدأت كتابتها كما ترون وقررت أن أسرد الأحداث والنواقص والعيوب والأسرار إذا لم تضرّ الآخرين.

ثمة خجل أسود أحمله في جسدي.. في رأسي.. في معصمي.. أينما أذهب هو معي.. لا أستطيع التخلص منه.

المياه قليلة في الجزيرة.. ونقل المياه إلى المنازل يتم على ظهور الدواب وخاصة الحمير.. حيث توضع أربع صفائح للماء داخل قاعدة خشبية.. تُملأ بالماء وتنقل إلى البيوت.. لا يوجد ماء في بيتنا.. أنا وأختي كنا ننقله بالأوعية النحاسية من الصنبور.. مرة واحدة فقط.. ثم ننقل الماء إلى بيتنا على ظهور الدواب. في اليوم التالي لوفاة أمي، كان السقاء حافظ قد نقل إلى بيتنا ثلاث نقلات من الماء.. في الحمولة الواحدة أربع صفائح .. وسعر الصفيحة الواحدة مائة بارة.. والحمولة المكونة من أربع صفائح كانت تساوي عشرة قروش.

كانت المياه تغلي فوق الموقد الصغير في مطبخنا.. المرأة التي كان عليها غسل جسد أمي. قد أحضرت كل شيء.. وكان حافظ قد نقل إلى بيتنا ثلاث نقلات من الماء على ظهر دابته.. المياه تأتي إلى منزلنا للمرة الأولى والأخيرة.

ذات مرة أعطاني أبي ثمن النقلات الثلاث ومقداره ثلاثون قرشاً كي أعطيها لحافظ، أما أنا.. لم أعطه المبلغ... لماذا؟ ربما فكرت أنه لن يسألني أحدٌ عن ثمن المياه في مثل ذلك الموقف الصعب.. حيث الصراخ والبكاء والزحمة.. وربما .. يخجل حافظ من نفسه ومنّا فلا يسأل عن ثمن الماء الذي نقله إلى بيتنا؟ وربما فكرت في نفسي وأنانيتي: صار معي ثلاثون قرشاً لأشتري ما أشتهي وآكل ما طاب لي؟ لا أعرف كيف

حصل ذلك.. الشيء المهم أنني لم أعط المال لحافظ في ذلك اليوم.

انتظر حافظ أسبوعاً كاملاً.. ثم طلب المال من أبي.. بقي أبي عادياً لم يقل له شيئاً مثل «أرسلت المال مع ابني.. أو أعطيت المبلغ لأبني كي يعطيك» شيء من هذا القبيل.. ثم أخرج المال من جيبه وأعطاه.

في إحدى الأمسيات.. اقترب مني أبي.. ذلك الرجل الناري.. الذي يغضب بسرعة.. اقترب وسألني بصوته العذب.

ـ ألم تعط حافظ ثمن الماء ذلك اليوم يا بني؟

من المعقول جداً.. أن يكون حافظ قد أخذ المال ونسي ذلك. ولهذا السبب كان أبي يسألني.. بالنسبة له.. كنت من أشد الناس أمانة وصدقاً.

لم أقل شيئاً، هو الآخر لم يقل شيئاً.

مع مرور الزمن.. بدأ هذا الخجل ينمو ويكبر في أعماقي ويتحول إلى مادة سوداء لزجة كريهة.. تنتشر في جسدي على شكل بقع سوداء.. تغطي أنانيتي وترميني في بحور من العذاب والضياع.. كلما أتذكر الحادثة.. أعود إلى ذلك الخجل وأعيشه ثانية.

نقل الماء أو بيعه.. كان عملاً مربحاً في الجزيرة.. ثلاثة من الجيران كانوا يعملون بهذه الصنعة.. أي ينقلون الماء إلى بيوت الجزيرة.. وهم شريف أفندي وأحمد آغا وحافظ.

شريف أفندي أصله من البحر الأسود.. وهو من قاطني الجزيرة الأوائل.. صديق لأبي منذ سنوات طويلة جداً.. كان شريف أفندي مجتهداً.. ينقل الماء إلى البيوت العالية في الجزيرة.. بحمارين معاً دون توقف.. وكان يسكن في منزله تحيطه حديقة أملاك دولة يزرعها بالخضار على يمين منزلنا الذي كنا نسكن فيه. لقد بنى بيتاً مكوناً من طابقين يؤجرهما للآخرين.

وكان عنده ولدان ابن وابنة.. ابنه إحسان من عمري.. وهو الآخر انتسب مثلي إلى المدرسة العسكرية.. وصار فيما بعد جنرالاً.

أما أحمد آغا.. فكان يملك ثلاثة منازل قريبة من منزلنا.. المنزل الأول كان يسكنه مع زوجته الأم فاطمة.. أما المنزل الثاني.. فقد أجّره إلى حافظ.. والمنزل الأخير المكون من طابقين.. كان يؤجره في موسم الصيف.

بدل البيرة بول البغال

بما أن حافظ بدأ متأخراً في تجارة الماء وبيعه.. فهو لا يعتبر غنياً مثل الآخرين.. يسكن بالإيجار.. ولا يملك حظيرة يضع فيها حماره.. بل يضعه في الحظيرة الملاصقة لبيتنا من الخلف.. ولم يكن أبي يأخذ منه نقوداً بدل إيواء حماره.. وبما أن بيتنا فيه حظيرة.. يجب أن يكون لدى صاحبه اليوناني.. حمار أو بقرة.. وربما كان يبيع الماء قبل هروبه من هنا، أو ربما كان ينقل الناس على ظهر حماره من الميناء.

كان حافظ رجلاً ضعيف البنية.. جلده ملصوق بعظامه.. يشبه علبة من العيدان.. كالقوس المشدود.. سريع الانفعال.. شفتاه ناعمتان جداً.. اسمه الحقيقي /توفيق/.. وكان يتمنى أن ينادوه باسم حافظ.. أصله من أذربيجان يتحدث بسرعة فائقة وكلامه ليس منتظماً.. الجملة الواحدة يقولها كأنها كلمة واحدة، والكلمة الواحدة يمدّها وكأنها جملة كبيرة. بهذه المواصفات كان يشبه زجاجة البيرة التي فتحت لتوها وسالت منها الرغوة.. دون نظام.. وكي تفهم ما يقوله.. يجب أن تعتاد الاستماع إلى أحاديثه فهو يخرج حرف الهاء من أعماق حنجرته على شكل /هى/.. ويقول لأبي /شيخ أفندي/ شيه أفندي (لعدم وجود حرف الخاء في اللغة التركية).. كان حافظ يأتي إلى زيارتنا بين حين وآخر.. ويقص علينا ذكرياته عن الحرب العالمية الأولى.. خدم في الجبهة الشرقية مع بداية

الحرب ثم انتقل إلى حرب الصحراء.. وذكر أسماء عدة أماكن سمعتها لأول مرة منه مثل القنال، وسيناء، وغزة.. وقد حارب في تلك المناطق. وكان أبي يحب، حافظ لتطرفه وتعصبه فهو مثله، والشيء الأهم إنه كان يكره مصطفى كمال أيضاً.. في ذلك الوقت كانوا يسمون مصطفى كمال بالغازي. لم اسمع مرة واحدة كلمة الغازي تصدر عن أبي أو حافظ أبداً أو حتى مصطفى كمال.. وإذا ما أرادوا ذكره.. كانوا يسمونه بالأعور أو /الدونمة السالونيكي/ (نسبة إلى مدينة سالونيك اليونانية التي ولد فيها مصطفى كمال).

لم أفهم آنذاك لماذا كان أبي يرى مصطفى كمال عدواً مع أنه اشترك في حرب الاستقلال طوعاً دون أن يُطلب منه ذلك.. تاركاً بيته وزوجته وأولاده. وعرفت فيما بعد سبب ذلك وبعد تفكير عميق.

كان مصطفى كمال قد ذكر قبل حرب الاستقلال «إن غايتنا وهدفنا هما تخليص الخلافة من جيوش الاحتلال». ولهذا السبب تطوع الكثيرون في حرب الاستقلال أمثال أبي.. وبعد أن تخلصت الخلافة كلياً بعد الحرب.. أحسوا بأنهم خُدعوا فحملوا العداوة ضده.

كنت أستمع باهتمام شديد إلى ذكريات حافظ وهو يتحدث عن الحروب التي اشترك فيها. كان يحلف بالقسم العظيم بين وقت وآخر.. ليعتقد مستمعوه أن كلامه عين الصواب.. وليس الكذب.. ولكن عندما عرفت كذِبَ إحدى ذكرياته.. لم أعد أستمع إليه ثانية.

الحادثة التي كانت غير صحيحة بالنسبة لي هي: حسب ما يدعيه إنه كان يعمل مجنداً عادياً تحت خدمة الضباط الألمان.. وكانوا يطلبون منه زجاجات البيرة الموجودة في البراد.. يفكّر حافظ مثل أبي كل قطرة خمر مسكرة حرام.. ولهذا السبب كان يغضب منهم كثيراً.

طلبوا منه في أحد الأيام زجاجة من البيرة.. ذهب إلى البراد.. لم

يجد شيئاً.. عندها أحس بالحرج والحيرة.. ماذا يفعل.. إذا قال لهم ليس عندنا بيرة سيغضبون منه ويعاقبونه.. وليس هناك من مكان يذهب إليه ويشتري لهم البيرة. حمل بعض الزجاجات الفارغة وذهب إلى الاصطبل.. كان يحمل الزجاجات الفارغة ويعبئها من بول الحيوانات.. ومن ثم يضعها في البراد وكلما طلبوا منه بيرة كان يأتي إليهم بزجاجة باردة جداً.. ولكي تظهر الرغوة على الكاسات.. كان يرفع الزجاجة عالياً ويصبها على الكؤوس.. فيشربونها.. بإعجاب صائحين.. أووه ه ه.

كان حافظ يضحك مقهقهاً على مكره هذا. أنا شخصياً حتى ذلك العمر لم أكن قد ذقت البيرة أبداً ومع هذا لم أصدق ما ذكره لنا حافظ..

لقد حاك حافظ هذه الكذبة.. وهو لا يعرف مذاق البيرة ولا مذاق بول الحيوانات.. ولكنه على ما أعتقد كان يشبه البيرة.. ببول البغال لا أقل ولا أكثر. وربما الأحداث التي ذكرها غير هذه الحادثة.. ربما تكون صحيحة ولكني شخصياً عدلت عن الاستماع إليه لأنني وجدته كذاباً.

ولحافظ ولد في عمره الأول اسمه /جاذب/.. كنت أحب الأطفال كثيراً.. حتى أثناء طفولتي. فأذهب بعض الأحيان لبيت حافظ.. لأرى جاذب وألعب معه.

سمعنا أن حافظ ضرب زوجته.. وبسببي أنا. يقال: إنه في ظهر أحد الأيام عاد إلى البيت كي يتناول طعام الغداء.. وأنا عندهم في المنزل وكانت زوجته ترضع ابنها جاذب أمامي.. وأنا أراقب ثدييها. هذه الحادثة لم أتذكرها أبداً، عمد حافظ إلى ضرب زوجته لأنها كانت ترضع ابنها أمامي.. بعد أن سمعنا بهذه القصة.. لم أذهب إلى بيت حافظ ثانية.

أراد والدي أن يبعدني عن ذلك الجو الثقيل والحزين.. أي بعد وفاة أمي وكنت قد سمعت بأنه تحدث مع معارفه بهذا الخصوص.

بعد بطالة طويلة قاسية، تعين العم غالب مدرساً في قرية /بالجيق/.. كان العم غالب بالنسبة لي من أفضل العلماء العاملين والمثقفين البارزين في تركيا (ما زلت أذكر هذا).. شو غالب ذاك الدرويش العملاق والمفكر العظيم يكون معلماً في قرية صغيرة!!.

قرية غيبزة بناء من الطين

أمضيت أكثر من عامين لم أر فيهما العم غالب، ولكن تبقى الأحداث ومواقعها كبيرة ومتسعة في مجال نظرية الطفولة التي نعيشها.. فتتراءى لنا الأمكنة والأزمنة طويلة.. أحسست بأنني لم أر العم غالب منذ مائة عام.

رغبت في قضاء عطلتي.. عند العم غالب في قرية /بالجيق/. لم أعد أتذكر سفري بالقطار، كما لم أعد أتذكر سوى تلك اللوحة الموجودة في إحدى المحطات التي مررنا بها أثناء السفر.. اللوحة الآن أمام عيني.. كتبت بحروف عربية وبدهان أبيض على لوحة سوداء. كان حرف /G/ قد مُدتْ نحو الأسفل بالحروف العربية والكلمة على اللوحة هي / غغوبوزة/.. عندها عرفت أن الكلمة تكتب هكذا وتُقرأ غبزة.. وربما غغوبوزة هو الاسم القديم لغبزة /Gebze/.

هناك عربتان قديمتان تعملان بدل عربات الأجرة توصلان الناس من المحطة إلى /غبزة/. ولكني أتذكر أننا ذهبنا إليها سيراً على الأقدام.. لم تكن هناك واسطة نقل من غبزة إلى قرية /بالجيق/. وأتذكر أنني مشيت المسافة بين غبزة والقرية.. في يوم حار جداً. وأقدامي تغوص في الرمل الناعم في كل خطوة أخطوها.

كان مدخل القرية يمر عبر المقبرة. في وسط القرية مئذنة قديمة مهدمة

منذ زمن طويل.. والجامع نصف مهدم تقريباً. وبدا واضحاً أن الناس لم يدخلوا الجامع منذ وقت طويل. وطيلة بقائي في تلك القرية لم أر أحداً يصلي فيه ولم أسمع صوت الأذان. وهناك غرفتان ملاصقتان للجامع.. إحداهما غرفة العم غالب ينام ويعيش فيها، والأخرى مخصصة للصف المدرسي الوحيد هناك. في داخلها بعض الأخشاب القديمة.. تعلوها طبقة من الغبار.

كان فراش العم غالب موضوعاً فوق مصطبة عالية.. وللغرفة نافذة واحدة صغيرة على شكل كوة كبيرة، ملأى بالكتب وتُعد بالجيق أول قرية أراها.

وجدت أن العم غالب قد شاخ كلياً خلال العامين، الذين لم أَرَه فيهما.. وأنه تقدم في السن أكثر من عشرين عاماً دفعة واحدة.. وقد ضاعت أماله وأحلامه وأفراحه.. وبدأ بكتابة مجموعة من القصائد بعنوان /رمي الحجارة/.

أتذكر أننا خرجنا مرة أو مرتين مع العم غالب إلى سوق غبزة.. وأكلنا /الكباب/.. قرب الجامع المهدم. وشربنا الشاي.. تحت شجرة سنديان وافرة الظلال وكنا جالسين على كراسي صغيرة من القش.. يحيط بالعم غالب مجموعة من مثقفي ومتنوري غبزة. أتذكر واحداً منهم.. كان درويشاً يعمل في إحدى محاكم غبزة يقول عن نفسه أنه كان ضابطاً. والثاني شاعر أو حافظ لمجموعة كبيرة من القصائد الشعرية. كان العم غالب يخرج دفتر الجيب الرخيص من جيبه.. ويقرأ منه الأشعار.

بقي معي بعض الدفاتر الصغيرة من دفاتره.. ها آنا الآن أقلب صفحاتها. وأجد بعض الأشعار التي كان يقرأها تحت تلك السنديانة الكبيرة قبل خمس وأربعين عاماً من الآن.

يا سلطان العوالم

افتح قلبي.. واسيني
لولا العناية والرعاية منك
ما من أحد يخلصني من نفسي غيرك
يا سيدي
افتح قلبي من هذا الجسد
واسيني
هاآنذا أنظر إليك
لا أنظر لأحد غيرك
أينما كنت.. وجهي متجه نحوك
افتح قلبي.. واسيني
كل أعمالي عبارة عن أخطاء وتمرد
واحسرتاه ضاع عمري هكذا
ارحمني يا إلهي.. واعمله عطاء لي
سيأتي الموت شئنا أم أبينا
وطريقي المتبقي هو رضاك
في النهاية سيبقى غالب عبد من عبادك
افتح قلبي.. واسيني

التاريخ المسجل أسفل هذه القصائد هو: ٤/ ٥ تشرين الأول ٣٤٠.

وكان أحد الشعراء من أصدقاء العم غالب هناك.. يكتب الشعر المسمى /الشعر المنثور/.. عندما قرأ الشاعر القصيدة أمام العم غالب.. أعجبته كثيراً.. فأخرج دفتره مباشرة وسجلها.

كان العم غالب يقبض راتباً حوالي خمس عشرة ليرة في الشهر كونه يعمل معلماً في القرية. وعلى الأغلب أكثر بليرة أو بليرتين وأقل من عشرين ليرة. ولكنه حزين من أجل أمه.. وحزنه كان كبيراً لأنه يعيش

بعيداً عنها ولا يستطيع أن يحضرها معه. ولا يرسل لها حتى عشر بارات في الشهر.. ولا يستطيع الذهاب إليها.. للقرية، كونه لا يملك مالاً ليشتري ثياباً جديدة له وهدايا لأمه.

كانت العادة في قرية /بالجيق/ سابقاً.. أن يتناوب الناس في إرسال الطعام إلى إمام القرية.. أو من أراد من الناس خدمة معلم القرية أي العم غالب.. فكان يرسل الطعام إليه حسب الدور الذي وضعه المختار.. الأطفال يحملون الطعام إلى المدرسة بأوان عادية أو ضمن سلال عادية.. طعام الغداء والعشاء.. وعلى الأغلب كان الطعام يأتي بوعاءين.. الوعاء الأول فيه الأكل اليومي والثاني عيران أو ما شابه ذلك مع الخبز. وطيلة إقامتي في تلك القرية لم يرسلوا لنا طعاماً فيه أي أثر للحم أو أي نوع من الحلويات وأعلم اليوم أن قرية بالجيق تصلها طرق مواصلات كثيرة يعمل عليها عدد كبير من سيارات الخدمة وأنها أصبحت قرية غنية إلى حدٍ ما. كان الناس آنذاك يصنعون الخبز بكميات كبيرة يكفيهم عشرة أيام على الأقل.. ولهذا السبب كان الخبز قاسياً جداً يصعب على الإنسان تناوله فهو ممزوج ببعض حبات الرمل. إضافة لذلك يصاب الخبز القاسي بالفطور والعفن.

وفي أحد الأيام ذهبنا مع العم غالب إلى قرية مجاورة. حيث امتطينا ظهر أحد الخيول.. لماذا.. لست أدري.. لم أعد أتذكر تماماً.. ربما كي أتسلى وأقضي بعض الوقت سعيداً.. كان للحصان سرج جبلي يسمى / سمر/ واضطررت إلى فتح ساقيَّ للتلاؤم مع السرج، وتلك كانت أول مرة أركب فيها الحصان.

كان الحصان يأخذني إلى أي مكان يريده.. وزادت سرعته باضطراد فحسبت إنني أطير والحصان من تحتي.. جاء ووقف أمام أحد البيوت في القرية.. حاولت المستحيل حثّه على متابعة سيره إلا

أنه رفض الحراك.. وفي الوقت نفسه لم أستطع النزول أو الترجل عن ظهره.

مر أحد الأطفال من هناك.. نظر إلي وأنا أتحرك فوق السرج.. وبدأ بالضحك، قلت له:

ـ لماذا لا يمشي؟

ـ أجاب الطفل:

ـ طبعاً لن يمشي.

ـ لماذا؟

قال: لأنه وصل إلى المكان الذي يريده.

فاتضح لي أن الغرفة التي وقف أمامها هي حظيرته.. وبما أنه لا يحسبني راكباً عادياً على ظهره زاد من سرعته حتى وصل إلى حظيرته ووقف هناك.. نزلت وترجلت من على ظهره بمساعدة الصبي الذي يكبرني حجماً وعمراً.. كان السرج كما أسلفت آنفاً قد آلم ساقيَّ.. واستمر الألم على مدى عدة أيام. وبدأت أمشي بشكل غير متوازن طوال فترة بقاء الألم في ساقيَّ.

لم يكن العم غالب هو العم غالب القديم الذي أعرفه جيداً.. لم يكن يهتم بي أبداً.. ولا يعطيني دروساً.. لقد أضحى شخصاً يائساً سوداوياً. منغلقاً على نفسه.

جاء أبي إليَّ وعدت معه.

الهرب من المدرسة

كنت أهرب من المدرسة بين وقت وآخر.. وأختلق الأعذار حيث أقول لأبي إن المدرسة في عطلة رسمية.. كان والدي يصدقني دائماً.. لأن ثقته بي كبيرة جداً.. يصدق كل ما أقول له.. ازداد هربي من المدرسة كجميع الأطفال.. في بداية الأمر.. كنت أنوي الغياب أو

الهرب يوماً واحداً في الأسبوع.. ولكن عندما أهرب في اليوم الأول أعيد الكرة في اليوم التالي وهكذا..

كنت أخرج من البيت على أنني ذاهب إلى المدرسة.. ألهو هنا وهناك لبضع ساعات ثم أعود.. وعندما يسألني أبي عن سبب عودتي.. كنت أقول له: إن المدرسة معطلة.. وكأنني لم أسمع العطلة عندما أخبرونا إياها.

كنت أهرب من المدرسة الداخلية التي أدرس فيها.. لأنها مخصصة للأيتام.. وللأولاد الذين لا آباء لهم.. أما أنا فعندي أب. وسيأتي ذات يوم يكتشفون فيه أن لي أباً.. وعندها سيطردونني من المدرسة، وأصاب بالإحراج أمام زملائي ومدرِّسي. ولهذا السبب كنت أخاف كثيراً من مجيء ذلك اليوم.

لقد ملأ الخوف أعماقي كلها.. بدأ بشكل عفوي «عندما جاء أبي».. «رأيته فجأة».. وكنت أردد ذلك.. وأعود إلى ترميم كلماتي.. كانت هذه العملية تحصل معي في كل يوم عدة مرات، وخاصة بين زملائي.

في أحد الأيام زلَّ لساني بعدة كلمات عن أبي.. عندها سألني أحدهم وكان اسمه فكرت.. فحملق بعينيه وقال:

ـ هل عندك أب؟

ـ لقد أصبحت في موقف حرج للغاية بحيث لا أستطيع وصفه، بالكلام.. احترت فيما سأقوله. طفح الاحمرار في وجهي. وتلعثم لساني بكلمات لا معنى لها.

هل هناك من ألم يصاحبه حزن وأسى لطفل صغير مثلي.. ينكر وجود والده الذي يحبه ويقدره.

ماذا عليَّ أن أقول لفكرت؟ أُفضل الموت على أن أقول له والدي بالتبني أو زوج أمي.

هكذا.. كنت أهرب من المدرسة دائماً مغموراً بهذه الأوهام المصحوبة بخوف لا يطاق.. وفي نفس الوقت.. ما تزال كلمات أمي التي قالتها وهي على فراش الموت ترن في أذني «بما أن ابني يدرس في مدرسة داخلية.. لن أموت مفتوحة العينين».

كنت أتمنى التعلّم، وفي الوقت نفسه أهرب من المدرسة.. أصبحت أمام طريق مسدود. حيث لا أجد لنفسي طريقاً يخلصني مما أنا فيه.

وهكذا بدأت حياتي المأساوية في ذلك العمر.

كان أبي يثق بي ثقة عمياء، ولهذا السبب لم تكن الشكوك تعتريه على إنني أهرب من المدرسة. وأساتذتي في دار الشفقة أيضاً كانوا لا يشكون في أمري لأنني كنت أكتب لهم رسائل مزيفة.. وأنا الطالب المجد المحبوب.

كنا في شهر رمضان.. والوقت شتاء. رمضان الماضي لم أستطع أن أنساه.. في دار الشفقة. ويعتبر رمضان شهراً رائعاً.. الجميع يسامحون بعضهم البعض، المعلمون يتصرفون معنا بالعطف والمحبة.. لا خشونة.. لا عقوبة.. لا درس.. مسامحة على مسامحة نلعب ونجري حتى السحور.. وننام بعد تناولنا طعام السحور ونظل نائمين حتى الظهيرة. نتخلص من الاستيقاظ الباكر وخاصة في أيام الشتاء الباردة. قبل شروق الشمس.

ولكنني هذا العام قضيت أكثر ليالي رمضان في المنزل لأنني كنت أهرب من المدرسة.

هناك جامع واحد في جزيرة /هيبلي آدا/ كان الذهاب إلى الجامع وخاصة في ليالي الشتاء القاسية لأداء صلاة التراويح وصلاة الفجر صعباً جداً.

بدأنا نصلي التراويح في منزل بائع الماء أحمد آغا.. طبعاً بتكرم من أبي لأن حارتنا كانت بعيدة عن الجامع.. يقدَّر عدد الحضور.. لصلاة التراويح بعشرة.. أو خمسة عشر شخصاً.. يصلي والدي إماماً. أما أنا

فأصبح مؤذناً.. أصعد فوق تلك المصطبة العالية أمام منزل أحمد آغا وأنادي بآذان العشاء.

كان مؤذن الجامع المسمى /فياض/ يتأنى.. يعلك الكلمات علكاً.. ويتحدث بصعوبة بالغة.. ولكن صوته كان جميلاً جداً.. لم يكن يتأنى عندما يؤذن أو يقرأ المصحف الشريف.

في الوقت الذي كنت أقف فيه فوق المصطبة أمام منزل أحمد آغا.. مؤذناً لصلاة العشاء.. كنت أصرخ بملء صوتي ليسمعني كل أهل الجزيرة.. في بادئ أمر حسبت صوتي جميلاً مثل صوت المؤذن فياض. ولكن بعد فترة فهمت من خلال همسات الجيران.. أن صوتي قبيح جداً.. وأنهم لم يستسيغوا سماعه أبداً.. وكانوا على وشك إسكاتي مع أنهم كانوا معجبين بصوتي عندما كنت طفلاً صغيراً.

وعلى الأغلب لم يكن صوتي يعجبهم.. ولكن طفولتي هي التي كانت تعجبهم.

الأم فاطمة

أحمد آغا.. إنسان بسيط.. قلَّ أن يتحدث مع الآخرين.. فهو رجل بسيط بكل معنى الكلمة. أما زوجته فهي امرأة زنجية.. طيبة القلب كثيراً.. نظيفة ومرتبة في كل الأمور.. الجميع ينادونها بالأم فاطمة.. تحمل في داخلها كل خصائص ومزايا الأم الحقيقية.

ولهذا السبب ينادونها بالأم فاطمة وهو اسم مناسب لها.

لم يكن عندها طفل.. ولكنها تحب أطفال تلك المنطقة وكأنهم أولادها الحقيقيون.. وحبها لي أكثر من الأولاد الآخرين.. وربما كان الآخرون يظنون أو يحسبون أن الأم فاطمة تحبهم أكثر من كل الأطفال وربما شفقتها عليَّ أكثر لأن أمي ماتت.. كانت تجهز هدايا العيد التي ستعطيها للأطفال قبل وقت طويل.. عندما يأتي

العيد.. تبدأ بتوزيعها على كل من يأتي ويقبل يدها.. مهما بلغ عددهم.

والأم فاطمة هي المرأة الوحيدة التي تحاول جاهدة أن تنسيني أمي.. لقد خُطَّ وجهها بثلاثة خطوط من آثار جرح.. لا نعلم من أي قبيلة في أفريقيا.. جرحوا خدها بآلة حادة.. حتى يزينوا وجهها ويزرعوا فيها الجمال. كنت أشبِّه الخطوط الموجودة في خديها بخطوط الأرغفة الطازجة.. الخارجة لتوها من الفرن.. مثل خط في رغيف أسود.. ناضج. عندما تضحك. كانت الخطوط تتوسع وتتوزع على خديها.. وبسبب الخطوط الضاحكة تلك تبدو ضحكتها مؤثرة جداً.. وخارجة من أعماقها.. طيبة الحديث جداً لم أتعرف إلى امرأة أخرى متكلمة مثلها.. كان غطاء رأسها يتدلى على كتفيها وظهرها وصدرها، اللون الأبيض كان مسيطراً على منزلها.. ستائره من بياض العلكة.. وبياض الكريم لدانتيل الستائر.. الوسائد الصغيرة مغطاة ببياض آخر.. حتى غطاء الطاولة أبيض.. الجدران وغطاء رأسها والمسبحة الصدفية التي تحملها في يدها كلها بيضاء.. وكأن سحابة سماوية قد دخلت من إحدى نوافذ منزلها وأحالت كل شيء إلى لون أبيض.. وخرجت من النافذة الأخرى ضاربة أجنحتها مبتعدة عن بيت الأم فاطمة.

كان بياض أسنانها وغطاء رأسها يعطيان سواد العتمة لبشرة جلدها الأسمر المائل إلى السواد.

بعد ذلك فكرت كثيراً بسبب حبي الكبير للأم فاطمة.. كنت أحبها لأنها لم تحسبني ولداً صغيراً، تتصرف معي وكأنني من عمرها. تماماً كما كانت أمي تفعل.

حتى الآن إذا أكلت بطيخة لا أَرمي بزورها على الأرض حتى ولو أكلتها في المطاعم.. بل أتسلى بكسرها وأكل محتوياتها وهذه العادة

بقيت معي من الأم فاطمة. عندما كانت تقطع البطيخة في منزلها.. ترفع البزور فوراً وتصفيها من مائها وتضعها فوق ورقة نظيفة وتنشرها على النافذة حتى تجف.

في الطابق الثاني من الغرفة مصطبة طويلة لها نافذتان تطلان على البحر. كنت أجلس أمام إحدى النافذتين.. بينما تأي أختي بعض الأحيان وتتسلى بكسر البزور التي جفّفتها الأم فاطمة تحت الشمس.. كنا نأكل منها الكثير حتى تتجرّح رؤوس ألسنتنا ونحس بآلام حادة.

كنا دائماً نتجاذب الأحاديث.. لا أتذكر الآن نوعها بعض الأحيان أنظر إلى وجه الأم فاطمة وأطير في عوالم مختلفة.. أفكر وأقول: يا ترى من أيٍّ قطعة من أفريقيا السوداء جاءت الأم فاطمة.

حرص الأم فاطمة

هل كانت تتذكر أمها وأباها وإخوتها؟ هل علقت في ذاكرتها مشاهد معينة: أشجار، صخور، أنهار يا ترى؟ هل كانت تعاودها تلك الأماكن والمشاهد في أحلامها؟ كيف جاءت إلى استانبول.. وأين ترعرت وكبرت؟ من علمها يا ترى كل هذا النظام الاستانبولي؟ من علمها كيفية المناقشة الجذابة.. وطهو الأطعمة اللذيذة؟ وخاصة كيف تزوجت من هذا المسمى أحمد آغا؟ الجميع يرون أن أحمد آغا لا يليق أبداً بالأم فاطمة ولا يناسبها.. إذا كان أحمد آغا يملك ثلاثة بيوت فهذا بفضل تصرفات الأم فاطمة وتعاملها النظامي مع المدخول والمصروف.. وإذا كان لأحمد آغا أصدقاء كثيرون فذلك لرقة وعذوبة الأم فاطمة وطريقة تعاطيها مع الآخرين.

بينما كانت الأم فاطمة تصلي.. كنت أكسر حبات البزر، وأراقب البواخر وهي تمخر عباب البحر الهادئ مخلفة فوقها

خطوطاً بأشكال مختلفة.. أثناء تجوالها وهي ترسم طرقاً على سطح البحر.

ذات يوم انقلبت دنياها البيضاء إلى سوداء، وانعزلت عن العالم.. وأصبحت لا تتحدث مع أحد من معارفها.

ففي ذلك الصيف.. انتقل إلى البيت الكبير الذي يملكه أحمد آغا.. رجل وزوجته، كانت المرأة جميلة إلى حدٍ ما.. وتضع المكياج على وجهها وتزين نفسها كثيراً، كانت العادة في الجزيرة.. أن صاحب البيت يقبض أجار المنزل سلفاً.. ولسبب غير معروف.. فأحمد آغا لم يأخذ أجار المنزل من الزوجين سلفاً.. وهو الرجل البخيل إلى حدٍ كبير، وسمعنا أن المستأجرين لم يعطوه الآجار.. ولم يغادروا المنزل، حتى بعد انقضاء الصيف، وأن أحمد آغا.. كان يذهب إلى الزوجين بين وقت وآخر ليطلب ماله.

في كل مرة يذهب فيها إلى هناك.. كان يطيل المكوث. في أحد الأيام وبينما كان أحمد آغا هناك.. ذهبت الأم فاطمة إلى الزوجين، دون علم بوجود زوجها عندهم فلو عرفت أنه هناك لما ذهبت، كانت امرأة حساسة وتملك قدراً كبيراً من الكرامة.

الخجل من الناس

كانا قد تركا باب البيت مفتوحاً.. عندما رأت الأم فاطمة زوجها ينام مع المستأجرة.. عادت من حيث أتت دون أن تتفوّه بكلمة واحدة، بقيت الأم فاطمة لا تتحدث حتى بعد مرور سنوات طويلة على تلك الحادثة. ما لاحظته شخصياً أن الأم فاطمة، كانت لا تستطيع أن تتخلص من ذلك الموقف المخجل، ولا النظر إلى وجه أحد من الناس.. لم تذكر تلك الحادثة القبيحة لأحد، لكن الناس علموا بالعلاقة بين أحمد آغا وتلك المرأة، فلو أن الناس لم يسمعوا بها.. لربما كانت الأم فاطمة قد

عادت إلى حياتها الاعتيادية بعد مضي بعض الوقت.. لكن الجميع سمعوا بالحادثة.. ولم تكن الأم فاطمة تريد التحدث مع الناس أو النظر في وجوههم. حتى أن ستائر نوافذ منزلها ظلت مغلقة.. من يدري.. كيف أحست بهذا السقوط.. تحطمت الدنيا على رأسها وهي الأميرة السمراء.. الزنجية القادمة من أفريقيا.. الكريمة.. وخاصة مع الأطفال.

كيف وقعت فريسة للخجل أمام الناس، بعد تلك الحادثة عاشت في عزلة عن العالم كله.

عندما كنت أراها ساكتة.. هادئة منطوية على ذاتها.. كنت أحس بالذنب.. وكأنني شخصياً من سبَّب لها هذا الشيء.. أصبحت لا أذهب إلى بيتها كما هي العادة.. حتى صرنا غرباء عن بعضنا.

حياة تقشّف

كنا نعيش في السنوات العجاف.. السنوات التي خرجت فيها تركيا من الحرب مهبطة الجناح.. مقيدة بسلاسل الفقر.. وفي الوقت نفسه. في السنوات التي قصمت الحرب ظهر الاقتصاد الأميركي.. وتأثيراتها على العالم. كانت البطالة والفقر والحاجة قد اجتاحوا البلاد بكاملها. وأكثر البيوت المسحوقة تضرراً بهذا المستنقع الأسن.. كان بيتنا.

لقد هبطت الضائقة الاقتصادية علينا بشدة.. خاصة بعد وفاة أمي. لم يكن لأبي عملٌ معينٌ.. وظل كذلك حتى موته.. ولهذا السبب لم أستطع أن أقول أن أبي عمل في تلك الأيام ولمدة قصيرة بستانياً لأحد القصور.. كان يذهب يومين في الأسبوع إلى القصر.. يسقي حدائقه وينظفها ويعتني بها.. عندما يأتي الشتاء.. يتوقف عن العمل.

أعتقد أن أبي حاول المستحيل.. وقدم كل ما يملكه قبل وفاة أمي. حتى لا تشعر أننا نعيش ضائقة. أي أن قوة والدي قد انتهت تماماً من

حيث التدبير والحكمة وإيجاد الفرص المناسبة لجلب المال. وكل ما كان يملكه أنفقه من أجل أمي.

يستيقظ والدي باكراً في كل صباح ويخرج من البيت.. وكأن له عملاً نظامياً يداوم فيه. يصعد إلى نفس الباخرة في نفس الساعة ويذهب إلى استانبول، ويعود إلى البيت في نفس الباخرة ونفس الساعة المسائية، وهو يحمل في منديله الملون الكبير الأطعمة والفواكه.. كان يشتري كل شيء من استانبول لأن أسعارها أرخص من أسعار الجزيرة.. يحضر معه ثمار البطيخ المتشققة والمتعفنة من إحدى أطرافها وحبات العنب التي تساقطت من عناقيدها.. تلك الحبات اللذيذة.. والتي كنا نسميها /كرمة الجاويش/. وحبات البندورة المسحوقة والمتعفنة وكل ما يخطر على بالك من الضروريات الحياتية اليومية، حتى الخبز.. كان يُحضره معه من استانبول في أكثر الأحيان. فالخبز الذي مضى على خبزه وقت طويل يباع في استانبول بعشر بارات أو عشرين بارة أو بقرش واحد.

وكان يقول: إن الخبز غير الطري مفيدٌ لمعدتنا كثيراً، لكنه لم يأكل خبزاً طازجاً أبداً، مع أنني شخصياً كنت أحب الخبز الطري.. الساخن جداً.

لم نكن نأكل البندق والفستق والشوكولاته.. ولكننا نستبدلها بالبطيخ وبزوره، أخرج وأختي إلى البراري ونجمع الأعشاب مثل الخبيزة والهندباء وأعشاباً أخرى كثيرة لم أعد أذكر أسماءها.. نصنع منها سلطة وبعض الأحيان نطهوها مع البرغل، وفوق ذلك كله نجمع الفطر.. ونعرف السام منه بسهولة.. ونجده خاصة داخل الغابة الكثيفة.. تحت أشجار الصنوبر.. أي الأراضي الأكثر رطوبة. نخرج الفطر من تحت الوريقات الإبرية الجافة.. المتراكمة تحت الأشجار ونحمل منه سلة مملوءة إلى البيت. كنت أحب أكل الفطور المشوية، وقطرات الماء تسيل منها فوق النار.. كما تسيل الشحوم، من أسياخ اللحم عند شوائها.. حزنت

كثيراً عندما ذكر لي أحد المعلمين أن نسبة الحريرات التي يأخذها الإنسان من خمسة كيلو غرامات تعادل نصف الحريرات التي يأخذها الإنسان من ٢٠٠ غرام من اللحم، حتى الحطب الذي نريد استعماله في الموقد والمدفأة كنا نأتي به أنا وأختي.. نجمع أغصان الصنوبر الجافة وخاصة ثمارها فتشتعل مصدرة أصواتاً مألوفة.

كنا نربي دجاجاً وديوكاً رومية.. يُحضر أبي معه العلف من استانبول للدجاجات أما الديوك الرومية، فكان يطعمها /البلوط/. لكثرة أشجاره في الغابة. كنا نجمع حباتها بالأكياس ونحملها إلى البيت.. لم تكن الديوك الرومية تأكل البلوط. حتى ولو أرادت أكلها فلا تستطيع أكل الحبة الكبيرة.. كنا نمسكها ونفتح منقارها وندخل الحبة بقوة في بلعومها. ثم نراقب حركاتها وهي تهبط في بلعومها وسط رقبتها الطويلة.. الديوك الرومية تسمن وتكبر بهذه الطريقة التي استخدمها والدي، كانت الدجاجات الرومية تنمو بسرعة.. أما العناية بفراخ هذه الدجاجات فهو صعب جداً.. كانت رقابها تتشقق من الشمس لانعدام الريش عليها، ولهذا السبب تُدهن الأماكن الخالية من الريش بالزيت.

وكنا نبيع بيوض الدجاجات والديوك الرومية.. كان المصابون بداء السل كثيرين.. لأنها أشبه بمصح لقضاء بعض الوقت من أجل التداوي وتغيير الهواء.. ولأن البيض الطازج غذاء يومي مناسب لمرض السل، فهو يباع بأسعار عالية.

كان الباعة يحضرون إلى الجزيرة حاملين معهم الفواكه والخضراوات من الموانئ المقابلة.. كنا نشتري الفواكه الرخيصة من هؤلاء الباعة وعلى كل حال، وبسبب الفقر، اضطررنا العيش بتقشف، واستحداث طرق متنوعة للدخل.

وبما أن المياه غير متوفرة في الجزيرة.. فكانت البيوت تستعمل

الصهاريج أو الخزانات الأرضية (الآبار). لم يكن الصهريج موجوداً في بيتنا الصغير.. ولم نكن نشتري المياه من الباعة الذين كانوا يبيعونها على ظهور الدواب، كنا ننقل الماء من المنبع أو الصنبور الموجود في ساحة الميناء بأوعيتنا النحاسية الكبيرة.. الطريق، وعرة قاسية.. ولاختصارها أكثر كنت أختار أصعب نقطة منها لأصل إلى البيت.. لم يكن تقصير الطريق وحده فقط سبباً لاختياري له.. بل حتى لا يراني زملائي وأنا أنقل الماء إلى البيت.

ولهذا كنت أسلك من تلك الطريق القاسية /طريق العنزات/.. وأنا أحمل الوعاء النحاسي الكبير المملوء بالماء.. أقربائي وأصدقائي الذين أعرفهم كلهم أغنياء يلبسون أحسن الثياب.. وعندما يعطشون.. لا يشربون الماء إلا من أيدي الآخرين.. كانوا يطلبون الماء من الخادمات والأخوة بالتبني.. حتى من أمهاتهم، ولكنهم لا يقولون مثلنا: «أعطني قليلاً من الماء»، بل يقولون.. هل تسمح بقليل من الماء.. بسبب تربيتهم الخاصة، كانوا يرددون مثل هذه الأسئلة التي لا أجوبة لها ومضمونها الأمر.. ليس إلا.. أما إذا كان الطلب من الأم. فيستعملون كلمة رجاءً ولا ينسونها: «رجاءً هل تسمحين بقليل من الماء يا أمي». لم يكن عندهم آباء مثل أبي.. كانوا يودعون آباءهم باي با باي أختي.. كان تصرفهم هذا يحيرني.. كيف يقولون لآبائهم /باي با/ وكأن /باي با/ تجعلك غريباً عن أبيك الفعلي، كنت أغضب منهم لتصرفهم المصطنع.. ولهذا السبب وحده أختار تلك الطريق الوعرة وأنا أحمل وعاءين في يدي.

أشكرك يا أبي

طبعاً لم أكن أعلم بما تقدمه الفاقة والعوز لي من القدرة.. والقوة والتحمل آنذاك، كانت الحياة بالنسبة لي نوعاً من الحروب التي لا قدرة

لي على تحملها، ونوعاً من السباق العنيف والطويل الذي لم أعرفه ولم أرغبه. كانت الحروب الدائرة من حولي.. قد أحاطت بي من كل الجهات.. وزرعتني وسط أتونها. لا أريد الهزيمة بسهولة لأحد حتى ولا للحياة ذاتها.. بدأ سباقي مع الوعاءين النحاسيين الكبيرين. اللذين كنت أنقل الماء بواسطتهما إلى المنزل.. أمام أولاد الذوات الذين يسبقونني وجاهة ومادياً واجتماعياً.. وجب عليّ أن أصفق بأجنحتي وأسبقهم جميعاً في معركة هذه الحياة. ولكنني فهمت حقيقة القدر التي زُرعت فيّ وأنا أنقل الماء بالوعاءين النحاسيين. كان يجب أن يمر أكثر من ثلاثين عاماً.. حتى أعي حقيقة تلك القوة والتحمل.. وتوصلت إلى الحقيقة عندما أصبحت كاتباً.. حيث كتبت مقالة في جريدة /أقشام/ أتذكر منها الفقرة التالية: «يتراءى لي يا أبي أن حبي لك أكبر وأقوى كثيراً من حب كل الأبناء لآبائهم. حبي لك.. حب من نوع آخر.. حب سرمدي.. خلصتني من كثير من المصائب والمشاكل.. ولهذا السبب أشكرك كثيراً.. لو كنتَ غنياً! لكان اسمي أمام اسمك نوعاً من العبث.. لن يذكره، أحد قبل ذكر اسمك أبداً.. أنا أشكرك جزيل الشكر يا أبي».

أثر الجرح الثاني على جبهتي

في أحد أيام الصيف اتجهت نحو البحر وحيداً من ذلك الشاطئ الصخري المسمى بالشفق. لم يكن لبس المايوه منتشراً آنذاك بين الأولاد. حتى أن بعض الأغنياء منهم كانوا يسبحون بسراويلهم الداخلية.

نزلت الماء ثم خرجت مباشرة منه، وجلست أراقب البحر والحوض المائي الضيق الموجود بين الجرفين الصخريين المدببين، أخذت حصتي الزائدة من حرارة شمس ذلك اليوم الصيفي القائظ. بحر هادئ شفاف..

برّاق.. يخيّل للإنسان أنه يستطيع إحصاء حبات الرمل في قاعه حيث قطعان من الأسماك الصغيرة تدور هنا وهناك ترسم خطوطاً متعرجة في كل حركة جمبازية بأجسامها الصغيرة.. ومقابل الجزيرة الكبيرة سمعت صوتاً يقترب من الخلف.. امرأة وفتاة.. جاراتنا.. رأيت مناشف البحر.. أمامهن.. الفتاة تصغرني بعامين تقريباً.. أخوها صديقي.. كانت فتاة شقراء جميلة.. لم يكونوا أغنياء.. ولكنهم يعيشون حياة نظامية سعيدة موزونة بالعمل المتواصل الذي يقدمونه.

عندما رأيت الأم والفتاة.. تحركت من مكاني.. وقفت على قدميَّ أعرض لهن نفسي.. تمنيت أن تشاهداني.. وأنا أحاول القفز إلى البحر من فوق هذه الصخرة.. حتى يحترن في أمرهن. ويقلن عجيب أمر هذا الغلام.. إنه ماهر في السباحة والقفز من فوق الصخور.

كأن البحر لم يكن موجوداً في الأسفل.. فهو أشبه بمرآةٍ تعكس السحب التي تعبر السماء... قفزت فوق هذه المرآة على رأسي كما يفعل السباح الماهر وشعرت أنه انكسر وتحطم، فاندفعت.. قطرات الماء نحو الأعلى، لقد قفزت إلى البحر بقوة.. لأبين قدرتي وشجاعتي للفتاة.. وإذا بجبهتي تصطدم بالحجارة داخل الماء، خرجت من البحر، وشعرت بمادة لزجة حارة تنساب على وجهي.. وضعت كفي على جبهتي.. ماذا أجد..؟ إنه الدم الأحمر القاني يملأ وجهي لم آبه له: قبل كل شيء، يجب أن أعرف هل شاهدت الفتاة وأمها هذا الموقف المضحك المبكي يا ترى؟ هل سخرتا مني؟ رفعت رأسي نحو الأعلى.. فلم أجد أحداً لقد غادرتا المكان منذ وقت طويل. وربما لم تشاهدانني أبداً. لم يتوقف نزيف الدم في جبهتي.. أسرعت إلى البيت، في البداية وضعت على الجرح ملحاً.. ثم تبغاً.. حماقة الطفولة الجميلة هذه ما تزال على جبهتي حتى الآن.

اصعد الآن تلك الطلعة القاسية وأنا أحمل الوعاءين النحاسيين المملوءين بالماء. كلما شعرت بتعب في ذراعي أضعهما على الأرض وأرتاح بعض الوقت.. أحملهما ثانية بقوة جديدة.. في كل مرة يصطدم الوعاء بفخذي فيسقط المياه من الفوهة على حذائي.. أسمع صوت خروج الحذاء من رجلي، فيرت.. فيرت جراء المياه النازلة من فتحة الوعاء.. وكلما اصطدم بحجرة كبيرة أتعثّر.. فلو مددت ساعدي بعض الشيء سيكون حملهما سهلاً ولكن عبثاً.. بما أن قامتي قصيرة.. وإن تركت ساعديّ على راحتهما سيصطدم أسفل الوعاءين بالأرض، وعندما أرفع ساعدي نحو الأعلى كي لا يصطدم الوعاء بالأرض أحس بثقلهما كثيراً ويزداد تعبي.

لا أريد أن يعرف الناس إنني مرهق وتعب.. لأنني شاب.. طويل عريض. في الثانية عشرة من عمري.. هكذا أقول في نفسي.

رفعت رأسي.. ماذا أرى.. الفتاة وأمها.. عندما رأيتهن أحسست بخجل كبير. تركت الوعاءين على الأرض. وأغلب الظن أني وضعت أحدهما في مكان مائل.. وإذا به ينقلب.. لم أرفعه لست أدري لماذا.. ربما تشاهدانني وتعاتبانني على هذا العمل الذي أقوم به.. كنت أسمع صوت الماء يسيل من الوعاء ببطءٍ شديد.. بقيت جامداً حتى فرغ الماء في الوعاء.. كانت التربة الحمراء الساخنة.. تمتص الماء المنسكب من الوعاء مباشرة.. مرت الفتاة وأمها من أمامي.. وكأنهما لم تشعرا بوجودي.. رجعت ثانية إلى الصنبور وملأت الوعاء.. عدائي كله كان منصباً على الوعاءين لأنهما كانا رمزاً لتلك المواقف المخجلة.

المحفظة المليئة بالنقود

مع بداية الخريف، عاد المصطافون في الجزيرة إلى منازلهم في استانبول، ولم يبق منهم سوى الأعداد القليلة. أما المصطافون القاطنون

في البناية الكائنة إلى يسار منزلنا.. والمكونة من ثلاثة طوابق.. لم يعودوا إلى استانبول.

في أحد الأيام كنت جالساً تحت العريشة التي تغطي مدخل منزلنا.. كان مستأجر تلك البناية.. عائداً كعادته إلى منزله مساءً ممتطياً حماراً. وصاحب الحمار.. شخص يوناني مكتنز بدين، عجوز يجري محاولاً اللحاق بالحمار وعندما يلحق بالحمار ينهزه من الخلف ليسرع في السير.

كنت أغضب كثيراً من أولئك الذين يركبون الدواب ويصعدون تلك الطريق القاسية. أشاهدهم كل يوم أكثر من خمس مرات.. وأتساءل لماذا هذا العمل الخالي من الرأفة؟ الدابة تصعد دون حمل بصعوبة بالغة.. فكيف لها الصعود ويمتطيها إنسان يزن أكثر من ثمانين كيلو غراماً، ويجر خلفه إنساناً آخر. هذا أمر يثير اشمئزازي.

أعتقد أن الرجل الذي يمتطي الحمار هو تاجر رومي يعمل في أحد الموانئ، وربما لم يكن تاجراً، فأنا الذي أحسبه كذلك.

وصل اليوناني الذي كان يمتطي الحمار أمام منزله.. لم يترجل عن ظهره حتى قدوم صاحبه لمساعدته. وبينما يصعد درجات الزقاق بدأ بالبحث عن شيء ما في جيوبه.. ربما كان يبحث عن أجزاء قطع صغيرة من النقود.. وعندما لم يجدها أخرج محفظته من جيبه الداخلي وأعطى صاحب الحمار نقوداً ورقية. فيعيد له الرجل ما تبقى له من النقود. أخذ صاحب الحمار حماره من رباطه ولم يمتطه علّه، يكون مرهقاً. عندما رفع التاجر اليوناني يده ليرن جرس الباب سقطت المحفظة.. ربما لم يُحكم وضعها في جيبه الداخلي. فتح الباب.. ودخل بيته. المنزل لا يبعد عن منزلنا أكثر من خمسين متراً.. لقد رأيت هذا الحدث بكل تفاصيله لحظة.. لحظة.

أسرعت إلى منزل جارنا.. وقرعت جرس الباب مع يقيني أن التاجر

اليوناني لابدَّ أن يكون قريباً من الباب.. لقد فتح الباب بنفسه.. فأشرت بيدي إلى المحفظة الملقاة على الأرض، انحنى والتقطها.. كانت محفظة دسمة.. مليئة بالنقود.. لم أغادر المكان.. انتظرت عله يعطيني بضعة قروش.. عدَّ التاجر نقوده. وعندما عرف أنها كاملة وغير ناقصة وضعها في جيبه وشكرني.. ودخل منزله وأغلق الباب خلفه.

وهو الباقي

يقال: أنه بحسب العادة يجب على الإنسان أن يتحلى بالصبر قبل أن يُرمم قبر أمه أو أبيه أو أي إنسان آخر.. حتى ينهار القبر تماماً. أصرَّ أحدهم على بنائه ثانية، الجدران ستنهار فور ارتفاع البناء ثانية.. هكذا كانوا يقولون.. انتظرنا شتاءً كاملاً كي نُرمِّم مرقد أمي.. مع بداية الصيف.. أحضر والدي الرمل والحجارة والإسمنت.. وأخذ معه عاملين لبناء الجدار حول القبر.

هذه الحادثة أو الذكرى التي أكتبها للمرة الأولى بدت لي أنها غير صحيحة وأنا مخطئ في ذلك.. عندما قرأتها مرة ثانية حاول اللاشعور أن يختار الشيء وفق معطيات الشخص. أو على شكل يناسب محتوى الحادثة التي نود ذكرها. ويقوم (أي اللاشعور) بمسح بعض الذكريات ويبدل من وضعها. أي أنه يقوم بتغيير ومحو بعض الأحداث والذكريات التي تحوي في مضمونها بعض الإسقاطات الشخصية والتي تحط من شأن الإنسان وقيمته ويفصِّل الأحداث أو الذكريات ثانيةً كما تناسبه.. مثلاً.. هنا أقول أو أذكر أن والدي تعاقد مع بنّاءً ليقوم في ترميم قبر أمي.. وعندما بدأت بقراءة ما كتبته.. وجدت وبعد تفكير شديد أن الأمر لم يتم هكذا. الظاهر أن اللاشعور عندي قد أراد مطاوعتي، لأنني شخصياً..

كنت أتمنى وأريد أن يظهر قبر أمي جميلاً ولهذا السبب حصل التبديل فيه. والحقيقة ليست كما كتبت بل إن أبي بنى قبر أمي بنفسه من الخارج.

هذه الذكرى الصغيرة.. تركت لدي شكاً في أن ما نكتبه.. مهما كنّا واقعيين وحقيقيين.. ومهما كنّا متوازنين في كتابتنا فالشعور واللاشعور عندنا يقودان للسقوط في بعض الإشكالات.. حيث نفكر.. في موضوع الأحداث.. إذا كانت قد حدث بهذا الشكل أو بغيره.. وهذا ربما من أن اللاشعور قد حاول جاهداً على زيادة مساحة الشعور وإعطائه قيمة وفق طلباتنا.. ويبدل الأحداث.. خارج إرادتنا. وعندما نظن أننا نعطي الصورة الصحيحة الكاملة من كل أعماقنا نسير خلف طلبات اللاشعور.. ونكتب وفق هواه. وسأحاول جاهداً، أن أركز على كل الأحداث الصغيرة والكبيرة، حتى أكتب الصحيح والجيد وأقول الحقيقة الكاملة.

أتذكر الآن، أن والدي قد اشترى من حارس المقبرة قطعتين من الحديد وحجرتين من أحجار القبر الخاصة.. وكان من الواضح أن قطع الحديد التي استخدمها كانت من قبر قديم.. باعها الحارس لوالدي بسعر بخس جداً. كان الحديد ملتوياً إلى حدٍ كبير وظل والدي مدة طويلة لإعادته لوضعه المستقيم.. إحدى الحجارة نقش عليها شكل وردة وأخرى مكتوب عليها بطريقة الحفر. فعمل أبي على إزالة الكتابة بمبرد حديدي قاسٍ.

شاهدة قبر أمي.. أنا من سيكتبها.. ربطت قلمي رصاص ببعضهما جيداً.. وذهبت إلى المقبرة، وبواسطة القلمين كتبت على الشاهدة الرخامية وفق إرادة أبي بخط الثلث عبارة /وهو الباقي/.. لقد كتبتها بحروف عربية.. وإلى أسفل هو الباقي... كتبت أيضاً وبخط الرقعة اسم

والدتي المرحومة /حنيفة حوا/. مع تاريخ ولادتها ووفاتها.. وإلى الأسفل الفاتحة على روحها.

كان والدي قد أحضر معه بعض الأدوات مثل المطرقة والأزميل وبعض الأشياء الأخرى.. حتى يحفر الكلمات على الشاهدة الرخامية.. الكلمات الظاهرية التي كتبتها بالقلم الرصاص.. حفرها هو بعدته وأدواته.. استغرق هذا العمل أياماً طويلةً.. طبعاً النهاية أو النتيجة لم تكن ناجحة.. ولكنها تناسبنا.. كانت جميلة بالنسبة لنا على الأقل.. فهذه مهمتنا.. شئنا أم أبينا.. عاجلاً أم آجلاً سنقوم بهذا العمل.

ماروسا ابنة المتسولة

انتقل إلى البيت الثاني في حارتنا والملاصق لمنزلنا من الجهة اليمنى.. شاب يدعى رجب وزوجته اليونانية المسماة /ماروسا/. كان المنزل صغيراً ومكوناً من طابق واحد.. مدخل البيت يبدأ من الزقاق ومنه إلى المطبخ مباشرة ثم إلى الغرفة الصغيرة الوحيدة.. نصف الغرفة مشغول بسرير حديدي كبير على أطرافه الأربعة أعمدة حديدية، وعلى رأس كل واحدة منها تاج مربع مذهَّب بين أرجل السرير الخلفية مرآة كبيرة مرصعة أو مدهونة بالنحاس الأصفر.. السرير يكفيهما ويؤمن لهما نوماً مريحاً هادئاً.

يقولون إن رجب أصله من جزيرة مرمرة.. ويقال إن الجزيرة.. أرض قاحلة.. تربتها غير خصبة لا تصلح سوى لزراعة البصل. وقبل مغادرته الجزيرة كان يعمل في صيد السمك.. ويقال إن رجب قد ضاجع الفتاة اليونانية خلال فترة خدمته العسكرية في جزيرة /هيبلي/.. في الثانوية البحرية.

رجب شاب طويل القامة بشوش الوجه دائماً لا يتحدث كثيراً.. يظل صامتاً وكأنه لا يعرف ماهية الحديث.. الابتسامة وحدها كانت تزين وجهه.. وعندما يبتسم تظهر أسنانه اللؤلؤية البيضاء فتصدر عنها

ومضات لامعة صغيرة.. يلبس بنطالاً كحلياً.. بحرياً من /جبل طارق/ ويعد رجلاً أنيقاً في لباسه.

هناك امرأة عجوز رومية أو يونانية.. أبيضَّ شعر رأسها تسير حافية القدمين تتسول أمام المقاهي الكائنة على رصيف الميناء.

وتسير معها أحياناً فتاة صغيرة مسكينة حافية القدمين لا يستطيع المرء تقدير عمرها.. ربما في العاشرة أو الثالثة عشرة.. تبدو بائسة، يكسو الجمال وجهها.. تلبس ثياباً بالية كأمها.. يقولون إن ماروسا هي ابنة هذه المتسولة والفتاة الصغيرة التي تسير معها هي أخت أو ابنة المتسولة.. يصعب على الإنسان أن يصدق أن ماروسا الجميلة الرائعة هي ابنة هذه المرأة القبيحة المنظر. لأن لماروسا بشرة بيضاء على عكس أمها تماماً.. شفافة.. براقة رائعة.. كانت قد أطالت شعرها الأسود حتى أسفل ظهرها. جمال خاص بالجميلات اليونانيات /الروميات/. غنج من رأسها حتى أسفل قدميها.. نظرتها غنج وقفتها غنج..فتاة بكل معنى الكلمة إنها فتاة من فتيات البحر الأبيض المتوسط.. أما رجب فكان أشبه بصخرة سوداء من صخور جزيرة مرمرة التي تتكسر فوقها الأمواج.

رجب وماروسا يحباني كثيراً.. ويظلان على الدوام غريبين عن كل الناس وكأنهما يعيشان حباً ممنوعاً.

كان الصياد رجب يمنع ماروسا التحدث مع والدتها.. ربما لكونها متسولة.. وربما لأمر آخر.. لا يسمح لها بالدخول إلى منزلها. والحالة هذه.. كانت ماروسا تحضر أمها وأختها إلى بيتها.. عندما يكون رجب خارج البيت وتقدم لهما الطعام والشراب.. وكانت تنبهني دائماً أن لا أبوح بشيء لرجب.

انتقل رجب وزوجته في أحد الأيام من ذلك البيت.. كنا قد انتقلنا

إلى استانبول. بعدها بزمن طويل.. وبما أننا لم نأخذ معنا أمتعتنا المنزلية كلها.. كنت أعود إلى الجزيرة بين وقت وآخر وأنام في بيتنا القديم.. في إحدى المرات.. سمعت أحد الأشخاص الذين يعرفون رجب جيداً... يقول: إن رجب في السجن لأنه قتل ماروسا بطعنة سكين.. بسبب غيرته منها.

كانت عيون ماروسا السوداوان تلمعان حباً وهي تنظر إلى رجب..

دعاء الحريق

الوقت قبل الظهر.. بدأ الدخان يتصاعد من المنزل الثالث الذي يلي منزلنا من الناحية اليمنى، وبدأت الشرارات النارية تتطاير في كل اتجاه.. كان المنزل يحترق. استنفر الجيران. البيوت من الأخشاب ملاصقة لبعضها.. أسرع الجيران بنقل أمتعة وأغراض منازلهم إلى الجهة المقابلة. كنا الوحيدين الذين لم ننقل أمتعتنا ولم نفرغ بيتنا. لأن والدي يعارض إخراج الأمتعة.. وكان الغضب بادياً عليه وهو يصرخ:

ـ توقفوا.. لا تمسوا شيئاً.. لن يصيبنا أي ضرر.. الحريق لا يقترب نحونا.

جلس على ركبتيه.. يقرأ بعض الأدعية والمسبحة في يده.. الدعاء الذي يقرأه.. دعاء الحريق.. الشرارات واللهب لا تقترب من المنزل الذي يُقرأ فيه هذا الدعاء. بيتنا الخشبي القديم كان سيبقى سالماً حتى وإن احترقت كل المنازل. لم تتحمل أختي الصغيرة ذلك الموقف، فبدأت بنقل بعض الأمتعة.. شاهدها والدي.. فصرخ في وجهها.. الجميع في الخارج إلا والدي لم يتحرك من المنزل. هرع المختار نحو والدي وهو يصرخ:

ـ اخرج يا شيخ أفندي.. هيا اخرج.

بائع الماء أحمد آغا هو الآخر يترجى أبي.

- هيا اخرج يا شيخ أفندي.

يجيب مبتسماً وكأنه يعرف أشياء كثيرة.

- بيتنا آمن.. لا يصيبه الحريق.

الهاتف غير موجود، عناصر الإطفاء وصلوا متأخرين، وقد صعب عليهم صعود تلك الطريق القاسية ولكن الأصعب كان إيجاد الماء في الجزيرة لإطفاء الحريق.

المسامير الحديدية الطويلة.. تخرج من وسط النار مشكلة أصواتاً.. تشبه أصوات المفرقعات وتنتشر إلى مسافات بعيدة.. الجميع يخشون أن تشكل هذه المسامير المتطايرة حرائق أخرى.. في البيوت وفي الغابة المجاورة.

بدأ عناصر الإطفاء برش المياه على البيوت التي يحتمل أن يصلها الحريق.. عندما انهار المنزل كلياً بدأت النيران تستعر بشدة وتشكل خطراً أقوى ولكن الشيء المهم.. أن الرياح بدأت تهب من الجانب المعاكس. حيث بدأ اللهب يتجه عكس منزلنا.. كانت ألسنة اللهب تتجه نحو الطرف الآخر. وبذلك تخلص منزلنا من خطر الاحتراق. مع حلول المساء تم إطفاء الحريق كلياً ولكن الدخان ظل يتصاعد من بقايا الحريق حتى مساء اليوم التالي.

بدأ الناس يتحدثون عن أبي.. وعدم خروجه من المنزل أثناء الحريق.. وعدم احتراق منزلنا أيضاً.. وهكذا كان تأثير والدي قد زاد أضعافاً مضاعفة.

كنت أقول لأبي:

- منزلنا لم يحترق لأن الريح غيرت من اتجاه هبوبها العادي؟.

فيجيبني: صحيح يا ابني.. ولكن من الذي غيَّر هبوب الريح؟ ولماذا جعله يتحول إلى الجهة الأخرى؟.

امرأة مصروعة

البيوت الخشبية المتشابهة والممتدة من خلف الثانوية البحرية حتى منطقة /أي مازما/ كانت تسمى /بيوت السادة/ يقطنها القائمون على الثانوية البحرية والكلية البحرية.. والضباط والمعلمون والموظفون العاملون في تلك المنطقة.

في واحد من تلك البيوت والمكونة من طابقين.. كان أحد معارف أبي المدعو /الأسطه حسن/ يسكن في الطابق الأول منها.. الأسطة حسن معلم ماهر في صنع الطناجر والقازانات الكبيرة.. يلبس بنطالاً كحلياً وقميصاً أبيض ويلف على رقبته لفحة سوداء حذاؤه يلمع دائماً ولباسه مناسب جداً لعمّال الثانوية البحرية.. أصله من مدينة /سيواس/.. قصير القامة عريض المنكبين.. بدين الجسم إلى حدٍ ما.. رأسه كبير.. كان رجلاً صلباً وقوياً. وربما يبدو قصير القامة لضخامة جسده.. وضخامته تعادل طول مترين، له ولد يكبرني بثلاثة أو أربعة أعوام، أخرجه من المدرسة بعد نواله الشهادة الابتدائية ووضعه صانعاً عند بقال يوناني.. كان ابنه كأبيه قوي البنية.. صلباً مكوَّراً. عندما ماتت أمه.. تزوج والده ثانيةً من امرأة شابة وجميلة ولكن المسكينة تصاب بنوبات الصرع بين حين وآخر.. وتمتد أحياناً لأكثر من ثلاث ساعات، فتسقط على الأرض.. وتتدحرج فتصاب بالجروح والقروح والكسور، والأسطة حسن يذهب كل يوم إلى عمله وابنه إلى دكان البقال اليوناني.. وتظل الزوجة وحيدة في البيت.. كان الأسطة حسن يعود إلى بيته بعض الأحيان فيجدها مصابة بالجروح وهي في حالة يرثى لها.

طلب الأسطة حسن من والدي كي أبقى عند زوجته في أوقات فراغي وفي أيام العطل. ولهذا السبب كنت أبقى نهاراً في منزل الأسطة وبعض الأوقات في الليل.

كان والدي يقرأ الأدعية لشفاء هذه المرأة المصروعة، ويحاول جاهداً ومن كل قلبه كي يحسن الله من صحتها بالدعاء، وكتابة الحجاب لها.. وبعض الأحيان تتحسن وتعود إلى حالتها الطبيعية.. كان الأسطة حسن قد علّق الآمال الكبيرة والأماني.. عندما بدأت نوبات الصرع تقل شيئاً فشيئاً. ويقول: إذا قرأت لها الأدعية وهي في حالة النوبة فإن حالتها تتحسن على الفور.

في أحد الأيام كنت وحيداً مع زوجة الأسطة حسن في منزلها، أعتقد أن الشابة كانت في التاسعة عشر أو العشرين من عمرها.. لم أرها مرة وهي في نوبة الصرع.. عندما كنا نتحدث في ذلك اليوم عن شيء لم أعد أتذكره وإذا بالمرأة تسقط على الأرض.. شدت على أسنانها. وبدأت الرغوة تسيل من فمها وأسنانها وتكوَّرت أصابع يديها بشكل عجيب كما تقلصت عضلات جسمها.. وصارت ممددة على الأرض وهي في حالة يرثى لها.

لم أستطيع فعل شيء، وما من أحد يمكنه الذهاب إلى مكان عمل زوجها ليخبره عن حالتها، ولم يكن في وسعي أن أتركها وهي في هذه الحالة لأذهب وأخبره.

لقد سقطت المرأة فوق السقف التابع للمنزل، بقيت أراقبها كي لا تهوى عن درجات السقف. لست أدري كم من الوقت استمرت النوبة.. ولكنها بالنسبة لي كانت طويلة جداً.. بعد فترة طويلة بدأت المرأة بالتعرق.. تجمعت قطرات العرق على جبينها على شكل نقاط صغيرة.. شعرها تبلل كلياً والرغوة سالت بكميات كبيرة مع مرور كل دقيقة.. في بداية الأمر ترنحت وبدأت تُخرج أصواتاً غريبة لا يفهمها أحد، وارتجفت وضربت نفسها على الأرض.. ومزقت جلابيتها.. حتى بدأت أخجل من نفسي كوني موجوداً وعلى خلوة مع امرأة نصف

عارية.. ولم أستطع الحكم على نفسي.. هل ذهابي من هذا المكان أفضل من بقائي فيه.. وأنا في هذه الحالة الحرجة وإذا بالمرأة تبول تحتها ثم بدأت بالبكاء. كانت تبكي بصوت أجش وهي تصدر أصواتاً غريبة.. وعندما عادت إلى وعيها وجدتني واقفاً فوق رأسها وهي في ذلك الموقف الصعب.. وربما كان سبب بكائها ناتج من خجلها مني بعد وقت طويل قال زوجها لأبي: إن زوجته تتبول وتبكي عندما تأتيها نوبات الصرع.

وقفت المرأة على رجليها بعد أن انقطعت عن البكاء، ثم بدأت تنظر إلى الجدران والسقف.. وصارت تتحدث مع أشخاص غير مرئيين، تتحدث وتضحك وتقول كلمات غريبة وهي تصرخ صراخاً عجيباً.

إذن.. كانت تتحدث مع الجن.. وكنت أسمع من الناس أن ثمة جنياً ذكراً يحبها ومتعلق بها كثيراً.. وعندما تزوجت من الأسطة حسن.. غضب الجني منها وجعلها هكذا.

كانت المرأة تتحدث أحياناً مع أناس غير مرئيين بأسلوب جميل وجذاب، وأحياناً تتشاجر معهم حتى إنني أحسست بخوف شديد عندما نظرت نحوي وهي تتحدث معهم. بعد ذلك تكون لدي انطباع بأن المرأة.. تتصرف هكذا عن قصد.. أي بمحادثتها مع الجن ولكنها في حالة وعي تام.

بعد حديث طويل ومرهق.. جلَسَت على الأرض.. ولم تعد إلى طبيعتها إلا بعد وقت طويل.. نفسها وغيرت لباسها.. ولم تتحدث معي سوى كلمات قليلة. تتحدث وكأنها تهذي. عندما جاء الأسطة حسن إلى بيته في المساء.. خرجت من دارها.

حاول أبي جاهداً أن يجعل المرأة تتحدث معه وتصف له الأشخاص الذين تتحدث معهم أثناء نوبات الصرع. لو استطاعت ذلك لتخلصت

كلياً من علتها هذه.. هذا ما كان يقوله أبي ويعتقد به. لم تستطع المرأة أن تصف حالتها والأشخاص الذين تتحدث معهم أثناء النوبة أبداً. ولكن بعد مدة من الزمن.. بدأت تتحدث شيئاً فشيئاً عن حالتها وعن أشياء أخرى.. وكانت تلمح بين وقت وآخر عن وجود شاب. سمعتها عدة مرات وهي تتحدث هكذا، وتراءى لي أن المرأة لا تتذكر شيئاً من تصرفاتها وحركاتها وأفعالها أثناء النوبة ولكنها كانت تتحدث عن بعض الأشياء وهي واقعة تحت تأثير أبي. عندما كنا عائدين مع أبي إلى منزلنا قلت له: إن المرأة تتصنع ذلك وإنني لم أعد أصدق كل حركاتها. عندها قال لي أبي: كل ذلك ليس مهماً.. المهم في الأمر أن تتحدث عن أفعالها وعن الأشخاص حتى وإن كانت تمثل ذلك.

عندما كان أبي في منزل الأسطة حسن في أحد الأيام.. وإذا بالنوبة تضرب المرأة. قرأ أبي بعض الأدعية وهي في حالتها تلك.. ومع ذلك لم تتحسن المرأة.

في الطابق العلوي من بيت الأسطة حسن كنا نسمع أصوات ضجيج وضوضاء وجلبه.. ثم يصدر صوت آلة موسيقية، في الطابق الثاني يسكن مدرس أعمى.. كفيف البصر.. يدرِّس التاريخ البحري في الثانوية البحرية والكلية البحرية.. وكان أحدهم يمسك من يده ويقوده إلى الثانوية أو الكلية ويعود به إلى البيت مساءً. هذا الرجل ألَّف عدة كتب عن الحروب البحرية المشهورة يعزف على الكمان أيضاً، وعنده ثلاثة أولاد ذكور.. وكلهم عميان أصيبوا بالعمى بعد ولادتهم بالتدريج. ولم يَنج، منهم أحد.. أصبح الإثنان فاقدي البصر أما الثالث الصغير فقد أصبح أعمى في المستقبل القريب.. الأولاد الثلاثة يحدثون جلبة وضوضاء بشكل عجيب.. ربما كانوا يلعبون فيما بينهم.. يتدافعون ويقضون وقتهم لعباً.. وجميعهم يحسنون العزف على الكمان.

أما بالنسبة لابن الأسطة حسن والذي يكبرني بثلاثة أو أربعة أعوام، لديه عادة تستطيع أن تسميها معرفة عجيبة.. رأيت ذلك في منزلهم الأسطة حسن وزوجته ذهبا لزيارة إحدى العائلات وبقي ابنه مع بعض رفاقه في المنزل.. كان يضرب على بطنه فوق صرته على شكل ضربات طبلة.. مع كل ضربة كان الهواء يخرج من مؤخرته حسب الضربات التي يضربها.. أصوات الهواء الفاسدة تشبه ضربات /آلة الموسيقى/. وكان يمشي على أنغام هذه الأصوات القذرة والقبيحة ويستطيع أن يُطبقها في أي وقت يريد.. أما رفاقه فكانوا يقهقهون على فعلته القذرة هذه.

التربية الجنسية

كبرت وترعرت كأترابي لا أفقه شيئاً عن الثقافة الجنسية.. نعم لم نتعلم شيئاً عن الجنس، لا من السينما ولا من خلال الكتب مباشرة أو بطريقة غير مباشرة.. أما والدي فقد كان من صنف الرجال الذين لا يمزحون مع أصدقائهم وأترابهم بالكلمات الجنسية.. حتى أنني لم أسمع والدي يقص للآخرين /نكتة/ مستهجنة واحدة عن الجنس.. ولم يسمح لأحد أن يقص عليه شيئاً. مع أن الآخرين يقصون قصصاً ولطائف مستهجنة وبشكل يومي.. وأنا شخصياً مع إنني سمعت كثيراً من تلك القصص المستهجنة.. لا أحب أن أقصها أو أرويها لغيري.. ولكن ثمة قصصاً إباحية كثيرة بين تلك القصص.. مخصصة للطعن بالسياسيين أو يروونها من أجل إظهار نوع من السياسة المنمنمة.. وعندما تروى تلك القصص لا تبقى فيها تلك الصفة الاستهجانية العادية.

والدي الذي لم يتحدث عن الجنس ولا عن الثقافة الجنسية أبداً حدث أن روى لي إحدى علاقاته بلغته الاستهجانية.. كانت تلك الكلمات أول وأخر ما يتحدث فيها أبي معي.

كان لوالدي صديقٌ ضابطٌ متقاعد يسكن في /بيوت السادة/ كنا نمر أمام منزله. أراد أبي زيارة صديقه بعد إنهاء جولتنا الأولى أي بعد عودتنا من الزيارة الأولى. لأن صديقه هذا مصاب بمرض السيلان.. قال شو: وحسبما يقوله أبي.. أن صديقه صغير يجب ألّا يصيبه ذلك المرض. ثم إن العاقل يستطيع أن يستعمل صحته على أكمل وجه.. وأن صديقه هذا لم يعرف طريقة حياته الجنسية وأضاف: إن الرجال عندما يجامعون زوجاتهم بطريقة عشوائية وبأعداد متكررة وكثيرة يصيبهم هذا الداء وأنه يجب على الرجل أن لا يكثر من الجماع مع النساء.

قص والدي عليَّ هذه الواقعة وهو يختار الكلمات المناسبة دون أي تحفظ أو خوف أو خجل، مع أن هذا الشيء لا يعد طبيعياً في ذلك الزمن.. ولا يجوز لأب أن يقول أو يتحدث مع ابنه في هذه الأشياء أبداً.. وصية أبي غير المباشرة أعجبتني كثيراً، إذن أنا كبرت.. وصرت في عمر يجوز لأبي أن يتحدث معي بهذا الشكل، كان والدي يحسبني مراهقاً على ما أعتقد لهذا يحدثني عن مثل هذه المواضيع ومع ذلك لم أستطع التحدث معه في هذا المجال بل أستمع إليه صامتاً وأنا أسير لجانبه.

الحرب مع الروم /اليونانيين/

مرّت خمس سنوات على نهاية حربنا مع اليونانيين، ولكن آثارها مازالت باقية.. لم تنته بعد. ظلت عداوتنا لليونانيين ونحن في ذلك العمر الصغير.. بحيث إننا لم نكن نحب لون العلم اليوناني والمكون من اللون الأزرق السماوي والأبيض، كان والدي قد اشترى لي قميصاً بلون أزرق وأبيض.

عيّرني زملائي في مدرسة دار الشفقة لأنني لبست القميص المخطط بالأزرق والأبيض.. ولذلك لم ألبسه ثانية.

كنا نحارب أولاد الروم القاطنين في جزيرة /هيبلي/.. والحرب التي كانت دائرة قبل خمس سنوات من الآن.. تحولت إلى ألعاب حربية بيننا

وبينهم.. من هم أصدقاء الحرب عندي؟ واحد منهم.. لا أتذكره تماماً ولكن أحس وكأني أتذكره. كان اسمه على ما أعتقد /جنان جانيب/.. اسمه يشبه هذا الاسم.. وهو ابن لعائلة غنية.. دخل الثانوية البحرية فيما بعد، لم أكن أشارك الأولاد حربهم ضد أولاد الروم. لأن رحى الحرب كان تدور بالحجارة. أنا شخصياً أحسب رمي الحجارة نوعاً من الخداع، ثم إنني أخاف من الشجارات التي تحصل بالحجارة ولهذا السبب أحاول جاهداً عدم الاشتراك في المنازلات الحجرية.. الحرب بالنسبة لي يجب أن تكون وجهاً لوجه بالكلمات.. هكذا أفكر.

كنا مجتمعين في ساحة الميناء.. ذات يوم أصابنا الملل من كثرة اللعب وربما لم نجد أنواعاً أخرى من الألعاب.. صرخ في وجهي أحد الأولاد.. الذي يبدأ اسمه بحرف /O/ وحرف /E/.. قائلاً:

- هيا لنذهب إلى حارة اليونانيين.

لم يكن لليونانيين حارة أو حي يقطنون فيه بكثافة.. كانوا منتشرين في أنحاء الجزيرة.

ملأ الأولاد جيوبهم بالحجارة، وأنا أيضاً فعلت مثلهم، ومشينا معاً نحو رأس الطاحون، رأينا تحت بستان الزيتون مجموعة من أولاد الروم يقدر عددهم بين خمسة وعشرة أولاد.

كنا نقلد الحرب المعروفة النتائج والتي جرت قبل خمس سنوات من الآن.

أحسست بخجل كبير عندما رأيت أولاد الروم ينهزمون أمامنا دون أن يبدوا أية مقاومة عن أنفسهم. لم أوجه نحوهم أية حجرة من الأحجار التي كانت تملأ جيوبي بل رميتها على الأرض واحدة إثر أخرى.

لم يكن أولاد الروم يتحرشون بنا حتى نفتح ضدهم معركة بالحجارة؟

هل من المعقول أن يفتحوا ضدنا حرباً وهم في هذه الحالة السلمية العادية؟ ولهذا السبب حدث خلاف بيني وبين ذلك الولد الذي يبدأ اسمه بحرف /E/.

مرت تسع وثلاثون سنة على هذه الحادثة وعمد اليونانيون بعدها على ترجمة أول كتبي إلى اللغة اليونانية.. كان الكتاب الأول بعنوان /المقهى والديمقراطية/. فطلب الناشر اليوناني مني مقدمة لذاك الكتاب الذي سينشره.

كنت سأكتب هذه السطور بعد تسع وثلاثين عاماً.. بعد أن عمَّ السلام والأمن بيننا حيث لا يكره أولاد اليونانيين العلم التركي الأحمر والأبيض ولا أولاد الأتراك يكرهون العلم اليوناني الأزرق والأبيض.

مدعاة للفخر يا ولدي

مازلت حزيناً حتى الآن معاتباً نفسي.. لماذا لم أجمع تلك الرسوم وأخبئها حتى تظل عندي بمثابة ذكرى لتلك الأيام.. لأنني لم أكن أعرف قيمة تلك الرسوم والكتابات التي ذُيِّلَتْ بالملاحظات.. ولكن بعد مرور مدة طويلة بدأت أفكر بقيمتها، وأنه سيكون لها شأن كبير في المستقبل.

ابن الأسطة حسن يملك الكثير من تلك الرسوم التي تتجاوز ثلاثمائة صورة وربما أكثر. الرسوم مطبوعة على أوراق ناعمة. مصقولة ذات لون بني.. ومحفوظة داخل علبة ضمن خزانة منزله، وكانت هذه الصور تنتقل من يد إلى أخرى.. منها ما يقع على الأرض ويُهمل ثم تلقى في سلات المهملات.

الصور كلها.. للرجال فقط.. بعضها صور لرجل واحد والبعض الآخر لرجلين ثم لمجموعة من الرجال، وجميعهم بالزي الأبيض، يرتدون

السراويل القصيرة وبعضهم يحمل عكازاً في يده.. ويضع على رأسه قبعة مثل تلك التي يستعملها سكان البلاد المستعمَرة الحارة لتحمي الرأس من الشمس. والكل أيضاً ينتعلون أحذية رياضية بلاستيكية.. بعضهم أطلق شعر لحيته ومعظمهم يضعون النظارات على أعينهم.. من ألبستهم تعرف أن هذه الصور قد ألتقطت في مكان حار.. وخلف كل صورة.. كُتبت كلمة /مالطا/ ومن ثم التاريخ.

وأنا في ذلك العمر كنت أفكر أن للأتراك سمة بارزة.. تستطيع أن تميزهم عن باقي الشعوب. فللأتراك تجاعيد على وجوههم وتصرفات خاصة بهم.

وقد ضمّت الجزيرة آنذاك أناساً من مختلف شعوب الأرض، أنظر في وجوههم.. وأقول: هذا تركي.. وهذا غير تركي. كنت أعرف أصلهم من سيمائهم.

الرجال الموجودون في الصور لم يكونوا مرتدين اللباس التركي ولكن عندما تنظر في وجوههم.. تعرف أنهم أتراك حقيقيون.. أما الكتابات خلف الصور فقد كتبت بخط جميل وواضح، أولئك الرجال كانوا النخبة المثقفة من الأتراك، الذين نفاهم المستعمرون الإنكليز أثناء احتلالهم استنبول، وهذا ما سأعرفه لاحقاً.. ولاحقاً أيضاً، سأعرف قيمة تلك الصور والتواريخ الموجودة على ظهورها. واعتقد أن مدرس التاريخ الكفيف الذي كان يقطن في الطابق الأعلى من بيت الأسطة حسن قد جمعها بوسائطه الخاصة.

احترام الورق

أشعر باحترام شديد لكل ورقة أكانت مكتوبة أم غير مكتوبة.. لا أستطيع أن أتحمل رؤية دفتر ممزقاً أو مطوياً أو غير معتنى به، ولا أقدر أن أترك الجرائد مبعثرة وغير نظامية بعد قراءتها.. أعيد ترتيب

صفحاتها عندما أرى أحد المسافرين.. الذين يجلسون بجانبي وهم يفتحون الجريدة أو المجلة أو الكتاب الذي بأيديهم بصورة عشوائية وغير نظامية.. أشعر بالارتباك الشديد وعدم الراحة وأنا جالس في مكاني.

لماذا أنا هكذا؟ أستطيع أن أجيب على هذا السؤال.. بعد رجوعي إلى ما قبل خمس وأربعين عاماً من الآن.

قبل كل شيء يجب أن أقول أن الشعب التركي يعمد إلى رفع شيئين من الأرض عندما يراهما.. إن كان متعلماً أو أميًّا ريفياً أو مدنياً.. الجميع يلتقطون ما يرونه على الأرض من أوراق وفتات خبز ويضعونها فوق جدار أو على رفوف من الخشب أو داخل كوة في جذع شجرة.. المهم أنهم يضعونها في مكان آمن حتى لا يدوسها المارة بأقدامهم، فالخبز نعمة من الله، والورقة مقدسة كتب عليها اسم الله. والذين يلتقطون الخبز عن الأرض، يقبلونه ويضعونه على رؤوسهم ثم يضعونه في مكان عالٍ. أما الورقة المطبوعة فلم يكن أحد يفكر بأنها تحوي كلمات إباحية.. وخاصة حرف /الألف/.. أكثر الحروف قدسية في الورقة المطبوعة لأنها رمز لكلمة الله.

أما أنا فاحترامي للورق ليس من هذه العادة الجميلة المنسية. فقد كان لأبي صديق من جزيرة /كريت/.. لم أعد أتذكر اسمه.. كان رجلاً مسناً حليق الشعر ولباسه عادي مستعمل، نظيف ولكنه نظامي.. ربطة عنقه تلمع من كثرة الاستعمال أما ذراع سترته وأسفل بنطاله فكانا مجعدين.. يعمل كاتباً للعرائض أمام العدلية على أحد الأرصفة. يجلس على كرسي صغير من القش، وأمامه طاولة صغيرة يستعملها للكتابة.. لم تكن الحروف اللاتينية تستعمل بعد.. الكتابات كلها بالحروف العربية.

في إحدى الأمسيات ذهبت مع أبي إلى العدلية. وعمد كاتب العرائض اليوناني من جزيرة كريت إلى جمع أمتعته والأوراق والكرسي والطاولة، عندما رآنا وضعهم في مكان آمن وسرنا معه إلى رصيف الميناء، وركبنا معاً في إحدى السفن.. متوجهين إلى حيدر باشا ومن هناك ركبنا القطار إلى /بنديك/ ثم إلى منزل كاتب العرائض لنحلَّ ضيوفاً عنده.. من يدري ما هي حال منزل كاتب العرائض هذا؟ ربما يكون منزلاً متواضعاً كالقبر. هكذا يتراءى لي.. وكيف سننام عنده؟ أسئلة كثيرة تراود مخيلتي.

بعد نزولنا من القطار في بنديك اتجهنا سيراً على الأقدام إلى شاطئ البحر على طريق ساحلي ضيق مسافة ثلاثمائة متر تقريباً حتى وصلنا إلى داره المكون من ثلاثة طوابق تحيط به حديقة كبيرة مطلة على البحر.. ودخلنا منزله حيث أفراد عائلته يشغلون الطوابق الثلاثة.. لم يكن أثاث المنزل فاخراً، لكنه جميل ونظيف.

في الليل رقدنا على فراش ناعم وأغطية بلون الحليب.. دهشت كثيراً وقلت في نفسي: هذا الإنسان العجوز يملك هذا البيت الرائع الجميل؟

في اليوم التالي شرح لي أبي بعضاً من حياة العجوز، قال: إن كاتب العرائض هذا، كان غنياً جداً في /كريت/ وعندما هاجر إلى تركيا ترك هناك أموالاً طائلة.. ومقابل الأموال التي تركها هناك.. أعطته الدولة هذا البيت. من أملاكها. البيت جميل وكون الرجل مسناً عجوزاً لم يجد عملاً.. فلجأ إلى الجلوس أمام العدلية وكتابة العرائض.

في اليوم التالي بدأت العطلة الأسبوعية.. قضينا النهار كله في ذلك البيت. لست أدري لماذا لسبب لم أعد أذكره بدأت بتمزيق ورقة إلى قسمين غير نظاميين لتغليف الأمتعة، يومها قال لي الرجل:

ـ ليس هكذا يا بني يا نصرت.. الورقة لا تقطع هكذا؟

كرر أمامي الجملة عدة مرات «يجب أن نقدم الاحترام للورق أولاً ومن لا يحترم الورقة لن يكون مثقفاً».. هذه الوصية بقيت ترن في أذني حتى الآن ومنذ خمسة وأربعين عاماً وبعد الوصية أصرّت على تعليمي كيفية قطع الورق.. أطويها من منتصفها وأضغط عليها بالإبهام والسبابة عدة مرات ثم نقطعها بنظام.. كررنا ذلك عدة مرات.. وقال: هكذا يجب أن تكون أصابعك نظيفة كي لا توسخ الورقة.

أما بالنسبة للكتاب.. فأنزل عن الرف كتاباً لم تفتح أوراقه فعمد على فتح الصفحات بسكين غير حاد على أكمل وجه وهو يقول لي:

ـ هكذا.. يجب أن نقدم الاحترام لصفحة الكتاب والورقة.

العم شعبان

من البيوت التي كنت أقضي فيها أوقاتي أثناء هروبي من المدرسة.. بيت العم شعبان.

آخر مرة رأيت فيها العم شعبان وهو أخ الأكبر لوالدي.. وأنا في الرابعة أو الخامسة من عمري. عندما ذهبنا أنا وأمي إلى بيته الكائن في حي (بيك) على ضفة النهر.. في ذلك اليوم مرضت، بالحصبة وارتفعت حرارتي مما اضطرنا للبقاء في منزل عمي، لكنه رفض فغادرنا منزله إلى المجهول. كانت أمي تحملني وتغطيني بحرام صوفي، وحرارة جسمي مرتفعة جداً.. الثلج يتساقط على وجهي من جهة، ودموع أمي من جهة ثانية. أما والدي فلم يكن موجوداً آنذاك.. فقد خرج من البيت وذهب بعيداً كعادته يبحث عن الكنز.. ولم أستطع أن أنسى دموع أمي حتى اليوم.

من وجهة نظر أبي، يجب على الإنسان الصالح أن يتمتع بميزتين أساسيتين هما: الشفقة والكرم.. لم يكن أبي يحب الأنانيين أبداً، ولهذا

السبب.. كان يحب أخاه شعبان ويحترمه لأنه أخ أكبر منه. ولكن صفاته السيئة كالقسوة والأنانية لا تعجبه.

بعد موت أمي بعدة شهور ذهبت برفقة أبي إلى منزل عمي.. كان أبي كثيراً ما يذهب لزيارة عمي، ولم يبادر عمي ولو لمرة واحدة بالسؤال عن أبي وزيارته.

رحل عمي عن /ببك/ منذ مدة طويلة.. وكان بيته وسط حرم ساحة الجامع الغربي. تراه عندما تمر أمام الجامع.. فهو منزل خشبي صغير يتألف من طابقين يبدو للناظر أنه مدهون باللون الأحمر.. بسبب القشور الحمراء الباقية فوق الأخشاب. يسكن عمي في هذا المنزل مع زوجته وابنه محي الدين وابنته. يعمل حارساً لمستودع التبغ القريب من منزله والمستودع عبارة عن بناء واسع يقع في زقاق مغلق قريب من حارة /المصارف/ على الطريق الصاعدة بين النفق والحارة.

أبي وعمي شخصان مختلفان جداً.. يحب أبي مساعدة المحتاجين، رحيم شفوق أما عمي فهو أناني.. لا يتحمل أية مسؤولية.. همه العيش الرغيد ولو على شقاء الآخرين.. لا يفكر إلا بنفسه وشخصه في جميع الظروف والأحوال، هندامه جديد نظيف، يسخر ويمزح لا يعرف الهم أو الحزن يغضب بسرعة وأينما وُجد، في منزله أو خارجه أو في عمله. يجب أن يقبل الجميع بأنه المتفوق بكل معنى الكلمة.. هذه الطباع لم تكن مصطنعة ولكنها محفورة في قلبه، أعتقد أنه يقوم بعمل آخر، لأنه عندما يعود إلى بيته صباحاً، يظل دون نوم ولا راحة طوال النهار حتى إنني رأيته عدة مرات يمزح مع مدير المستودع أو صاحبه الذي لم يكن تركياً.. كان يقول له: «هيا شوربجي» يعني أبو الحساء.

طويل القامة نحيل، في الشتاء ينتعل جزمة وفي الصيف حذاء مفرَّغاً

(صندل) أحذيته غالية الثمن، لها كعب بيضوي مكوَّر. جواربه سميكة.. ويرتدي بنطالاً طويلاً ونطاقاً عريضاً، مزوداً بالجيوب، يضع فيه لفافة التبغ. أما سترته فهي من القماش ذي اللون الداكن تجمعها خمسة أزرار فضية. وفي صدره ساعة جيب تتدلى منها سلسلة.. يحمل مسبحة كبيرة أنيقة وفي إصبعه الكبير خاتم عريض، (بينما أبي لم يلبس خاتماً). وفي الشتاء أيضاً يلبس سترة الفرو.. لها ردَّة يضعها على رأسه في الأيام الباردة.

يحدثني والدي أن عمي كان يتناول المسكرات في شبابه مع العاهرات ولكن عندما تعرَّفت عليه كان قد أقلع عن عادته ومع ذلك لم يكن يتمتع بالتقدير والاحترام من معارفه. لايعتبر نفسه حارساً ليلياً لمستودع التبغ بل صاحب المستودع نفسه.. الكل ينادونه شعبان آغا.

ابنه محي الدين في الرابعة من عمره.. أحببته كثيراً، يعطيه والده من النقود في اليوم الواحد بقدر ما آخذه أنا في الأسبوع بصعوبة بالغة.. والده يحبه كثيراً، وخاصة عندما يطلب منه شتم الآخرين، كان يقول له: اشتم هذا الكواد يا بني.. اشتمه ثانية يا بطل.

أما محي الدين فكان يكيل الشتائم القاسية للآخرين وعمي يضحك ويضحك. في صباح أحد الأيام وعند الإفطار.. سقط كأس الشاي من محي الدين على الأرض وانكسر فما كان من عمي إلّا أن صرخ:

ـ اشتم ولك بني.. كسِّر ولك ابني.. اضربْ ولك ابني..

وعندما يحاول محي الدين كسر أي شيء غالي الثمن أو رخيص.. كانت أمه تصرخ: «إياك أن يقع من يدك أو تكسره»، وعندما تنهره أمه إذ بعمي يصرخ في وجهها ويقول:

ـ لا تعوِّد يديك على الخوف يا بني.. ارمها على الأرض يا بطل..

والشيء المحيِّر في عمي، أَنه كان حذراً جداً من أبي وهو الأصغر منه ربما ناتج ذلك عن جهله أو عدم معرفته للقراءة والكتابة.

ويبقى الحذر داخلياً دون أن يظهره لأبي.. علماً أن أبي يقدره ويحترمه كثيراً.. ومع هذا فإن كل هذه التصرفات الصبيانية لا يقوم بها أمام أبي. فقد انتقده أبي في أحد الأيام لأنه يعطي ابنه نقوداً كثيرة، وقال له:

ـ إعطاء الولد وفي مثل هذا العمر مبلغاً كبيراً عطاء في غير محله يا أخي.

يضحك عمي كعادته دون أن يخرج صوته.

الكذبة الكبيرة

وكما قلت: كنت أهرب من المدرسة وأذهب إلى بيت عمي غالباً ما أبقى هناك يومين أو ثلاثة أو أسبوعاً.. فالحياة في بيت عمي لذيذة ومريحة جداً.

أحياناً ألتقي بأبي في بيت عمي أو بيت أحد المعارف. وعندما يراني في مكان لا يتوقع وجودي فيه.. يحتار كثيراً.. بالنسبة له أنا في المدرسة.. فهل أكذب عليه وأقول إن المدرسة في عطلة.. إما عطلة عيد أو عطلة رسمية وإما لقحونا وإما المدرسة قد تعطلت بسبب مرض مدة أسبوع أو عشرة أيام.. أبي يصدقني لأنني بالنسبة له صادق إلى أبعد الحدود.. لا أكذب أبداً ولكنني أشعر بالذل والخيبة وتأنيب الضمير بعد كل حادثة كذب على أبي. وأعلل لنفسي في كل مرة بالمبرر اللازم.. يجب أن أعترف بتلك الكذبة.. أو أن لا أتصرف هكذا.. يجب أن أنجح وأصل إلى أعلى درجات النجاح.. يجب أن أفعل شيئاً.. يرفع من شأني ومقامي أمام الجميع.. ولكن ما هو هذا الشيء؟ لم أكن أعرف ماهيته، أو ما هي الطريقة التي تجعلني أن أكون دائماً ناجحاً؟ ولتحقيق ما

أفتش عنه من سبل النجاح.. بدأت أشتري الصحف اليومية كلما توفرت لدي بعض النقود اشتريت جريدة (كور أوغلو) وصحيفة يومية أخرى، تمنيت أن أجد بعض المساعدة من تلك الجريدة. أفتش عن إعلانات العمل والمدارس فيها، يا ترى إلى أي مدرسة من المدارس المعلنة أستطيع الدخول؟

أي عمل أجده في تلك الجريدة يا ترى! ألا توجد مدرسة داخلية أستطيع دخولها دون امتحان؟ ألا يستطيع فتىً في عمري أن يجد عملاً ما؟ بكل تأكيد سيأتي يوم، وسأجد مدرسة، أو عملاً معلناً عنهما في الجريدة، إعلانات كثيرة عن فرص العمل والمدارس، ولكن ليس لطفل في الثانية عشرة من عمره وفي الصف الخامس.

من جهة أخرى لم أستطع نسيان كلمات أمي أبداً «ما دام ابني منتسباً لمدرسة داخلية فلن أموت مفتوحة العينين». من جهتي كنت أهرب من المدرسة، وإضافة لذلك، أكذب على أبي الذي يصدقني دائماً، كنت أشعر باليأس والقنوط، والذل في الوقت الذي أبحث فيه عن طريقة تخلصني من هذه العيوب. وإذا بي أقوم بفعل أرذل وأقبح.. وجدت طريق الخلاص من الكذب، كذبة كبيرة سوَّقتها لأبي كي أظهر له تفوقي ونجاحي وأدخل السعادة لقلبه بدل الحسرة.

قلت لوالدي: أنا تفوقت في المدرسة بحيث أن المعلمين رفعوني صفاً إلى الأعلى وخاصة دون امتحان.. وأصبحت في الصف السادس.. مرة أخرى صدقني والدي، ولكنه قال لي: إن الصف قليل عليَّ بالنسبة لذكائي وعلمي الغزيرين وأردف قائلاً: يجب أن تكون يا بني في الصف السابع!

يعتقد البعض أن والدي ساذج وبسيط.. على العكس تماماً كان ذكياً جداً.. لست أدري لماذا يتصرف معي بهذا الشكل.. هل من حبه الكبير

نحوي أم لثقته الكبيرة بي. وأحياناً يتراءى لي أنه يصدقني ظاهرياً وهو عكس ذلك.. ولكنه يصدِّق كذبي ولا يخجلني.

بدا أبي بالافتخار أمام الناس عندما انتقلت إلى الصف السادس.. كان يقول ذلك للآخرين أيضاً وقد تحدثوا عن هذه الحادثة بينهم. ومن جهتي تحدثت عن نفسي أكثر من اللازم حتى بدأت، أصدق كذبي. كنت أتصرف وكأنني طالب في الصف السادس.

في المدرسة رُفِّع زملائي إلى صفوف أعلى، أحدهم ويدعى فارس أنهى دراسة الحقوق ودخل السجن بسبب أحداث سياسية ومات جراء نزيف في معدته.

أول علاقتي مع النشر

لم تكن الجرائد تدخل بيتنا أو بيت عمي. بدأ أبي بشراء الجرائد بعد الخامسة والسبعين من عمره.. كان يشتري كل يوم جريدتين.

وأول علاقتي مع النشر أعتقد أنها بدأت مع مجلة (صوت الطفل) التي يصدرها (فاروق كور تونجا) أشتريها كلما صار معي نقوداً.. وأشارك في مسابقاتها. اشتركت ذات مرة في مسابقة لم أعد أتذكر اسمها.. فوصلت عدة بطاقات بوستال إلى عنوان منزلنا.. ثم اشتريت مجلة أخرى لم أعد أتذكر اسمها أيضاً. متخصصة في نشر قصص الرعب وكنت بدوري أتلوها على مسامع أبي أيضاً. في تلك الأيام صدرت مجلة مشهورة يتناقلها القراء بكثرة.. اسمها (كور أوغلو) وكاتبها (برهان جاحيد).. أما الآن فلا يذكره ولا يعرفه أحد. ثابرت على قراءة أعداد هذه المجلة أيضاً.. كان ذلك في العام الذي انتقلت فيه من الصف الثالث إلى الرابع وربما من الرابع إلى الخامس لم أعد أذكر تماماً. المجلة تطبع وتنشر صور التلاميذ المجدين.. وتنشر بعضاً من كتاباتهم وتطلعاتهم إلى المستقبل.. أنا الآخر أرسلت

صورتي للمجلة وبعض الفقرات من قراءتي للمستقبل وما سأكون عليه. إنها أول كتابة نشرت لي في كور أوغلو، وكم أتمنى لو أعرف شيئاً عما كتبت؟!

مصارعة الديكة

كان عمي يملك بعض الدجاجات وديكاً واحداً.. كذلك جيرانه، يربون الدجاج أيضاً. كانت الدجاجات تسير في فناء الجامع.. وكان ديك الجيران في عراك دائم مع ديك عمي. أينما رآه يهجم عليه بمنقاره.. وعندما رأى عمي أن ديكه يتعرض للقتل من ديك الجيران.. أصيب بغضب شديد، وتساءل: كيف يتجرأ ديك آخر على قتل ديك شعبان آغا كل يوم؟ قالها بغضب:

- يجب قتل هذا الديك.

«أرجوك يا عمي.. لا تغضب سنجد طريقة في حل هذه المسألة». رجوته كثيراً.. ووقفت إلى جانب الديك المسكين كي لا يذبحه عمي. في ذلك اليوم.. ذهبت فوراً إلى (هيبلي آدا)، كان عندنا مجموعة من الدجاجات وديك قوي وعنيف.. بدت إحدى الدجاجات أليفة إلى حد كبير تخرج من أحد صناديق الحظيرة وتضرب الزجاج بمنقارها.. لتخبرنا بوجودها هناك. بعض الأحيان تدخل إلى غرفتنا وتعمل على إيقاظنا.. فتدور حول الغرفة وتصعد فوق أكتافنا وأحضاننا، وعندما يحين موعد وضعها للبيض تبدأ بالغناء. كنا نفتح لها النافذة ونتركها تدخل الخُمّ الصغير الموجود في الحديقة، أما تنظيف آثار أقدامها فهي واجبات أختي الصغيرة كان ديكنا جميلاً ورائعاً.. يُسر الإنسان برؤيته.. تجمعت فيه كل مآثر الجمال والزينة والقوة والطول والعرض.. لم يكن ديكاً مقاتلاً على العكس هادئاً، أليفاً، ظريفاً ولكنه قوي إلى أبعد الحدود. بحيث يتغلب على جميع

ديوك المنطقة.. عرفه الطويل والنائم فوق عينه اليسرى، يعطيه قوة فوق قوته.. لونه بين الأصفر والبني.. فهو يجمع كل أنواع الطيف.. ريش ذنبه يتحول من الكحلي إلى الأسود.

عدت إلى الجزيرة بسرعة قبل أن يذبح عمي الديك.. لم يكن موجوداً آنذاك في المنزل، دخلت إلى الحظيرة لأقدم الطعام والماء للدجاجات. فركضت الدجاجات والديك من خلفي ودخلوا (الخمّ).

أغلقت باب القن فسادت الظلمة فيه قبضت على الديك الذي بدأ بالصياح.. لدى وجودي في السفينة مدحني أحدهم لأنني لم أربط الديك من قدميه، وأحمله ورأسه مدلًّى إلى الأرض بل وضعته في حضني وبدأت بتمسيد ريشه.

قال لي الرجل:

- إلى أين تأخذ هذا الديك الجميل؟

شرحت له كل شيء. بعد ذلك قال لي الرجل: إن هذا الديك ليس مصارعاً ولكنه سيصبح كذلك رغماً عنه، وأعتقد أنه سيقتل ذلك الديك وجميع ديكة الحارة.

أوصاني الرجل ببعض الكلمات فقال: إذا وضعت الديك في مكانه الجديد قبل أن يعتاده، فإنه سيتعرض للقتل من باقي ديكة الحي.. سألته لماذا؟ «قال: كل ديك على مزبلته صيّاح». يجب أن يظل عدة أيام في القن مع الدجاجات حتى يعتاد على مكانه الجديد وبعد ذلك أرسله إلى المصارعة. مازالت كلمات الرجل ترن في أذني «قال: لماذا يتصارع الديك مع ديك آخر؟ كي يدافع عن دجاجاته وبيته...»، طبعاً الأمر هكذا: إذا لم يكن لديه بيت وخمّ ودجاج لأجل من سيتصارع؟

زادت ثقتي بالديك الذي أحضرته من منزلنا بأ،ه سينتصر على الديك

الآخر.. وذلك قبل أن يقول لي الرجل تلك الكلمات.. حيث بدأت الشكوك في أعماقي.. وإذا ما هُزم ديكي؟

عندما وصلت إلى بيت عمي.. تمسكت بوصايا الرجل.. وضعت الديك في الخمّ، بقي هناك عدة أيام مع الدجاجات وتصارع مع الديك الأخر بعض الشيء، وكأنه يتمرن فأوقفه عند حده، ومنعه من التدخل في شؤون الخمّ بعد الآن.

تركته في أحد الأيام طليقاً مع الدجاجات في الساحة، لم يكن الديك الآخر على مرمى النظر. بدأ ديكنا يصيح بدجاجاته وهو يضرب أجنحته.. وإذا بالديك الآخر يظهر وعندما رأى ديكنا بدأ الاقتراب منه جانبياً بعد أن كان مسرعاً. وعندما اقترب منه، بدأ بالمشي العادي، أخذ ديكنا وضعية الحذر ولكنه لم يظهر عملية الهجوم فاعتقد ديك الجيران أن ديكنا خاف منه.

وقف الديكان أمام بعضهما البعض متجانبين وبدءا بالدوران حول بعضهما.. رأسهما إلى الأرض ولكن عيون كل منهما على الآخر، كل واحد جاهز للانقضاض على الآخر، كان ديك الجيران أبيضاً طويل القامة.. عرفه قصير بينما ظهر ديكنا بضخامته وبدانته لأنه مغطى بريش كثيف. عندما وجدت في الديك الآخر تفوقاً فيزيائياً.. فكرت بالأمر وقلت: إذا هُزم ديكنا سأطرد الديك الآخر من المكان.

قفز الديكان فوق بعضهما.. ثم تراجعا ثانية.. هذان الهجومان كانا نوعاً من اختبار القوة بالنسبة لهما. قفزا ثانية فتصادمت المخالب.. في هذه الأثناء تجمع الناس حول الديكين المتصارعين، ازدحم المكان وامتلأت الساحة بالمشاهدين في هذه الحالة لن أستطيع ضرب أو طرد الديك الآخر في حال هزيمة ديكنا أمام هذا الجمع الغفير من المشاهدين. وجاء صاحب الديك الأبيض أيضاً..

ويقال إنه أحد مؤذني الجامع الغربي. ظننت لأول وهلة أن المؤذن سيغضب مني لأنني أدخلت ديكه حلبة المصارعة.. ولكن الرجل عكس ما توقعته تماماً فبدأ بالصراخ.

ـ يا الله يا قبضاي جيبوا.. أنت مثل النمر.. يا الله يا بني.. ها، يا ضنايا.. ها، كانت المصارعة قد زادت حدة.. أنا الآخر كنت في حالة من الهيجان والانفعال.. ندمت على فعلتي هذه.. ولكن المصارعة وقعت، وقلت لابدَّ من انتظار النتيجة لا يمكن التراجع بعد الآن.. كانت رقبة الديك الأبيض تعطيه القوة والفوقية. وأما ديكي فلم ينقر عرف الديك الآخر لصغره.. ولكن الأخر في كل قفزة كان يفتح جرحاً في عرف ديكنا المفتوح كالزهر.. وأصبح ديكنا يسبح في بحر من الدماء.

تمنيت أن يظهر إنسان رحيم يصرخ ويقول: «أوقفوا هذا القتال حرام قتل هذه الحيوانات»، ولكن أين ذلك الرجل؟ انتظرت ذلك الإنسان على مدى دقائق طويلة، لكن دون فائدة.

معركة طاحنة.. يبتعدان عن بعضهما ويقفزان.. المنقار على المنقار والمخلب على المخلب.. ديكنا يتعرض للضرب أكثر من الآخر، ولكنه لا يتراجع. كلاهما لا يريد الهرب أو الهزيمة.

كان قلبي يتقطر دماً وألماً على ديكنا.. غالب أو مغلوب.. كنت أقول في نفسي: «آه لو ينهزم ويتخلص من هذا الموقف المؤلم».

بما أن ديكنا أقصر من الآخر عليه أن يقفز أكثر.. المخالب والأظافر والمنقار لم تدخلا المعركة. بدءا باستعمال مهاميزهما.. (الإصبع الخلفي للديك).

إنهال الديك الأبيض على عرف ديكنا الطويل.. لا يتركه.. ويحاول التخلص منه ولكن عبثاً لم يستطيع الوثوب فوقه.. والدم يسيل من عرف ديكنا.. اهتز بقوة وخلص نفسه من الآخر ولكنه بدا في حالة يائسة.

تراجع بعض الشيء تمنيت من قلبي «آه ليهرب ويتخلص».

تراجع ديكي بعض الشيء كي يأخذ قسطاً من الراحة ويظن خصمه أنه يلتقط حباً من الأرض وهو يصيح صيحات ديكية مثل القبضايات.. ثم ما لبث أن قفز فوق الديك الآخر قفزة.. وقفزة أخرى تصادما في الهواء.. ثم بدأ ريش الديك الأبيض في التطاير من رقبته مثل الفراشات وعليها بقعٌ حمراء من دم ديكنا.

لقد حصل شيء مخيف.. عندما تصادما كان مهماز ديكي قد دخل في معدة الديك الأبيض.. فسقط المسكين على الأرض متدحرجاً.. وبدأت حبات الذرة والشعير تنزل من أمعائه على الأرض وتصاعدت الأبخرة منها.

هجم ديكنا المنتصر على الديك الأبيض المضرج بالدماء والملقى على الأرض، يريد الإجهاز عليه وقتله نهائياً.

حمل المؤذن ديكه المجروح وابتعد عن المكان.. اعتقدت أن المؤذن سيذبحه. أنا الآخر حملت ديكي ومسحت الدماء عن عرفه ووضعته في القن. ماذا استفدت من كل هذه العملية.. ذهابي إلى الجزيرة ومجيئي بالديك إلى هنا كان من أجل ديك عمي.. لأخلصه من الذبح.. ولكن أتعابي ذهبت أدراج الرياح.. هاهو المؤذن يذبح ديكه الجميل.. عدت إلى باي أوغلو والحزن يملأ جوارحي لأني تسببت في ذبح الديك.

مرَّ أسبوع أو أسبوعان لم أعد أتذكر، هربت من المدرسة إلى بيت عمي، لم يكن ديكنا موجوداً، سألت زوجة عمي عنه؟

قالت: أن عمك ذبح الديك.

ـ ولماذا؟

ـ لأنه أصيب بالمرض وساءت صحته وخاف أن يموت خنقاً.

التعليم الشعبي

كانت أفراح حرب الاستقلال وولادة جمهوريتنا الجديدة ما تزال قائمة في تلك الأيام.. وردود الأفعال الوطنية والقومية والشعبية تتفاعل في كل بقعة من أرض الوطن. فقد شيِّدت المدارس الشعبية في كل مكان.. كذلك مدارس لمحو الأمية.. بدأ الناس بانتهال العلم من تلك المدارس الشعبية.. الناس يذهبون إلى المدرسة بعد الانتهاء من العمل ويتعلمون القراءة والكتابة.. والهندسة والرياضيات.. أما المدرسون فكانوا من القوميين المتطرفين يقضون ساعات طويلة في تعليم الناس.. المسؤولون يريدون من الشعب أن يتعلم، لو دامت تلك المدارس بعض الوقت أيضاً لما بقيت تركيا على هذا الشكل من التخلف.. حيث نسبة الأميين آنذاك فاقت ستين بالمائة.

حتى أختي بدأت بالذهاب إلى تلك المدارس المفتوحة في جزيرة (هيبلي آدا).. لأنها لم تكن تعرف القراءة والكتابة. الأنانية الطفولية لم تتركني لحظة واحدة.. لم أكن أوافق على ذهاب أختي إلى المدرسة كي تتعلم.. حتى لو تعلمت.. ماذا ستفعل بعلمها يعني. ولكنه يحق لي الذهاب إلى المدرسة.. لأنني رجل وذكي وعاقل.. وربما كنت أشعر بهذه الغيرة من أختي لأنني شخصياً أهرب من المدرسة.. ولكنني لم أظهر هذه الغيرة القبيحة والحقيرة.

لدى أختي ميزة خاصة.. دون مدرسة ولا تعلم ولا شهادة.. أستطيع أن أسميها.. نضجاً في روحها.. وتسامحاً من نوع خاص.. كان والدي يقول عن أصدقائه في التكية والزاوية والذين حصلوا على العلم والمعرفة والشهادة.. ليس لديهم تلك الصفة الإنسانية.. أسماهم «الأرواح الفجة» غير الناضجة، كما قال الشاعر يونس في رباعيته:

الذي عبدته صار ضمن عقاره
وأصبحنا عبيداً على أبوابه
ظل المسكين يونس فجاً نيئاً
نحن نضجنا والحمد لله

الشخصية المعاكسة للأرواح الفجة يسمونها «الإنسان الكامل». بعد ذلك توصلت إلى فهم أن الإنسان الكامل لا مرتبة له ولا شهادة فهو أهم بكثير من الآخرين. لقد حزنت من أجلهم لأنهم ظلموا ولم ينالوا المرتبة العلمية التي كانت سترفعهم إلى أعلى الدرجات.

في بيتنا رداءٌ غريب محزز.. مريش.. من قماش خاص، لست أدري كيف جاء ومن أتى به إلينا.. عمدت أختي إلى تفكيك ذلك الرداء الرجالي الكبير.. وخاطته لي بآلة الخياطة التي بقيت لها من أمي سترة صغيرة. قلت لها:

ـ اصنعيها مثل جاكيت الصيادين.

لماذا طلبتُ صنعها على نمط ثياب الصيادين.. لست أدري.

ربما لأني رأيت مثلها على جسم أحد أولاد الأغنياء في الجزيرة، وقد أعجبتني كثيراً فيها أربعة جيوب، اثنتان في الأسفل واثنتان في الأعلى، ومفتوحة من الخلف.. هذه الجاكيت ربما تكون نوعاً من المضحكة لولد قصير القامة وفي الثانية عشرة من عمره.

هذا الطلب الذي طلبته من أختي له مضمون آخر.. هو هربي من دار الشفقة.. وتنكري لجاكيت المدرسة الداخلية التي على ظهرها دار الشفقة. لأنني لم أرغب في لباس المدرسة ولا الذهاب إليها.

كانت في الجزيرة أيضاً معلمة زنجية لها ولدان صبي وابنة.. كان ابنها وسيماً إلى حدٍ ما أما ابنتها عكس ابنها تماماً.. فهي قبيحة إلى حدٍ كبر. كلاهما من لون الشوكولاته.

كنت أجري خلف شيء لم أعد أتذكره الآن.. وعند غروب الشمس ومع انتشار الظل رأيت تلك الفتاة على بعد عشر خطوات تقريباً.. بدأت تجري أمامي.. تابعت سيري ولم التفت نحوها. سرت إشاعة بين الناس إنني كنت أجري خلفها وأعاكسها. دافعت أختي عني في هذا الأمر الذي لا علم لي به. من جهتي لم أتحدث عن الموضوع نهائياً.. ربما كانت المسكينة تتمنى من أعماقها أن أطاردها وأعاكسها وأغازلها.. وربما ظننت إنني حقيقة أجري خلفها. حتى العلاقة لم تكن طبيعية آنذاك بين فتاة وصبي من عمر واحد.

قبعة من الريش ومن قماش الأطلس

كان الذهاب إلى المدرسة مساءً قبل عطلة نهاية الأسبوع.. وما أن أُهمّ، بالخروج من البيت إلى المدرسة، كنت أشعر بقدماي تشدّاني إلى الخلف، ليس حباً في البقاء في المنزل بل لعدم رغبتي في الذهاب إلى المدرسة. أختلق الأعذار وخاصة مع بداية كل أسبوع.. ومع ذلك أخرج من البيت على أمل ذهابي إلى المدرسة.. في صباح أحد الأيام خرجت من البيت.. متوجهاً إلى المدرسة ركبت السفينة من (هيبلي آدا) مروراً بجزيرة (بور غاز) قلت في نفسي: هل أنزل هنا؟ وبصعوبة بالغة أقنعت نفس خلاف ذلك، حتى تتحرك السفينة من الجزيرة. ولكن عندما اقتربت السفينة من جزيرة (قينالي).. لم أعد أستطيع السيطرة على نفسي. نزلت من السفينة وتوقفت في الجزيرة وكانت أول زيارة أخص بها هذه الجزيرة.. لماذا نزلت يا ترى؟ لم أعثر على مبرر سوى بغرض عدم الذهاب إلى المدرسة. كنت لا أعرف إلى أين سأذهب وماذا سأعمل. لا غاية ولا هدف، بدت لي الجزيرة وكأنها فارغة من سكانها لأن المصطافين هجروها وعادوا إلى بيوتهم في استانبول.. وبما أننا في أول الشتاء.. فقد رأيت بعض الناس هنا وهناك.

سرت، بلا هدف على امتداد الشاطئ.. وإذ بي أرى موجة تلقي شيئاً ما على اليابسة، اقتربت من البحر ونظرت. إنها قبعة ترتطم على الرمال.. سحبتها بغصن من البحر، إنها قبعة ذات ريش طويل من الأطلس الأسود. جديدة إلى حدٍ ما لأنها لم تكن تشبه القبعات القديمة المستهلكة من كثرة استعمالها.

كان والدي قد أرغم نفسه على لبس قبعة قديمة خوفاً من القانون الذي منع لبس الطربوش، مع كرهه الشديد لهذا القانون والذين أصدروه، لأنهم حرموه من الطربوش والعمامة: لكن ربما يلبس هذه القبعة التي وجدتها إن قدمتها له. وهي تليق به كثيراً ولكنه لن يلبسها لأنها مجانية.

رجعت إلى جزيرة هيبلي بباخرة عائدة من استانبول سألني كعادته بصوته المشفق الحنون:

ـ ماذا حصل؟ لماذا رجعت يا بني؟

ـ المدرسة عطلت ثلاثة أيام.. يقولون: إنه يوجد مرض خطير شديد العدوى.

جففنا القبعة التي وجدتها في البحر.. ولبسها أبي مدة من الزمن.

الفتاة والتيفوس

في الأيام التي أهرب فيها من المدرسة، أذهب وأقضي الوقت في بيوت معارف أبي وأصدقائه الذين يقدمون لي الاحترام والتقدير.. وأعرف محبتهم لي. وأبقى في كل بيت يوماً أو يومين وعلى الأكثر ثلاثة أيام. وكأنني وضعت هذه البيوت دورياً كل عشرين يوماً. وأعتقد أنهم يحبونني فقط لأن أمي ميتة.. ولهذا السبب كانوا يشفقون عليَّ. واستغليت هذه الشفقة بسبب طبيعتي الصبيانية الطائشة.

عندما يحل الصباح.. أرفض الذهاب إلى المدرسة بأي شكل من

الأشكال، نفسيتي مريضة بمرض الانهزام تماماً... عندما تفرط حلقة من حلقات السلسلة.. يصعب ربط السلسلة ثانية.

هناك بيت أذهب إليه غير بيت عمي. هو بيت إسماعيل أفندي الذي يعمل في الميناء. بيته مكون من طابقين خشبيين ويقع خلف سوق قاسم باشا في إحدى الأزقة الداخلية. زوجته تسمى الخالة فاطمة.. وعندها ابن وابنة من زوجها القديم.

كانت واجهة الباب الخشبي للمنزل قديمة جداً ومنطوية على ذاتها.. وهناك حبل مربوط من الداخل بلسان المفتاح ومعلق من الخارج لفتح الباب.. على طرف الحبل عقدة كبيرة.. لمنع القفل من الانزلاق إلى الداخل.. من كثرة الاستعمال تحول لون الحبل إلى السمرة بسبب الدهون والأوساخ.. وعلى الباب مطرقة. عندما تطرق بها.. كان صوت الخالة فاطمة يخرج من إحدى الغرف في الطابق الثاني..... مييين؟.

جواب هذا السؤال كان يصعب عليَّ كثيراً في تلك الأوقات.

- ميييييين

ماذا تجيب؟ طبعاً لن تقرأ هويتك للشخص الذي يسألك هذا السؤال دون أن يرى وجهك، أو يسمع صوتك.. كان الجواب على الأغلب على هذا النحو.. افتحي.. افتحي.. أنا.. أنا أنا جيت.

إذا كان القادم ممن يعرف أصحاب البيت معرفة سطحية.. كان يقول: «لست غريباً أنا ابن البلد». أما إذا كان القادم غريباً فكان يصرخ: «هل تنظر يا أفندم».

باب الخالة فاطمة لا يفتح بالحبل وقليلون من كانوا يطرقون بابها بالمطرقة.. فالباب يُحمل على الكتف ويدفع نحو الداخل.

عندما تدخل من الباب تمر عبر أرضية ترابية قاسية من كثرة الاستعمال، مع أحجار مكسورة هنا وهناك.

على هذه الأرضية الترابية السوداء.. فتاة تدور هنا وهناك كالأشباح.

تلبس جلابية قديمة مبللة حافية القدمين.. تمسك طرف جلابيتها بين أسنانها فيسيل لعابها عليها وعلى الأرض وشعرها منفوش.. وتضع يديها متصالبتين.. فوق صدرها.. لا تستطيع التحدث.. ولكنها تدندن.. وتتمتم بكلمات لا معنى لها وكأنها تقول شيئاً وهي تدور في ذلك الفراغ.. حتى المساء.. عمرها غير معروف...

ربما هي في الخامسة عشر أو الخامسة والعشرين. لا تشعر بالجوع ولا بالعطش أبداً..

هذه الفتاة المسكينة هي ابنة الخالة فاطمة من زوجها القديم.

لم يكن القمل. كما يعرفه أولاد اليوم.. كانت مصيبة الإنسان يومذاك.. تكمن في صعوبة التخلص منه. ولهذا السبب هناك مقولة تتردد باستمرار هي «أن بعض الأجسام تنتج القمل من تلقاء ذاتها».

في الوقت الذي أهرب فيه من المدرسة وأبقى في منزل الخالة فاطمة يسري القمل في جسدي وأبدأ بالحك. لدغ القمل لا يؤلم جسد الإنسان فوراً مثل البعوض. المكان الذي يتعرض للدغ القمل. يثير الحكة مدة طويلة مع وجود لذة في الحك. لا يؤلمك كثيراً. ولكن يظل الحك معك مدة أطول. مقابل ذلك فهو قميء إلى حد بعيد وبدين مشحم.. تشمئز من مشاهدته.. أكثر من البعوض والبراغيث.

كانت الخالة فاطمة وزوجها البنّاء إسماعيل أفندي وابنته الخرساء يعيشون في غرفة واحدة. أما ابنهما إسماعيل الذي يعمل بحاراً يحضر مرة واحدة في الشهر. مقابل غرفتهم غرفة صغيرة تسكن فيها فتاة أذربيجانية مع والدتها.. بشوشات الوجه ومحبوبات.. ويحبونني كثيراً.. كنت أقرأ للفتاة قصصاً شعبية.. وكانت تسمعني باهتمام كبير.

في إحدى المرات قالت لي: أن ابنة الخالة فاطمة مريضة نفسياً وأن

جسدها يُنتج القمل.. مع أن الخالة فاطمة.. تعتني بها كثيراً.. وتبدِّل لها ملابسها. إلا أن المسكينة لا تظل دون قمل لأن جسدها كما قلنا ينتج القمل دون توقف.. وهكذا كانوا يسلون أنفسهم بالحديث عن القمل.

السعادة بالنجاح

لا أستطيع أن أنسى سعادة وسرور إسماعيل أفندي وهو يتحدث عن ارتباطه وإدمانه ونجاحه في عمله بنَّاء للموانئ.

كان إسماعيل أفندي معلماً ماهراً في بناء موانئ السفن. ويفخر بنفسه وقدرته ونجاحه في العمل.. وكما يقول: لا يوجد إنسان أو معلم أو اسطة يعرف ويفهم هذا العمل أكثر منه.. يعمل في هذه الصنعة منذ نعومة أظفاره حتى صار معلماً.

وبما أن عمله الدائم خارج أستانبول.. في موانئ مرمرة وبحر إيجة.

فقد كان يزور بيته كل خمسة عشر يوماً. أو كل الشهر.. لا أستطيع أن أنساه وهو يتحدث بسرور.. عن مدى نجاحه في عمله.

قال: أرادوا ترميم ميناء /قرة بيكا/. وكلَّفوا مهندساً للإشراف على العمل.. فاقترح عليهم إسماعيل أفندي أن يُغرس وتد في الميناء وهو شجرة طويلة.. دون نزع قشرها.. فقال له المهندس: يا حيفي عليك يا أسطة اسماعيل أنت معلم وعلى مدى سنوات. هل من المعقول أن ننزل الوتد إلى البحر دون قشره..

قال له الأسطة إسماعيل: ما أقوله لك أخذته من تجاربي الطويلة في هذا المجال.. وهبت حياتي كلها لهذا العمل... ولاحظت أن الأعمدة التي لا تنزع قشورها.. تتحمل الماء والأذى أكثر من الأعمدة المقشورة.

فردَّ المهندس: هذا الكلام غير معقول... ما بيصير.. الأفضل عكس ما تقوله. إذا نزلت الأعمدة إلى داخل البحر بقشورها.. تتحول ما بين

القشور إلى أعشاش للحيوانات البحرية والأصداف والمحارات... ولهذا السبب يتعفن الخشب قبل أوانه بكثير.. أما إذا أزيلت قشورها. فلا تجد الحيوانات البحرية مكاناً لتعشش فيه.. ولهذا السبب تتحمل أكثر وتعيش أكثر..

ردَّ عليه اسماعيل أفندي: نعم الأسماك والمحارات والأصداف وبقية الحشرات البحرية تدخل ما بين القشور.. ولهذا السبب تكون الأعمدة متينة وقوية وتتحمل أكثر من العمود المقشر. لأن تلك البقع النازلة والطالعة ما بين القشور تتكلس مع مرور الزمن وتتحول إلى ما يشبه الأحجار، يعني القشور تكون واقية .. عكس ما تدعيه.

قال شو: وتحول حواره مع المهندس إلى ما يشبه مجادلة قوية.. وصراع مرير وإلى توتر شديد بينهما.

ذات يوم أتاه المهندس وهو في حالة حزن وقال له معتذراً:

ـ كنتَ على حق يا أسطة.. وأنا كنت مخطئاً في تقديري.. رأيت في الرصيف الفلاني أعمدة غرست في أرض البحر منذ سنوات طويلة.. فيها أعمدة مقشورة وأخرى غير مقشورة فلاحظت أن المقشورة قد تعفنت وغير المقشورة ما زالت سليمة... متينة. وكما قلت فإن الحيوانات البحرية التي تعشش بين القشور تحمي العمود كثيراً.

طبعاً.. لم يكن إسماعيل أفندي قد ذكر تلك الحادثة التي جرت بينه وبين المهندس.. بكل تفاصيلها هكذا وبالحرف الواحد. عندما ذكرها كان فوق الخمسين من عمره.. وربما هو الآن في القبر منذ وقت طويل.. ولكن أنا شخصياً لم أستطع أن أنسى كلماته هذه.. وخاصة بعد مرور ثمانية وأربعين عاماً.. وما زالت عالقة في ذاكرتي.

هذه الحادثة ذكرها إسماعيل أفندي عدة مرات في تلك الليلة وبشغف وسعادة كبيرين.. وكان سعيداً إلى أبعد الحدود..

بعد مرور ثلاثين عاماً على سماعي كلمات إسماعيل أفندي.. التي صارت حلقة في أذني.. كتبت مسرحية بعنوان «هل تأتي بعض الشيء».. تبدأ بهذه المحادثة بين الأسطة والصانع /بورنوك/.

الأسطة: يجب أن يكون للإنسان عمل ما يابورنوك.. وأي عمل كان..

بورنوك: أي عمل؟

الأسطة: لنقل إنك تُصَفِّر. الناس كلهم يُصفِّرون.

بورنوك: نعم يُصَفِّرون يا أسطة.

الأسطة: ولكن عندما تُصفِّر أنت يجب أن يقولوا:

«العن أبو.. ما هذا إنه يُصَفِّر جيداً».

هذا هو الدرس الذي أعطاني إياه باني الأرصفة الخشبية الأسطة إسماعيل:

لا يستطيع أي إنسان أن يكون الأمثل والأفضل في كل الأعمال.. ولكن باستطاعة الإنسان أن يكون الأفضل في عمله فقط، نعم يجب أن تُصفِّر.. ولكن يجب أن يندهش الجميع عند سماعهم لصفيرك.. ستكون بنَّاء للأرصفة الخشبية البحرية.. ولكن مثل الأسطة إسماعيل.. وسيقولون.. إنه يتقن عمله. على أكمل وجه.

بعض الأحيان كنت أذهب إلى المدرسة أيضاً وذات يوم عندما دخلت المطبخ رأيت الفتاة الآزرية مع أمها هناك يعملان كخادمتين في المطبخ، عندما شاهدتاني سُرَّتا كثيراً.. ولكني شخصياً لم أسر مثلهن ربما من الخجل الذي أعطاني إياه كونهن خادمات.. وربما خوفاً من أن يتحدثن عن فضيحة هروبي من المدرسة؟

لست أدري.. ربما كانت المدرسة في عطلة.. أو كذبت على أبي.. ذهبت إلى بيت الأسطة إسماعيل في /قرة بيكا/. ووجدت زوجته الخالة فاطمة هناك أيضاً. وقد أستأجروا بيتاً. بقيت عندهم

طبعاً لعدة أيام متتالية.. ولكنني لم أعد أتذكر شيئاً من ذهابي وإيابي إلى هناك. لا أذكر سوى وقوف الأسطة إسماعيل على رأس عماله وهم يبنون رصيفاً أو ميناء بالأخشاب. كان غَرْس، الأعمدة الضخمة بمهدة ضخمة يأخذ كل اهتمامي. هناك عاملان يرفعان العمود الضخم وعلى طرفه من الأعلى بكرة دائرية. ثم يغرزونه معاً بمهدات ضخمة وهم يخرجون أصواتهم على نغم واحد /هوب... هوب/.

الولد ووباء التيفوس

في الجزء الأول من مذكراتي ذكرت الخالة زينب. لقد تزوجت هذه المرأة للمرة الرابعة من رجل الباني يعمل بستانياً على سفوح هضبة /فري كوي/.. بعد أن مات زوجها الثالث بطعنة قاضية من سكين حاد.. وكنت أنهيت ذكرها على النحو التالي:

«هذه السيدة سيكون لها أفضال كثيرة بعد موت أمي».

خلال هربي المتكرر من المدرسة.. كان بيت الخالة زينب من البيوت التي تضمني بين حين وآخر إلى أحضانها.. تسكن الخالة زينب مع زوجها بعد المقبرة بمسافة بعيدة.. كان المنزل خشبياً ومغطى بصفائح الحديد الصدئة.. ومن طابق واحد. وبما أن المنزل بعيد فكنت لا أذهب إليه كثيراً. إلا في أوقات محدودة جداً.

كانت الخالة زينب تستقبلني بحب وتقدير في كل مرة أذهب فيها إلى بيتها.. لأني ابن صديقتها الوحيدة. أما زوجها الألباني فكان يرعاني ويقدم لي الحنان والمحبة. وهو رجل قبيح الشكل ولكنه طيب القلب كثيراً. وإلمامه بالتركية ضعيف جداً.

كنت أذهب إلى منزلها عن طريق قاسم باشا.. ماراً من حي النَوَر «القرباط أو الغجر» أصعد إليه من طريق وعرة جداً.. كان الطريق مليئاً

بأحجار الرصيف المتفككة والمبعثرة هنا وهناك.. وعلى أطرافها.. بيوت صغيرة مبنية على نسق فوق بعضها معظمها من الخشب والمغطى بصفائح الحديد الصدئة.

تظل تلك الطريق مزدحمة بالناس والمارة في معظم ساعات الليل والنهار، وكأنها سوق للبيع والشراء.. وجلهم من الأولاد.. من مختلف الأعمار والأطوال والأشكال.. بنون وبنات.. مجموعات كبيرة من الأولاد الذين يسيل المخاط من أنوفهم.. أقدامهم حافية. وثيابهم رثة بالية... أمام كل بيت أكثر من عشرين طفلاً.. على شكل مجموعات.. مجموعات.. وكأن البيوت قد ضاقت بهم وألقتهم خارجاً..

أشعر بالحيرة والدهشة.. عندما أتذكر قدوم الليل.. كيف ستضم هذه البيوت جميع هؤلاء الأطفال. على الأرجح سيبقى بعضهم في الخارج ينامون في العراء.. وكما يتراءى لي أن قسماً من أرجلهم وأقدامهم وسواعدهم تظل خارج المنازل.

كنت أبتعد عنهم وأخشى أن يأتي يوم.. يهجمون عليَّ دفعة واحدة ويمطرونني بشتائمهم، ويدوسون عليَّ بأيديهم وأرجلهم.. كان عددهم كبيراً.. لا أستطيع مجابهتهم.. ولا يمكنني الهزيمة أمامهم محطماً رجولتي الطفولية وكرامة مراهقتي.. هذا الخوف يلاحقني دائماً في كل مرة أزور منزل الخالة زينب. ولهذا السبب كنت أمر أمام منزلها كالظل دون أن أرفع رأسي أمامهم.. ولكن لم يحصل ولو لمرة واحدة ما كنت أخشاه.. لم يتحرشوا بي ولم يهاجموني..

من يعلم ومن يظن أن السنين تمضي تباعاً.. وأدخل السجن.. وسيكون أحد هؤلاء الغجر زميلاً لي.. هناك.. وسأتقاسم معه الحلو والمر ونحن نمزح معه ونقول له: «مواطنونا السمر» وستكون آمالنا وأحلامنا وعللنا مشتركة.

وكما يقولون إن أهالي تلك المنطقة الوعرة هم من مهجري /كموالا/ يعملون في ميدان التبغ والتنباك.. وقد نقلوا كل أمتعتهم وأغراضهم إلى استانبول واستقروا فيها... ثم حضروا إلى هنا وأحضروا معهم شيئاً آخر وهو /المعرفة العمالية/.

خلال الأربعين أو الخمسين سنة الماضية.. رأيتهم في كل الاضرابات والدعاوي. والمحاكمات العمالية.. كلهم على السواء.. وهذا ناتج على ما أعتقد.. من التراكمات الاجتماعية في موطنهم قبل هجرتهم.. بقيت معهم في السجن العادي والإفرادي ولم أتحسس منهم أبداً ولم أشعر بأي اشمئزاز نحوهم.. وربما.. كانوا من الأولاد الذين يلعبون في أزقة تلك الطلعة.. سأذكر بعضاً منهم في الأقسام القادمة لمذكراتي.

وكنت أذهب إلى منزل الخالة زينب من طريق آخر بسبب الخوف الذي ذكرته آنفاً.. لم يكن طريقاً عادية ولكنه شعاب صغير يمر عبر سفوح موقع يطلق عليه اسم /بارود خانة/.. في تلك المنطقة أبراج حجرية.. مزروعة هنا وهناك.. وعلى قمة كل برج.. حارس. قد تكون هذه الأبراج مخازن للأسلحة والمتفجرات.. في الشتاء كنت استعمل طريق حي الغجر. وفي الربيع والصيف استعمل الطريق الوعرة للذهاب إلى بيت الخالة زينب.

بقيت يومين متتالين في منزل الخالة فاطمة وابنتها الخرساء. وجسدها الذي ينتج القمل.. بينما كنت ذاهباً إلى بيت الخالة زينب: والوقت قبل المغيب... والجو شديد الحرارة.. لم أستطيع أن أتحمل نفسي.. أحك جسدي وأنا سائر في الطريق... وبما أنه لم يشاهد أحد حركاتي وحكي لجسدي.. كنت أقوم بالحك. بكل راحة.. حكاك بلا نهاية.. لم أستطع أن ألجم نفسي من تلك الأحاسيس الحكية الشديدة. مع رغبة شديدة وعارمة في حك جسدي. أمد يدي إلى كل مكان من جسدي إلى

خاصرتي وظهري وبطني.. إلى أي مكان تصل إليه يدي... وأحك وأحك.. كنت أظن أنني أحك نفسي وجسدي لأنني لم أستحم منذ فترة طويلة.. أحسست بجسم مدور بين يدي.. سحبته وإذ به قمل.. رميت يدي مرة أخرى.. أخرجت واحدة أخرى من تحت إبطي..

لم يرني أحد هنا في هذه البرية.. نزلت إلى حفرة.. وخلعت ثيابي بأمان.. قميصي الداخلي الأحمر من دم القمل.. ومجموعات كثيرة منه تسير كسولة. هنا وهناك.. قميئة قذرة.. مدورة بدينة.. مشحمة. امتلأ بها كل مكان من جسدي.. رقبتي وتحت إبطي.. وطيات ملابسي ودكة السروال الداخلي.. ملأت بيوضها.. رميت الفانيلة والسروال الداخلي.. وبقيت لوهلة أراقبها.. وانتظرت.. ربما تغادرها.. ولكن عبثاً... لم أستطع الانتظار أكثر نظفت الفانيلة والسروال تماماً ولبستهما ثانية.. ثم لبست القميص والبنطال والجاكيت.. كنت أظن أنني تخلصت من القمل نهائياً..

عندما وصلت إلى البيت.. غسلت جسمي.. وبدَّلت لباسي.. ولم أذكر أن ذلك حصل معي مرة ثانية..

في ذلك اليوم أحسست باشمئزاز شديد للقمل وللخالة فاطمة وابنتها الخرساء البكماء.. منتجة القمل.. ولم أذهب إلى بيتهم ثانية..

عندما وصلت إلى بيت الخالة زينب.. كانت الشمس قد غابت.. وأتذكر الآن أمي.

ماذا أكلت.. شربت مقداراً كبيراً من الحساء /الشوربة/ بالفليفلة الحمراء.. وأكلت بيضاً مقلياً بالجبنة والفلفل الأحمر أيضاً..

بعد الطعام... ماذا فعلت لست أدري... ربما حككت جسدي أو تصرفت بشيء من الفتور... كانت الخالة زينب قد لاحظت ذلك وقالت لي:

ـ تعالَ يا نصرت.. وبعد أن نظرت إلى ياقتي وحضني.. قالت:
ـ هيا أخلع ثيابك على الفور.

ومسحت دموعها بطرف منديلها المزركش من الأطراف بدوائر فضية لّماعة دون أن تشعرني ببكائها وحزنها.. لقد أشفقت عليَّ كثيراً.. ما معنى أن يصاب ولد تلك الإنسانة النظيفة والمرتبة والرائعة بداء التيفوس؟ كانت ظنونها على الأغلب أن إصابتي بهذا الداء القمل ناجم من قلة الرعاية والعناية والتسيّب في الأزقة والشوارع والمدرسة. مع أن المسبب الرئيسي والوحيد لمرضي كان نفسانياً.

في تلك الليلة لم يغمض للخالة زينب جفن، وبقيت إلى ما بعد منتصف الليل تغلي ثيابي في ذلك القدر الكبير.. والحزن الخانق يلفُّها من أجلي. ثم جففتها على نار الموقد المشتعل.. وحتى خلودي إلى النوم في فراشي لم تزل خالتي زينب منهمكة في كيِّ ثيابي.

بقيت، في بيت الخالة زينب ضيفاً مدة يومين أو ثلاثة.. وكان زوجها أصغر إخوته الألبانيين الثلاثة. وبيوتهم ومزارعهم متقاربة ومتلاصقة، يزرعون جميع أنواع البقول والخضار.. كالذرة والبصل.. كانت أرض المزرعة تتدرَّج من الوادي إلى أعلى الهضبة على شكل قطع مربعة، بينما تقف أشجار التين منتصبة على الهضبة المقابلة من المزرعة.

كان أحد صفوف تلاميذ إحدى المدارس الابتدائية المختلطة قد خرجوا بنزهة إلى الحقول برفقة معلمتهم.

الطقس جميل والهواء عليل.. دخل التلاميذ البستان وهم يلعبون ويتدافعون. ثم تسلقوا أشجار التين، وبدأوا بقطف ثمارها وأكلها.. حصل هذا أمام معلمتهم، دون مبالاة منها، ولم تمنعهم من الدخول إلى البستان ومن قطف ثمار التين وأكلها.

لم يأبه التلاميذ لصراخ الألباني صاحب المزرعة.. بلغته التركية

المكسورة.. بل صاروا يسخرون من الرجل ولغته التركية. شاهدت الحزن على وجه الخالة زينب.. ولكنها لم تتفوَّه بكلمة.. عندها انتابني شعور غامض.. وأيقنت من أعماقي أنه من الواجب عليَّ التدخل في كبح جماح هؤلاء التلاميذ. لست أدري لماذا سرى هذا الإحساس بجسدي؟ كنت أرتدي ثوب دار الشفقة. على جميع الأحوال إنه الثوب الرسمي. المسؤولون الكبار وأفراد الشرطة والحراس وعمال النظافة يلبسون ثيابهم الرسمية ويتباهون بها ويحسبون أنفسهم (قبضايات).

بما أنني كنت أرتدي زي دار الشفقة توجهت نحو أولئك الأطفال بثقة مطلقة في نفسي.. وربما كنت مخدوعاً نفسياً وجسدياً، من كثرة الأعذار الكاذبة على أبي وأنا أقول له: «لقد وضعوني في الصف السادس دون امتحان». ولهذا السبب كنت أرى نفسي أكبر منهم وأستطيع معاقبتهم وزجرهم.

اعتقدت جازماً أنه باستطاعتي ردعهم بصوتي الجهوري. سرت نحو التلة، وكانت المعلمة جالسة ومحاطة بمجموعة من التلاميذ.. ثقتي بقدرتي قوية جداً وشجاعتي ترافقني وتشدّ، من أزري. ولكن عندما اقتربت منهم.. لم أعرف ماذا سأقول لهم.. غالبيتهم من عمري تقريباً.. وجَّهت إليهم بعض الكلمات: «عيب عليكم.. أنتم تلاميذ أليس كذلك؟ والمعلمة تقف معكم». ألم تشعروا بأنكم تقترفون إثماً عند الاعتداء على أراضي الناس؟ ولكنهم لم يأبهوا لكلماتي.. والمعلمة لم تكترث بما أقوله. ساورني شعور غامض، أصبحت نفسيتي محطمة، ذرفت الدموع وأنا عائد إلى البيت ورددت في داخلي: «سألتقي بكم غداً... سنرى».

ماذا كنت سأفعل؟ وما العمل الذي أقوى على فعله؟ هذه الحادثة الصغيرة التافهة اعتبرتها أكبر إهانة أتعرض لها في حياتي. خطرت لي فكرة كتابتها وإرسالها إلى جريدة (كور أوغلو) حيث كانت هذه

الجريدة قد نشرت صورتي مع بضعة أسطر من كتاباتي.. لكن الأمر ليس سهلاً. كنت أظن أن الجريدة ملكي الخاص.. أكتب ما يحلو لي وبعدها يرون أنفسهم في خضم غضبي.

حدّة غضبي ازدادت.. ومع زيادة الغضب اشتدَّ بكائي وذرْف دموعي وتمنيت من صميم قلبي مساعدة زوج الخالة زينب.. لكنه بدأ يواسيني ويخفف من مأساتي بابتسامة عريضة وكلمات حلوة.. سأكتب إلى الجريدة وليطلع الناس على أعمالهم.. لكنني لم أكن أعرف أسماء التلاميذ واسم معلمتهم ومدرستهم.. لا بأس.. ليكن في ذات يوم وفي مكان ما.. سرق التلاميذ ثمار التين على مرأى ومسمع ومباركة معلمتهم.. سأكتب شيئاً من هذا القبيل. وعندما تُنشر هذه الكلمات سيحصل ما لا تُحمد عُقباه.

وسأذكر أنني سأودع عما قريب الحياة الدراسية واهتمامي الزائد في هذا الموقف.. ربما لأنني تلميذ يتغيب كثيراً عن المدرسة. وبما أنهم تلاميذ عليهم أن لا يسرقوا.. وأن لا يقعوا في هذا الفخ.

هجرت منزل الخالة زينب.. وانطفأ غضبي رويداً رويداً مع مرور الساعات ومع مرور الأيام أضحت الحادثة نسياً منسياً.

مشروع كراكوز عيواظ الذي لم يتحقق

الألم يعتصر جوارحي، ولم يعد صدري يتسع لقلبي، في داخلي رغبة جامحة أن أفعل شيئاً ما. دون أن أعرف الشيء الذي سأقوم به. اقترب شهر رمضان، فكرت أن أقيم عرضاً للعبة كراكوز عيواظ(١).

لست أدري كيف ابتكرت هذه اللعبة وكيف تأثرت بها.. ولماذا

---

(١) مراموز وعيواظ: شخصيتان تلعبان دوراً هاماً في لعبة خيال الظل كانتا مشهورتين جداً في تركيا قبل ظهور السينما والتلفزيون. كركوز معناه العين السوداء أما عيواظ فهو اسم علم.

أردت تطبيقها؟ فكرت بتطبيقها في الحظيرة الملاصقة لبيتنا. لو كنست الحظيرة ونظفتها على أكمل وجه.. لاستطعت أن أقوم بهذا المشروع الذي أفكر به.. سأنادي المشاهدين.. طبعاً لن يكون الدخول مجاناً.. أول عمل قمت به.. نزعت بعض الأوراق وجعلت منها تذاكر للدخول.. وكما أتذكر.. حددت رسم الدخول بخمسة قروش.. بدأت المشروع، وضعت بطاقات للدخول، وكتبت جدولاً بأسماء الأشخاص الذين سأدعوهم إلى حفل الافتتاح.

صنعت صور الشخصيتين (كراكوز وعيواظ) من ورق المقوى.. وطليتهما بالدهان، ومسحتهما بالزيت لتصبح الصورة شفافة عند رفعها خلف الشاشة وخطرت في ذاكرتي مواضيع شيقة لهذه اللعبة.. وعندما بدأت بالكتابة.. أصبح الموضوع طويلاً للغاية.. عندها أبعدت تفكيري عن مواضيع الطفولة، وانصرفت إلى ما هو أفضل وأهم.

المراهقة

بعد ظهر أحد الأيام الحارة، وربما يوم مشمس من أيام الشتاء القاسية، أو أحد أيام الخريف.. وليكن يوماً من أيام أحد هذه الفصول.. يوماً أشبه بلوحة ينتشر منها عبق الطبيعة الرطب مع روائع الأزهار والحشائش.. وربما كان يوماً جمع تلك الألوان الطبيعية وأذابها في بوتقة جميلة ليرسم بحلولها لوحة فنية.. من جهتي كنت متهاوناً ضعيفاً.. الضعف أسقم جسدي، وأذاب نفسي كذوبان تمازج ألوان الطبيعة الخلابة. شعرت بانفصال أطرافي عن جسدي وكأنها اقتُلعت من مفاصلها، وتناثرت في جميع الجهات محطمة مبعثرة.

اجتزت الدروب والممرات وأنا شبه نائم ومستيقظ. أمشي داخل المتاهات والأزقة، محاطاً بسياج نفسي مترافق بين الوعي واللاوعي. أغفو وأنا واقف على قدميْ، استيقظ دون وعي وأمشي في الطرقات ولكن إلى أين؟

مددت فراشي وسط الغرفة الحارة، ونشرت فوقها غطاء ناعماً يعطي إحساساً بالبرودة، وأدخلت جسدي مثل كرة نارية وسط الغطاء الذي لامس جسدي الملتهب من شدة الحر. لم أكن أعلم أنني أرى نافذة غرفتي من تحت الغطاء، حقيقة أم في الحلم؟ فالأضواء التي تمر عبر النافذة المربعة، كانت تتوضع فوق الستائر على شكل فراشات ذات أجنحة بيضاء. وخيالات أوراق الكرمة تركض خلف تلك الفراشات المصنوعة من الضوء كأنها أيدٍ تريد إمساكها. عند كل هبة ريح تتحرك الستائر، كل شيء يتحرك.. ثم يزول.. يظهر، ويختفي، الفراشات، الخيالات، حتى سقف الغرفة وأرضها.. والفراش الناعم الذي أرقد عليه. وحسبتني كإنسان ينام داخل زورق وسط بحر مضطرب.. مائج.

أصبحت حرارة الغطاء عالية جداً، والغطاء الساخن يعطي الحرارة والدفء.. أمد يدي على أطراف الغطاء باحثاً عن أماكن باردة كإنسان يمد يداه إلى مياه البحر وهو نائم في الزورق. يجب أن أكون في حلم.. وربما أرى هذا الحلم قبل أن أغفو، وهكذا كنت وسط مدٍّ وجذر، بين عتبات الحلم والنوم والوعي.

أرفع طرف الغطاء رويداً.. رويداً.. ببطئ شديد جداً.. حتى لا تستيقظ هي.. إذا استيقظت ولاحظت أنني أراقب ساقيها العاريتين تغطيهما ثانية. ثم إنني أقع فريسة الخجل. من هذه الفتاة المستلقية على الفراش؟ ليس مهماً.. كلما أرفع طرف اللحاف رويداً رويداً.. يملأ النور داخله فألمح ساقيها الورديتين.. أيضاً.. أيضاً.. بدأت أرى لباسها الداخلي.

ثمة ذوبان فاتر.. ارتخاء.. رعشات وأحاسيس غامضة.. فراغ، كأنه مطبَّات هوائية.. إحساس.. كالإحساس العميق المبهم. أشبه بهبوط زورق من على موجة عالية.

كنت أعرف أن شيئاً سرياً تجمَّع في أعماقي.. شيء سري جداً.. لا يستطيع الإنسان أن يقوله لأحد، ومع هذا فهو معروف من قبل الجميع، ويحس به الجميع، كنت أعرف مغزى هذا الشيء.. قبل أن أسمعه من أحد.. أحلام جميلة.. اتركها لوحدها.. وأنام هادئ البال.

صانع الحدوات طبيب أسنان

أرتِّب الأحداث في تسلسل زمني وفور حدوثها، بحيث لم أعد أعرف أيهما قبل الآخر.

في تلك الأيام.. التي أهرب فيها من المدرسة ولا أتجاسر بالذهاب إلى البيت. كنت أذهب مرة أو مرتين إلى (كمر بورغاز). هناك رجل يعرفه أبي، يعمل مزارعاً وينتج الخضار والفواكه.. ويبيعها بالجملة والمفرّق إلى الباعة. وكان ينقلها على عربة تجرها الخيول، وبما أنني رأيت عربته عدة مرات وهي ملأى بالكرز.. أتذكر (كمر بورغاز) كلما شاهدت الكرز أو أكلته أو سمعت عنه شيئاً. يتراءى لي أن هاتين الكلمتين مرتبطتان بعضهما البعض.. لأن فيهما حروفاً مشتركة.. لا أتذكر الآن.. كيف.. وبأية طريقة وأية واسطة نقل ذهبت، إلى (كمر بورغاز).. على الأغلب ذهبت إلى هناك عن طريق (علي بي كوي). وكان الشخص الذي يعرفه أبي يُعد من رجالها الأغنياء. عنده فتيات بالغات وفتيان بالغون.. ابنه أكبر مني.. أخذني ذات ليلة واستضافني عندهم يومين أو ثلاثة إلى أحد المقاهي هناك. كان المسنون يجلسون داخل المقهى والشباب خارجه. بدأ المسنون يغادرون المقهى تباعاً، ولم يبق هناك سوى الشباب.. يتحدثون بحرية كاملة.. جلست في إحدى الزوايا وحيداً.. دون اكتراث منهم بوجودي معهم. أعمارهم تراوحت بين السابعة عشرة والثامنة والعشرين أحدهم وهو الأكبر سناً وأضخم جثةً.. كان يحدثهم مطولاً عن ذهابه إلى بيت الدعارة واصفاً لهم المرأة التي ضاجعها بأسلوب مثير،

ومستفيضاً بالكلام، والموجودون حوله يستمعون إليه باهتمام بالغ.. ويمطرونه بالأسئلة الجنسية.. كنت أصغي إلى هذا الحديث الذي أسمعه لأول مرة في حياتي.

كان للرجل الذي استضافني، أخٌ يصنع الحدوات.. كنت أرتاد محلّ عمله نهاراً، وأراقبه كيف يصنع الحدوات ويحملها بالملقط إلى السندان، ويضربها بالمطرقة حتى تصبح (نضوة).

وكنت أراقب كيف يضعون الحدوات في سنابك الخيل.. كان منظر الحيوانات غريباً وهم يربطون أقدامها ويمددونها على الأرض ويلبسونها (النضوة).

أما الخيل فلا يمددونها على الأرض.. قبل وضع النضوة.. كانوا ينظفون الحافر بسكين قصير ومكوَّر. كنت أرى هذه العملية.. كأية عملية جراحية أخرى.. وأجدها صعبة جداً.

كيف يقرر البيطار قص ظلف الحيوان الذي يحدوه، كنت أَجد في كل هذا شيئاً غير عادي، وأُصاب بحيرة شديدة وألم، عندما تقص الأظلاف أكثر من اللازم.

تحمل (كمر بورغاز) في ذاكرتي آثاراً عميقة جداً وذكريات لا تُحصى، لا يمكن أن أنساها. قاسيت في إحدى الليالي التي بقيت فيها هناك.. ألماً عظيماً في أحد أضراسي السفلية.. فأخذني الرجل إلى المقهى.. وطلب خلع ضرسي.. وأما الذي خلع ضرسي فكان شقيقه البيطار، فقد وضعه بين فكي كماشة، وشدَّه ووضعه في يدي.

كيف كنت أذهب إلى منازل أصدقاء أبي ومعارفه.. وأظل عندهم ضيفاً؟ ما أعلمه عن ذلك، أنهم لم يعتبروني طفلاً أو ولداً صغيراً.. بل كانوا يتصرفون معي وكأنني رجل كبير وربما هذا ناتج عن احترامهم الشديد لأبي.. أو ربما لا يرغبون وضعي بمصاف الأطفال.

يجب أن أجد لي ذنباً

علم أبي أنني لا أذهب إلى المدرسة.. ربما قلت له ذلك بنفسي؟ لا أظن ذلك، وربما وصلته رسالة من المدرسة؟ وأظنُّ أن هذا بعيد.. لم يكونوا يهتمون بالطلبة آنذاك كما في وقتنا الحاضر.. الإنذارات، إعلام أولياء الطلبة، لم يكن معروفاً أيضاً.

ومهما يكن فإن أبي قد علم ذلك.. بطريقة ما.. سألني:

ـ لماذا لا تذهب إلى المدرسة يا بني؟

لم يكن والدي يصرخ في وجهي.. ولا يزجرني.. ولا يظهر الغضب على وجهه بل يسألني:

ـ لماذا لا تذهب إلى المدرسة يا بني؟

وكلما أطيل السكوت.. حانياً رأسي نحو الأسفل.. كان يسألني بهدوء دائماً.

ـ لماذا لا تذهب إلى المدرسة يا بني؟

وكلما أراد تخفيف اللهجة أو إظهار العاطفة الأقوى، كان يخفض صوته ويستعمل بدل كلمة (ابني).. (يا ضنايا).

أسئلة أبي هذه كانت تثقب دماغي كالبرغي. لو غضب وصرخ في وجهي.. ربما لا أتأثر بأسئلته.

قل يا ضنايا.. لماذا لا تذهب إلى المدرسة؟

كان يحاول جاهداً عدم ذكر «لماذا تهرب؟».

كنت مرغماً على الإجابة عن سؤال أبي. ولكن.. ماذا تريدني أن أقول له؟ إلى أبي الذي يحبني وأُحبه بشكل لا يوصف؟ لن أقول أمامه: «إنني أهرب من المدرسة بسببك أنت».. لو قلت له هذه الكلمات.. لكانت دنيا المحبة كلها تهدَّمت فوق رأسه.. «لا أستطيع الذهاب إلى المدرسة.. وبسببك أهرب منها.. لأنك على قيد الحياة.. وأهرب منها

لأنك موجود.. كيف أستطيع الذهاب إلى تلك المدرسة التي لا يدرس، فيها سوى الأيتام»؟

هل باستطاعتي التفوُّه بهذه الكلمات أمامه؟

ربما تثقل عليه ويراها أصعب من الموت.. وهي تخرج من فم ابنه وسنده الوحيد في هذه الدنيا.

أبي الذي لا يعرف عدم ذهابي إلى المدرسة.. يسأل دائماً:

ـ قل لي يا ضنايا.. لماذا لا تذهب إلى المدرسة؟

لم يخطر بذهني جواباً لسؤاله.. لأنني لن أستطيع إجابته ولو بموتي.

أصرَّ على معرفة السبب: في النهاية صدرت مني هذه الكلمات دون أن أفكر بها..

ـ طردوني.. طردوني من المدرسة.

هذا الجواب أغلق جميع منافذ الطرق التي تربطني بالمدرسة.. وحتى لا أعود ثانية إليها.

ظل أبي جامداً، لم أنظر إلى وجهه ولكني أراه حتى دون النظر إليه.. أو كان يتراءى لي ذلك. كيف يطردون ابن نصرت من المدرسة؟ كيف يقدمون على هذا الفعل؟

طردي من المدرسة أصعب على أبي وأهم من إتمام دراستي.

شعرت بندم شديد من الكلمات التي بدرت مني دون تفكير، ودون معرفة نتائجها.

بعد صمت طويل سألني بنفس اللطافة والهدوء.

ـ لماذا يا بني؟

يجب أن يفهم الإنسان شخصية أبي فهماً عميقاً، حتى يصل إلى معرفة أسباب هذه اللطافة في معاملته لي، ومن خلال أسئلته. كان أبي يتحول إلى إنسان فجٍّ قاس يصرخ في وجه الشخص الذي يغضب منه..

ولكن في حالة واحدة.. يتغلب فيها على غضبه هي.. أثناء تصرفه معي، حيث يتحول إلى إنسان هادئ وحنون.

كان أبي يرى أن كلمة الطرد مناسبة لشخصي. ولهذا السبب يسألني دون استعمال تلك الكلمة/

ـ لماذا يا بني..

ـ طأطأت رأسي نحو الأرض..

ـ لماذا.. لماذا يا بني؟

علمت دائماً أن أبي يسألني.. لماذا.. لماذا.. لماذا.. ليضع الذنب على الذين طردوني.. وليخلصني من العيب الذي وقعت فيه.

الكذبة تولِّد كذبةً أكبر منها، لم يكن خلاصي إلا بالكذب.. «طردوني من المدرسة».. كنت مرغماً على اختراع كذبة أخرى إضافية جعلت من أبي يحقق معي دائماً، ومرة أخرى، ودون أن أفكر بمضمونها خرجت هذه الكلمات تباعا.

ـ لقد طردوني لأنني لبست بنطال زميلي خطأً يوم الخروج للإذن الأسبوعي، وظنوا أنني سرقته.. وطردوني لأنني سارق البنطال.

امتقع وجه أبي، وكأن الدم انتزع منه، لم يسألني بعد ذلك شيئاً، وكأن العملية قد انتهت على ما أعتقد. لو علم أنه سيسمع هذه الإجابات مني.. ربما أحجم عن أسئلته. أما أنا فقد اتهمت نفسي بابشع الذنوب، والمهم أني أقنعت أبي بصحة ما قلته، وتخلصت من ضغوطه الناعمة، وهذا يكفي.

بعد الآن لن يسألني شيئاً.. لا.. لا.. لم أتخلص أبداً.. فقد خاب ظني بنفسي.

ولد مازح أو ساخر

لست هنا في صدد تعريف القراء على إيضاح السخرية أو التفسير

العلمي للمزاح.. ولكن سأقدم بعض المقتطفات: راقبوا بشكل عام الأشخاص الذين يمزحون كثيراً.. إنهم يسخرون ويمزحون لإخفاء عيوب في شخصياتهم.. المزاح مع الآخرين هو سخريتهم والدفاع عن العيوب في داخل شخصية المازح.

المزاح والضحك.. طريقتان من طرق إخفاء النقص عند الإنسان.. الممثلون الذين لا يستطيعون القيام بأدوارهم تماماً في المسارح أو السينما.. يحوِّلون الأمر إلى نوع من الثرثرة ويضربون بالجدية عرض الحائط.. التلاميذ الكسالى في المدارس.. يكونون عادة مازحين.. ساخرين.. ضاحكين.

خليل لطفي.. صحفي وصاحب دار نشر.. يملك أكثر من أربعمائة مليون ليرة.. ومع هذا كان بخيلاً ومن أبخل الناس الذين أعرفهم.. كان يحب المزاح.. يدافع عن نفسه وبخله بشكل غير مباشر، بمزاحه وطرائفه الجميلة والممتعة.

أتساءل! لماذا كنت أهرب من (دار الشفقة)؟ ليس لأني ولد له أب ويدرس في مدرسة خاصة للأيتام فحسب.. بل السبب الأساسي هو سخرية طلاب صفي مني دائماً.

طلب مني أحد أولادي وكان يدرس في إحدى الدول الأجنبية.. إذناً ليترك مدرسته الداخلية ويسكن في (بيت الشباب)، رفضت طلبه ورجوته البقاء في المدرسة الداخلية، ولكنه عاندني بسبب هروبه من المدرسة الداخلية. كان هناك عدة أسباب: السبب الأول إنه كان طالباً لامعاً.. منكبّاً على دروسه حتى ساعات متأخرة من الليل، ويشتري كتباً كثيرة.. ويقرأ منها الكثير. بعض زملائه كانوا شرذمة من الكسالى واللامبالين.. يتهمونه بالإدمان على القراءة كي يستروا عيوبهم وفشلهم وعدم مقدرتهم على النجاح في أي عمل كان.. ولكي يتخلص ابني

منهم فقد رغب في ترك المدرسة الداخلية والسكن في إحدى (بيوت الشباب).

في ٣٠ كانون الأول من عام ١٩٧٤، كتبت لابني رسالة، ذكرت فيها بعض العبارات والجمل والنصائح استناداً إلى تجاربي الشخصية. وطلبت منه القيام ببعض الأعمال التي تخلصه من زملائه الكسالى. وهذه مقتطفات من الرسالة: «الرسالة التي أرسلتها لي عبر جريدة (ساينجة).. كانت رائعة.. والشيء الأروع هو أنك شرحت لي بالتفصيل عن الوشوشات في الزوايا التي تدور حولك بسبب شرائك الكتب وإدمانك الشديد عليها. وهكذا أكون قد عرفت سبب طلب السماح بانتقالك إلى بيت الشباب. انظر يا بني وكما أخبرتني سأقول لك: «اطمئن.. لا تفكر بهم أبداً ولا تهتم لأقاويلهم وثرثرتهم.. أرجوك لا تهتم بهم وهذا ليس مراعاة لك.. إنك لن تشعر بالراحة إذا لم تغادر مدرستك الداخلية. أرجو أن تأخذ كلامي على محمل الجد، وإذا تصرَّفت بعدم اللامبالاة، سوف تصاب بقلقٍ ومللٍ كبيرين.. يمكنك وضع الأمور على محمل المزاح.

كتبتَ تقول لي: «ضع نفسك مكاني.. بكل تأكيد سأضع نفسي مكانك.. لقد تعرضت، لحالات كثيرة وقاسية جداً في طفولتي فيما مضى.. لماذا هربت من دار الشفقة؟ لهذا السبب فقط.. لأني كنت مجتهداً.. ومتفوِّقاً على طلاب صفي. كان المدرّسون يطلبون مني دائماً أن ألقي ما حفظته أمامهم.. وكانت نظرات الإعجاب تنهال عليَّ منهم.. ولهذا السبب عمدوا إلى السخرية مني وتوصلوا إلى نتيجة مفادها: يجب أن يكون عمري أكبر من أعمارهم بكثير.. لأنني أعرف أشياء كثيرة.. من الصعب أن يعرفها من هم في عمري. كنت أقصرهم قامة وجدوا فيّ هيئة قزم صغير في عمر كبير. ولهذا السبب قالوا عني

(قارت) (القاسي).. ولقبوني بهذا الاسم. كانوا يسخرون مني دائماً قائلين: قارت.. قارت.. قارت.. وهذا ناتج من حسدهم وغيرتهم مني. طبعاً كنت أغضب.. لن أحتمل أن أكون لا مُبالٍ. فأنا في الحادية عشر من عمري، وفي هذه السن تسود روح الأنانية والظلم بين الأولاد. كانوا يسخرون مني دون رحمة ولا شفقة، كنت أحاول الظهور بمظهر اللامبالي، ولكنهم يعرفون حقاً أنني أحترق في أعماقي.. سخريتهم تهبط على رأسي كالكابوس.. ولهذا السبب كنت لا أحفظ بعض الدروس لأكون كسولاً ولا أجيب على أسئلة المدرسين مع معرفتي لكل سؤال كانوا يطرحونه عليَّ. ومع هذا لم أستطع التخلص من سخرية زملائي الحقيرة ولا من تردادهم لكلمة (القاسي).

هذه هي إحدى الأسباب التي دفعتني للهروب من دار الشفقة.. والسبب الثاني كوني طالباً له أب وليس بيتيم.

هل تعرف يا بني أن هذه السخرية والمزاح الشديدين.. صارا بمثابة حافز ودافع لي، وجعلتا مني كاتباً ساخراً. ثم وبعد هربي من دار الشفقة وانتقالي إلى مدارس داخلية أخرى تعرَّضت هناك للموقف نفسه.. وبدأت أبحث عن الطرق التي تقيني هجومهم الساخر.. كنت كالحيوان الذي يبحث عن طريقة تقي حياته.. وكأنني وجدت الحل.. ولكن دون الاعتماد على القدرة العلمية والفكرية.. بل بقدراتي الداخلية.. وكان ذلك عن طريقين:

١ ـ عدم الاهتمام بالذين يسخرون مني.. أي اللامبالاة.

٢ ـ والأهم من ذلك كله.. كان عليَّ أن أكون البادئ بالسخرية منهم يعني أن أستخدم سلاحهم.

وهكذا فعلت. سخرت من كل الزملاء والأصدقاء.. من الجميع.. وضعت لكل واحد منهم لقباً خاصاً به.. ومازالوا حتى الآن يذْكرونهم

وينادونهم بالألقاب التي وضعتها لهم.. كما وضعت لنفسي أيضاً لقباً.. وكانوا ينادونني باللقب الذي وضعته لنفسي.. وحسب ظنِّهم أن اللقب الذي وجدته لشخصي وهو (قيللي/ أي المشعر) سيلازمني طويلاً.. إذا أراد الإنسان أن يتخلص من مزاح الآخرين وسخريتهم يجب عليه أن يمازح نفسه.. قبل أن يسخر الآخرون منه. ثم إن مزاح الإنسان مع ذاته.. يصاحبه نضوج عقلي وفكري.

كانت سخريتي منهم كالسم الزعاف.. أجعلهم يقعون في براثن الخوف عندما يرونني.. بعد ذلك لم يتجاسر أحد الدنو مني وتوجيه السخرية لي. لقد ألفت، تلك المدافعة الذاتية وداومت عليها، فهي التي جعلت مني كاتباً ساخراً.. أما الذي فتح أمامي طريق العيش والحياة.. ومن خلاله تابعت دراستي خارج البلاد.. فهو عملي الذي حصلت عليه.. جدلٌ وكفاح إنها قصة حياة كيفية «الكتابة الساخرة».

ظهرت الكذبة

كان أبي في حيرة من كلامي بين الصدق وعدمه، لسبب طردي من المدرسة.. لم يستطيع أن يتفاعل مع هذا السبب الذي أرَّق عليه نومه.. ولم يره ملائماً لنفسه وابنه. «ابني أنا ها... ابني أنا يفعل كذا.. لا.. غير ممكن.. غير ممكن».

لست أدري كيف توصل إلى الحقيقة.. وعَرَفَ أن سبب طردي من المدرسة لم تكن السرقة.. وبعد توصله إلى هذه الحقيقة.. زال عنه القلق والاضطراب، وبالنسبة لأبي: يكفي أنني لم أسرق بنطال أحد.. وليس مهماً بعد الآن أن أذهب إلى المدرسة أو أتركها.

كان مدير (دار الشفقة) آنذاك.. السيد (علي كامي آقايوز).. الذي ترجم إلى لغتنا بعض الآداب الكلاسيكية عن اللغة الفرنسية.

إسماعيل صفا، وأحمد وفا، وعلي كامي.. هؤلاء الأخوة الثلاثة ترعرعوا وكبروا في دار الشفقة. ويعد إسماعيل صفا ابن الشاعر بيامي صفا.. وعمُّه مديرنا علي كامي.

التقيت بالسيد علي كامي مرة أو مرتين في أيام دراستي في دار الشفقة.. في قسم الثانوية.. وكان يسكن مع عائلته في الطابق الأعلى من المدرسة.

وكان السيد سليم يعرف أن ذنبي الوحيد هو الهروب من المدرسة فقط.. وبدأ يبحث عن أسلوب يعيدني فيه إلى دار الشفقة.

كان السيد سليم يعيش وسطاً اجتماعياً واسعاً، له أصدقاء كثيرون من طبيعة عمله السابق (مديراً للكلية البحرية الحربية).. وبالأخص مجموعة شخصيات معروفة. أذكر منها: الطبيب المختص في الأنف والأذن والحنجرة.. وآميرال /باشا/ بحري معروف جداً، والدكتور / سامي يافرا/، وشخصية أخرى هامة اسمها وحيد موران.. كان السيد سليم قد طلب من صديقه الحميم السيد علي كامي.. الذي كتب لمدير المدرسة رسالة يطلب فيها الصفح عني وإعادتي إلى المدرسة من جديد.

رسالة الصفح

أخذت الرسالة وذهبت إلى دار الشفقة. كنت في الثانية عشر من عمري، كان يتراءى لي أنني أكبر من عمري وأنني لم أذهب إلى دار الشفقة منذ وقت طويل جداً. كانت الطرق المؤدية إليها غريبة عني، بابها، حارسها، بلحيته البيضاء، كل شيء بدا غريباً وكأني لم أرهم مطلقاً في ذلك الوقت الذي دخلت فيه المدرسة.. وخلال دخول التلاميذ إلى حصة الدرس، لم يكن هناك أثر للحركة والصوت، كان قلبي ينبض بسرعة. إنه قلبٌ لكنه أشبه بقنبلة موقوتة تعمل داخل

صدري. آه لو أعادني السيد علي كامي إلى المدرسة ثانية.. سوف لن أهرب منها أبداً.. أبداً.. وسأعمل بجدٍ ونشاط.

هاأنذا أسير في الحديقة.. وإلى جانبها الساحة التي كان الطلاب الكبار يلعبون فيها كرة القدم وتلك صالة الجمباز التي كان مدرب الرياضة السيد دانيال الملاكم يعلمنا الدروس فيها، كما كان الدكتور السيد كمال طبيب الأسنان يستعملها أيضاً.. أدخل من باب قسم الثانوية وهي المرة الأولى التي أدخل من هذا الباب.. وستكون الأخيرة أيضاً.. أصعد الدرج.. أجتاز الممشى الطويل.. والرسالة في يدي.. أحاول المحافظة عليها من التمزق والإتساخ. هاأنذا أمام باب غرفة السيد علي كامي.

كانت هذه المناظر والحركات، تجول في مخيلتي وأنا في الطريق إلى المدرسة. السلم الممشى الطويل الوقوف أمام باب غرفة المدير.. ومروري من الباب الرئيسي، كل هذه المناظر والذكريات أحلام متعاقبة على مدى سنوات طويلة. تلك الأحلام المخيفة.. ذات الكوابيس.. أحلام.. أحلام.. أما الرسالة التي في يدي فقد ضاعت.. وربما تغيرت.. وتحولت إلى شيء آخر. أصعد الدرج والممشى الطويل اللذين لا نهاية لهما، هذا معناه أنني لن أستطيع الوصول إلى غرفة المدير ولا أستطيع تسليمه رسالة الصفح والغفران. وأستيقظ من عالم الأحلام هذا خائفاً مذعوراً. هاأنذا أمام السيد علي كامي الوسيم والذي كانت هيئته تفرض الاحترام المخيف. إنه خلف مكتبه.. الغرفة واسعة.. تراءت لي أنها أوسع من المدرسة كلها. أقدِّم له الرسالة.. يأخذها.. يمزق أطراف المغلف ويخرج الرسالة ويقرأها.

ثم يقول: علمت، مسبقاً بحضورك.. قبل فتح الرسالة. لم يرسل في طلب أحد من المسؤولين حتى يعلم حقيقة قصتي.. أنت كنتَ منقطعاً عن المدرسة منذ فترة طويلة.. والآن من المستحيل عودتك إليها، ثم يقول لي: إنه سيرسل جواباً للرسالة.

أعود.. الممشى الطويل.. الدرج.. الساحة.. الباب الخارجي.. ستدخل أحلامي على مدى سنوات طويلة كلمات: أبواب.. وأبواب.. أبواب ضخمة من الخشب السميك.. أبواب لا تنتهي.. أدخل من إحداها.. تظهر الثانية أمامي.. ثم جدران عالية وسميكة جداً.. وهاوية... وهاوية... أماكن لا أستطيع التخلص منها.. ولا الخروج ولا الدخول إليها.

بعد سنوات طويلة فكرت كثيراً.. كان باستطاعة السيد كامي أن يقبلني في المدرسة.. إذا أراد ذلك.. هذا هو اعتقادي.. لو استطعت العودة إلى دار الشفقة كنت سأقول في أعماقي لن أهرب منها ثانية أبداً.. أبداً.. يا ترى: هل كنت سأترك عادة الهرب من المدرسة؟ هل أستطيع مقاومة عادة الهرب؟.. لا.. كنت سأهرب ثانية. عدم الهروب من المدرسة خارج عن إرادتي. لأن الخوف من أبي قد تجذر في أعماقي. كنت أخدع نفسي بأنني لن أهرب من المدرسة. ثم إن هذا الفشل.. المتعاقب على مدى حياتي كان له وقع الضرب بالسياط، ويؤجج النار في دمي.. لا لمغادرتي دار الشفقة، ولا للفشل أيضاً.. بل لأن مستقبلاً فاشلاً كان بانتظاري. بعد كل هذا الفشل، كنت سأهدم كل الحواجز المزروعة أمامي وأقفز فوقها.. لأندفع في مسيرة حياتي نحو الأفضل.. وكان الشيء الجميل لهذا الفشل: أن طال جسدي ضرباً بالسياط، لتتأجج النار في أعماقي.

الهروب الأول

أعلنت المدارس عن عطلتها الكبيرة.. العطلة الصيفية الطويلة.. وكان زملائي قد أنهوا المرحلة الابتدائية وانتقلوا إلى الإعدادية.. وأما أنا؟! فقد كنت طالباً هارباً.. انهزامياً.. لا يعرف حتى صفه.

ظلت الكلمات الأخيرة لأمي ترن في أذني: «ولدي انتسب إلى

مدرسة داخلية.. يكفي.. لن أموت بعد الآن مفتوحة العينين». سمعت كلماتها سراً من خلف الباب.. وهي راقدة على فراش الموت.. تقول لأبي.. ولولا كلام أمي لما أجهدت نفسي على دخول المدرسة والتعلم.

أموج الآن في بحر من الخجل.. لأنني خدعت أمي التي أحبتني كثيراً.. فأنا طالب انهزامي، كما أشعر بالخجل من أبي لأنني كذبت عليه تلك الكذبة المخيفة.

كان عليَّ أن أفعل شيئاً للتكفير عن ذنوبي.. ولكن ماذا أفعل؟

كنت سأهرب من البيت.. وسأذهب إلى مكان ما في الأناضول. إلى أي جهة كانت.. سأعمل في أحد المطاعم.. وسأقول لصاحب المطعم: «أريد أن أعمل يا عمي.. وأستطيع القيام بأي عمل كان». وإذا أجابني صاحب المطعم: «لسنا بحاجة إلى عمال».. لن أصاب باليأس ولا بالحزن.. سأذهب إلى مطعم آخر وأقول له: «أعمل أي شيء.. خادم.. أغسل الأطباق.. أي عمل». وإذا ما قال الثاني: «لسنا بحاجة إليك». سأذهب إلى الثالث وإذا لم أجد عملاً في تلك المدينة أو البلدة سأذهب إلى مدن وبلدات أُخر.. فإن لم أعمل طباخاً.. سأعمل بقالاً.. وإن لم أعمل بقالاً.. أعمل حداداً.. أي عمل كان.. ألا يلزمك صانع.. جرِّبني مرة واحدة فإن أعجبك عملي هل تقبلني عندك؟ فإذا قال لسنا بحاجة إليك أقول له: لست بحاجة إلى دراهم، أعمل فقط من أجل طعامي. من يرفض صانعاً يعمل عنده مقابل إشباع بطنه فقط؟ في كل الأحوال كنت سأجد عملاً.

هدفي الانتساب إلى مدرسة قريبة من مكان عملي.. كنت أستطيع العمل والذهاب إلى المدرسة.. أو أن أعمل طوال النهار وأنتسب إلى المدرسة أدفع أقساطها مما أوفره من عملي.. كما يصعب عليَّ مخالفة وصية أمي.. وثقة أبي المطلقة بي.. يجب أن أكون عند حسن ظنهما.

أخذت من جيب أبي سراً.. مبلغ ليرتين ونصف.. هذا المبلغ يعادل الآن على ما أعتقد أكثر من خمسين ليرة.

أول خروجي من استانبول.. كان مع العم غالب.. حيث ذهبنا في المرة الأولى إلى (تكير ضاغ). وفي المرة الثانية مع العم غالب أيضاً إلى قرية (بالجيك).. حيث أصبح معلماً هناك. والمرة الثالثة حللت ضيفاً على منزل إسماعيل أفندي بنّاء الأرصفة في /قرة بوك/ . وهذه هي المرة الرابعة التي سأغادر فيها استانبول.. والآن سأذهب في طريق مجهول، وإلى أماكن أجهلها. ذهبت إلى محطة /حيدر باشا/ وقطعت تذكرة. لا أتذكر الآن أين ستوصلني التذكرة. سأنزل من القطار في المكان الذي أطمئن إليه.. لماذا قطعت التذكرة من / حيدر باش/ ولم أقطعها من سيركجي وأذهب نحو /تراقيا/؟ أو أقطع تذكرة وأسافر بالسفينة؟ لا يستطيع الإنسان حتى التفكير بما لا يعرفه ولم يجربه.. لقد قطعت تذكرة من /حيدر باشا/ عندما ذهبت إلى /غبزه/ ومنها إلى قرية /بالجيك/ عندما كان العم غالب يدرس هناك. وفي هذه المرة أيضاً فعلت الشيء نفسه ولم أفكر بسلوك طريق آخر.

تحرك القطار.. أنا حرٌ الآن وسعيد بالآمال التي تفيض من أعماقي للنجاحات التي سأحققها. كان القطار يأخذني بسرعة نحو المجهول.. المملوء بالنجاحات. لن أعود إلا بعد أن أحقق النجاح مهما كان الأمر.. وسأظهر لأبي أن ثقته قوية.

لست أدري لماذا نزلت في مدينة /ازميت/ هل لأنني قطعت التذكرة إلى هناك فقط.. أم أن المدينة أعجبتني عندما توقف القطار هناك.. أما كانت هي زيارتي الأولى /لإزميت/.. عندما نزلت من القطار.. اجتزت المسافة بين السكة الحديدية.. والطريق الرئيسية الواصلة إلى المدينة. كنت

أنظر إلى المطاعم الممتدة على جانبي الطريق. ثم دخلت الأزقة متجهاً يساراً.. ماراً أمام المطاعم أبغي عملاً.. في أي مطعم سأعمل خادماً، منظف صحون.. أي عمل؟

هذا المطعم الكبير.. إنه مطعم فخم من الدرجة الأولى.. أعتقد أنهم لا يستخدمون أولاداً صغاراً مثلي. إذاً.. إلى هناك هذا مطعم صغير جداً.. أتركه، وأسير بين باعة لحوم الكباب والمطاعم الفخمة.

أخيراً قررت دخول أحد المطاعم.. ولكن الدخول إليه وطلب العمل صعب جداً. مع أنني عاهدت نفسي اتخاذ جميع القرارات.. أدخل.. وأقول: شو بدو يصير يعني؟ إذا لم يكن للموت فيه مكان هل من العيب أن يطلب الإنسان عملاً؟ ليتني أستطيع أن أخطو أول خطوة داخل المطعم.. بعد ذلك تسهل الأمور عليَّ.. وأصبح مرغماً على التحدث مع صاحب المطعم وأطلب العمل عنده.. عندما أراه.

دخلت المطعم وكأنني أدفع خطواتي دفعاً نحو الأمام.. لا مجال للعودة ثانية.. ما إن خطوت الخطوة الأولى وإذا بأحد الخدم يقطع علي الطريق.

ـ تفضل.. هذه الطاولة فارغة.. تفضل من هون.. وأشار بيده إلى الطاولة.

من غير الضروري أن يظهر الخادم بهذا الشكل أمامي.. ويرحب بي.. لأن المطعم وجميع الطاولات كانت فارغة.

ـ تفضل من هون..

لم أفكر بدعوة الخادم لي أبداً.. جلست على الطاولة التي أشار إليها الخادم.. وقدَّم لي جدول الطعام.. جميع خططي غاصت في الماء العكر.. لقد هُزمت.. وفشلت مرة أخرى.. ونظرت إلى الجدول وطلبت طعاماً رخيصاً فقد كنت جائعاً.

بعد السينما بوظة

ملأت بطني وخرجت من المطعم أمشي كالضفدعة.. تركت استانبول خلفي وسرت إلى يسار الشارع. وقفت أمام إحدى صالات السينما.. التي كانت تعرض فيلمين دفعة واحدة. مضى زمن طويل ولم أحضر فيلماً سينمائياً. قلت في نفسي: سأدخل هذه الصالة وأحضر الفيلم.. ومن ثمَّ أفكر بما سأفعل.. عندما دخلت السينما.. كان الفيلم قد انتهى.. حضرت الفيلم الثاني ثم غادرت الصالة ومشيت ما يقارب عشر خطوات.. ووقفت أمام دكان صغير لبيع المثلجات.. التي أحبها كثيراً.. اشتريت بالمبلغ المتبقي معي قُبّعة من المثلجات اللذيذة والتهمتها.

انتهت النقود في جيبي.. وبهذه الحالة المفلسة سأدخل أحد المطاعم أو البقاليات أو محل بائعي الفواكه وأطلب منهم عملاً. انصب تفكيري كله في البحث عن عمل.. فعلت مثل /طارق بن زياد/ تماماً.. فقد صرفت كل الدراهم التي كانت بحوزتي، ولن أستطيع العودة إلى استنبول ثانية.

قلت: من شدة الحزن والأسى هذا شيء حسن.. قمت برحلة سياحية بالقطار.. وملأت بطني.. ودخلت السينما.. وأكلت مثلجات.. تمام.. ولكن.. أنا وحيد في شوارع إزميت شارد الفكر، لا أملك قرشاً واحداً. ماذا سيحصل الآن؟

عاشقان في الحديقة

سرت باتجاه شاطئ إزميت.. أعلم أنه في ذلك الاتجاه تقوم حديقة رائعة.. ولكن عندما زرت إزميت بعد سنوات طويلة.. لم أجد تلك الحديقة، ربما حجبتها العمارات العالية أو أنني أضعت موقعها. في نهاية المطاف وصلت الحديقة وجلست على أحد المقاعد فيها. وبدأت أفكر ما

عليَّ أن أفعله.. مالت الشمس نحو الغروب.. وبعد عدة ساعات سيخيم الليل.. ماذا سأفعل.. وأين سأبيت هذه الليلة؟

على مسافة قصيرة كان شاب وفتاة جالسين على أحد المقاعد.. من تصرفاتهما علمت أنهما متحابَّان ونظراً لقربهما مني.. فقد شاهدت أدقَّ تصرفاتهما. كان الشاب يمسد شعر الفتاة.. أما هي فكانت تداعب بأناملها أزرار سترته ويطلقان الضحكات بين حين وآخر.. ضحكتها الفجائية أشبه بسقوط حجر على الرأس.

لقد نسيت نفسي وهمومي، وثابرت على مراقبتهما. لا أتذكر الآن.. كيف تعرفت إليهما وبدأت الحديث معهما.. وأغلب ظني لم أكن أول من بدأ بالحديث.. هذا أمر غير قابل للنقاش. على ما أعتقد أنهما بدآ بالحديث معي. في فترة هروبي من دار الشفقة.. كانت الحروف العربية قد أُلغيت واستبدلت بالحروف اللاتينية الجديدة. هذا التغيير يعد حدثاً كبيراً في تركيا آنذاك.. لقد أهمل الشعب لغة الأم.. لغة مئات السنين وظنَّ الجميع أن هذا التغيير سيكون صعباً جداً.. أو سيخلق مشاكل لا أول لها ولا آخر.

وبما أننا كنا ندرس اللغة الفرنسية وحسن الخط في دار الشفقة.. فقد سهُلَ عليَّ تعلّم الحروف اللاتينية وقراءتها. عرفت أن الشابين من استانبول ويعلمان في قرى إزميت كل واحد منهما في قرية.

لقد جمعوا معلمي المدينة والقرى المجاورة في إزميت ليعلمّوهم القراءة والكتابة باللغة التركية الجديدة ذات الأحرف اللاتينية.

عندما علما بقدرتي على قراءة وكتابة اللغة الجديدة بالحروف اللاتينية وأنا بهذا العمر الصغير، فقد أثرت اهتمامهما، وخاصة من خلال حديثي معهما بالعلوم المختلفة التي أعرفها وأتقنها.

غابت عن ذاكرتي تفاصيل المناقشات التي جرت بيننا آنذاك، ولكن

أعلم علم اليقين بأنني قدَّمت لهما عرضاً كافياً عن إلمامي بجميع أنواع العلوم، وربما قدمت لهما خدمة علمية رائعة بالحروف العربية، وباللغة العربية التي كنت أتقنها.

عندما بدأ الليل يرخي سدوله اصطحباني معهما، ولدى خروجنا من الحديقة.. ودون أن أشرح ضائقتي المالية، وليس لديَّ مكان آوي إليه.. وأن أقوم بالبكاء وطلب المساعدة والشفقة منذ نعومة إظفاري وهذا مناقض لطباعي ولشخصيتي، من المحتمل أن أكون قد جذبت انتباههما إلى هذه الناحية بطريقة غير مباشرة.. أو بزلَّة لسان حتى اصطحباني معهما إلى مكان إقامتهما. ولكن أين؟ كان ذلك المكان، مدرسة «أقجاقوجة» الابتدائية.

صادفت، في حياتي مواقف صعبة ومحيرة.. وكأن يداً سماوية.. أو قوة خارقة تعمل من أجلي.. لست أدري، لقد أيقنت بأن قوة إلهية عظيمة تأخذني من يدي وخاصة في الأوقات الحرجة والضيقة التي أمرّ فيها.. وتزرع المصادفات التي تخلصني من ضيقي الشديد. وبسبب هذه المصادفات آمنت بوجود قوة تدير الإنسان والعالم.. وتجذَّر هذا اليقين في داخلي بشأن الظروف الخارجية التي كنت أعيش فيها. ولم أستطع التخلص من الاعتقادات العمياء.. والتفكير الحر.

أية يد كانت تُحضر لي هذه المصادفات؟ في الأوقات العصيبة.. وفي ولاية غريبة، تدفعني بأن أذهب إلى إحدى الحدائق. وهناك أتعرف إلى معلِّمين متحابين جاءا معاً إلى دورة تدريبية ثم يصطحباني معهما إلى مكان آوي إليه. ولكن المصادفة لا تبقى على هذا القدر فقط. بل كانت أمراً يبعث على الحيرة.. سأشرح لكم:

مدرسة /أقجة قوجة/ الابتدائية مبنية بأحجار كبيرة، ومن ثلاث طبقات.. عندما دخلناها كان الظلام مخيماً.. دخلنا أحد الصفوف..

وكان جمعهم من المعلمين، وجرى التعارف معهم. وأطنب الرفيقان في مدحي.. وانبرى بعض المعلمين بتوجيه وابل من الأسئلة.. ولشُدَّ ما كانت دهشتهم عظيمة لدى سماعهم أجوبتي الدقيقة. وأدهشهم أكثر الحروف اللاتينية التي كتبتها على السبورة السوداء بخط بديع، المعلومات التي حضروا من أجل تعلمها كنت أعرفها أكثر منهم. في تلك الأيام لم تكن الحروف اللاتينية قد توضَّحت كلياً. ولم يتم الاتفاق عليها. ففي كل يوم كانت تُطرح اقتراحات جديدة بشأن لفظ وكتابة بعض الحروف اللاتينية ليتلاءم نطقها مع الأحرف العربية.

شرحت لهم الأحرف الصوتية والساكنة.. وظننت نفسي أنني في سيرك علمي.. أبهرهم في قدراتي المتنوعة، من عرض كتاباتي على السبورة ورسم الصور الكاريكاتيرية لرؤوساء الحكومات المشهورين آنذاك.. مثل عصمت إنينو باشا وتوفيق رشدي.. وغيرهما. لقد تعلمت رسم الكاريكاتور.. من جريدة /كور أوغلو/ على مدى أيام طويلة وبصبر شديد. وأسهل صورة كاريكاتورية كانت لعصمت باشا.. صورته الجانبية تظهر رأسه على شكل «بطيخة» أو الرأس المزدوج محدَّب من الجبهة ومقعر من الخلف.. جبهة مفتوحة جداً.. وأنف مدور.. مكوَّر وبينما أنا غارق في الكتابة.. أردت أن أمتحن نفسي فيما إذا كان باستطاعتي الآن رسم الصورة الكاريكاتيرية لعصمت باشا، نعم الصورة التي رسمتها كانت تشبه عصمت باشا. ليس /إنينو/ في أيامه الأخيرة إنها لعصمت باشا قبل خمسة وأربعين عاماً من الآن.

كان معلموا القرى يراقبون هذا الولد الرائع.. وكأنهم أمام معجزة من المعجزات.

حان وقت العشاء، نزلنا إلى المطعم الكائن في الطابق الأول من المدرسة أفسحوا لي مكاناً على الطاولة.. المعلمون لا يختلطون مع المعلمات يجلس

المعلمون في جهة والمعلمات في الجهة المقابلة. كان عددهم بعدد طلاب مدرسة وربما أكثر من ثلاثمائة معلم ومعلمة. لقد جرت المصادفة الكبيرة في المطعم تناولت وجبتي وصعدت الدرج مع مجموعة من المعلمين.. وفجأة ظهر أمامي.. من؟ العم غالب.. هذا مستحيل.. هكذا تراءى لي.. كل واحد منا جمد في مكانه وكلانا ينظر إلى الآخر.

ـ نصرت.. ماذا تفعل هنا؟

ـ جئت إليك يا عم غالب.

كيف نطقت بهذه الكذبة فجأة، وهل صحيح أنني حضرت من أجله. فأنا لم أعرف بوجوده في هذا المكان.

الطفل الغني المدلل

تجولت خلال النهار في بلدة إزميت وسرت على طول شواطئها.. وقفت أمام الميناء أرقب حركة السفن، والرافعات، وهي تقوم بتفريغ أكياس الطحين. تركت، الميناء وسرت بمحاذاة السكة الحديدية.. شاهدت المخازن الملأى بأكياس الطحين والبذور. هناك شابان أكبر مني بقليل يعملان في المخزنين المجاورين من مظهرهما علمت أنهما يعيشان في غنج ودلال، يرتديان ثياباً جميلة.. ولدى مروري من أمامهما بدءا يسخران مني تساءلت: هل كانا يسخران من ثيابي القديمة.. أم على مشيتي التي لم تعجبهم؟ لو تحرَّشت بهما وأجبت على سخريتهما فسوف يتشاجران معي.. وسيضرباني ربما هذه أمنيتهم. وكان ذلك واضحاً من تصرفات الشاب الصغير في تحرشاته المتكررة لي، وطبعاً كان يعتمد على مساعدة الشاب الكبير جاره في المخزن المجاور. أمرّ، من أمامهما دون النظر إليهما وأحسب أن تحرّشهما وكلامهما ليسا موجهين إلي وأتظاهر بأني لا أراهما وغير مبالٍ بهما لكنهما لم يحاولا التحرش بالضرب.

كان باستطاعتي عدم المرور أمام المخزنين.. وأبدِّل طريقي وأصل إلى

المرفأ عبر الطريق الخلفي.. في كل مرة أحاول فيها تغيير طريقي فلم أستطع السيطرة على قدمي، يجب أن أمر من أمامهما دون الاهتمام بتحرشهما.. كنت أخاف أن ينهالا عليَّ ضرباً من جهة، ومن جهة كنت لا أقدر على تبديل طريقي.. شعرت بغضب شديد وخاصة تجاه الصغير المتباهي ابن الغني.. كان غضبي يتحول عبر خيالي مشادة بالأيدي، فأضربه لأشفي غليلي منه. هندامهما مرتب يرتدي كل منهما بنطالاً وسترة مع ربطة عنق، ينتعلان أحذية لماعة يبدلان ثيابهما ثلاث مرات في الاسبوع.. من يدري.. ما عدد الأطقم التي يمتلكانها. الخوف والغضب اللذان سيطرا على أعماقي.. كانا مزيجاً من مشاعر وأحاسيس متضاربة. أمرُّ أمامهما، وكانا يسخران مني.. ثم؟ واستمرَّ بسيري دون كلل أو ملل.. بقيت معانداً.. لم أتعب ولم أشعر بالقلق. أما هما، فقد تعبا من عملية السخرية التي يوجهانها لي. بدأ الصغير المتباهي بعدم الاكتراث لدى مروري أمامه، ويتوجه إلى داخل المخزن، أما أنا.. فكنت أمشي اعتيادياً دون النظر إليهما، واضعاً يديْ خلف ظهري. لقد غلبتهما بعنادي وبعدم اهتمامي لسخريتهما.. أما الشيء الذي لم أستطع فعله في دار الشفقة هو عدم قدرتي على منع الطلاب من السخرية مني قائلين قارت.. قارت أي قاسي.. قاسي.

امتحان خاص

يا ترى هل ذكرت للعم غالب تلك الكذبة التي كذبتها على أبي. «لقد وجدوني أفضل من زملائي، ولهذا السبب رفعوني إلى الصف السادس والسابع دون امتحان؟ وربما كان أبي قد ذكرها للعم غالب كي يفخر بي؟ لا أدري ولكني شعرت أن العم غالب.. كان يحاول جاهداً أن يجد لي منفذاً يخرجني من مأزقي. كان ذلك واضحاً من تصرفاته.. ماذا يمكنه أن يفعل من أجلي؟».

في إحدى الليالي سرت والعم غالب.. نحو تلال إزميت.. كان طريقنا يمر وسط الأزقة والحارات.. وفوق الأرصفة المخربة.. وعلى الجوانب بيوت من طابق واحد أو طابقين من الخشب. وقفنا أمام أحد المنازل.. حيث طرق العم غالب بابه.. قال إن هذا البيت لمدير معارف إزميت هو صديق حميم لي.. وحسب ما قاله العم غالب.. عن مدير المعارف.. أنه من أهل اللسان والثقافة العالية.

دخلنا غرفة صغيرة في الطابق الثاني من المنزل.. وعبر النافذة، كانت أضواء إزميت تتراءى لنا وكأنها داخل أحد الآبار.. من خلال المناقشات التي دارت بينهما.. شعرت أن العم غالب قد تحدَّث بأمور كثيرة مع مدير المعارف.. كان يطلب مساعدته لأعود إلى المدرسة ثانية. في البداية حاول مدير المعارف امتحاني بمجموعة أسئلة طرحها عليَّ لكنني لم أستطع الإجابة على أي سؤال من أسئلته.. وكلما أفشل في إعطاء الأجوبة.. كان يُسَّهل من أسئلته هابطاً إلى مستويات الصفوف الدنيا، ومع هذا لم أكن أعرف الجواب. أخرج كتاباً سميكاً إنه كتاب تاريخ وقال: «هل قرأت هذا الكتاب؟».

وبما إنه كتاب التاريخ للصف السادس..

أجبت مدير المعارف لا.. لم أقرأه.. طبعاً، سيعلمان أنني أكذب عليهما. ولو قلت: نعم قرأته. «.. معناه ذلك أني أكذب عليهما وجهاً لوجه، أن تكذب فهذا ليس مهماً، سيوجِّه أسئلة من ذلك الكتاب.. ولن أعرفها ثانية.. عيناي نحو الأمام.. ورأسي نحو الأسفل.. هززت برأسي.. بشكل أقول أنني لا أعرف.

سألني مدير المعارف عن تاريخ مصر.. عن الفراعنة أو شيء من هذا القبيل.. وعندما لم يحصل على الجواب مني.. تحول إلى تاريخ روما.. أتذكَّر الآن تماماً.. سألني عن /روموس/ و/رومولوس/ مؤسسي

إمبراطورية روما. ربما الحجر ينطق.. ولكنني بلا شعور، ولا صوت. شعرت بأن وجهي يشتعل ناراً وصوت غير مسموع يخرج من أعماقي: «لا أعرف.. لا أعرف.. لماذا تسألونني؟».

هزئت من نفسي، وشعرت بضيق شديد.. لقد أظهرت الأسئلة تدني مستواي العلمي والثقافي وقلة معرفتي.

داخل الأوساخ

جاء العم غالب إلى مدرسة /أقجة قوجة/ لحضور الدورة التدريبية ولتعلم الحروف اللاتينية الجديدة مع المعلمين الآخرين.. وكان ما يزال يعلِّم في قرية /بالجيك/ التابعة لغبزة. فقد أخبروه بأن ولداً صغيراً يكتب الحروف الجديدة على السبورة، ويرسم الصور الكاريكاتيرية لرؤوساء الحكومات. ولهذا نزل العم غالب إلى المطعم ليرى هذا الطفل المعجزة.

فوجدني أمامه فسألني:

ـ هل أنت من يرسم الصور الكاريكاتيرية على سبورة الصف؟

ـ نعم.

الظاهر أن الصور أعجبته كثيراً.. وعرفت ذلك حتى ولو لم يظهر إعجابه علناً. كان العم غالب لا يعرف أنني أرسم الكاريكاتير. ففي الأوقات التي بقيت، بعيداً عنه. كنت أقرأ جريدة /كور أوغلو/ وأنظر بدقة إلى الرسوم الكاريكاتورية حتى تعلمت رسمها جيداً.

لم أعد أعلم بأية طريقة قلت للعم غالب.. بأنني لا أدرس في المدرسة.. وإنني أهرب منها دائماً.

كانت الصفوف العليا في المدرسة قد تحولت إلى غرف نوم للمعلمين أو المدرسين. وضعوا إلى جانب سرير العم غالب سريراً آخر لأنام فيه. بدأت أعيش هناك مع معلمي الدورة. ولكنني أرتاح أكثر منهم. يدخلون

الصفوف كالطلبة صباح كل يوم، وأنا أتنزه هنا وهناك وفي بعض الأحيان أعلِّم بعض المعلمين الحروف اللاتينية الجديدة.

الشابان اللذان تعرفت إليهما في الحديقة.. كانا من أصدقائي الحميمين. فهما لا يفارقان بعضهما داخل وخارج المدرسة. وأغلب الظن أن صداقتهما بدأت معي. الشاب يعزف على الكمان وكثيراً ما وجدتهما وحدهما في إحدى غرف المدرسة.

لم ينتسب العم غالب إلى الدورة التعليمية لأنهم يجدون فيه فوقية علمية كبيرة إلى جانب كونه يتقن الفرنسية.. وكان الجميع طلاباً وإداريين يظهرون الاحترام والتقدير للعم غالب. وأهم من ذلك أنني لأول مرة أشاهد فيها العم غالب بثياب نظيفة. كانت ثيابه خاصة على نقيض اليوم الذي رأيته في قرية /بالجيك/ حيث كانت قذرة إلى أبعد الحدود. أما الآن فهو يلبس طقماً بني اللون مخططاً يحلق ذقنه كل يوم ويضع على رقبته لفحة بيضاء، ولم أره سابقاً بهذا الشكل الجميل والأنيق. لقد ألف جوه الحقيقي، فهو محاط بالاحترام لعلمه وذكائه.. والجميع يصغي إلى حديثه.. ولهذا السبب أجد العم غالب كأنه عاد شاباً وسيماً.. أفتخر به.

كنت أتناول طعام الإفطار.. ثم الغداء.. والعشاء.. يومياً ما أجمل الحياة.. سرير نظيف.. أوه... كل شيء على ما يرام.. لكن تنقصني حاجة واحدة، وهو الحمام.. وتغيير ملابسي الداخلية.

لم يكن في المدرسة أي حمام فالمعلمون يذهبون إلى حمامات المدينة، ولم أذكر للعم غالب بأنني متسخ جداً.. أنه لا يكفي الذهاب إلى الحمام فقط.. بل شراء ملابس داخلية جديدة.. وهذا لا يمكن أن أطلبه من العم غالب.

ملأت القذارة جسمي.. بحيث أن لون وجه الوسادة قد تغير. وفي

ذات يوم.. عكست وجه الوسادة.. جعلت وجهها داخلها وبالعكس دون أن يراني أحد. حتى لا تظهر القذارة على وسادتي.

في مساء أحد الأيام كنت عائداً إلى مدرسة /أقجة قوجة/ عبر البيوت الخشبية.. أحك شعر رأسي، وأنظر إلى أظافري الطويلة، التي لم أستطع تقليمها لعدم وجود مقص.. وعندما أحك شعري كانت أظافري تمتلئ بالوسخ والقذارة. وبينما أنا عائد إلى البيت وجدت صنبور ماء فوق الطريق الذي أسير عليه.. لم أستطع تحمل حك رأسي.. فوضعت رأسي تحت صنبور الماء البارد وغسلت شعري دون استخدام الصابون.

شهادة من مدرسة إقجة قوجة ابتدائية

ما هو مستقبلي؟ وإلى أين أصل في دراستي؟ قال العم غالب: إن مدرسة أقجة قوجة[١] ستمنحني إذا نجحت في الامتحان شهادة.. تُصدَّق من مدير المعارف الذي أمطرني بوابل من الأسئلة في بيته.

سأدخل الامتحان في المدرسة التي سموها باسم ذلك القائد السلجوقي.

وقفت أمام الصف الذي سأُمتحن فيه.. وهو في الطابق الثاني من المدرسة. نادوا عليَّ باسمي: دخلت الصف، وأنا بحالة حرجة بين الفشل والنجاح. وقفت أمام خمسة معلمين سألوني: عن اللغة التركية.. أملوا عليَّ مقطعاً ثم (قراءة ، ونحو، وحساب، وعلوم طبيعية، وجغرافيا وتاريخ).

غادرت غرفة الامتحان، كنت غارقاً في بحر من العرق. في نفس اليوم

---

(١) «أقجه قوجة قائد سلجوقي كبير ومشهور.. حرر مدينة إزميت وضواحيها من يد البيزنطيين ولهذا السبب سموا المدينة وضواحيها تخليداً لذكراه».

أعطوني الشهادة لقد أنهيت الامتحان بنجاح.. فرحت فرحاً شديداً... وكدت أطير من الفرح وهكذا انتقلت إلى الصف الآخر.. أي أصبحت مثل زملائي.. حيث أنهيت المرحلة الابتدائية مثلهم.

أعطاني العم غالب بعض النقود لأعود إلى البيت.. وفي اليوم التالي رجعت إلى استانبول بالقطار.

العودة إلى البيت

رجعت إلى بيتنا في /هيبلي آدا/. لم يكن أبي إنساناً بدم بارد، كان دائماً منفعلاً، عصبي المزاج.. أما عندما أقف أمامه، فتراه ليناً وناعماً. يتصرّف معي بكل أعصاب هادئة.. عندما رآني.. لم يتغير أبداً.. وكأنني لم أتغيب عن البيت طوال هذه المدة.. أو أنني غادرت البيت في نفس اليوم وتأخرت عن العودة إليه بعض الوقت.. فقال مبتسماً:

ـ أهلاً بك يا بني.. أين كنت؟

لم يكن هذا السؤال من الأسئلة التي تحتاج إلى جواب.. بل هو من أجل البدء بالحديث:

من لا يعرف أبي.. يظن أنه لا يهتم أبداً بابنه وأنه أناني لا يفكر إلا بنفسه.. في ذلك اليوم.. فهمت أبي حقيقة. لأنني أصبحت مثله أباً. كان أبي ذا المزاج الناري.. قد حاول تمزيق جسده لغيابي عن البيت.. خاف.. وأحس بالقلق الشديد.. مثل أي إنسان يخشى من غياب ابنه.. ولكن لم يظهر شعوره هذا لأي إنسان آخر. لم يتحدث عن هربي من البيت لمن يصادفه أو يقابله. وحاول جاهداً إخفاء ذلك عن الآخرين. أما الذين يعرفون بهربي فكان يقول لهم.. وكأنني سمعت كل ما بدر منه: «لا داع للقلق هذا لا يهم. ابني نصرت أعرفه لن يصيبه أي مكروه.. ليذهب حيثما شاء وإلى أي جهة يريد.. وسيعود إلى البيت حسب إرادته.. ومتى شاء». ولكنه في أعماقه لم يكن يردد الكلمات التي على لسانه.. كان

يحترق.. وخاصة بعد وفاة أمي. طردي من المدرسة وغيابي عن البيت.

وبما أنه لم يظهر حزنه وقلقه.. فلم يُظهر فرحته بلقائي أيضاً. ولكنه يأمر أختي بقساوة زارعاً الشرارات في عينيه:

ـ بنت.. شو تروحين هيك وهيك.. الولد جوعان.. هيا حضري بعض الطعام، أتمتم بصوت منخفض: أنا شبعان يا أبي.

ـ نحن جائعان.. شوف البنت ما زالت جالسة.. هيا يا بنت حضّري طبق الطعام.

بدأت، أعتاد جو المنزل رويداً.. رويداً.. قلت لأبي بأنني حصلت على الشهادة الابتدائية.. أسرد الحكاية وأنا أبالغ في مدح نفسي ومهارتي في العلم.. ولم أذكر له أنني رسبت في مادتين وأن العم غالب قد ساعدني على نيل الشهادة.. ولكن كل هذا النجاح وهذه المبالغات لم يسعدوا أبي.

ـ شو يعني هل أنت تستحق الصف السادس فقط؟ أنت تستطيع أن تنجح في امتحان الصفين السابع والثامن.

عدم قدرتي الدخول إلى المدرسة الفنية

كان السيد سليم مهتماً.. بشهادتي التي حصلت عليها وفي الوقت نفسه كان يبحث عن مدرسة مناسبة كي أتابع تعليمي فيها. ونظراً لهربي المتكرر من دار الشفقة فقد توصل إلى قناعة بأنني لن أقدر على متابعة تعليمي في الثانويات العامة ولذلك قرر تسجيلي في إحدى المدارس الفنية الصناعية.

كنت سأنتسب إلى المدرسة الفنية الكائنة في حي /سلطان أحمد/ وعلمت من مصادر متعددة أنهم يدرِّسون فيها مواد الحدادة.. والتسوية والكهرباء جميعها مواد لا أحبها ولا أستطيع العمل فيها. ولكن الانتساب إلى تلك المدرسة مفروض عليَّ شئت أم أبيت.. فالقرار لم

يكن في يدي.. مهما كانت رغبتي أو عدمها لهذه المدرسة، فالانتساب إليها سيكون باجتياز الامتحان، وخاصة لمن حصلوا على الشهادة الابتدائية. إذا انتسبت لهذه المدرسة سأتخرج منها كهربائياً.

لا لأنني أحب الكهرباء، بل لأن فيها نعومة وليونة ودقة أكثر من باقي المواد.

ستمر سنوات طويلة.. وسأتخرج من الثانوية العامة.. وبعد الكلية الحربية سأدخل إلى مدرسة الفن.. وهناك سأخذ دروساً في الكهرباء وسأنال العلامة الكاملة في هذه المادة. ولكن.. إذا حدث أي تماس عندي في البيت لا أستطيع أن أرفع من الأسلاك سلكاً واحد.

فكرت طويلاً وقلت: كيف لي أن أدخل المدرسة الفنية الصناعية وأصبح كهربائياً.

أخذت الأوراق الثبوتية المطلوبة إلى المدرسة الفنية الصناعية في سلطان أحمد وبعد قبولها حددوا لي تاريخ الامتحان والمواد التي سيتم الامتحان بها، بإعلان وُضع في لوحة إعلانات المدرسة.

كانت مدة الامتحان ثلاثة أيام حسب البرنامج الموضوع. وكانت النتيجة أنني رسبت في جميع المواد تقريباً.

لم أنجح ولم أستطع الدخول إلى المدرسة الفنية في سلطان أحمد، فقد شعرت حينها بفرح يغمرني لأنني لن أصبح كهربائياً.

إعدادية الوفاء

حصلت على الشهادة الابتدائية.. وأنهيت المرحلة مثل زملائي الآخرين. العام الدراسي الجديد على وشك البدء.. والمدارس فتحت أبوابها. والطلبة الذين أنهوا المرحلة الابتدائية يُسجلون في المدارس الإعدادية. وأنا ماذا سأصبح؟ ما هو مصيري؟ بعد رسوبي في مدرسة

سلطان أحمد الفنية.. ما من أحد يهتم بي غير أبي. في كل الأحوال سأجد مخرجاً من الوضع الذي أنا فيه.. أبي يثق بي دائماً. مدرسة الوفاء الموجودة في حي الوفاء قد احترقت ونقلوها إلى المدرسة الفنية الصناعية في حي آخر وبما أن البناء غير مناسب ليكون مدرسة ثانوية فقد تحوَّلت إلى مدرسة إعدادية.

لا أتذكر الآن كيف تسجلت في ثانوية الوفاء.. ولم يبق أي أثر حول هذا الموضوع.

أصبحت طالباً في الصف الأول الإعدادي في تلك المدرسة.. ومن أجل القضاء على الفشل الذي زرعته في شخصي.. فقد قررت الجد والمثابرة بكل طاقتي، ولكن القرار القطعي لا يساوي شيئاً. يجب أن يكون هناك أشياء أخرى.

كتاب تعليم اللغة الانكليزية

من أجل الدراسة في مدرسة خاصة يحتاج الطالب إلى أدوات قرطاسية وكتب وغيرها.

الطلاب الذين انتسبوا للمدرسة قبلي كانوا يقدمون لمدرسيهم معلومات عن هوياتهم وأماكن سكناهم والدروس التي ينجحون فيها. كما يحدد المدرسون للطلاب الكتب والدفاتر والأدوات التي يجب شراؤها: «مثلاً عليكم شراء دفتر خمسين صفحة وآخر مائة ومائتين». وهم لا يفكرون بكيفية شراء الكتب والدفاتر.. فذلك ليس من واجبهم.

من أجل الدخول إلى المدرسة يلزمني مصاريف باهظة، من أجور ركوب السفن والحافلات ذهاباً وإياباً، أي من أجل توفير جزءٍ من أجرة الطريق.. عليَّ الذهاب سيراً على الأقدام من /قرة كوي/ حتى المدرسة، ولكن لا أستطيع السير من الجزيرة إلى الجسر سباحة.

في الحصتين الثانية والثالثة يسألني المدرس:

ـ أين كتابك؟

ـ لم أشتره بعد يا أفندم

ـ هيا اذهب واشترِ كتاباً، مستحيل أن يتعلم الطالب بدون كتاب.

ـ طبعاً المدرس معه حق.

أخرجوني من المدرسة لأجل شراء الكتب.. ماذا سأفعل؟ لا أستطيع الذهاب إلى البيت باكراً وأقول لوالدي: «لم يدخلوني المدرسة يا أبي لأنني لم أشتر كتاباً. أو لا يوجد كتاب معي». لا أستطيع أن أسلب والدي دراهمه ولا أريده أن يحزن من أجلي، فأنا أعلم جيداً بأنه لا يحق لي خنق أبي.. وأطلب منه نقوداً أكثر مما يعطيني إياه كل يوم.

في ذلك اليوم بقيت أمشي في الشوارع حتى انصراف الطلاب من المدرسة. ولكني بقيت مصراً ومقرراً على تغطية فشلي.

عندما ذهبت إلى المدرسة في اليوم التالي.. أشفق مدرس آخر عليَّ ولم يخرجني من الصف.. كي لا تكون عملية الإخراج نوعاً من القساوة. ولكنه قال لي منبهاً ومحذراً:

ـ ما بدي شوفك الدرس القادم بلا كتاب.

إذا لم أشتر الكتاب حتى الدرس القادم.. معناه سأطرد من المدرسة في ذلك اليوم أيضاً.. عندما يكون الطقس سيئاً.. كنت أذهب إلى أماكن عمل معارف أبي وأقضي بقية النهار عندهم. في أحد الأيام صادفت أبي عند أحد معارفه. لم يقل شيئاً.. حتى لم يسألني.. لماذا لم أذهب إلى المدرسة، خرجنا معاً من منزل صديقه، في الطريق قال لي هذه الكلمات التي لا أنساها أبداً.

ـ كما ترى يا بني.. أينما تذهب يحترمونك ويستقبلونك بالابتسامة

ولكن كن على ثقة أنهم لا يقدمون هذا الاحترام والتقدير لشخصك إنهم يتصرفون معك هكذا لأنك ابني.

بعد مرور سنوات طويلة.. وطويلة جداً.. أحببت أن أقول هذه الكلمات لأولادي.. ولكنها لم تخرج من فمي، لم أستطع إلى ذلك سبيلاً.

إذا اشتريت كتابين من الكتب الثلاثة.. هذا لا يجوز، فينقصني كتاب.. وإذا اشتريت دفاتر تنقص باقي الأدوات.. بدأت غير متحمس للذهاب إلى المدرسة، بعد مرور شهر ونصف من افتتاح المدارس.. أكملت شراء الكتب.. ولكن بقي كتاب الإنكليزي.. لم أستطع الحصول عليه أو شراءه كتاب إنكليزي سميك.. مجلد وهو كتاب غالي الثمن جداً. وكان مدرس الإنكليزي آنذاك السيد /محي الدين رئيف/.. الذي لم نقدِّر قيمته في ذلك العمر يقول:

ـ الأفندية الذين ليس لديهم كتب ليتفضلوا خارج غرفة الدرس.

في الأيام الأولى من افتتاح المدارس.. خرجنا ثلاثة أو أربعة.. وهكذا فالخجل صار سهلاً لأنه توزع على ثلاثة أو أربعة، ولكن بعد ذلك كنت الوحيد الذي لا يملك كتاب الإنكليزي.

ـ قال المعلم ثانية: من لا يملك كتاباً فليقف.

ـ وقفت على قدميْ.

ـ أنت ثانية؟ ألم أقل لك إذا لم تحضر الكتاب، لا تدخل غرفة الدرس، وأخرجني من الصف.

ما أحببت هذا المدرس أبداً.. أبداً.. يجب أن أرى السيد محي الدين رئيف.. واقفاً أمام السبورة وهو يشرح الدرس. حتى أفهمه جيداً.. كان باستطاعته شرح الدروس الإنكليزية لـ ٦٠ ـ ٧٠ طالباً دفعة واحدة.. وخاصة أن في الأسبوع أربع أو خمس دروس. وأعتقد أنه لم يكن في الصف سوى خمسة أو ستة يُصغون إلى دروسه، وجلّ، اهتمامه منصباً

عليهم.. أي أنه لا يُعلّم سوى هؤلاء الطلبة.. لقد ظهر فيما بعد من بين هؤلاء مدرسون في اللغة الإنكليزية.

التقيت بالأستاذ محي الدين رئيف.. بعد انتهائي من العسكرية.. هذا الأستاذ الذي لم أحبه أبداً في المرحلة الإعدادية لكنني أحببته كثيراً في المرحلة الثانوية.. لقد أصبحنا أصدقاء.. ودخلنا في مناقشات أدبية رائعة في منزل /رضا توفيق/.. عرفت منزلته بعد تلك المناقشات، فاتضح لي بأنه الشاعر والأخير من شعراء الأدب.. وأعظم شاعر في تأليف الرباعيات.

ـ شو يا أفندي ألم أقل لك اشتر كتاب /الإنكليزي/ وادخل الصف.

القرار والتصميم والعزيمة لا يساوون شيئاً في بعض الأحيان. عندما يريد الإنسان تغطية فشله في الحياة.

الفارس في سينما أستوريا

في تلك الأيام، كان بائعوا الكتب القديمة.. يفرشون كتبهم.. من مختلف العناوين واللغات، وغالبيتها باللغة الإنكليزية على الأرصفة، كما أن بعض المحلات تبيع الكتب القديمة أيضاً.

علمت أن الكتاب الإنكليزي المقرر يباع هناك، وأن بعض زملائي اشتروه بسعر زهيد.

كان برنامجنا في أحد الأيام درس اللغة الإنكليزية، فعندما نزلت من السفينة لم أذهب إلى المدرسة.. بل إلى مكتبات بيع الكتب القديمة وسألت الباعة عما إذا كان الكتاب عندهم.

ـ هل يوجد عندكم كتاب؟

ـ كان عندنا.. لكن أحد الزبائن اشتراه قبل قليل.. قد يكون عندنا غداً أو بعده إذا أردت أن تحضر.

سألت بائعاً آخر.

ـ هل عندكم كتاب إنكليزي؟

ـ كان عندنا كتابان اشتراهما أحد الزبائن. قد يكون عندنا غداً أو بعده إذا أردت أن تحضر. قبل أن أصل إلى نهاية المحلات التجارية وفي منتصف الطريق، وقفت أمام دار سينما أستوريا، رسم الدخول زهيد جداً. يعرضون فيلمين دفعة واحدة.

أحد الأفلام مقبول عندي، والآخر فيلم ضرب وقتل.. قلت في نفسي: هذا المكان مناسب جداً لقضاء وقتي وبسعر زهيد.

ترددت كثيراً على تلك المحلات التجارية لعلي أجد الكتاب، وعندما لم أجده، دخلت صالة السينما، وفي هذه المرة شاهدت /غراتا غاربو/ الذي شاهدته لأول مرة في فيلمه /متى هاري/ في السينما ذاتها. وكان من أبطال المغامرات المشهورين آنذاك آمثال سينابار.. وايدِّي بولو.. وقد أطلق على أحدهم اسم ماشيست، الذي يضع سبعة رجال خلف بعضهم وعندما يضرب الأول فإن السبعة يسقطون أرضاً كورق اللعب. هذا المشهد لم يكن من المشاهد الكوميدية.

لقد وضع الأولاد الصغار ألقاباً لهؤلاء الأبطال.. كل منهم ابتكر لقباً لبطله الذي يحبه.. من جهتي كنت أحب البطل المسمى الفارس زيب.. كان هذا الفارس البطل خفيف الحركة، يطلق النار بسرعة فائقة فهو أشبه بالمقنع زورو، أعجبت به كثيراً وخاصة عندما يعدو بحصانه خلف القطار الذي خطفه اللصوص ويرمي بنفسه فوقه لينقذ حبيبته، حركاته تعجبني وحصانه كالكلب الوفي.. عندما يسمع نداء صاحبه، ينطلق بسرعة وينجده في المواقف الصعبة.

لم أنس أسماء تلك الأفلام الكوميدية فقد حفظتها في مخيلتي.. أتذكر الآن ثلاثة ممثلين كوميديين مشهورين، لم أعرف أسماءهم الحقيقية.. لكن ألقابهم هي: زيغوتو، ومالك، ولوي.

هارولد لويد اسم حقيقي لممثل هزلي (لوي) يضع نظارة إطارها كبير وبعد عدة سنوات تعرَّفتُ على الاسم الحقيقي للبطل /مالك/. وهو / بوستر كيوتون/. وجهه أحمر، وكأنه يضع عليه قناعاً يظل عابساً دائماً ودون تقاسيم على وجهه، ولهذا فعندما يقع في مواقف مضحكة وهو بهذا الوجه العابس.. كانت تبدو المشاهد كوميدية مرَّة وأليمة ودقيقة جداً.

عارضوا الأزياء

حتى انتقالي للمرحلة الثانوية لم يكن لديَّ محفظة مدرسية /شنتة/. عندما كنت أذهب إلى المدرسة الإعدادية في حي الوفاء، أشعر بخجل شديد لأنني لا أملك محفظة أضع فيها كتبي ودفاتري وطعامي. وكنت مضطراً على حفظ هذه الأغراض ضمن جريدة أحملها معي على شكل رزمة. أما الآن حتى أولاد الأغنياء لا يحبون أن يحملوا محافظهم المدرسية عندما يذهبون إلى المدرسة. فهم يفضلون حمل دفاترهم وكتبهم في أيديهم.

في كثير من الأحيان وربما دائماً كنت أحمل معي وجبة الغذاء إلى المدرسة، وهي مكونة دائماً من رغيفين من الخبز السميك وفي داخلهما قطعتين من السمك المقلي.. وبعض الأحيان بيضتين مسلوقتين وكفتة ناشفة.. كنت أتناول طعامي في مطعم المدرسة.

المعلمون والرجال الكبار يروون على مسامعنا بين حين وآخر، أنه من غير المعيب ارتداء الملابس العتيقة، ولكن العيب أن تكون موسخة ومن غير العيب أن يكون لباسك مرقعاً، ولكن العيب أن يكون ممزقاً بالياً.

أمهاتنا يروون دائما «أدام اللحم.. أدام اللحم».هذه الكلمات شعارات تصف وضع تركيا الاقتصادي السيء آنذاك. لم تكن ألبستي ممزقة ولا وسخة.. الجرابات فقط مرقعة، ولكن كل ما ألبسه كان قديماً.

حذائي مرقع، أضيف له نصف النعل أكثر من أربع مرات. وأتذكر أن والدي اشترى جلداً مدبوغاً ليضع بنفسه أنصاف النعل على أحذيتنا حتى تكون خفيفة السعر علينا. أنصاف النعل هذه تراكمت فوق بعضها.. حتى أضحت سميكة وضخمة.. كي تكون قادرة على حمل المسامير عند إصلاحها. وفي نهاية الحذاء في الرأس والكعب، نضوة حديدية لمنع تآكل مقدمته ومؤخرته.

لو كان أكثر الطلبة مثلي.. من حيث الألبسة والمحفظة وشراء الكتب لما أحسست بكل هذا الإنزعاج والخجل، ولكن أكثرهم وخاصة القادمين من الجزيرة.. جلُّهم من أولاد الأغنياء هندامهم جميل ومرتب يحملون في أيديهم شنتات أنيقة شعورهم لم تكن حليقة مثلي بل مسرَّحة ونظيفة على أكمل وجه. أما أولاد الفقراء.. فكانوا مغلوبين على أمرهم جراء حرب سرية قائمة بينهم وبين أولاد الأغنياء حتى إنهم لا يعاندون في الذهاب إلى المدرسة.

عندما أنظر إلى ألبسة الطلبة العاديين في السفينة أو الشارع أو الحافلة أقول في نفسي: «يا ترى هل حُقَّ لهم أن يلبسوا هذه الثياب الجميلة؟ ومن أين لهم هذا الحق حتى يلبسوها؟ هذه الفكرة، فكرة الحق والوصول إليه لازمتني مدى سنوات طويلة.

هذا السؤال كنت أطرحه على نفسي أكثر من الآخرين.. هل يحق لي أم لا؟ إلى أن اعتدت هذه الأسئلة.. حتى الآن عندما أملك شيئاً ما.. وأنتقل من مرحلة الفقر إلى بحبوحة من العيش.. أسأل نفسي هذا السؤال: «هل يحق لي هذا الشيء يا ترى؟» لأن الإنسان لا يستطيع أن يمتلك شيئاً لا يستحقه.

أتأمل ألبسة الطلبة وأختار منها اللباس الذي يلائمني.

ـ هذا جميل.. ليتني ألبسه.. يا ترى كيف أصبح؟ كم يليق بي..

لا.. لا هذه الثياب التي يلبسها هذا الفتى أجمل كثيراً.. لو عندي ثياب مثل هذه.

أنظر إلى ثياب الطلبة والناس الذين يملؤون الشوارع ووسائط النقل وأختار منها الأجمل.. طبعاً في الخيال.. وكأن هؤلاء الأولاد والناس الذين يرتدون هذه الألبسة الجميلة هم عارضوا أزياء من أجلي، كي أختار منها الأنسب والأجمل.

جاكيت دار الشفقة

كانت تكاليف الذهاب والإياب إلى المدرسة باهظة، يجب أن أجد حلاً لهذه المشكلة.. لقد علمت أن السفن لا تستوفي الأجرة من طلبة دار الشفقة. ولا يطالبونهم بالتذكرة، مازال لدي بنطال دار الشفقة البالي، لكن الجاكيت ما زالت جديدة إلى حدٍ ما. كنت أحمل الجاكيت الذي خاطته أختي على ذراعي، وارتدي جاكيت دار الشفقة وأركب السفينة مجاناً. وعندما أنزل منها لا يطلبون مني التذكرة. وبعد أن اجتاز الجسر أعمد إلى التبديل فأنزع سترة دار الشفقة وأرتدي الثانية. وهكذا أضحت كتبي ودفاتري والطعام، جميعهم في صرة واحدة أحملها في يدي.

أصعب يوم في دراستي هو يوم الخميس، عند عودتي إلى الجزيرة، فالطلبة المقيمون والذين يدرسون في مدارس داخلية كانوا يركبون السفينة للذهاب إلى منازلهم في الجزر المنتشرة في بحر مرمرة، لأن عطلة نهاية الأسبوع تبدأ من بعد ظهر يوم الخميس حتى نهاية يوم الجمعة. يتراءى لي في بعض الأيام أن السفينة ستغرق من كثرة صراخهم وحركاتهم، لأنهم يركبون في الدرجة الأولى،. أما أنا فكنت دائماً من ركاب الدرجة الثانية. وبما أنني من طلاب دار الشفقة المزيفين كنت أتحاشى اللقاء بزملائي، فأجلس في زاوية ضيقة من صالة الدرجة الثانية حتى لا يراني أحداً منهم.

في أحد الأيام ركبت السفينة في الدرجة الثانية مرتدياً جاكيت دار الشفقة، فالتقيت بأحد الأصدقاء الذين يعرفون أنني في المدرسة الإعدادية. لم يكن قد رآني بعد.. ومن غير الضروري أن يراني.. عندما رأيته وقعت في حيرة من أمري.. أسرعت في النزول ومن سرعتي الزائدة تعلق إصبعي.. تألمت كثيراً وتدحرجت إلى أخفض مكان في قاعة الدرجة الثانية والدموع تسيل من عيني لشدة الألم.. بكيت كثيراً وانحبس الدم تحت ظفري، لم يغمض لي جفن جراء الآلام الشديدة، عندما سألني أبي عن وضع إصبعي، قلت له أن أحدهم شدَّ على إصبعي بين طرفي الباب. كان أبي يردد: «آه ولك ابني.. خذ حذرك واه.. واه». بعد زمن قصير.. سقط الظفر وجفَّ الدم تحته، وظهر الظفر الجديد.

كان شعوري عميقاً لهذه الفوارق بين الغني والفقير. منذ نعومة أظفاري بقيت متقوقعاً ومنطوياً على نفسي لسنوات طويلة.. هوَّنت الأمر على نفسي إلى حدٍ ما وربما في تلك الأيام التي ذقت فيها الأمرين في طفولتي.

جليد أستانبول

كان عدد الحصص الدراسية في الأسبوع ليومين متتاليين تصل إلى ست حصص، أربع منها قبل الظهر واثنتان بعد الظهر.. وكان يوم الأربعاء دواماً كاملاً أي ست ساعات.

الحصة الأولى تبدأ في الثامنة صباحاً، وبما أني استغرق في قطع المسافة من الجسر إلى المدرسة مدة نصف ساعة سيراً على الأقدام، يجب عليَّ أن أكون على الجسر بتمام الساعة السابعة والنصف وبما أن زمن قطع المسافة بين الجزيرة واستانبول يستغرق ساعتين أو ساعة وخمساً وأربعين دقيقة. وحتى أكون على الجسر في السابعة والنصف، يجب أن

أركب السفينة عند الخامسة والنصف صباحاً. وحتى استقلّ، السفينة في الخامسة والنصف، يجب أن أنهض من النوم في الخامسة على أبعد تقدير.

ثلاث ساعات ذهاب.. وثلاث ساعات إياب.. أي ست ساعات من اليوم أقضيها في الطريق.

تعرضت استانبول في ذلك العام لشتاء قارس.. بارد جداً. سمعت المتقدمين في السن يقولون: هذه العواصف الباردة جداً تضرب استانبول مرة كل أربعين عاماً.

عندما خرجت من البيت في الخامسة صباحاً.. كان الظلام ما يزال مخيماً على الأرض، وقد غطى الجليد الطرقات والمرتفعات والمنحدرات. أمشي بحذر على هذه المنحدرات خوفاً من التزحلق والسقوط، وكنت أعود إلى البيت والظلام مخيم على الأرض أيضاً.. أصعد ذلك المنحدر متحاشياً الانزلاق.. لأن المسامير الموجودة في حذائي كانت مهيأة وجاهزة. أصل البيت وأنا مرهق من التعب أتناول طعام العشاء.. وبعدها يضغط النعاس على عيوني.. فأخلد إلى النوم دون مراجعة دروسي أو كتابة وظائفي.

نعم أنا قررت وقراري قطعي بأنني سأغطي الفشل الذي لازمني مدى حياتي.. ولكن ما نفع التصميم والعزيمة والقرار القطعي؟

كانوا يقسمون محصلاتنا الدراسية على ثلاثة فصول (الجلاءت المدرسية) وعندما استلمت الجلاء المدرسي كان تقديري (ضعيف) في اللغة الإنكليزية أما المواد الأخرى فهي جيدة.. وكنت من الأربعة أو الثلاثة الأوائل في الصف.

وفي أحد أيام الشتاء القارس والمخيف حيث غمرت الثلوج الطرقات إلى نصف متر تقريباً.. خرجت من المدرسة والعاصفة الثلجية تهز

أعماقي، والماء ينفد إلى داخل حذائي.. والجو بارد قارس. شعرت بأن يدي اللتان تحملان أغراضي قد تجمدتا. وصلت الجسر سيراً على الأقدام لم أستطع تبديل ثيابي في الطريق، وعندما نزلت إلى الطابق السفلي من السفينة خلعت سترتي العادية ولبست سترة دار الشفقة.

الجبال الجليدية تغطي المضيق كلياً. هذه القطع الجليدية والمنفصلة عن (الدانوب) تصب في البحر الأسود ومنه إلى مضيق وبحر مرمرة. كان ميناء استانبول مغطى بالجليد. ويمتلئ باضطراد مع مرور كل ساعة ودقيقة.. كل قطعة جليدية كانت بحجم بناية مؤلفة من طابقين أو ثلاثة. لو قدَّرنا أن ثلثي حجم الجبال الجليدية تحت الماء.. لعرفنا كبر وضخامة الجبال التي كانت تدخل إلى المضيق قادمة من البحر الأسود.

راقبت الجبال الجليدية فترة عبر زجاج نافذة السفينة، ثم بدأ الجو يكفهر رويداً رويداً.. وقد مضى وقت طويل على موعد تحرك السفينة التي ظلَّت راسية وجميع السفن الأخرى مثلها لا تستطيع الإبحار في هذا الجو العاصف الرديء. بدأ الركاب يتدبرون شؤونهم عندما قطعوا الأمل من السفر.. كان بعضهم يأكل الكعك والخبز والزيتون والحلاوة والجبنة.. وبعضهم يحاول النزول من السفينة للمبيت عند أحد أقربائه أو معارفه.

وأنا ماذا سأفعل؟ من المؤكد أنهم لن يسمحوا لي بالخروج من السفينة في مثل هذا الجو. ولكن كيف أتدبَّر أمور طعامي؟

هناك شخص من معارف أبي في الجزيرة اسمه مصطفى أفندي، يعمل خادماً في أحد متاحف الآثار، كان يتوجه كل يوم من الجزيرة إلى عمله ويعود إلى منزله مساءً.. هذا الإنسان الفقير مضطر جداً للسكن في الجزيرة.. والبقاء فيها. مصطفى أفندي وزوجته كانا يعتنيان بامرأة..

مشلولة.. عاجزة.. مسنة.. ولكنها غنية ومقابل ذلك أعطت المرأة منزلها لمصطفى أفندي وزوجته بعد موتها.

ذهبت ذات مرة مع أبي إلى بيته في إحدى أمسيات رمضان لتناول الإفطار كانت المرأة صاحبة البيت.. بدينة.. مشلولة.. لا تستطيع التحرك من فراشها.. توحي ملامح وجهها انطباعاً بأنها صاحبة بيت من الدرجة الأولى /هانم أفندي بكل معنى الكلمة/.. طيبة القلب، تحب ابن مصطفى أفندي الصغير حبها لحفيدها.

رآني مصطفى أفندي وأنا قابع في تلك الزاوية التي ملأها دخان السجائر.. كنت جالساً أفكر من ميناء استانبول إلى مضيق بحر مرمرة الممتلئ بالجبال الجليدية.. وناداني لأحضر إلى جانبه، كان يرتدي لباساً كحلياً.. تابعاً للمتاحف ويضع على رأسه قبعة نظامية.. يُعرف منها أنه يعمل خادماً في المتاحف. جلسنا هناك بعض الوقت سمعت البعض يقولون: إنهم لم يروا شتاءً قاسياً بهذا الشكل.. والبعض يرددون أن مثل هذا الشتاء يحصل كل أربعين عاماً مرة. وقال أخر أنه منذ زمن قديم تجمدت مياه الخليج كلياً من البرد القارس.. ويحكى أن شخصاً أراد اجتياز الخليج إلى الضفة الأخرى مشياً فوق البحر الجليدي، وعندما وصل إلى منتصف الطريق.. تكسر الجليد وغرق في البحر.. وقد كثرت الأحاديث في هذا الجو عن الثلج والبرد والحوادث المرافقة.

أخذني مصطفى أفندي معه وخرجنا من السفينة.. ركبنا حافلة حتى وصلنا منطقة سكنه ودخلنا من الشارع العام إلى زقاق ضيق.. مغلق.. وهناك تقوم عمارات استانبولية قديمة مكونة من ستة طوابق، مبنية بالأحجار ومسقوفة بالأخشاب.. سكان هذه البيوت من الطبقة الوسطى.. أو شبه أغنياء.. الأدراج مصنوعة من الرخام.

دخلت مع مصطفى أفندي أحد البيوت المتشابهة مع بعضها والمؤلفة

من ثلاثة طوابق قال: إن قريبه يسكن هناك، عجوزان مسنان سعيدان، وعندهما ابنتان بالغتان جميلتان يسكنون الطوابق الثلاثة، وعندما تنظر إلى أثاث منزلهم تدرك على الفور أن حالتهم المادية جيدة.

شرح لهم مصطفى أفندي ما جرى لنا طلبوا منا الجلوس معهم على المائدة مباشرة.

كانت ضحكاتهم تملأ المنزل لتهتز معها زجاج النوافذ.. كانت الفتاتان من مشجعي نادي /غلطة سراي/ الرياضي. أما الأب فكان من مشجعي /فنار بقجة/ من خلال هذا المرح تحسب أنك في ملعب رياضي، كل واحد يشجع فريقه. الفتاتان تتحدثان صراحة أنهن معجباتان ببعض لاعبي الكرة الوسيمين.. وتعبران عن مدى ارتباطهن بهم دون حرج من والدهن.. ضمن هذه الهفوات والمزاحات العائلية.. كانت الفتيات يتصرفن تصرفات طفولية بحتة.. مثلاً يجلسن في حضن والدهن بين حين وآخر.. والوالد يقبلهن، من جهتي لم أصادف عائلة تحصر مناقشتها في كرة القدم. ينطلق المزاح العشوائي بين أفرادها.. وخاصة علاقة الأب مع ابنتيه.. بقيت لعدة دقائق في حيرة من أمري وأمرهم.. لقد ترعرت في جو محافظ إلى أبعد الحدود.. وعزيت، تصرفات تلك العائلة وخاصة أمام الضيوف أنها نوع من الازدراء أو اللامبالاة.. وأستطيع القول أنه لا وجود للحشمة والاحترام للذات وللآخرين.. كيف تجلس فتاة وتقفز في حضن والدها وكأنها طفلة صغيرة.. وترسل القهقهات العالية أمام الضيوف.. وتتصرف تصرفات صبيانية.. ما هذا الغنج والدلال، وما هذا الأب؟ إذا كان ما رأيته في تلك الأمسية حدثاً واقعياً فهذا طبيعي بالنسبة لي، ولكني شخصياً لا أحبذ مثل هذه التصرفات ولا تعجبني.

أعود بذاكرتي إلى تلك العائلة.. وما يحيِّرني.. أنه لم يبق شيء في

ذاكرتي عن ربة المنزل.. ربما كانت قد عزلت نفسها مثل باقي الأمهات وانزوت في زاوية.. حتى لا يراها أحد.. وأفسحت المجال لعائلتها وابنتيها.. وليدات الجمهورية الحديثة.. التي زاد فيها عبث الحرية غير الصحيحة.

ظلت السفن راسية في الميناء ثلاثة أيام.. وليلتين من جراء الجبال الجليدية وأغلقت المدارس أبوابها من شدة وقساوة الشتاء.

الرسم بالقلم الرصاص

حضرت ذات يوم إلى المدرسة، فوجدت أن صفنا قد انتقل إلى غرفة أخرى.. كان الصف الجديد على شكل مدرج.. أحببت أن أجلس في المقعد الخلفي حتى لا يراني المدرسون.. وربما يكون هذا ناجم عن خوفي، وبما أن الصف على شكل مدرج.. فكانت المقاعد الخلفية بعيدة عن أعين المدرسين.. ولكنها تقع في أعلى نقطة من الصف، الزميل الذي يجلس قربي يكبرني بعامين تقريباً.. ويرتدي ثياباً جميلة وأنيقة وهو شاب وسيم.. ملامحه تدل على أنه من عائلة غنية. يجلس دائماً في مكانه ويبدأ بإخراج الأوراق التي تستعمل في الرسم، من جميع الأشكال والأحجام.. ويخرج الأقلام المتنوعة للرسم والمحايات والدهانات الحجرية وأقلام التلوين التي كانت يستعملها وهي على شكل بودره، وأدوات أخرى غيرها.. للرسم.

لا يتوقف عن الرسم في جميع الحصص والدروس.. حتى عندما يبدأ المدرس بشرح الدروس، فإن هذا الشاب لا يبالي بأحد يرسم ويرسم.. لم يكن يهتم بشيء آخر غير الرسم يرسم صور الفنانين والفنانات من المجلات.. بعد تكبيرها. يرسم بعض الصور بطباعتها /صورة طبق الأصل/ ويكبرّ حجم بعضها بطريقة الخطوط والمربعات، ورسوماته لصور الممثلات تظهرهن أجمل من الصورة العادية في المجلات. يضع ظلالاً

لرسوماته بواسطة أقلام التلوين. كما يضع المعجون الملون على ورقة سميكة وينشر اللون الذي يريده بواسطة قلم خاص مدبب في مواضع الخيال والظل يستعمل الممحاة بعصبية زائدة ويستخدم الظلال الفاتحة والفاقعة في أحجار الرسم. وكان يظهر خصلات شعر الفنانات اللواتي يرسمهن.. وبشكل واضح.. وينجح كثيراً وبشكل مثير في إعطاء التموجات الرائعة للشعر.. وكان نجاحه رائعاً خاصة في رسم وجنات الفنانة.. عن طريق إعطاء الظل والظليل مع حركات وتعابير وجهها وخدودها. كان يأخذ الصور من المجلات القديمة.. فهو يعرف أسماء الممثلات اللواتي يرسم صورهن. ومن جهتي أحترمت فيه هذه النفحة الفنية الرائعة.

أنا الآخر.. كنت أرسم إلى حدٍ ما، ولكن رسوماتي لم تكن مثل رسومات زميلي الجالس بقربي. وبتأثير منه بدأت أرسم بعض الصور عن طريق الخطوط، دون أن أملك مثله أدوات الرسم. بل قلم رصاص وورقة مقوى للرسم.

كنت أتغيَّب عن المدرسة لفترة أسبوع أو عشرة أيام.. طبعاً اضطرارياً في الأجواء الماطرة والعاصفة والمثلجة. لأن السفن تتوقف عن العمل على خط الجزر الموجودة في بحر مرمرة. يعرف أبي أنني أبقى عند قريب أو صديق في استانبول ولهذا لا يفكر بوضعي كثيراً.. هنالك أناس كثيرون أعرفهم من أقرباء وأصدقاء.. أستطيع البقاء في منازلهم. ولكن إذا كانت السفينة ستبحر يجب عليَّ أن أعود إلى المنزل مساء كل يوم.

لم أفكر أبداً بالهرب، لكن قبل أن تقترب السفينة من الجسر، وعندما أصعد إليها أشعر بعدم الرغبة في الذهاب إلى المدرسة.. في مثل هذا اليوم.. ركبت الحافلة وذهبت إلى منزل يوسف ابن عمي شعبان، يقع منزله على امتداد حوض النهر. وابن عمي يوسف شابٌ قويٌ طويل

نحيف لونه حنطي، وسيم إلى حدٍ ما. عمره بين الثلاثين والخامسة والثلاثين علاقته مع والده مقطوعة بسبب كثرة الخلافات بينهما طبعه يشبه طبع والده، إلى جانب عمله يعمل حارساً في /ببك/ ومن المحتمل أن يكون له عملٌ آخر لدى إحدى العائلات الغنية ليؤمن لعائلته الكبيرة المال اللازم للعيش، للعم يوسف زوجتان وأطفال لا أعرف عددهم، وبما أنه رجل قاسي الطباع كباقي رجال عائلتنا.. لذلك تبقى الخلافات الزوجية غير ظاهرة للعيان؟

إنها المرة الأولى التي أذهب فيها إلى بيت العم يوسف، كانت تلك الأخيرة. وبينما أنا في الحافلة، بدأ الثلج يتساقط بغزارة دون انقطاع طوال النهار. وبدأ الجليد يملأ الطرقات وسط هذه العاصفة الثلجية.

في هذا الجو العاصف لن أتمكن من العودة إلى بيتنا.. بقيت تلك الليلة في منزل عمي يوسف أمضيتها وأنا ارسم وجهاً أنثوياً مثل زميلي.. وحاولت جاهداً أن أجعل رسمي مشابهاً لرسوماته وأظهر جدائل الشعر.. وقسمات الوجه والخدين. ثم أخذت برادة قلم الرصاص الأسود بالسكين ووزعتها على الصورة ولكن الرسم لم ينجح كما أردت. لأنني لم أكن أملك من أدوات الرسم سوى قلم رصاص من ماركة التمساح نمرة ٣، ولهذا السبب لم أكترث لعدم نجاح الرسم.

بعد تناول العشاء غادر عمي المنزل متوجهاً إلى عمله كونه يعمل حارساً. بعد فترة قصيرة من الزمن، مرض العم يوسف وتوفي نتيجة المرض وهو في ريعان شبابه. كان ذهابي وعودتي من وإلى استانبول من أجل المدرسة.. صعباً جداً، والصعوبة فيه هو حملي سترة دار الشفقة كل يوم. أحياناً كنت أبقى أكثر من ست ساعات في الطريق.. لذلك لم استطع الدراسة كما يجب، وخاصة أن مصاريف الطريق كانت كبيرة.

لقد عثر أبي على حلٍّ لتذليل كل هذه الصعوبات وهو: أن أُودع السترة عند أحد معارفه عندما أذهب إلى المدرسة. وهو العم ابراهيم الذي يسكن في أحد الخانات في حي (تختة قلعة).

عندما كنت أنزل من السفينة عند الجسر.. توجب عليَّ الذهاب إلى الخان في /تختة قلعة/ لأرتدي السترة التي تركتها قبل يومٍ هناك. وأترك سترة دار الشفقة ومن ثم أذهب إلى المدرسة. وعند الانصراف أعمل العكس من المدرسة إلى /تختة قلعة/ ومنها إلى ميناء السفن.

عندما بدأت أتصرف هكذا أضحى الوقت الذي أقضيه في قطع الطريق طويلاً ليمتد إلى سبع ساعات، لكن على الأقل تخلصت من الخجل الذي يلاحقني، وأنا أحمل الجاكيت والسترة يومياً.

طالب في المدرسة يقضي أكثر من سبع ساعات يومياً في الطريق.. ومع ذلك قطعت عهداً على نفسي بالنجاح دائماً.

وجدنا حلاً آخر.. أكثر سهولة: وهو أن أبقى لبعض الليالي في غرفة الرئيس إبراهيم في خان /الطنبرجي/ وهكذا سأربح الزمن والوقت من أجل الدراسة وأتخلص من التعب.

هناك حارتان في استانبول تفشت فيهما الرذيلة والاغتصاب وقلة الأدب والأخلاق.. والقمار.. والتهريب والسرقة، والجريمة والنصب والاحتيال.. والمشاجرات.. وتعاطي المخدرات وكل الأعمال السوداء التي يَقرفُها البشر.. هاتان الحارتان هما غلطة، وتختة قلعة.

كانت تختة قلعة أكثر سوداوية من غلطة. ولكن الأماكن العمومية وتجارة النساء كانت في «غلطة» أكثر منها في «تختة قلعة»، تجارة النساء رائجة في غلطة أما في تختة قلعة فيمكن أن يباع فيها كل شيء غير النساء.

وإذا لم تجد القنبلة الحقيقية تجد المزيفة منها ولكن من تجد فيها القنبلة الذرية..

تعرفت على هذه الأجواء في /تختة قلعة/ أثناء وجودي مع السيد إبراهيم في غرفته الرطبة والمظلمة.. لقد عشت الحياة الجامعية الحقيقية.. بكل أنواعها وثقلها وتفرعاتها وسلبياتها وإيجابيتها وأنا في عمر ثلاثة عشرة عاماً.. مارست التجارب الرائعة والفنية بكل ألوان الطيف المعروفة. ولكن التجارب التي حصلت كانت مقرونة بالسقوط، كنت كالمهرج الذي يسير على سلك في الهواء.. خلاصه الوحيد.. التوازن الذي يخلصه من السقوط إلى الأسفل. لو فقدت توازني لوقعت في مستنقع الشقاء والرذيلة.

خان الطنبرجي

يقال إن بعض الخانات في /تختة قلعة/ بناها.. المعمار العثماني المشهور /معمار سنان/.

كان الدخول إلى خان الطنبرجي عبر باب حجري على شكل إطار، وعلى طرفي الإطار سلسلتان حديديتان كبيرتان متدليتان وكأنهما علقتا على جانبي الإطار الحجري بما يشبه الزينة أو الديكور.. وتستطيع الدخول إلى ساحة الخان بالنزول درجة نحو الأسفل. وهكذا تظل الأوساخ والقاذورات والفضلات في أرضية ساحة الخان، دون انتقالها خارجه وبالعكس.

عندما تدخل إلى الخان.. ترى غرفة السيد إبراهيم مباشرة إلى يسارك غرفة أبعادها لا يتجاوز ثلاث خطوات تستطيع دخولها عبر درجة واحدة نحو الأسفل

كان وجهها (الدرجة) قد تآكل من كثرة المرور عليها. أي أنها أصبحت بلون أسود. إلى جانب الباب الخشبي للغرفة مباشرة، نافذة

صغيرة. زجاجها لا يترك مجالاً لدخول أشعة لشمس إلى الغرفة، بسبب تراكم دخان السجائر والحطب وجثث الذباب والبعوض.. والأوساخ الأخرى.. مصباح متوهج دائماً مدلّى من السقف. وبدونه تصبح الغرفة مظلمة.

وأمام النافذة طاولة صغيرة (الطاولة الحرفية أو المعدة للبيع). وفي وسط الغرفة كرسيان مقعران محدبان.. معوَّجان.. لا تستطيع أن تعطيهما شكلاً معيَّناً. ومقابل الباب، إلى جانب الجدار.. سرير مصنوع.. من صناديق السكر الفارغة وعليه فراش قذر.

عندما تدخل الغرفة.. تفاجئك روائح العفن والرطوبة، وروائح الزيوت القديمة.. والأوساخ والدخان التي تلفح الوجه وهي أشبه ما يكون بحجاب نسائي شفاف من الحرير.

إلى جانب غرفة إبراهيم مستودع يستعمله شخص يجلس في المقهى الكبير من الصباح حتى المساء. هذا الشخص لا ينقطع عن التدخين.. ويقال أنه يتاجر /بالبورصة/.. ويخسر الأموال الطائلة. كانت أصابع يده اليمنى قد تحولت إلى ركام من القاذورات من دخان السجائر.

بدت أسنانه خضراء كعشبة البحر.. يقالون أنه يحمل شهادة جامعية ويتقن الفرنسية. يستخدم هذه الغرفة كمستودع لزيت الزيتون ويقال أن أصله من (أيفاليك).. لقد رأيته بعد ذلك كثيراً في المقهى الكبير الموجود (تحت الخانات الأربع).

مقابل غرفة لاعب (البورصة).. غرفة البواب الرئيسي لخان الطنبرجي (دورسون أفندي). يتم الصعود إليها بدرجتين، وهي من أنظف غرف الخان. أثاثها جميل جداً. دورسون أفندي هذا من شرق الأناضول، ويرتدي قميصاً أبيض وطقماً كحلياً. تلف رقبته لفحة. ويضع في أصابعه خواتم متنوعة، أسنانه مذهبة.. نحيل الجسم.. ويشرف على

نظافة الخان شخصان.. يسكنان في خان الطنبرجي يخافان دورسون أفندي.. أما باقي الناس فيحترمونه كثيراً.. لست أدري.. من هو صاحب الخان؟.

ولكن دورسون أفندي.. يتابع جميع معاملاته.. لم يكن يسمح للعابثين والفوضويين الدخول إلى الخان ولا يؤجر الغرف إلا لمن يثق بهم.

هناك عمال كثيرون يسكنون في خان الطنبرجي، منهم باعة الخضار والفواكه.. والتجار والجوالون الذين يبيعون المرايا.. والسكاكين. وكشكول من المواد.. يتواجد العاملون في الخان على مدار ساعات الليل والنهار.. في الطابق الأعلى.. يسكن بائعو الغُريبة.. والحلويات والفطائر.. هؤلاء يعملون في الليل.. ويرسلون حلوياتهم إلى الأفران بعد منتصف الليل. ويجلبونها من الفرن عند الصباح الباكر. وفي النهار كانت تفتح ورشات الخياطة والدانتيل. والإبريم وبائعي الأزرار. كان البائعون يتوجهون إلى الساحة قبل شروق الشمس، ويرتبون بضائعهم المتنوعة على العربات والطاولات.. ويقوم بعض الأفراد بسحب الماء من بئر الخان بواسطة مضخة يدوية...

في إحدى الغرف كان أحدهم يصنع دهاناً للأحذية.. وفي بعضها الآخر تصنع المربيات والشوكولاته (سكريات). ومع بزوغ الفجر.. يغادر الباعة باب الخان بشكل سريع ومثير. هذه الحياة أعجبتني كثيراً. فالجميع أصبحوا يعرفونني ويتصرفون معي باحترام شديد وكأنني أكبر منهم سنّاً.

إبراهيم أبو الرؤوس

الريّس إبراهيم من مواليد (أدرنة)، نحيل الجسم متوسط القامة.. أفندياً من أسياد (كولهان).. وكباقي أهالي (تختة قلعة).. يحمل سكيناً في وسطه، ولكنه لم يكن من القبضايات والغوغائيين والمتشاجرين.. يدير أعماله بدهاء وذكاء عاليين، ويخطط لأعماله بدقة متناهية. وكثيراً،

ما تُرتكب الأخطاء لدى الكتابة بالتركية العثمانية. إذا لا أحد يستطيع الكتابة بالتركية القديمة دون خطأ. معنى ذلك أن لديه أرضية علمية وثقافية جيدة.. وحصّل تعليماً عالياً. السيد إبراهيم يكتب بالتركية القديمة دون أخطاء، وبخط جميل ومقروء.. وهذا يدل على وصوله لمرتبة عالية من العلم.

يرتدي دائماً ثياباً بلون أسود أو كحلي، مع قميص أبيض، ولم يضع لفحة على رقبته، وبما أنه يطهو ويبيع رؤوس الأغنام.. فأطلقوا عليه اسم (إبراهيم أبو الرؤوس). وفي أستانبول وحدها أربعة أو خمسة أفراد مثل إبراهيم يبيعون الرؤوس، وكل واحد منهم يستخدم عدداً من بائعي المفرق.

كان البائعون يتوجهون ليلاً إلى أحياء معروفة من أستانبول لبيع الرؤوس.

تقاسم بائعو الرؤوس أحياء مدينة أستانبول.. بعض هذه الأحياء هامٌ وبعضها الآخر قليل الأهمية.

لقد توزعت الأحياء بدقة على بائعي الرؤوس، وعندما يدخل أحد الباعة حيّاً ليس له، تحصل المشاجرات العنيفة تصل إلى حد استعمال السكاكين، وقد حضرت بعضها.

اختار إبراهيم أبو الرؤوس أفضل الأماكن في أستانبول. مثل أحياء (تختة قلعة، والجامع العربي، وقرة كوي). وقد أفرد لهذه الأحياء أفضل البائعين لديه. كلّف أحد الحمالين بإحضار الرؤوس المسلوخة والمنظفة والمقطعة ضمن سلال من القصب.. بينما عامل آخر يوقد النار في الموقد من الجهة الخلفية للخان. ثم يضع قدراً نحاسياً كبيراً فوق الموقد، ويملؤه بالماء، ثم يضع الرؤوس داخله. ويستمر غليان الرؤوس في الماء منذ الصباح حتى العصر، حيث يُنزل القدر عن الموقد ويُترك حتى يبرد. ثم

تزال طبقة الدهن التي طفت على سطح ماء القدر لتوضع في وعاء آخر للبيع.

يضاف إلى الماء الباقي في القدر، كمية من الحمص، وتطبخ من جديد وتباع مع الرؤوس. يضع الباعة الرؤوس داخل صناديق زجاجية بعد تقطعها لأحجام مختلفة.

مكثت مع الريّس إبراهيم ردحاً من الزمن في خان الطنبرجي، ولم أذق خلالها طعم لحم الرؤوس أبداً.

كان الباعة يقطعون الرؤوس جيداً ويحضرونها بإتقان على أطراف الصندوق الزجاجي، ويضعون الحمص والمرقة في وسطها، ثم يُقطّعون البصل إلى قطع صغيرة ويمزجونه بالبقدونس الناعم، ويضعون المزيج داخل صحون متنوعة الأشكال والأحجام، ويقدمونها للزبائن مع الشوك والملاعق.

يراقب إبراهيم الباعة باستمرار، في أماكن بيعهم حتى منتصف الليل.. يعني أنه يذهب إلى أماكن وجودهم.. ثم يعود ويخلد للنوم، ويبقى الباعة حتى الثالثة والخامسة صباحاً.. حتى يبيعون كل ما في الصندوق الزجاجي، بعدها يعودون إلى الخان ويقدمون حسابهم لمعلمهم.

المقاهي الصباحية

يلقبون بائعي الرؤوس في استانبول باسم /أبو السقاطات/. وهناك تاجر ألباني /أرناؤوطي/ يبيع السقاطات للباعة، وينادونه بالحاج هذا التاجر يلازم إبراهيم باستمرار.. ومدين له. كان الحاج يغضب من إبراهيم ومع هذا يقرضه المال.. وعندما يجلسان للمحاسبة يبدأ الحاج بالصراخ والوعيد.. بينما إبراهيم يظل هادئاً غير مبالٍ، ويأخذ الأمور بسهولة ومكر ودهاء، ويتركه حتى يهدأ روعه ويخف غضبه، ثم يبدأ بتسجيل دينه الذي يزداد باضطراد وهو يبتسم.

إلى جانب خان الطنبرجي محلات تجارية متلاصقة، محلات لصنع المسابح، (مسبحة) يديرها أحد التركمان، ثم محل بقالة، ويليه مقهى ومقابله خان آخر، وعلى الجهة المقابلة محلات للتجارة، ومحلات لبيع الألبسة والأحذية المستعملة، ثم خان آخر لبيع الرؤوس.

صاحب هذا الخان يدعى شكري وكان سابقاً يعمل بائعاً عند إبراهيم.. تركه ليعمل عند بائع آخر ثم أصبح معلماً في هذا المجال ومن ألد أعداء إبراهيم.

لمحت، شكري في تلك الأطراف.. إنه رجل حقير بكل معنى الكلمة.. يبدو دائماً ثملاً من شرب الخمر يقف أمام الطنبرجي وينادي على إبراهيم بكلمات بذيئة ليغيظه.. ويزداد صراخه ما دام إبراهيم صامتاً. وإبراهيم منهمك في تدقيق ومراجعة حساباته.. ومن عادته أنه عندما يحضر شكري مقابل محله، كان يغلق باب الخان، ويحاول أن لا يسمع شيئاً.

لدى إبراهيم عامل شاب اسمه علي، لم يستطع هذا الشاب تحمل كلام شكري.. أسرع نحو شكري يريد ضربه، لكن معلمه إبراهيم منعه من ذلك.

علي شاب وسيم لم يخدم الجندية بعد.. عمره بين الثامنة عشر والتاسعة عشر. كان إبراهيم وعلي يتقاسمان الفراش نفسه. وعندما يغادر إبراهيم فراشه صباحاً.. يحضر علي إلى الخان ويضع عدة البيع ويدخل إلى الفراش وينام حتى العصر. وهكذا كان إبراهيم ينام في الليل وعلي ينام في النهار.

وفي الليالي التي أكون فيها هناك.. كنت أنام على مقعد خشبي طويل فعلمت بطريقتي الخاصة أنهما يتعاطيان المخدرات.. ومع ذلك

يحاولان أن لا يظهرا لي شيئاً من عادتهما هذه لأنهما يحترماني كثيراً.. ويقولان لي: السيد البابا ويأخذان حذرهما.. حتى لا أعرف شيئاً لخوفهما من أبي.. هم قلة، الذين لا يتعاطون المخدرات.. وخاصة في هذه المنطقة التي تغصّ، بالمدمنين إلى حدٍ كبير.. أما الهيرويين فكان قليل الاستعمال. إبراهيم وعلي يتعاطيان شرب المخدرات ولكنهما غير مدمنين.

علي بائع جيد مركز بيعه على جسر غلطة أمام زاوية البنك الزراعي. وكان إبراهيم ينهي جولته على الباعة عند علي ثم يعود إلى الخان. أما علي فينتهي من بيع الرؤوس عند الثالثة أو الرابّعة صباحاً ثم يجلس في مقهى صباحي وبعدها يعود إلى الخان.

ذهبت معه ليلتين أو ثلاثة.. حتى لا أظل وحيداً في تلك الغرفة القذرة والمظلمة.. وبقيت معه حتى الصباح في محل بيعه في جسر غلطة. لأنني لم أستطع الدراسة.

عندما انتهى علي من بيع بضاعته كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحاً حيث يُفتح الجسر لعبور السفن من المضيق، وهذا معناه توقف مرور المشاة على الجسر إلى الضفة الأخرى. لذلك يجب الانتظار حتى يفتح الجسر ثانية كي نمر عبره. دخلنا إحدى المقاهي الصباحية الموجودة على شارع خلف المصرف الزراعي.. هذا المقهى يظل مفتوحاً طوال الليل والصباح (٢٤ ساعة). ميزة هذا المقهى أنه يستوفي القليل من النقود بعد منتصف الليل. كان جو المقهى خانقاً من الدخان والروائح الكريهة والعجائز والأطفال الصغار، والمتشردين ذوي الذقون والشعور الطويلة.. وبما أن النوم ممنوع داخل المقهى فقد اسندوا رؤوسهم فوق الطاولات.. وناموا بينما يقوم النادل بتوزيع الشاي الأسود الثقيل بكاسات رفيعة خاصة.. لمدمني المخدرات.. جلت، بأطراف عيناي المفتوحتين أرجاء

المقهى الذي يعج بالناس. جميعهم مرهقون وعيونهم مغمضة من شدة النعاس.. الواعون منهم يتحدثون بأصوات خافتة.. والبعض الآخر يتمايل نحو اليمين واليسار والأسفل وهم نيام على مقاعدهم.

إلى جانب طاولتنا خمسة رؤوس آدمية موسدة فوق طاولة الرخام القذرة.. كانوا بين حالة النوم واليقظة خوفاً من الشرطة التي تمنع رواد المقاهي الصباحية من النوم داخلها.

كما أن خدم المقهى، يشرعون في تطبيق النظام وهم يغنون بأصوات عالية ليمنعوا الزبائن من النوم. رفع أحدهم رأسه عن الطاولة كان وجهه غير معروف لكثافة شعره.. عيناه عالقتان في وجهه.. إنه صبي في مقتبل العمر.. نظر إليَّ بدقة وأنا أرتدي سترة دار الشفقة.. وشارة المدرسة مكتوبة على ياقة السترة. وسألني:

ـ هل أنت طالب في دار الشفقة؟

قلت: نعم.

قال: إنها مدرسة ممتازة.. أنا أيضاً كنت أدرس فيها.. وبقيت هناك حتى الصف التاسع.. بعدها خدعني الشيطان وهربت منها. وهكذا انتهيت إلى هذه الأماكن الحقيرة.. إياك.. ثم إياك يا أخي أن تهرب من المدرسة.. ادرس جيداً! فلن تجد مدرسة مثلها.. إنها أم حنون لم أعرف قيمتها إلا الآن.

خرجت الكلمات الأخيرة من فمه بصوت أشبه بحشرجة الموت، ثم عاد وأسند رأسه ثانية فوق الطاولة ونام.

بعد قليل فُتح الباب، فتدفقت رياح الزمهرير نحو الداخل، لتضرب سحب الدخان الكثيفة.. دخل رجل وهو يصيح بصوت عالٍ غير مفهوم.. في تلك الأيام كانت الدولة تتقاضى رسوم المرور على جسر غلطة.. ذهاباً وإياباً.. يأخذها جباة يقفون على جانبي الجسر يسمونهم /

جباة الجسر/ يجمعون النقود من المارة. يرتدون لباساً مثل الجلابية مع صدرية لها جيوب.

هذا الرجل يلبس مثل جباة الجسر.. وكان واضحاً أنه من الجباة الذين سيقفون في النوبة الأخيرة.. قبل فتح الجسر أمام المارة أو المشاة.. بعد فترة فهمنا قصده.. وماذا يريد. يقال أن ولداً من أولاد الكيف والذين كانوا يسمونهم /بابامجي/ قد سرق ساعته وجاء يبحث عنه في المقاهي الصباحية.

لأول مرة أسمع كلمة /بابامجي/ وهي باللغة الأرغية (أرغو).. هذه التسمية أطلقت على الأولاد الشاذين الذين كانوا يجلسون في أحضان الرجال الكبار، ويقومون بسرقة الأغراض من جيوبهم. كان الجابي.. يبحث عن الولد /البابامجي/ دون خجل ولا ملل.. كي يستعيد ساعته ثانية.

أشرقت الشمس وملأت بأشعتها الأرض والبحر. غادرت المقهى بصحبة علي ودخلنا أحد الأزقة الفرعية.. وضع علي عربته فوق رأسه.. وحمل المسند في يده.. وتوجهنا نحو الخان عبر جسر غلطة.. الذي فتح للمشاة.

أمينة خادمة تغسل الثياب في خان الطنبرجي، وهي امرأة ضخمة.. جاوزت الأربعين من عمرها. كان إبراهيم يمزح معها بصراحة ووضوح، يعطيها ثيابه الوسخة ويأخذ منها الثياب المغسولة النظيفة. كنت أنصت لحديثهما وأراقبهما وكأنني لا أرى شيئاً.

في أحد الأيام ذهبت مع علي إلى /غلطة/ كانت بيوت الدعارة منتشرة آنذاك في قسم منها.. فدخلنا مقهى يقع حول أحد هذه البيوت ألقى علي السلام على بعض الموجودين لأنه يعرفهم ويعرفونه، ومزحوا.. وتمازحوا.. دخلت امرأة شابة وهي ترتدي ثوباً أسود ياقتها من الدانتيل الأبيض.. تحدث إليها كل من في المقهى.. وضحكوا معها.. اقتربت من علي. وضحكت معه.

تلك مواضيع جنسية لم أكن أعرفها.. ولكنني شعرت بأني أعرف عنها كل شيء.

سارقو الموز

في ليلة باردة جداً كان علي يبيع الرؤوس على زاوية المصرف الزراعي في قرة كوي. لقد قطع الرؤوس الصغيرة ووضعها في صحون بعد أن وضع فوقها قليلاً من البصل الناعم والبقدونس، وأدخلها ضمن الصندوق الزجاجي.

في ذلك اليوم لم يكن لديَّ معطف.. أرتدي سترة فقط ومن شدة البرد أضع يديَ في جيوبي، مرَّ طفل صغير من أمامي وهو يركض بسرعة.. والتجأ خلف جدار المصرف وأطلق صفيراً حاداً، لقد جذب الطفل انتباهي بحركاته الخائفة وثيابه البالية، الوحل يغمر قدميه العاريتين في هذا الجو البارد.. وبنطاله وقميصه ممزقان بالكاد يستران جسده العاري. بعد أن أطلق صفرة وهو خلف الجدار.. جاءه جواب من مكان ما.. وبنفس الصفير أيضاً.

ابتعدت قليلاً من مكاني لأراقب الحدث عن كثب وأرى ما سيحدث.. على إحدى زوايا الزقاق الفرعي صبي آخر خبأ نفسه هناك. صبي أصغر مني. كانا يتفاهمان بالتصفير.. لم أعرف ماذا قالا لبعضهما بالإشارة والتصفير.. بعد قليل ظهر الصبي الثاني. في هذا الشارع بائع يبيع جميع أنواع الفواكه.. وقد أضاء محله.. إضاءة جيدة. اتجه الولد نحو المحل المضاء.. اقترب من البائع وقال له شيئاً ما. في هذه الأثناء.. قفز الصبي الآخر بخفة تشبه قفزة الهر باتجاه المحل.. قد يكون الصبي الآخر شتم صاحب المحل أو قال له كلاماً بذيئاً.. وإذا به يطارده يريد القبض عليه وضربه.. في الوقت الذي كان فيه الصبي الأول يهرب أمام البائع مثل الأرنب وإذا بالصبي الثاني يقترب من المحل. ويمسك بعنقودين من الموز ويهرب.

عاد البائع إلى محله بعد أن قطع الأمل من القبض على الصبي.. وهو يتنفس بعمق جراء الجري والتعب. لم يكن يعلم أن عنقود الموز قد سرق.. من يدري في أي وقت كان سيعرف؟

«أطفال تحت الجسر»

كانت أبواب العوامات الكائنة على طرف جسر غلطة مفتوحة في تلك الأوقات.. مكانان في استانبول يأوي إليهما الأولاد المتشردون.. الذين لا عائلات ولا بيوت تأويهم. المكان الأول الحمام الكائن في / توب خانة/ والمكان الثاني عوامات جسر غلطة المفتوحة الأبواب. كان الأولاد يدخلون الحمام بالنقود.. وينامون فيه.. أما الدخول إلى العوامات فكان مجاناً. لذلك يبلغ الازدحام ذروته في هذا المكان، حتى لا يبق موطئ قدم لطفل صغير، عندها تلجأ عصابات من الأطفال منع دخول الأطفال الآخرين إلى العوامات.. ولن يستطيع الدخول إلا من كان قوياً، حتى الرجال الكبار والقبضايات لم يستطيعوا الدخول أبداً.

في إحدى ليالي الشتاء الباردة دخلت، إحدى العوامات، فاعترتني دهشة مخيفة تقشعر لها الأبدان. منظر لا يوصف بكلام. ولكن ما رأيته في تلك الليلة لم أره في حياتي.

ثقب دائري لا يستطيع رجل المرور منه، ممر صغير يؤدي إلى العوامة التي أرضها أدنى من مستوى البحر بعدة أمتار، ما إن تقرب هذا المكان في العوامة حتى تصدمك رائحة نتنة كريهة.. رائحة صدأ الحديد، ورائحة الدهان السام.. هذه الرائحة مدعاة للتقيوء والغثيان. لقد وضعوا فوق أرضية العوامة الحديدية.. حشائش جافة وتبناً وبعض الأقمشة المبللة بالزيوت، تكوَّم فوقها مجموعات من الأطفال.. كل مجموعة من خمسة أو عشرة أطفال ينامون وكأنهم التصقوا ببعضهم وبالقش والتبن. عندما تنظر إليهم.. تحسبهم مخلوقات من عالم آخر.. جسم واحد له

عشرة سواعد وعشرة أرجل وخمسة رؤوس، تستطيع أن تشبههم بحيوان زاحف عملاق. بينهم أطفال صغار لا تتعدى أعمارهم السادسة أو السابعة. كانت العوامة تشبه إلى حد ما مأوى كبيراً واسعاً. في إحدى الزوايا.. مجموعة من الأطفال.. يشعلون الحشائش الجافة والتبن وقطع الخشب الصغيرة للتدفئة، وبعضهم يصرخ ويقول: سنموت خنقاً من الدخان.. وينصحهم بالنفخ على النار كي تشتعل جيداً.. لزرع الدفء داخل العوامة.

حقيقة كان هذا الاسم «أطفال تحت الجسر».. اسماً على مسمى لهؤلاء الأطفال الذين يعيشون تحت الجسر والبحر معاً.

كتب أحدهم رواية تحت هذا الاسم.. وبيع منها الآلاف ودرَّت على الناشر أموالاً طائلة. وتمَّ إخراجها سينمائياً بعنوان (أطفال.. تحت الجسر) وربح مخرج الفيلم أيضاً أموالاً طائلة.

لم تستطع الحكومة منع سقوط الأطفال في مثل هذه المستنقعات الآسنة. ولكنها قامت بعمل هام جداً. لقد أغلقت أبواب العوامات التي كانت تُؤوي الأطفال.. وتمنع عنهم برد الشتاء.. وحرارة الصيف. واليوم هناك أطفال مشردون مثلهم وهم أكثر عدداً من القدماء، لا عوامة تأويهم.. مثل أطفال ما قبل خمسة وأربعين عاماً.

سرقة

أتذكر أنني كنت انتعل حذاء من البلاستيك. ذات يوم خبَّأ السيد إبراهيم الحذاء في مكان ما من الغرفة في الخان، لم أعلم لماذا فعل ذلك؟ كان الوقت ظهراً عندما قال لي: سأخبئ حذاءك في مكان لن تعثر عليه مطلقاً. هل هذا الكلام معقول؟ أين سيخبِّئ الحذاء في هذه الغرفة الصغيرة؟ دخلنا في رهان بيننا.

خرجت من الغرفة.. بعد قليل ناداني السيد إبراهيم وقال: فتِّش كما

تريد.. لم يكن في الغرفة سوى أشياء بسيطة مبعثرة في زواياها. بحثت في كل مكان، فلم أجد شيئاً.. معنى ذلك أنني خسرت الرهان، ولما عجزت عن العثور عليه، ضحك السيد إبراهيم وتناول الإبريق الخاص بالشاي وسحب الحذاء من داخله.

كان دوامي في المدرسة ثلاثة أيام في الأسبوع، في أحد الأيام لم أتناول طعامي في المدرسة، وقد بلغ الجوع مني مأخذه بحلول المساء، شعرت بجوع شديد، ودوار في رأسي وقلت في نفسي: بأن السيد إبراهيم لابدَّ أن يكون قد جهَّز شيئاً من الطعام. تحاملت على نفسي طوال الطريق حتى وصلت إلى غرفة الخان فوجدتها مفتوحة. نقود معدنية من مختلف الفئات مبعثرة على الطاولة الصغيرة معظمها من فئة خمسة وعشرين قرشاً. وقفت برهة فلم يحضر أحد. ألقيت نظرة على باحة الخان فلم أر السيد إبراهيم. دخلت الغرفة ثانية وأخذت قطعتين من فئة الخمسة وعشرين قرشاً وخرجت إلى الشارع. على بعد قليل من الغرفة فرن لصناعة الخبز، اشتريت قطعة خبز وجبن وعنقوداً من العنب، وبقي معي مبلغ زهيدٌ، وعندما عدت إلى الغرفة وضعت النقود إلى جانب الكميات الباقية.

بعد قليل، حضر السيد إبراهيم، تساءلت في نفسي هل ما أقدمت عليه يعتبر سرقة؟ بكل تأكيد، لأني أخذت الدراهم دون معرفة صاحبها، ولكنني سأخبر صاحبها بما أقدمت عليه.

علاقة شاذة

فجأة اختفى علي من المكان، ولم يدع إبراهيم مكاناً إلا وبحث عنه ولم يجده. ساوره الظن بأن أحد منافسيه أغوى عليّاً وهو أفضل بائع عنده ثقة وكفاءة وأمانة. جدَّ في البحث عنه: علي غير موجود.. غير موجود.. نعم! فأنا لم أجد مثل علي: مواهبه، قدرته الأسطورية، لم يعلم

أحد من التجار أن علياً كان يبيع يومياً حوالي مائة صحن. الباعة الآخرون يتبعون أساليب الغش مع معلميهم، أما على فكان على درجة عالية من الأمانة. يقف في المكان المناسب الذي لا يستطيع بقية الباعة الوقوف فيه.

كان إبراهيم يحب علياً مثل أخيه أو ابنه، ويمدحه بكلمات حلوة لائقة. تساءلت فيما إذا كان كلام إبراهيم صحيحاً؟ في فترة غياب علي، وقع إبراهيم في حيرة، لا يدري ماذا يفعل.. تحول إلى شخص مجنون.. فقد ترك عمله للبحث عن علي من جهة وتوقف بيع الرؤوس من جهة ثانية.. واستغل الباعة الآخرون الأماكن التي كان يستثمرها إبراهيم وسيطروا عليها، بحيث لم يبق له سوى الزاوية الكائنة أمام المصرف الزراعي، التي يشغلها بنفسه.

كل شيء عادي عند السيد إبراهيم الخسارة ليست مهمة، الأهم هو عودة علي، وبعد عودته ستتحسن الأمور وتُعوَّض الخسارة.

أخيراً علم إبراهيم أن علياً ذهب إلى بلده وكتب له عدة رسائل طويلة. في نهاية المطاف عاد علي، وفرح إبراهيم فرحاً شديداً لعودته، فأخاط له طقماً كحلي اللون. لن أقف عند هذه الحادثة وأنا شاب في مقتبل العمر، فكرت طويلاً بتلك العلاقة بينهما. وتساءلت: هل هي علاقة حب وثقة بسبب النجاح في العمل أم غير ذلك؟ هناك مثل يقال عن جرم أو ذنب يقترفه أحدهم، فيقال: (ذنبه على جنبه)، وأنا الآن أقول الكلام نفسه هناك حب يعرف من النظرات، حب شاذ، وهذا هو حب إبراهيم لعلي.

جريمة في تختة قلعة

من عادة شكري تاجر الرؤوس أن يحضر مساء كل يوم أمام خان الطنبرجي، ويبدأ بإلقاء السباب والشتائم على السيدين إبراهيم وعلي،

معربداً، مزمجراً، صارخاً، ملقياً اللعنات الكلامية. وامتدت به الوقاحة بالدخول إلى ساحة الخان وكيل السباب والشتائم. تجمهر الباعة والمارة في ذلك المكان ينتظرون حدثاً سيقع عن قريب، وكأن لهذا الجمع حاسة كالتي تمتلكها الحيوانات في التنبؤ عن الزلزال قبل حدوثه.

بينما كان شكري يطلق السباب والشتائم، كان إبراهيم يشد أصابع يديه ويعض على شفتيه ويصرّ بأسنانه، ويهتز جسمه من رأسه حتى أسفل قدميه. اندفع علي إلى الخارج قاصداً تأديب شكري، لكن إبراهيم منعه بكل قوته، فهو لا يرغب بوقوع الشجار.

استمرت الأوضاع على هذه الحال طويلاً، وتتكرر كل عشرة أو خمسة عشرة يوماً وعلى مدى الأيام كانت تحدث جرائم قتل إما بالرصاص أو بالسكين.. وقد اعتاد الناس على ذلك.

تحسنت أوضاع إبراهيم بعد عودة علي، وكان يقدِّم لعلي كل ما باستطاعته تقديمه فيقول: اشتريت له بدلة بلون كحلي، ووضعت في جنبه مسدساً كأنه فتاة جميلة، هذه الجملة لم أنسها مطلقاً، بدأ علي يسير الخيلاء، كتفٌ عالٍ وآخر منخفض، ويردد أغنيته المفضلة «سأزين مقبض مسدسي بالورود.. سأزين مقبض مسدسي بالأزهار».

كان علي مزهواً بنفسه، يضع قرنفلة حمراء بين أذنه وقبعته، يمشي متبختراً على الرصيف، فاتحاً يديه أشبه بجناح طائر وقد علَّق سترته على كتفه، يذهب يومياً إلى المزيِّن لحلاقة شعره ولحيته ويعتني بشاربيه، ويعطر رأسه ويمشط شعره ليصبح لماعاً.

وبينما كنَّا جالسين في غرفة إبراهيم، حضر شكري وبدأ يكيل الشتائم في ساحة الخان وبصوت مرتفع. نهض علي وقفز بسرعة نحو الباب متأهباً للانقضاض على شكري الذي بالغ في شتائمه إلى حدٍّ لا

يطاق. اقترب منه إبراهيم وربت على كتفه، فانطلق علي كالسهم نحو الباحة. عندها تفرَّق الناس الفضوليون الذين تجمهروا ليشاهدوا المعركة التي بدا أنها واقعة.

اندفع شكري وقد برز صدره للأمام، واستل السكين من جنبه ورفعها عالياً وبدأ يهدد ويتوعد. وهجم على علي، فجأة سمعت صوت ثلاث رصاصات تنطلق من مسدس، ويُسرع علي من الباب ليعدو في ممر ضيق ويذهب بعيداً.

هنا «تختة قلعة» لم يتجاسر أحد على القول أمسكوا القاتل.. الجريمة هنا عادية ومثلها يقول: اضرب واهرب، سقط شكري على الأرض وهو يصرخ: قُتلت يا أمي وكانت الدماء تغطي ثيابه وتتدفق على الأرض

لم أعد أذكر كيف خرجت من هناك وعدت إلى الغرفة، ولم أقل لأبي ماذا جرى.

التاجر الحجي صار قاتلاً

كان التاجر حجي يوزع الرؤوس التي يحضرها إبراهيم وآخرون غيره، ويربح من عمله أموالاً طائلة ولهذا أصبح غنياً جداً. التاجر في الأربعين من عمره عندما تزوج من فتاة شابة جميلة، ويقال أن زوجته على علاقة مع أحد أعضاء مجلس الشعب التركي. ساوره الشك، وبدأ بمراقبة زوجته وتتبع خطواتها عن كثب، الأمر الذي أدَّى إلى إهماله عمله. وأخيراً استطاع أن يرى بأم عينه زوجته وهي تغادر سيارة عضو المجلس في حي البنوك، وهنا طار الشرر من عيني التاجر واستل سكينه وقد غمره الغضب.

إثر هذه الحادثة تخيلت التاجر الحجي والسكين بيده وهو يذبح النعاج والأبقار ويقطع رؤوسها ويسلخ جلودها، ويشاهد الدماء تنزف من ذبيحته ولا يرفّ، له جفن.

يقال عنه: أنه طعن صديق زوجته عضو المجلس أكثر من عشرين طعنة حتى قضى عليه، بينما زوجته تصرخ وتولول علَّ من يأتي لإنقاذهم. وعندما انتهى.. عاد إلى زوجته كي يقضي عليها فهربت إلى جهة مجهولة.

أسرع التاجر الحجي بالهرب وسط ممرات حي البنوك، ولم يشاهد له أثر.. وفي اليوم التالي نشرت الصحف خبراً عن هذه الحادثة دون ذكر مكان عمل الضحية.

أين سيذهب التاجر الحجي؟ ليس لديه مكان يختبئ فيه.. أغلب الظن أنه اختبأ عند إبراهيم، الذي كان يتشاجر معه يومياً مطالباً بديونه.. الحقيقة أن كل إنسان يمكنه الوثوق بالسيد إبراهيم، فهو إنسان وفي مخلص، يعرِّض حياته للخطر للدفاع عن أصدقائه، لا حباً بمصلحة، ولا طلباً بالعرفان وبالجميل.

حاول إبراهيم إخراج التاجر الحجي بسفينة أجنبية خارج البلد. وعثر على شخص يمكنه نقل التاجر مقابل مبلغ من المال الذي استدانه. لقد وضع إبراهيم مع الشخص الغريب خطة لنقل التاجر الحجي تقضي: بأن السفينة ستدخل ميناء استنبول في يوم... وستغادره في يوم... والحقيقة أن السفينة رست في اليوم المحدد، وحضر الثلاثة إلى رصيف الميناء ليسلموا التاجر إلى القبطان... سيركب الثلاثة زورقاً كان بانتظارهم... الأمور تسير على أحسن ما يرام... سيصلون إلى مسافة خمسين متراً من السفينة سُلَّمها ظاهر للعيان رغم الضباب الخفيف... سيقترب الزورق من السفينة، وسيصعد التاجر السلم... بينما سيعود إبراهيم إلى الميناء.

لقد بدأ تنفيذ الخطة، حيث جلس إبراهيم والتاجر وسط الزورق، والشخص الثالث من الأمام يقوم بالتجديف... ولكن ماذا حصل؟ بدلاً من أن يتجه الزورق نحو السفينة، بدَّل وجهة سيره نحو «سيركجي». وضع

إبراهيم يده على مسدسه وصاح: ما هذا؟ إلى أين تتجه؟ وإذا بصاحب الزورق يقف عن التجديف ويصوب مسدسه نحوهما ويقول: «لا تحاولا التحرك أو الفرار». انظروا: زوارق الشرطة تحيط بكم من كل جانب.

اقترب أحد الزوارق منهم مسلِّطاً أنواره الكاشفة عليهم.. لم يبق أمامهما مجال للهرب.. لقد قبض عليهما رجال الشرطة بعد تقييدهما، وساقوهما إلى المركز. يقال: إن العميل الذي تقدم إلى إبراهيم لتهريب التاجر، كان من رجال الشرطة السرية. وأودع إبراهيم في سجن سلطان أحمد.

مرَّت أيام وأسابيع، وقد بدت لي أطول من سنوات، وأصبح من واجبي زيارة إبراهيم في السجن.. ولكن مع من؟

زيارة إبراهيم في السجن

ذهبت مع أحدهم إلى زيارة إبراهيم في السجن، ولم أعد أتذكر مع من.. كنت أحمل مجموعة أشياء وضعتها داخل علبة.. سجاير.. قليل من الفاكهة.

وصلنا سجن سلطان أحمد، وبسهولة دخلنا باب السجن (لو لم أكتب هذه الحادثة بعد مرور خمسة وأربعين عاماً، لما احتجت إلى استعمال كلمة بسهولة).

دخلنا باب السجن بسهولة، وصعدنا إلى باحته حتى وصلنا الطابق الثاني بسهولة أيضاً، وبعد مرور خمسة وأربعين عاماً، علمت كيف ستتحول هذه السهولة إلى صعوبة.

جلسنا على مقعد خشبي بين ممرات السلم، هناك زائرون كثيرون.. المكان شديد الازدحام، حضر إبراهيم وعلائم المرض بادية على وجهه الأصفر الكامد.. يعاني آلاماً حادة في معدته، هذه الآلام تستمر طويلاً فتنغص عليه حياته.. ظهر لي إبراهيم نحيفاً للغاية، عيناه

غائرتان، يداه ترتجفان يسير على مهل، يتمالك جسمه خوفاً من السقوط على الأرض. أما التاجر الحجي كونه قاتلاً فقد وضع في مكان آخر.

طلب إبراهيم من دكان السجن كأسين من الشاي.. أتذكر أني كنت جالساً، ولكن كيف أعلم أنني سأقضي في هذا السجن أعواماً طويلة من أهم أيام شبابي.

لم أعد أتذكر.. ماذا قال لنا إبراهيم في ذلك اليوم.. لكن جملة واحدة استقرت في ذاكرتي ولن أنساها طول حياتي، لقد قال: «لن أخرج من هنا حياً».

بالنسبة لي، لم يكن إبراهيم مذنباً... المذنب الوحيد هو التاجر الحجي.. ما جرم، إبراهيم؟ لقد ساعد صديقه.. رغم كون الصديق قاتلاً مجرماً.. تصرف إبراهيم كما يتصرف أي إنسان مع صديقه.. إنه شعار الإخلاص والوفاء.. ومع هذا.. وجدت في سجن إبراهيم نوعاً من عدم تحقيق العدالة.

في إحدى زياراتي للسيد إبراهيم في سجن سلطان أحمد.. رأيت رجلاً... ما زالت ملامحه عالقة في ذاكرتي.. بجسده.. بروحه، بتقاسيم جسده... كان ضخماً وسيماً، محبوباً، ومع ذلك تظهر على وجهه علامات الغضب، لهذا يبدو عابساً، الأمر الذي يبعد الوسامة عن شخصيته. كان رجلاً أسمر اللون، يرتدي بزة كحلية اللون وقميصاً أبيض.. قلت عنه أنه وسيم، لكن نظراته الثاقبة وبياض عينيه، يلقيان الرعب في الإنسان.

تساءلت من هو هذا الزنجي الوسيم؟ هل هو رئيس المهجع، أم رئيس السجن؟ أم إنه أحد القبضايات المشهورين في تاريخنا؟ عندما سأدخل السجن بعد سنوات.. سأستمع إلى قصص القبضايات مثل: القبضاي

حسن، والقبضاي مرمرة.ونهاية هذا القبضاي الزنجي السيئة.. فقد بدأ بتعاطي المخدرات.. والقبضاي المدمن على ذلك، سيصبح مسخرة للسجناء وينتهي.

كان إبراهيم يردد دائماً: «لن أخرج من هذا السجن». والحقيقة أنه لم يخرج من السجن حياً.. من هم أهله، أبوه، أمه، إخوته...؟ عاش إبراهيم وحيداً في هذه الحياة، لا أب ولا أم، لا أخوة ولا أخوات ولا أقرباء.. لم يكن أحد يعرف لمن سيقدمون أمتعته؟

محمد أفندي بائع الفطائر

في إحدى الأزقة الضيقة المتداخلة.. وفي الطابق الثاني من منزل خشبي، كان يسكن محمد أفندي بائع الفطائر، وأصله من أفغانستان، فهو نحيل الجسم، مفاصل عظامه بارزة عيناه غائرتان لا ترى منهما سوى الحواجب، عندما يتحدث إليك يتلعثم في كلامه نظراً إلى لغته التركية الضعيفة.

محمد أفندي من معارف أبي، أدين له بالفضل.. لأنه يعطيني النقود كلما ذهبت إليه، يشتهر محمد أفندي بفطائره الرقيقة الناعمة الشهية، يتحلق الناس حوله يراقبون كيفية فتح الرقائق، وكأنه بهلوان.. كانوا يصفقون له لمهارته كلما قام بتحضير فطيرة.

يقف محمد أفندي أمام طاولة مغلقة من أعلاها.. يشمر عن ساعديه، يضع على ثيابه صدرية.. يتناول قطعة العجين من وعاء كبير (قصعة) إلى جانبه، ويضعها على الطاولة ثم يمزجها بالسمن العربي الأصيل، ويفتحها، وعند كل فتحة يرفع العجينة بيديه لتكبر. ثم يحمل محمد أفندي قطعة العجين المفتوح، بكلتا يديه ويرفعها للأعلى صانعاً عدة دورات ويضربها فوق الطاولة. فتزداد العجينة رقة كلما وضعها على الطاولة. وهكذا تتجهز الفطيرة ليوضع فيها القشطة والعسل، ثم يغطس

يده في الزيت ويتناول قطعة عجين أخرى.. الفطائر جميعها لها نفس المواصفات والأوزان لأن يده أضحت ميزاناً.

لم يقتصر محمد أفندي على صنع فطائر القشطة فقط، بل تعداها إلى صنع فطائر بالجبنة، واللحم، والزعتر، والسبانخ. يرتبها صفوفاً وسط صينية كبيرة ويرسلها إلى الفرن. يساعده في عمله حوالي عشرة أشخاص، ثلاثة منهم في تحضير الفطائر والباقي عمالٌ للبيع في الأسواق.

أحد الباعة من المسلمين الهنود، يضع على رأسه عمامة، وشعر ذقنه طويل وكثيف.. حضر حديثاً إلى تركيا ولم يكن يتقن لغتها، يحمل الوعاء الزجاجي المملوء بالفطائر على رأسه، أما الباعة الآخرون فكانوا يضعون الفطائر على عربات يدفعونها أمامهم وينادون بأصواتهم العالية.

بدأت أتردد إلى منزل محمد أفندي بعد دخول إبراهيم السجن، المنزل عمارة قديمة، سقف البيت عالٍ تزينه نقوش ملونة، أما زوجته فكانت سيدة محترمة لطيفة للغاية نظيفة ومرتبة، تحب الأزهار كثيراً حيث تضعها في أصص وتعتني بها يومياً. إضافة لذلك فهي طاهية من الدرجة الأولى. ومع هذه الجوانب الإيجابية لها، هناك عادة غير مستحبة عندها... إنها عادة الثرثرة والتأفف. تشكو دائماً من زوجها، لكنها لم تنعته بصفات سيئة.. السبب: أن محمد أفندي يريد طفلاً وزوجته التي تكبره بكثير امرأة عاقر، لهذا يرغب محمد أفندي في الانفصال عنها، وبما أنه رجل طيب القلب فهو لا يستطيع هجرها والافتراق عنها.

كانت زوجته عصبية المزاج.. تتحدث كثيراً عن حياتها الزوجية. تقول: إنها قدمت المساعدة له واستطاعت انتشاله من الفقر الشديد ليصبح على ما هو عليه الآن من الغنى وحسن الحال. وتقول: بعد كل هذا التعب، وبعد وصوله إلى شاطئ الأمان يريد تركها!

كنت أستمع لحديث الزوجة الذي تكرره يومياً عدة مرات.. أحياناً

أعطيها الحق كله، لأنني كنت أفكر بالزواج مستقبلاً، وعندما أتزوج سأتقاسم مع شريكة حياتي المسؤولية وكل نجاح في الحياة سنحققه سوية، وأومن بأن أحدنا لا يستطيع تأمين حياة سعيدة بمفرده. ومع هذا تمنيت أن تكون لي زوجة مثلها.

نعم أعطيها الحق في تذمرها، ومع ذلك كنت أرى أن محمد أفندي لم يرتكب أي ذنب.. وهو محقٌّ أيضاً... ماذا يفعل هذا المسكين... زوجته عاقر ويريد أن يكون له سند في الحياة.

ثيابي الجديدة

أصبحت في الثالثة عشرة من عمري وفي الصف الأول الإعدادي.. كنت ارتدي ثياباً جديدة لكن ليس بزَّة كما أبناء الأغنياء من جيلي.

أتذكر.. أنه يوم الوقوف على عرفات، أي قبل عيد الفطر.. أخذني محمد أفندي معه إلى سوق الألبسة الجاهزة ليشتري لي ثياب العيد... كانت محلات الألبسة منتشرة بكثرة على طول الشارع، البزات معلقة أو موضوعة في الواجهات الزجاجية، بعضها الآخر مكدس على الرفوف في الداخل.. والبعض الآخر معروض أمام المحلات.

دخلنا أحد المتاجر المليئة بالألبسة الجاهزة، وطلب محمد أفندي من صاحبه أن يحضر بزَّة على مقاسي.. أحضر البائع عدداً من الألبسة الملائمة لجسمي ووضعها على الطاولة أمامي.. نظر إلى محمد أفندي وقال: هيّا يا نصرت انتق الثياب التي تعجبك، واختر منها ما تريد.. أجبته: هذا غير ممكن.. مستحيل.. شعرت أنني في حلم.

ـ كرر محمد أفندي طلبه وقال: اختر على كيفك!.. كنت أخشى أن أختار ثياباً غالية الثمن، ومن ثم أخجل على نفسي من استغلال طيب قلب هذا الرجل الذي يسدي لي معروفاً لا يقدر بثمن.. ووسط

هذه الحالة النفسية التي أصابتني، انتقيت الثياب التي لا تعجبني.. أما التي أعجبتني فقد أبعدتها عني. إنها بزّات رائعة من القماش الكتاني ذات اللون البني والبنطال الطويل.. بزة رائعة بكل معنى الكلمة.

أخذني محمد أفندي إلى محلات الأحذية، فاشترى لي حذاء.. وهنا اخترت الحذاء الذي أعجبني، لونه قرميدي لون لم يدرج في لائحة ألوان الأحذية.. دُهشت، وصحت بلهفة..

ـ أمان.. يا إلهي.. كل هذا لي!!

تساءلت في داخلي: ماذا عساي أن أقدم خدمة لمحمد أفندي مقابل خدماته لي؟

طلب مني ذات يوم أن أكتب رسالة لبعض أقربائه في وطنه الأم.. لقد اختار لي الكلمات والجمل وأنا أكتبها بعد صياغتها بلغة جميلة.. بعد الانتهاء من كتابتها سألته عن عنوان المرسل إليه.. قال لي جملة معناها «محل للدعارة» استغربت ذلك، فأنا لم أستطع كتابة هذه العبارة على المظروف. ضحك محمد أفندي وقال: هذه العبارة معناها قرب محل للبيع، أو معمل، أو مصنع.

كتبت العنوان، ووضعت الرسالة داخل المظروف، ثم أعطاني نقوداً وقال: خذ هذا وضعه في البريد.

لقد عاملني محمد أفندي كأني أحد أولاده الذين حُرم منهم. هل تعرفون ماذا فعلت بالرسالة؟

لم أضعها في البريد، فقد تصرفت بالنقود لكن ليس بنوايا سيئة.. وضعت الرسالة داخل كتاب، وقلت سأضعها مستقبلاً في البريد عندما أملك النقود.. اليوم.. غداً.. بعد زمن طويل.

في أحد الأيام بينما كنت مسافراً في السفينة أخذت الرسالة وألقيتها في البحر. ما عقوبة هذا الذنب؟

أنا أستحق أشد العقوبات.. هل تعلمون إنني ما زلت أعاني عذاب الضمير الذي ساورني طول حياتي.. لقد سبب لي هذا العذاب عقوبة أخرى قاسية وهي: ضعف ثقتي بالعالم.. بالناس.. كنت أظن أن كل من سأعطيه رسالة ليضعها في البريد.. سيصرف هذا المال ويمزّق الرسالة.. إذا كان لدى الإنسان قدرة على اتهام غيره، دون أن يملك الدليل ضده، معنى هذا أنه مذنب، وأنه سيقوم بعمل مماثل في المستقبل، إنها عدم الثقة. إذا لم نثق بإنسان فلن نثق بأنفسنا.

تحسنت أحوال محمد أفندي كثيراً. قام بتأسيس عدة محلات تجارية في أماكن متفرقة، كان تصرفه معي رائعاً إلى أبعد الحدود.. إضافة لمحبته كانت ثقته بالآخرين عالية. فقد اشترك مع شخص آخر في محل تجاري.

تخرجت ضابطاً من الكلية العسكرية... ثم قدمت استقالتي.. وكم كانت رغبتي قوية في الذهاب إلى محمد أفندي لأقبل يديه، لكنني تريثت بعض الوقت، ربما تتحسن أوضاعي المادية.. انتظرني.. وانتظرني.. مات محمد أفندي ولم أستطع تقبيل يديه، محله في حي التقسيم مازال قائماً.. حتى أقرب الناس إليَّ لا يقدرون على فهم وضعي النفسي وأنا أتصرف بمثل ما تصرفت.. يفسره الآخرون بأنه نوع من الغباء، لن أستطيع شرح فضائل محمد أفندي عليَّ.. لكن أستطيع القول بصوت مرتفع: إنه قدم لي أشياء كثيرة.

أخيراً لا نستطيع أن نفي حقوق الذين سعوا من أجلنا وقدموا لنا الخدمة تلو الأخرى. لكننا نستطيع أن نفي لهم حقهم بتقديم الخدمة والعون للآخرين.

لن تُمحى عن ذاكرتي يوم اشترى لي محمد أفندي البزة الجديدة، ولن أنسى تلك الرسالة التي مزقتها وألقيتها في البحر... ولن أستطيع تقبيل

يدي ذلك الإنسان الذي اشترى لي ولأول مرة ثياباً جديدة في حياتي.. لن أنسى عطف وحنان محمد أفندي طوال حياتي.

ما الذي خلصني؟

ترعرعت وسط ظروف حياتية ومعاشية قاسية وفقيرة. لماذا لم أنجرف مع تيار الشقاء والجريمة والانحراف؟ لماذا لم أستطع أن أكون كاذباً مع نفسي ومع الآخرين؟ كيف تخلصت من السير في هذه الطرق الوعرة؟ هل هي الصدف؟ كثيراً ما أقبل بأن الصدف قد انتشلتني من السقوط في الهاوية. أكتب مذكراتي وأنا في الستين من عمري، أفكر وأفكر بالأسباب التي خلصتني، وأود اليوم التعرف من جديد على ذاتي وشخصي.

يصعب على الإنسان تحليل نفسه، حاولت جاهداً وأنا في الخامسة عشرة من عمري، التوصل إلى الحقيقة التي خلصتني من السقوط في المستنقعات الأسنة، لم يجرفني التيار، ولم يكن لدي في يوم من الأيام ميل نحو الشقاوة، أعتقد بثلاثة أسباب حالت دون سقوطي السبب الأول: قساوة والدي تجاه أمي وحبه لها. أمي تعرف ذلك، يتصرفان معي بحب مثالي. إن حبهما لي في طفولتي خلصني من مشاكل لا تحصى.

السبب الثاني: كانت آخر كلمات أمي لأبي وهي على فراش الموت: «الآن سأموت قريرة العين لأن ولدي انتسب لمدرسة داخلية. لن أنسى هذا الكلام الذي استقر في أعماقي. ومهما حصل معي، فإن وصية أمي وكلامها، خلصاني من الوقوع في البؤر الفاسدة. حاولت جاهداً تخليص نفسي وظننت أن ممارسة الشقاء هو خداع لأمي ولهذا وتحت وطأة تأنيب الضمير وقفت أمام الجدار الفاصل عن الشقاء».

السبب الثالث: ثقة أبي العمياء بي، وعفوه عن كل عمل سيئ

اقترفته. ففي مثل هذه المواقف يشعر الإنسان بالخجل من نفسه، وكنت أحاول جاهداً قول الحقيقة لأنال ثقة أبي.

أفكر الآن بعد أن استطعت الخلاص من المستنقعات، فإن للصدف دورها أيضاً. لكن تصرفات أبي وأمي هي الغالبة.

كنت أهرب من المدرسة.. أتغافل عن دروسي، مهما حاولت تخليص نفسي من هذا الفراغ الداكن، فعبثاً كنت أنجح.. نجحت في المدرسة.. لكنهم لم يدخلوني الامتحان لتجاوز نسبة غيابي ثلثي الدوام. أي أني رسبت دون امتحان. وإن الإداريين في ذلك الوقت منصفون أكثر من إداريي اليوم. في هذا الزمن إذا تغيب الطالب أكثر من عشرين يوماً غير مبرر، لا يحق له دخول الامتحان.

وعندما انتسبت لمدرسة الوفاء الإعدادية، صممت على النجاح، والقضاء على الفشل، لكن العزيمة والإصرار في ذلك الوقت لم ينفعا في شيء.

بعض ذكريات مدرسة الوفاء الإعدادية

تركتْ مدرسة الوفاء الإعدادية في ذاكرتي آثاراً لا تمحى. كنا نقرأ المقالات الجميلة للكاتب «سليمان شوكت». هناك السيد كمال مدرس اللغة التركية الحديثة، ومدرس الجغرافية السيد نصوحي بثيابه الأنيقة، مقطب الحاجبين دائماً. والذي أصبح فيما بعد عضواً في البرلمان عن الحزب الديمقراطي ثم وزيراً للداخلية، أما مديرنا السيد صلاح الدين، كان ضخم الجثة بديناً، ومدرس الرياضة بديع أكرم، واشنار عارف مدرس مادة العلوم الطبيعية. التقيت في الكلية العسكرية، مع ثلاثة من أصدقائي في مدرسة الوفاء الإعدادية بينما أنا رسبت في صفي، ورغم معرفة أبي بذلك، لم يوجه لي كعادته أية كلمة، ولم يغضب.

إلى أين أنا ذاهب، وماذا سأفعل؟

الانتقال إلى استنبول

انتهى فصل الربيع، وحلَّ فصل الصيف، ومعظم سكان إستنبول سينتقلون إلى منازلهم في الجزيرة لقضاء فصل الصيف. أما نحن فعلى العكس سنغادر الجزيرة إلى إستنبول.

لم نتحدث فيما بيننا عن الانتقال من الجزيرة، لكنني علمت بأن والدي يبحث عن عمل، وكعادته وصل مساءً إلى البيت، حاملاً سلة ملأى بالخبز والخضار وبعض لوازم الطعام الأخرى. فوالدي كعادته، من نوع الذين لا يظهرون ما في داخلهم على وجوههم. فقد قرأت في حديثه علامات الفرح والسرور. وعندما جلسنا إلى المائدة قال: إنه وجد عملاً... وظيفة بستاني في حديقة أحد المنازل في استنبول. بدأ والدي يصف لنا الحديقة فقال: إنها واسعة جداً، فيها جميع أنواع أشجار الفاكهة.. وعريش العنب.. وتابع يقول: سنزرع الأرض ونجني محصولها مقابل العناية بالحديقة وأشجارها وأزهارها.

شرع والدي العمل في الحديقة، لكن تنقله اليومي بين استنبول والجزيرة كان يسبب له التعب والإرهاق.

ذات يوم، اصطحبني معه إلى استنبول، وأدخلني الحديقة، كانت مترامية الأطراف، محاطة بجدار مرتفع.. وعلى مقربة منها مقبرة محاطة بأشجار السرو، إضافة إلى بناء حمام قديم، وبيوت صغيرة مبعثرة في جميع الاتجاهات. وللحديقة أربعة أبواب، إضافة إلى عمارتين كبيرتين والحديقة مقسمة إلى قسمين أيضاً قسم علوي وآخر سفلي وفي وسطهما درج يسهل الوصول إليهما. وعلى القسم السفلي أقيم بناء من الحجر لصاحب الحديقة. وعلى مسافة بضع أمتار، غرفة صغيرة كانت قديماً تستخدم كمطبخ ملحق بالتكية. في داخل الغرفة موقد كبير... قال والدي سننتقل للسكن في هذه الغرفة، وإذا قيست ببناء الجزيرة فتبدوا

رديئة للغاية لا تصلح للسكن، لكن الحديقة تخفف من وطأة السكن في الغرفة، أشجارها المثمرة من جميع الأنواع، العنب، الخوخ، التين بأنواعه، السفرجل، الإجاص، الفستق الحلبي، هناك أنواع من أشجار الفاكهة أعرفها وأخرى ولا أعرفها، وجميعها في الحديقة.

هناك أيضاً حوض كبير لتربية الأسماك، إضافة لأحواض الزهور من مختلف الأنواع والأشكال، الحقيقة إنها حديقة الروايات والأساطير. إن وجود هذه الورود والأزهار تطلَّب وجود بستاني ماهر للرعاية والعناية بها. وكان على السيد ناجي صاحب الحديقة أن يدفع مبلغاً كبيراً لمن يجيد العناية بها. أراد والدي القيام بهذه المهمة بمفرده مقابل حصوله على المحصول فقط. ومع أن السيد ناجي صاحب الحديقة يعرف أن هذا العمل مربح جداً لوالدي وهذا ما هو ظاهر للعيان، لكن قلب والدي الطيب ظن أن السيد ناجي أسدى له معروفاً.

ومع قيام الثورة، وهدم جميع التكيات، فقد هُدمت تكية السيد ناجي. الذي انتقل للعمل في مصلحة الضرائب، بدا هذا الرجل وسيماً، حليق الذقن والشاربين... يرتدي ثياباً أنيقة، عمره يناهز الخامسة والأربعين، تبدو على محياه علامات الشباب.. ونظراً لإمكانياته المالية الجديدة، فهو يبدل بزة كل يوم.. وكنت أتساءل كم من البزات عنده. إضافة إلى استعماله عطر الليمون.. كان عازباً ولديه فتاة بالتبني.

ومع أنني لا أحب الغرفة التي سوف ننتقل إليها.. فلم آبه إلى أهمية انتقالنا إلى استنبول.. كنا نحمل من أمتعتنا قطعة كل يوم، وهكذا أنهينا انتقالنا خلال شهر واحد، وأبقينا على بعض الأمتعة في منزلنا بالجزيرة حتى لا يسترجعه صاحبه.

كان التفاهم تاماً بين والدي والسيد ناجي، فقد توصل الأخير إلى

قرار بأن والدي يعمل جدياً، ولم يعد بحاجة إلى بستاني، ومقابل هذا التفاهم أذن لنا بالسكن في الطابق الأرضي من بنايته.

الأخت خيرت

خيرت، اسم يطلق على أخت لولد ذكر، بلغت الرابعة عشرة من عمرها، كل ولد يحتفظ بذكريات عن هذه الأخت التي تكبره. ذكريات إنسانية طيبة.. تفيض بالروعة والجاذبية، ومن هؤلاء الأخوات، الأخت الكبيرة خيرت.

خيرت اسم الفتاة بالتبني لدى السيد ناجي، يقال إن اسمها ليس كذلك، لقد تبناها السيد ناجي وهي صغيرة جداً، ليس لديها أب ولا أم، ولا معيل، لكنها سريعة البديهة، تتمتع بمهارة فائقة في العمل، فهي تعرف كل شيء، يقف الناس مندهشين مرددين العجب عن ذكائها، لهذا اسماها السيد ناجي «خيرت».

تعرفت على الأخت خيرت وهي في العشرين من عمرها، ويعتبرها البعض بهذا العمر من العوانس، فالسيد لم يكن يسمح لها بمغادرة المنزل حتى تتعرف على أحد الشباب وتتزوجه، يقولون: إنه منعها حتى من الذهاب إلى دكان البقال المجاور لمنزله، يعني أنها تعيش حياة مغلقة داخل البيت، لكن الأقاويل والإشاعات التي تنطلق من أفواه المغرضين يقولون: إن السيد ناجي لا يسمح حتى للذبابة أن تلامسها، ويقولون: إذا لم يكن على علاقة معها فلماذا لا يدعها كل هذه السنوات الطويلة تفتش عن رفيق عمرها... طبعاً لا يدعها تغادر المنزل كي يختلي بها، وحتى لا تتعرف على أحد... انظروا... إنه لا يتزوج... ولا يدعها تتزوج.

أصحاب الدعايات المغرضة يظهرون سوء نواياهم علناً، عندما يضعون أنفسهم مكان السيد ناجي. والحقيقة أن الأخت خيرت لديها ما يكفي للعجب.. فهي ليست بخادمة أو طاهية، فهي تقوم وحدها بكل

أعمال المنزل، تحافظ على نظافة وترتيب هندام السيد ناجي ولأول مرة في حياتي أرى شخصاً يبدل كل يوم بزة جديدة وقميصاً مكوياً يجب أن تكون ألبسته نظيفة ومرتبة وجاهزة، وأحذيته لماعة، والمنزل نظيف جداً، كل حاجة في مكانها الصحيح. في عطلة الأسبوع، يمتلئ منزله بالضيوف والزوار، والأخت خيرت تقدم لهم الطعام والشاي والقهوة، وأنواع الشراب.

لم يقتصر عمل الأخت خيرت على الأعمال المنزلية، بل كانت تهتم بمواشي السيد ناجي، فهو يمتلك عدداً من رؤوس الغنم والماعز، تقوم بحلبهم، ثم تسلمهم إلى الراعي، بعدها تبدأ العناية بالدجاجات ونظافة القن.

الحقيقة أن الأخت خيرت كانت تقوم مقام خمسة أفراد دفعة واحدة. ناهيك عن مهارتها وحنكتها، ودقتها. ومع كثرة الأعمال تراها دائماً ضاحكة مستبشرة، البسمة لا تفارقها، ولكي تضحك، كانت تحضر الأسباب الداعية للضحك، وكنا نسمع صدى قهقهتها تلف أرجاء الحديقة، وأي صوت.. تحسبه ثريا من الكريستال وكأنها سقطت على الأرض وتدحرجت على درجات السلم. ضحكاتها أشبه بفراشات تجوب أطراف الحديقة.. جميلة بقدر ما يتحمله الجنس البشري، إنها ملكة جمال حقيقية.. مختلفة عن أولئك اللواتي يتبرجن.. فهي ملكة جمال من نوع خاص.. تنشر الدفء والبهجة في الحياة. جمال عينيها رمح ثاقب ينغرس في قلوب الحيارى، كان ظني بأنها ألبانية الأصل. لا أعلم ربما كذلك.

على أطراف منزل السيد ناجي نبات متسلق... أوراقه خضراء صيفاً، تتلون بالأزهار الحمراء التي تكتسب منظراً خلاباً عند غروب الشمس، وفي الشتاء تتساقط الأوراق وتبقى السوق عارية وينطفئ اللون الأحمر.

مازلت احتفظ بمنظر هذا البيت في مخيلتي وأحلامي، تدخل المنزل بثلاث درجات من الرخام لتصل إلى باب خشبي سميك، تدخل منه إلى غرفة استقبال كبيرة ملأى بالأدوات والتحف الثمينة، وقد علقت على الحائط ساعة كبيرة حوافيها موشاة بالذهب، تتقدمها طاولة كبيرة نُحتت أرجلها بإتقان ولصقت عليها أغصان ملونة رائعة. وفي منتصف الصالون أيضاً، طاولة أخرى مغطاة بقماش أطلس مزركش من أطرافه، تزينه في الوسط والحوافي رسوم ملوَّنة مطرَّزة بخيوط يدوية وإلى الجهة اليسرى من الصالون غرفة للأخت خيرت. أثاث الغرفة جميل ومرتب.. وثيابها معلقة كل قطعة في مكانها داخل خزانة.. إضافة إلى مجموعات متنوعة من الأحذية النسائية، كان السيد ناجي يتصرف مع خيرت كأنها ابنته الحقيقية، وليست بالتبني، حتى ضيوفه وزواره يتعاملون معها على هذا الأساس. أما السيد ناجي فإن تصرفه معها في بعض الأحيان كان ينم عن علاقة مادية، إذا اشتغلت خيرت كخادمة فهي تكلفه كثيراً وخاصة عندما يعرف الضيوف أنها خادمة.. أما عندما يعلمون أنها ابنته فالأمر مختلف جداً.. تماماً كما فعل مع أبي عندما بدأ العمل معه في الحديقة، هذا ما لمسته من خلال ملاحظاتي له.

كانت خيرت تحبني كثيراً، وربما كان حبها لي بسبب بقائها داخل المنزل، لأن السيد ناجي منعها من الحديث مع الجيران، أو الخروج إلى الدكان لشراء الأغراض، لم تتحدث إلا مع ضيوفه، ولهذا السبب أحبتني كثيراً. أدخل إلى غرفتها في أي وقت، وتناديني /جاقجي/ أي يا سيد، مع العلم أن لا علاقة لي لا بالسيد ولا بالأسياد. وتسميتها لي ليس لأنني من هذا المستوى من الناس، لكنها تمنت أن أكون منهم في المستقبل.

خيرت هي الفتاة الأولى التي حركت رغباتي الجنسية.. خجل عارم يضرب رأسي.. دوافع كامنة تلهب كل قطعة في جسدي، لقد عرفت

انشغالي بها من خلال نظراتي الممنوعة المصوبة تجاه جسدها وساقيها.. أما هي فكانت غير مبالية.. أو ربما تتصرف باللامبالاة.. لم تحاول إغوائي بجسدها، وخاصة عندما أراقب صدرها ونهديها وهي تعمل.. لكن ابتساماتها ونظراتها كانتا تخترقان صدري.

لقد أشعرتها تصرفاتي بنوع من الثقة والسرور.. ولم تشعر ذات يوم بالخطر المرتقب مني. كنت ألازمها دائماً، وخاصة عندما تذهب إلى الحظيرة لحلب الغنمات والعنزات.. وظيفتي هناك، تثبيت رؤوس الأغنام وأرجل بعض العنزات غير الهادئة، كي لا تصطدم أرجلها بوعاء الحليب ويسقط على الأرض. لماذا كانت خيرت تجلس القرفصاء وترفع ثيابها إلى أعلى مكان من فخذها؟ أظنها تفعل ذلك لتقبض علي بالجرم المشهود، وأنا أنظر إلى مفاتن جسدها، وعندما كانت تصعد على رؤوس الأشجار لتقطف الثمار رددت في داخلي هذه الجملة: ما بدِّي اطلع، وما بدي أرفع رأسي.

تراقبني من أعلى الشجرة وتقول في قرارة نفسها بالله عليك انظر إلى مفاتن جسدي أيها السيد. تقول ذلك، وتطلق الضحكات العالية.. وتذريني بمذاره الخجل فأنزل إلى أسفل السافلين.

السيد ناجي

حضَّر لي السيد ناجي وظيفة في منزله.. فإذا كان يستفيد من أبي ومن خيرت فلماذا لا يستفيد مني؟ ويستثمرنا جميعاً. بعد أن تقوم الأخت خيرت بحلب الغنمات والعنزات في وعاء نظيف للغاية، كنت أحمل هذا الوعاء إلى معمل للمثلجات في حي /البيازيد/. يقولون: إن المثلجات المصنوعة من حليب الغنم طيبة ولذيذة وسعرها مرتفع. لهذا كنت أحمل وعاء الحليب وأركب الحافلة لأصل إلى المعمل، وهناك يستلمون الحليب بالمكيال، وبعد إفراغه أعود للبيت.

السيد ناجي رجل يحب العمل وخاصة اعتناءه بالأزهار والأشجار وحيوانات الحظيرة، لم يتوان عن حلب الغنم والماعز صباح كل يوم عطلة، وكنت أساعده في ذلك، في أحد الأيام قال لي وهو يحلب الغنمات: ألا تشعر برائحة الأغنام والحظيرة، فأنا أحبها كثيراً.

لم أستطع أن أقول آنذاك وأنا أحبها أيضاً، والحقيقة أننا نحن الاثنان شغوفان بالطبيعة والحيوان والنبات، والسيد ناجي بمقدار ما هو مرتب ونظيف، يعطر جسده كل يوم بعطر الليمون، ومع هذا يحب الدخول للحظيرة وحلب الأغنام. وشغوف أيضاً بالدخول إلى قن الدجاج لتقديم العلف وجلب البيض.. رائحة الحظيرة تعجبه كثيراً وتشعره بالسعادة.

القسم العلوي من الحديقة أو البستان، يضم مجموعة رائعة من أشجار الكرمة.. أرض خصبة.. زُرعت فيها أصناف من العنب لا حصر لها، عنب الجاويش، العنب الأسود، عنب الكأس، أصابيع العروس، الرضاكي، المسكة.. وأنواع أخرى تفوح رائحتها لا أعلم ما اسمها. عندما تنضج عناقيد العنب، تتجمع حولها الدبابير الحمراء وتغرس إبرها في حبات العنب وتمتص عصيره فتذبل العناقيد وتجف.. لذلك كان السيد ناجي يستخدم الأكياس البيضاء لحفظ العناقيد. وقد كلفني بهذه المهمة، وخاصة للعناقيد التي يتأخر نضجها. ثم كلفني بمهمة أخرى وهي اصطياد الدبابير وقتلها ودربني على طريقة قتلها، ونفذ أمامي بعض التجارب. قال لي: تقف أمام العناقيد والمقص في يدك، عندما يأتي الدبور، ويبدأ بامتصاص عصير العنب ينسى نفسه ولا يفكر إلا بلذة عصير العنب.. عندها سيرتفع قسمه الخلفي للأعلى، فتأخذ المقص وتقطعه إلى قسمين من وسط جسمه الرفيع.. يسقط الدبور على الأرض، ويتحرك قليلاً ثم يموت.

وعدني السيد ناجي بأن يعطيني قرشاً واحداً عن كل دبور أقتله..

كان صيد الدبابير عملاً لذيذاً بالنسبة لي، لأني لم أشعر بشفقة نحوها، فهي تضر ولا تنفع، في البداية كنت أقتل أكثر من مائة أضع رؤوسها داخل علبة فارغة. لكن لم أحضرها للسيد ناجي وأقول انظر كم قتلت منها.. ربما من خجلي في طلب النقود وربما لأن السيد ناجي لم يعدني بإعطائي النقود. وأغلب الظن أن طلب ذلك يشجعني على القيام بالمهمة، معنى هذا أني كنت مؤمناً في قرارة نفسي بأنه لن يعطيني قرشاً واحداً.

أعمال أخرى خصوصية نفذتها للسيد ناجي.. يرسلني بين حين وآخر إلى بعض الأماكن.. والأشخاص لأشتري له بعض الحاجات وأحملها إلى مكان عمله في دائرة الضرائب. كان مكتبه عبارة عن غرفة واسعة جميلة مفروشة بأحدث الأثاث.. تصدرتها طاولة كبيرة تكدست فوقها الأضابير والأوراق وبعض المراجع القانونية الخاصة بالضرائب.. يستقبل السيد ناجي ضيوفه في منزله.. ومن بينهم ضابط برتبة كبيرة (جنرال) متقاعد يعمل بقالاً في بناء قيادة القوى الجوية.. وهناك سيدات متبرجات، متقدمات قليلاً في السن يحضرن لزيارته من حين لآخر، حيث سرت شائعات بأن السيد ناجي يرغب بالزواج، لكن السيد ناجي لم يفكر بذلك مطلقاً، فقد عزف عن الزواج، يقول عنه أبي إنه «شجرة بلا ثمر».

في أيام الصيف يجلس ضيوفه في الحديقة.. وأريج الأزهار يملأ جوارحهم، يتنفسون عطر الورود والياسمين.. وتقوم الأخت خيرت بتقديم عصير الثمار من مختلف الأنواع، السعادة تغمر السيد ناجي عندما يعرِّفني على ضيوفه، ليظهر لهم أني ولد ذكي جداً.. سمعتهم يتسامرون حول دراستي والمدرسة التي أدرس فيها.. هل يدخلوني مدرسة مخصصة للفقراء، أم إلى مدرسة صناعية؟ شعور بالقلق

والاضطراب يساورني طيلة مناقشاتهم حول دراستي، حس داخلي أقنعني بأن السيد ناجي لا يريد الخير لي أو أن يسدي إليَّ معروفاً، كما يقوم بتشغيل أبي والأخت خيرت، كان يرغب بأن أعمل مثلهم دون أجر، فإذا سجلني بإحدى المدارس، معنى ذلك أنه باستطاعته الطلب مني القيام بالعمل الذي يريده.

زواج خيرت

سرت إشاعة بأن خيرت ستعقد قرانها قريباً على نقيب في الجيش.. التقيت به مرة واحدة، كان شاباً وسيماً أسمر. في هذا الوقت اختفت خيرت، فلم تعد تظهر على أحد في البيت لا للعمل ولا لشيء آخر. لبست خيرت حلة العرس البيضاء فبدت جميلة رائعة. في يوم الزفاف ازدحم البيت بالمدعوين وحضر بعض المصورين لأخذ الصور التذكارية، كانت خيرت تقف بين الزهور، وأحياناً تحت أشجار الصنوبر، وأمام البيت وبركة الماء، لم تترك مكاناً جميلاً في الحديقة إلا وكان لها نصيب من الصور فيه. اصطفت السيارات أمام المنزل وركبت العروس إحداها وغادر موكب العرس المنزل ومن هناك إلى أزمير. فرحت، كثيراً لزواج خيرت من ضابط وسيم، أقولها بحق أني الإنسان الثاني بعدها الذي يفرح لزواجها. وقد رأيتها مرتين بعد الزواج.

مرّت عدة أشهر على زواجها، وجاءت برفقة زوجها إلى منزل السيد ناجي.. خلال إقامتها فترة من الزمن لاحظت تطورات كثيرة طرأت عليها، ظلت جميلة لكنها غير ناضجة، تتحدث عن ازمير والحفلات التي حضرتها مع زوجها، وإعجاب الحضور بها، واهتمامهم الزائد لها. تروي ذلك بمنتهى الفرح والسعادة، حضرت إلى استنبول لعيادة طبيب أسنان.. مدعية أنها على موعد معه.. في هذا الموقف حزنت كثيراً، حيث علمت أن زواجها لن يدوم طويلاً، وأن خلافات حادة تدور مع زوجها.

خيرت المسكينة.. جاهلة.. غبية.. بسيطة.. أمية.. لست أدري فيما إذا كانت تعرف القراءة أو الكتابة.. كنت على علم بأنها أمية.. وأنها لن تستطيع هضم زواجها السعيد.. إنها تعيش أحلام اهتمام الآخرين بها من الرجال.

بعد مرور ستة أعوام، افترقت خيرت عن زوجها وعادت إلى استنبول، لم يقبلها السيد ناجي ثانية في منزله.. كانت مريضة، فذهبت لزيارتها، وكنت آنذاك طالباً في الثانوية العسكرية. كانت زيارتي لها في أحد أيام الشتاء.. سرت إلى منزلها عبر أزقة ضيقة.. كان منزلها غرفة واحدة صغيرة سقفها منخفض له نافذة واحدة.. أمامها مدفأة صغيرة.. لم أصدق ما رأيت.. هل هذه هي خيرت؟ حسناء زمانها أضحت هرمة بعد سبعة أعوام.

خيالات سريعة مرت أمام ذاكرتي.. خيرت الحلوة الحسناء الضاحكة.. التي كانت تطير في الحديقة كالفراشات.. خيرت التي كادت أن تقبض عليَّ بالجرم المشهود وأنا أتلصص النظر إلى صدرها وساقيها.. خيرت التي لبست الأبيض يوم زفافها.. خيرت التي جرت إلى موعد الطبيب بفرح.

أزهار للبيع

ذكرى أوردتُها في الجزء الأول من مذكراتي، عن خادم أعرج كان يعتني بتوأمين أحضرهما والدهما من إحدى الدول المجاورة لتركيا عندما كان والياً عليها.

صادفت ذلك الخادم الذي يعمل ماسحاً للأحذية، وتحدثت إليه عندما كان يمسح حذائي البني الذي اشتراه لي بائع الفطائر، أخبرني بأنهم طردوه من العمل، ولما سألته عن سبب طرده أجاب؟ إني أجهل السبب، ومن المحتمل أن التوأمين أصبحا كبيرين ولا حاجة لوالدٍ لهما أو

لجهله بأسلوب التربية، وربما يسبب الركود الاقتصادي الذي كان سائداً آنذاك.

سألته عن عمله وأحواله فأجاب: إن عملي سيئ للغاية، وبدأ بالبكاء.. كان أمامه صندوق قديم جداً. اقترحت عليه البقاء في منزلنا. وعندما حضر والدي سردت له قصة الخادم فلم يقل شيئاً. ظهر النعاس على عيني الخادم فأفسحنا له المجال للنوم في تلك الغرفة الوحيدة، وقدَّمنا له فراشاً وأغطية، وكان يضع عدته على الباب مساءً، ويعود ليأخذها صباحاً.

كانت حديقة السيد ناجي مقسمة إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول حديقة لزراعة الزهور، والثاني لزراعة الكرمة والأشجار الأخرى، أما القسم الثالث الذي يزرعه والدي كان صغيراً من المستحيل أن يكفي إنتاجه تأمين حياة أسرة صغيرة.

في الصيف تتفتح أزهار «الأقحوان»، التي تفوح منها رائحة حلوة، لكنها سريعاً ما تذبل وتتساقط أوراقها بعد ذبولها. تصنع من أوراق الزهرة ماء الورد. تتساقط أوراق الورد هذه بغزارة تتجاوز ستة كيلوغرامات يومياً، يقول والدي إن هذه الأوراق تباع بسعر عالٍ، فيجب علينا الاستفادة منها، يمكنك والخادم الأعرج القيام بمهمة البيع.. اشتريت سلة كبيرة، وفي صباح أحد الأيام قطفت وجمعت أوراق الورود ووضعتها في السلة، ثم أخذت ميزان والدي وتوجهت مع الخادم الأعرج إلى السوق وقبل مغادرتنا قال والدي: ستأخذون هذه الأوراق إلى حي باي أوغلو، حيث تسكن العائلات الأرمنية واليونانية الذين سيشترون وردكم.

سرت مع الخادم الأعرج... كان المسكين يجري خلفي ليلحق بي، قطعنا جميع الحارات والأزقة والشوارع، ولم نترك مكاناً إلا وتجولنا فيه

بلا فائدة. شعرت بالخجل من هذا البيع، ربما من كرامة وعنفوان الطفولة التي عشتها. لن يفيدنا الخجل بشيء.. كنا مضطرين لتنفيذ هذا العمل.

ـ قلت للأعرج: اصرخ.

ـ شوبدي اصرخ

ـ اصرخ ونادي بأعلى صوتك معنا زهور الأقحوان.

بالنسبة لي كنت أخجل من الصراخ.. بدأ الأعرج ينادي بأعلى صوته.. فظهرت بعد قليل امرأة يونانية تسكن في إحدى العمارات القريبة من ساحة السمك. اشترت مئتين وخمسين غراماً، هذه الكمية تبدو كبيرة الحجم وخفيفة الوزن. كان سعر مبيع الكيلو غرام ثلاث ليرات وهذا المبلغ ليس ضئيلاً في ذلك العصر. بعد ذلك يئست من خجلي وبدأت أصرخ مع الخادم الأعرج.

معنا ورود حلوة.. ورود الأقحوان... ورود لصناعة المربى.

ما إن غابت الشمس حتى اختفى كل ما في السلة، وربحنا مبلغاً جيداً، لكن التعب أخذ منا مأخذه، وخاصة الخادم الأعرج.

ذات يوم ملأنا السلة بالكمية نفسها تقريباً، لقد أصبح لدينا تجربة في البيع والتعامل مع الآخرين. نربح المبالغ الجيدة، لكن الصعوبة هي في التجوال، وقلة عدد المشترين، والصراخ دون توقف. بعد فترة من الزمن تقلص إنتاج الأوراق.. وعندما استيقظت من النوم لم أجد الخادم الأعرج. فقد حمل صندوقه وذهب بعيداً لأن المسكين لم يستطع تحمل هذا التعب القاسي. تأثرت جداً وقلت في نفسي: كنت قاسياً عليه. مازلت أصادف هذا الرجل هنا وهناك، يعمل الآن في إحدى دور النشر في حي أنقرة. أمر غريب، عندما نرى بعضنا يشعر كلانا بأننا لم نر بعضنا أبداً. يمر بقربي دون أن يلقي تحية وأبادله الشيء نفسه.

الهرب الثاني من البيت

ماذا سأفعل؟ ماذا سأفعل؟

أفكر ليل نهار ولا أجد جواباً على هذا السؤال.

ماذا سأفعل؟.. أبداً.. كيف سأدرس؟

بين وقت وآخر أشعر أن ضباباً من الخوف يلفني وأنني أضعت كل شيء.. يعلو ذلك الخوف، ويتحول إلى خجل متعب من ثقة أبي المطلقة بي.

الأولاد الذين أعمارهم بين ١١ ـ ١٥ عاماً بشكل عام يرغبون الانزواء والهرب من البيت.. هذا التصرف يعصف بأرواحهم، يرهقهم، وتحيط بهم الكآبة وعدم الثقة بالنفس.

هربت من البيت مرتين.. وفي كلتيهما لم تحصل أية مشاحنات أو مصادمات مع أبي أو غيره.. لم يكن سبب هروبي الصراخ والصياح في وجهي أو تأنيبي، وما من إنسان لم يعجبه عملي.. ولا العمل الذي قمت به.. سبب هروبي الأساسي كان البحث عن باب للنجاح ليس إلا. لأنني كنت أبغي الوصول إلى قمة النجاح حتى أعوِّض عن الفشل الذي لازمني طوال حياتي.. لو أن إنساناً هداني إلى الطريق الصحيح ودخلت مدرسة مناسبة.. ربما ثابرت على الدراسة ولم أهرب.. حيث أن هدفي الأول والأخير متابعة تعلّمي، وإذا استطعت المثابرة على العلم فأنا على يقين كامل بأنني سأصبح في المستقبل رجلاً عظيماً. ولكن قبل كل شيء يجب اجتياز الحواجز التي زُرعت في طريقي. عندما قررت الهرب من البيت، لم يكن عندي مخطط مسبق لما سأقوم به، وإلى أين سأذهب. ولكن الشيء الذي أعرفه: هو أن المحطة الأولى ستكون عند العم غالب، لأنه أصبح معلماً في قرية قريبة. وفي آخر رسالة أرسلها إلى أبي بدأها: أخي العزيز: ويشير فيها إلى نقطة هامة بالنسبة له.. أنه أحضر والدته العجوز لتعيش معه، وأنه يرى الحياة من خلال عينيها. احتفظت

بعنوانه وسأذهب إليه، وسيكون محطتي الأولى.. ولكن بعد ذلك لم أعرف المكان الذي ألجأ إليه.. إنه قرار قطعي ونهائي ولن أعود قبل أن أجد عملاً أو أدخل مدرسة.

مرة أخرى.. أخذت من جيب والدي سراً.. مبلغاً صغيراً.. وأعتقد أنه ليرتان ونصف أو خمس ليرات.. ليس أكثر.. خرجت من البيت صباحاً بعد أن لبست الثياب والحذاء اللذين اشتراهما لي محمد أفندي بائع الفطائر.. وعلى رأسي قبعة من القش.. لا أتذكر الآن لماذا حملت تلك القبعة معي ومن أين حصلت عليها؟ بالطبع سأكون في هيئة مضحكة والقبعة على رأسي.

بعد خروجي من البيت تذكرت شيئين.. الأول: الصور التي تصورتها قبل يومين وعددها ست صور يجب أن استلمها هذا اليوم. وقبعة أبي القديمة التي وضعتها لدى مكوجي القبعات ويجب أن استلمها في هذا اليوم أيضاً.

من يدري متى أعود إلى استانبول.. كي أستلم الصور والقبعة؟

هناك محلات كثيرة فتحت أبوابها في سوق الصحف القريب من جامع البيازيد. مررت على المصور واستلمت صوري.. وجئت إلى /قرة كوي/. واستلمت قبعة أبي من المكوجي.. وقد لفها بأوراق ناعمة.. مررت إلى حيدر باشا والقبعة في يدي.. وعندما أعطيت النقود للمصور والمكوجي لم يبق معي سوى مبلغ زهيدٍ لن أستطيع به الوصول إلى العم غالب.. لكن سأصل بهذا المبلغ لمسافة قريبة، ثم أقطع المسافة الباقية سيراً على الأقدام مدة نصف ساعة. بعد هذه المناقشة مع الذات قررت ركوب القطار والسفر.

من لا يعرف جغرافية المنطقة يقع في الخطأ

مرَّ عام على الرحلة المجهولة التي قمت بها في القطار.. بعد ذلك بعام

كنت طالباً في الصف الثامن في المدرسة العسكرية. وقد جرت العادة في المدارس العسكرية.. أن يتوجه الطلاب بعد طعام العشاء إلى غرف المطالعة أو الصفوف.. بعض الزملاء يدرسون، وآخرون وهم الأكثرية لا يفتحون الكتاب.. وبعض الأحيان، يسود الصف حالة من الفوضى والضجيج، وقد تصل الأصوات إلى غرفة الضابط المناوب الذي يحضر على وجه السرعة.. ويسأل ممثل الصف عن سبب هذا الضجيج والمسؤول عن الصف هو من يمثله..

في إحدى الليالي، كنت ممثلاً للصف.. وبدأ الزملاء يتدافعون ويصرخون ويلعبون.. سمع الضابط المناوب هذا الضجيج وحضر إلى الصف بوجه غاضب في هذه الحالة.. يجب تقديم شكوى بحق زملائي أو أقبل بالعقوبة التي سيفرضها الضابط المناوب.. من العادات الجيدة والرائعة في المدارس العسكرية، أنه مهما حصل، ومهما كانت الأسباب المباشرة وغير المباشرة.. إذا وشى أحد الطلاب بزملائه إلى مقام أعلى.. اعتبر عمله غير أخلاقي.. أمثال هؤلاء يطلق عليهم اسم الجواسيس.. ينبذهم جميع رفاقهم في الصف.

لم أستطع اسكات زملائي.. ولم أفكر بالذهاب إلى الضابط المناوب لأقدم شكوى بحقهم. كان بعض الزملاء يودون الدرس والمطالعة لكن الأكثرية كانوا متحكمين بجو الصف. وقفت أمام السبورة وضربت بقبضتي على الطاولة.. مثل المدرسين.

وقلت لهم:

ـ أيها الأصدقاء سأقص عليكم كيف هربت من البيت.

صمتوا بسرعة وهنا بدأت أسرد لهم الحكاية، كانوا جميعهم آذاناً صاغية، لم تصدر عنهم أي حركة، لم يكن صفنا بمثل هذا الصمت عندما يشرح أحد المدرسين الدرس. ينصتون باهتمام.. لم يخرجوا

من الصف.. عندما قرع جرس الانصراف. ألحوا عليَّ تكملة حديثي حتى نهايته.

بعد هذه التجربة الناجحة، عمد بقية الزملاء ممثلي الصف المتعاقبين إلى اتباع هذا الأسلوب.. عندما لا تسمح لهم فرصة فرض النظام على الصف.. كانوا يطلبون مني حكاية هربي من البيت، هذه المغامرة الانهزامية.. قصصتها لزملائي عدة مرات وأنا في الصف الثامن.. كانوا يعرفون ما سأقوله ومع هذا يصغون بانتباه في المرات التي تلت ذلك.. وعندما أنسى موقفاً من المواقف كان الزملاء يقولون لي: «هذه النقطة نسيتها وهذه لم تقلها لنا».

أما القسم من الحكاية التي أحبها زملائي فهي: مددت رأسي خارج نافذة القطار.. لأرى السهول والجبال والغابات لتبقى حية في ذاكرتي.. حصلت على تذكرة من الدرجة الثالثة. كي أسافر بسعر زهيد. ولكن ليس لهذا السبب فقط، بل لأنني اعتدت على هذه الحالة. ولم أركب سوى في الدرجة الثالثة.. ولأنني أيضاً لم أفكر أن هناك أماكن ودرجات أولى وثانية في القطار.. الدرجة الأولى والثانية في السفينة من الأمام.. أما في القطار فالدرجة الثالثة من الأمام وتليها الثانية ثم الأولى في نهاية القطار.. لماذا؟ لأنه إذا حصل حادث اصطدام أو إذا خرج القطار عن سكته، فإن ركاب الدرجتين الثانية والثالثة يهلكون، أما ركاب الدرجة الأولى وهم من المسؤولين فيبقون أحياء، ويعملون على إنقاذ ركاب الدرجتين.

معظم ركاب الدرجتين الثانية والثالثة فقراء لا يملكون نقوداً لشراء تذاكر من الدرجة الأولى. وهكذا فهم مع الخطر وجهاً لوجه.

كان ممشى القطار في اليمين.. والدخان المتصاعد من القاطرة يلفح وجهي الخارج من النافذة، كنت أراقب الشواطئ البحرية التي يمر القطار

عبرها.. وحتى أرى مزيداً من تلك المشاهد الجميلة، أبقيت رأسي خارجاً وصرت أفتح عيوني قليلاً حتى لا يدخلهما دخان الفحم. اقتربنا من الجزر وهاهي الجزيرة التي تضم منزلنا.. من يدري بعد كم من الزمن سأرى هذا المنزل؟

شعرت أن جسماً صغيراً من دخان القطار دخل عيني. أحسست بألم لا يستطيع الإنسان تحمله، كانت الدموع تنهمر بغزارة من عينيّ.. ولم أستطع نزع هذا الجسم الغريب الذي دخل عيني، طريقة واحدة للقضاء على الألم.. هو أن أغمض عيني ولا أحرك أجفاني أبداً.. من الصعب جداً على المرء البقاء مدة طويلة دون تحريك العين، حتى ولو كانت الأجفان مطبقة على بعضها. جلست على المقعد الخشبي وأغمضت عيني. توقف القطار في عدة محطات لكني لم أستطع فتح عيني.. بعد وقت طويل تمكنت من ذلك.. ألم خفيف.. لقد ذاب الجسم أو خرج من عيني نظرت من النافذة.. مشهد غريب حيرني.. كان البحر في الناحية اليسرى من القطار.. وعندما أغلقت عيوني كان البحر من الجهة اليمنى.. كيف انتقل البحر من الشمال إلى اليمين؟ لم أستطع أن اسأل أحداً من الركاب.

علمت أخيراً أن البحر الذي رأيته يسار القطار.. لم يكن سوى بحيرة وما عرفت هذه الحقيقة إلا عند عودتي ثانية بالقطار إلى استانبول. هذا الموقف الخاطئ لموقع البحر والبحيرة.. أضحك زملائي كثيراً «كان البحر إلى اليمين.. فتحت عيني وإذا به إلى اليسار.. آ آ.. كيف ينتقل البحر من اليمين إلى اليسار بهذا الشكل؟»

كلما أقص عليهم هذه المغامرة.. كانوا يضحكون ويضحكون.

محمد أفندي زيبق زادة

أخذت عنوان ذلك الإنسان الذي أسدى لي المعروف، ووددت، أن

أكتب له رسالة أشكره فيها على مساعدتي.. هذه الأمنية لازمتني مدى سنوات طويلة ولكن مع الأسف الشديد لم أستطع تحقيقها.. مرت الأعوام وأنا أقول.. اليوم وغداً وبعد غد سأكتب له، أخيراً أضعت عنوانه، محمد أفندي يكبرني بخمسة عشرة عاماً الآن عمره يناهز السبعين أو اثنين وسبعين أصبح أولاده كباراً.. ربما يقرأون اليوم كتابتي هذه، ويعرفون أنني لم أنسَ والدهم.. أدامه الله.. محمد أفندي زيبق زادة الذي فتح بيته لطفل صغير أو لضيف صغير.

نزلت من القطار في /آدا بازاري/ وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب.. وألمَّ بي الجوع. في المحطة يبيعون الكعك لكن كعكة تلك المدينة لا تشبه كعكة استانبول. كانت مدورة ولكنها مستوية. اشتريت كعكتين.. بكامل النقود التي كانت في حوزتي.. ولم أكن أعرف المسافة بين هذه المحطة وقرية العم غالب.. اعتقدت أنني لو سرت ساعة من الزمن سأصل إلى /أق يازي/.. ومنها إلى قرية العم غالب قبل حلول الظلام.

سألت بعض الناس من أين يذهبون إلى /أق يازي/.. أشاروا إلى الطريق.. مشيت وفي يدي حقيبة ضخمة.. في داخلها قبعة والدي.. لقد تمزقت الورقة.. التي تُغلِّف قبعة أبي. في هذه الحالة يكون السير صعباً للغاية وأنا أحمل المغلف والقبعة.. وجدت أن الحل الأمثل هو أن ألبس هذه القبعة.. واحتفظ بقبعتي القش داخل الورقة الممزقة وهكذا فعلت.

ولد صغير، عمره ثلاث عشرة عاماً.. طوله مائة وأربعون أو خمسة وأربعون سنتمتراً.. ويلبس قبعة كبيرة على رأسه.. كنت أستطيع أن أتخيل هيئتي المضحكة.. حتماً فأنا أشبه بقزم من أقزام السيرك.

بعد مسير طويل وصلت إلى مكان يسمى /جارك/ لم أعلم فيما إذا

كان هذا اليوم عطلة أسبوعية؟ المكان مزدحم للغاية.. فقد تجمهر العمال وغيرهم في هذا المكان للعودة إلى منازلهم بسبب حلول الظلام.. بعضهم حضر بعربات تجرها الخيول والبعض الآخر سيراً على الأقدام.. كنت دائماً أسأل عن الطريق، «هل طريق أق يازي من هنا؟».. نعم. وما هي المدة التي أصل إليها؟ ست ساعات.. ولكن على خطواتك هذه تحتاج ثمان أو عشر ساعات.

وصلتُ نهر /سقاريا/ فاقترب شاب مني وألقى السلام عليَّ.

- سلام عليكم.

- عليكم السلام.

- وين الله معو؟

- أدامك الله.

- إلى أي جهة ستسير.. وإلى أين السفر؟

- إلى أق يازي.

- ماذا؟ هل تقول أق يازي؟ مشياً أليس كذلك؟ وبعد هذا الوقت المتأخر؟

- نعم..

- ولماذا لا تركب الحافلة من آدي بازاري؟

طبعاً لا أستطيع أن أقول له أنني لا أملك نقوداً.. يجب أن أقدم له كذبة ما.

- لم أعرف.. بوجود حافلات إلى أق يازي؟

- طبعاً يوجد.. من أين جئت؟

- أنا قادم من استانبول.. الآن نزلت من القطار.

- واه.. واه.. حرام.. كان عليك أن تمضي هذه الليلة في أحد الفنادق.. المهم.. بعد قليل سيحل الظلام.. لو مشيت طوال الليل فلن

تصل حتى الصباح.. الأفضل لك أن تأتي معي إلى قريتنا وتنام معنا هذه الليلة.. ضيفاً عندنا في المنزل.. انظر هاهي قريتنا يمكنك أن تراها من هنا.

الوضع قديماً ليس كما هو عليه الآن.. لا شاحنات، ولا سيارات، ولا أية واسطة أخرى.. ربما تمرّ، عربة تجرها الخيول.. أو إنسان يمتطي حماره في كل ساعة أو نصف ساعة.. أما الطريق.. فهي قديمة ومحفورة.

اجتزنا جسر سقاريا فوصلنا قرية صغيرة.. تتراءى الخضرة في أرجائها.. وتتشعب الألوان تحت أشعة شمس الغروب وعلى يمين الطريق.. قرية لم أعد أذكر اسمها.. ولكن لم أستطع أن أنسى اسم ذلك الإنسان الطيب.. الكريم.. زيبق زادة محمد أفندي هو يسألني.. وأنا أجيبه.. فأنا ذاهب إلى عمي الذي يعمل معلماً.. كان يسألني «ماذا كنت تعمل؟».. أنا طالب.. في أي صف؟ أخترعت كذبة كبيرة على محمد أفندي زيبق زادة.

ـ أنا في الصف التاسع.

لماذا نطقت بهذه الكذبة يا ترى؟ هل كانت ضرورية؟ أعتقد أنني فعلت ذلك.. كي يحبني الرجل كثيراً ويسمح لي بالمبيت في بيته.. ولأحظى منه بالاحترام والتقدير.

احتار محمد أفندي زيبق زادة ودُهش لأني في الصف التاسع.. الله.. الله.. ما شاء الله.. وأنت بهذا العمر.

ذهبنا إلى منزله.. منزل قروي جميل.. الواضح أن وضعه المادي جيد، أدخلني إلى غرفة في الطابق الثاني.. أحضر أولاده من عمري وأكبر مني، ربما هم أولاد زيبق زادة محمد أفندي أو إخوته.. كان يقول لهم:

ـ انظروا.. يقول عن نفسه أنه في الصف التاسع.

عندما دخلت الغرفة.. وضعت القبعة في أحد أركانها، بينما الدموع

تنهمر من عيني.. جراء الجسم الغريب الذي دخلها في القطار.. ولهذا السبب كنت مضطرباً.

حظيت في منزل زيبق زادة بكل الاحترام والتقدير، كأنني رجل كبير. كان محمد أفندي يقول:

ـ هذه الليلة ستبقى هنا.. تنام على كيفك.. وترتاح على أكمل وجه. غداً تمر الحافلة المسافرة إلى /أق يازي/ من قريتنا.. وربما حافلة أخرى بعد غدٍ.. المهم غداً صباحاً تتناول فطورك ونودعك لدى ركوبك الحافلة عندما قال: «تركب الحافلة».. شعرت أن قلبي يقفز من مكانه.. فأنا لا أملك نقوداً لأركب الحافلة.. ولا أستطيع أن أذكر لهم أنني لا أملك النقود. كنا نتحدث دائماً ولكن عقلي وفكري في الحافلة التي سأركبها غداً.

فرشوا مائدة الطعام على الأرض وملؤوا الصحون النحاسية بالطعام.. أكلت وملأت بطني على أكمل وجه.

ثم تحدثنا لبعض الوقت وفرشوا لي على الأرض.. فراش.. نظيف.. ناعم.. رائع.

من المعلوم أن داخل الإنسان ساعة منبه.. ترغمه على الاستيقاظ من النوم.. في الوقت الذي يريده.

لقد نبهتني ساعتي الداخلية وأيقظتني قبل بزوغ الفجر.. كي لا أكون بموقف حرج لعدم وجود المال معي.. خرجت من الفراش.. ولبست ثيابي.. وأسرعت نحو الخارج بسرعة البرق.. القرويون يستيقظون باكراً.. أما أنا فقد استيقظت باكراً جداً لا أدري لماذا.. لم أر أحداً في الطريق.. كان الشفق السماوي البارد الجميل قد أضاء كل شيء.. وإذا ما نبح كلب وأيقظ أحداً أهرب خوفاً من أن يراني إنسان ما من أصحاب البيت ويقول لي: «إلى أين..

الوقت ما زال باكراً.. تعال وتناول فطورك ثم تذهب. لم يحن بعد وقت الحافلة».

ابتعدت عن القرية مسافة طويلة إلى حدٍ ما، حتى وصلت المفرق الواصل إلى الطريق العام.. عندما وصلت إلى هناك أحسست ببعض الراحة وتنفست الصعداء.. إلا أن جسمي كان قد تبلل بالعرق.. ومهما يكن فقد تخلصت من محمد أفندي.

من يدري.. ماذا فعل محمد أفندي زيبق زادة عندما استيقظ ولم يجدني في المنزل.. وماذا حسبني أصحاب البيت يا ترى.. كيف لهم أن يعرفوا أن سبب هروبي باكراً من منزلهم هو عدم وجود المال معي.. وربما نسوني بعد مرور كل هذه السنوات الطويلة.. أما أنا فلم أنس معروفهم وإحسانهم أبداً.

بعد مرور خمسين عاماً.. مازالت أمنية واحدة تهز أعماقي هي أن أقوم بزيارة إلى محمد أفندي.. فكرت كثيراً به وتساءلت: هل هو حي.. أم لا؟ ما هي أحواله؟ أين أولاده؟ منذ سنوات مررت من هناك عندما كنت ضابطاً لقد تبدل كل شيء في تلك المنطقة.. ولم أعد أعرفها.

وقفت على قارعة الطريق المرصوف بالرمل الناعم الذي بدأت حرارته تشتد باضطراد.. وعلى طول الطريق تمتد الأراضي السهلية وغبارها الناعم كالطحين. ثمة أصوات تخرج من خطواتي في كل خطوة أمشيها على الأرض.. الغبار المتصاعد عند مرور سيارة يغلف جسدي. ويظل الغبار في مكانه لعدم وجود الهواء.. أنظر إلى ركاب السيارات لدى مرورهم قربي.. فأرى رموشهم وحواجبهم قد تلونت بلون الغبار.. الرمادي. وكأنهم وضعوا أقنعة على وجوههم. ضربت الشمس بأشعتها اللاهبة رمل الطريق الذي أصبح ناراً لاهبة.. عندما تسير إلى جانب

الطريق.. يكون السير سهلاً نظراً لقساوة التربة.. في جيبي مبلغ صغير.. فإذا أومأت لإحدى الشاحنات ربما تتوقف وتنقلني، ولكن عبثاً لأنني كنت أخشى أن يطلبوا مبلغاً أكثر مما في جيبي.. في ذلك الوقت لم تكن مقولة «أوتو ستوب» قد ظهرت بعد ولم نسمع عنها.. «روح ها روح».. هناك أشجار على يسار الطريق، ونهر تتدفق مياهه بسرعة.. منحدرة من خلف الصخور.. ومارة بين أشجار الحور والسنديان.. مجتازة الحجارة.. الزبد يطفوا على سطح الماء أحياناً، ومن ثم يصفو، وأغلب الظن أن هذا النهر هو أحد الفروع التي تصب في نهر سقاريا.. كان مجرى النهر يتسع في بعض الأماكن.. تحت ظلال السنديان خلعت ثيابي ورميت بنفسي إلى الماء.

أتذكر من أين وكيف وصلت إلى أق يازي، وكيف بدأت المسير نحو القرية التي فيها العم غالب.. وأذكر الناس الذين أشاروا علي باختصار الطريق؟ وكيف اجتزت حقلاً كبيراً مزروعاً بالذرة، وكيف وصلت إلى أرض مروية.. ناعمة، وكيف غاصت قدماي في الوحل، وتلوثت ثيابي، تلك أفعال لا أستطيع أن أنساها، لقد نسيت اسم القرية التي يعمل فيها العم غالب إماماً.. هناك قريتان.. إحداها.. شيدت منازلها فوق أعمدة عالية. يصعدون إليها بسلالم من الخشب.. العم غالب أحضر والدته لتعيش معه بعد أن ذاق مرارة الحسرة عليها. كانت مرارة السنوات وآلامها قد استقرت في نظراتها.. وجهها النحيف امتلأ بالتجاعيد إنها امرأة قروية بكل معنى الكلمة.

بدت سعيدة حتى ولو نسيَتْ الضحك منذ وقت طويل.. لأنها وجدت ابنها.. إلا أن العم غالب لم يكن سعيداً.. رغم عثوره على والدته التي طالما اشتاق إليها.. لم يكن سعيداً لأنه لم يقدم لها الحياة السعيدة التي كان يتمناها.. حياة الرفاه.. لقد ظهرت على وجهه علائم

الشيخوخة خلال فترة قصيرة.. بدا شيخاً هرماً.. كم هو الفرق بين المعلم في أزميت وهو يحضر الدورة.. والإمام غالب في هذه القرية. العم غالب الذي كان يحلق ذقنه كل صباح.. ترك ذقنه تطول كونه إماماً.

كانت بيوت القرية بعيدة عن بعضها.. والمدارس معطلة.. لم أصادف أحداً من طلاب المدرسة.. كنت وحيداً ولكنني سعيد.

عودة الخسران

أعطاني العم غالب المال لأعود إلى استانبول، وعندما وصلتها ليلاً كانت نقودي قد نفذت كلياً.. ومعدتي خاوية.. إذا عدت إلى البيت ماذا سأقول لوالدي؟ بقيت أتجول في استانبول إلى ما بعد منتصف الليل، ورجعت إلى البيت سيراً على الأقدام. كانت ليلة حالكة الظلام لم أعد أرى النجوم فيها. وصلت إلى أحد البساتين وقفزت داخله واستطعت الوصول إلى شجرة المشمش التي كانت أغصانها مدلاة نحو الأسفل.. فأكلت من الثمار التي قطفتها ثم دخلت إلى مطبخ التكية. والذي كان بيتنا لفترة من الزمن، وأشعلت عود الثقاب الذي وجدته فوق الموقد.. ولكي لا يعم النور داخل الغرفة لم أشعل مصباح الكاز.. فتشت في أنحاء الغرفة، فوجدت ثمار مربى المشمش داخل طنجرة، يجب أن يكون المربى قد صنع في هذا اليوم بسبب عدم تفريغه فأكلت منه حتى الشبع.

ثم صعدت إلى الغرفة بواسطة الدرج الخشبي الصغير.. وكانت أرضها مغطاة بفراش بالٍ رقيق.. استلقيت على الفراش لأنني كنت منهكاً من التعب.. أما خطتي فهي: الخروج من البيت باكراً قبل نهوض أبي لأني سأبحث لنفسي عن عمل.. أي عمل، ومهما يكن.. وبعد الحصول على العمل.. سأعود سراً إلى البيت وأنام فيه.. ولكنني استغرقت في النوم.

ـ يا ضناي..

كان ذلك صوت أبي.. استيقظت.. كان ينظر إليَّ بكل ما أتاه الله من المودة والحب.. هل يمكن أن يستيقظ الإنسان قبله؟ إنه مستيقظ منذ زمن طويل.. وقد أدى صلاة الفجر. سألني فقط لماذا نمت هنا.. ولماذا لم تدخل البيت؟ تحدثت معه وكأنه لا ذنب لي أبداً.. وكأنني لم أهرب من البيت قلت له: بأنني عدت متأخراً.. ولم أرغب في إيقاظك في تلك الساعة المتأخرة.

ـ أكيد أنك شعرت هنا بالبرد يا بني!

ـ لا.. لم أشعر به.

ـ أنت جائع يا بني.

ـ لا أنا شبعان.

تعال لنتناول الفطور معاً.. بعد مدة سألني.. وكأنني عائد من غزوة ما.. ماذا فعلت.. برَّرت غيابي بكذبة لم أفكر بها مسبقاً مثل زلة لسان. قلت له: كنت في إزمير.. وأدَّيت، هناك امتحاناً للدخول في مدرسة صناعية داخلية وقد نجحت فيه. وعندما تفتح المدارس سأذهب وأكمل دراستي في تلك المدرسة.

الكذبة التي أخرجتها من مخيلتي.. كنت ألّمعها وأزخرفها.. وبعد عدة أيام صدَّقت كذبتي وأصبحت كأنها حقيقة.. لماذا يا ترى ذكرت أزمير التي لم أذهب إليها ولم أرها أبداً؟ كذب.. كذب.. كذب.

لقد بدا الاضطراب واضحاً على وجهي جراء هذه الكذبة، ومع ذلك، ففي داخلي رغبة جامحة لأفتح صدري وأقول الحقيقة كاملة. ولكن ليقول الإنسان الحقائق وخاصة لطفل مثلي يجب أن يكون في المكان الذي يمكنه القول. من جهتي، كنت أبحث عن ذلك المكان.. الشيء الذي استنتجه من أكاذيبي هذه، هو أن لا أكذب ثانية.. وأن أصل إلى مكان آمن لنفسيتي. مكان لا أحتاج فيه إلى الكذب أبداً.

في الوقت الذي أكتب فيه هذه المذكرات وأنا في الستين من عمري.. أريد نقداً ذاتياً. فأنا أب.. وأرى من خلاله النقص الكائن في أبوتي.. من جهتي لم أستطع أن أكون أباً جيداً لأولادي.. كما كان أبي معي. مع أنني أملك الإمكانات المادية والمعنوية أكثر من إمكانات أبي بأضعاف مضاعفة. ثم إنني لم أقدِّم لأولادي السمح والصفح كما قدمهما لي أبي.. ذلك الأب الذي لم يكن متسامحاً ولا متصالحاً إلا معي، كنت أعلم علم اليقين بأن حبه واحترامه وتقديره ومسامحته لي لم يكن جراء كوني.. طالباً مجداً أو ذكياً. بل لأنني ابنه وقطعة منه.

كان من واجبي أن أعلمه بالحقيقة، وهي أنني ذهبت إلى إزمير وقدمت امتحان القبول في تلك المدرسة.. ونجاحي به. كان السيد ناجي يضحك عليَّ عندما يقول بأنه سيضعني في إحدى المدارس.. ويترك الزمن يمضي هكذا. ولهذا السبب يجب أن أفتح لنفسي طريقاً دون مساعدة أحد.

مدرسة داؤود باشا الإعدادية

كانت المدارس توشك أن تفتح أبوابها. فالطلاب الذين أنهوا المرحلة الابتدائية.. يُسجَّلون في المدارس الإعدادية.. فهل نسيت كذبتي عن إزمير وعن المدرسة الداخلية؟ ربما لم يصدقها أحد، أو لن أستطيع الذهاب إلى هناك كون المنطقة بعيدة جداً.

قمت بالتسجيل في أقرب مدرسة من بيتنا وهي: مدرسة داؤود باشا الإعدادية. وكانت إرادة النجاح تزكي فيَّ الأمل.. ورقمي المدرسي ٣١٧. أتذكر كيف تمَّ توزيعنا إلى مجموعات بحيث تُعطى كل مجموعة اللغة الأجنبية التي ترغبها. كان طلاب الصف الأول الإعدادي قد اجتمعوا في الصالون الموجود في الطابق الأول. بينما وقف معاون

المدير على منصة أعلى.. وأمر الطلاب تكوين مجموعتين: الأولى قسم اللغة الفرنسية والثانية الإنكليزية.

كان عدد طلاب الإنكليزية قليلاً.. بينما الأكثرية العظمى من الطلاب اختاروا اللغة الفرنسية. وتم تشكيل شعبة واحدة لطلاب اللغة الإنكليزية بصعوبة بالغة. وبما أنني كنت قرأت اللغة الإنكليزية في العام الماضي.. ففد التحقت بملء إرادتي مع طلاب اللغة الإنكليزية. لأنها حديثة العهد في مدارسنا، والأكثر انتشاراً وقراءة هي الفرنسية ثم الألمانية. كان مدرسو اللغة الإنكليزية ينتدبون من متقاعدي ضباط البحرية. وأعدادهم قليلة جداً.. مثلاً مدرس الإنكليزية في داؤود باشا يعمل إماماً في أحد المساجد القريبة من المدرسة واسمه /فاتح سمتي/.. وكان رجلاً بشوشاً، أطال شعر ذقنه، ولم يكن يستعمل اللفحة أبداً. يلبس قميصاً ياقته قصيرة. قصَّ علينا جزءاً من حياته العسكرية، بأنه كان ضابطاً أثناء الحرب العالمية الأولى ووقع أسيراً بيد القوات الإنكليزية، فنقلوه إلى الهند، وبقي هناك عامين كاملين تعلم خلالها اللغة الإنكليزية.

المدرسة بعيدة عن بيتنا إلى حدٍ ما. عند ذهابي وإيابي إليها كنت مرغماً على المرور في الأراضي الواسعة المعرضة للحرائق.. وهي في المحصلة من أكثر أماكن البناء.. معظم أبنية استانبول مصنوعة من الخشب. وكانت الحرائق تأتي سنوياً لتلتهم كل شيء.. الحمامات والمطابخ.. ومازالت بعض الجدارن تحيط بالأماكن المحروقة.. وهذه الأماكن كانت تجمع في جحورها الحشاشين والمدمنين وبيوت الدعارة.. ولهذا السبب كان يحظر على الأولاد دخول تلك الأماكن المحروقة.

على جانب الطريق الذي أسلكه عبر المناطق المحروقة، تعيش امرأة مسنة وسط خراب على شكل قبة محاطة بجدار من الطين كنا نسمع أن هذه المرأة.. تكشف عن ساقيها وأعضائها للطلاب مقابل قرش واحد..

وبما أن منزلها لا يبعد عن الطريق أكثر من عشرة متراً.. فقد رأيتها شخصياً بعد أن صعدت إلى تلة في جانب الطريق. تغلق باب غرفتها الشبيه بثقب بستارة من الخيش. يتحدثون أيضاً عن مقهى يقع بعد جامع /حكيم أوغلو علي باشا/ أنهم يشربون فيه الحشيش وسائر أنواع المخدرات. وهذا المقهى يقع على طريق المدرسة. وأما الحارات فهي تعج بالقبضايات.

وحديقة مدرستنا ملاصقة للمقبرة.

في ذلك العام أصبحت طالباً نظامياً أستمع إلى شرح المدرسين، وأثابر على كتابة وظائفي المنزلية.. فالمعلومات القديمة التي تعلمناها في العام الماضي.. الذي رسبت فيها لا أعرف منها شيئاً، ولهذا حاولت قدر المستطاع تعويض المعلومات في هذا العام الجديد.

أساتذتي

الأستاذ سامي مدرس اللغة التركية، اعتبره أفضل وأحب الأساتذة جميعاً شعره أجعد.. ومشيته فيها بعض الحرج.. لست أدري، قد تكون إحدى ساقيه أقصر من الثانية. أم أنهما معوجتان بسبب مرض الكُساح أو غيره. المهم أن عدم التوازن كان واضحاً في مشيته.. يقولون: إنه أراد أن يصبح أديبا.. إلا أنه لم ينجح، ولهذا بدأ بتعليم اللغة التركية.. وصار واحداً من مدرِّسيها، ربما كنت أحبه لأنه كان معجباً بالتمارين التحريرية اللغوية التي أكتبها.

في أحد الدروس.. قص لنا حادثة أو سالفة جرت معه لم استطع أن أنساها.. وكنت قد تناولت تلك الحادثة في إحدى كتاباتي.

لم يكن العفو قد صدر بعد للجماعة التي تطلق على نفسها جماعة الـ/ ١٥٠/ ومن بينهم /رضا توفيق/ الذي كان منفياً خارج تركيا، ولم يكن قد عاد إليها.. وفيما كان يتحدث عن /رضا توفيق/ قص على

مسامعنا هذه الحادثة: «يُقال: أن أحد بائعي الحطب والفحم في حي شيخ زادة باشا كان يرتب قطع الحطب فوق بعضها بشكل نظامي.. وذات يوم وأثناء مرور رضا توفيق من أمام هذا الدكان.. نظر إلى قطع الحطب المرتبة فوق بعضها البعض بشكل رائع.. والتفت إلى رفيقه وقال له بصوت مسموع: انظر وافهم في أي بلد نعيش.. حتى الحطب يعتنون به في هذا البلد.. أَراد القول وبشكل غير مباشر.. إنهم لا يعتنون بالإنسان.. كاعتنائهم بالحطب». جرى هذا أثناء مرور مدرسنا الذي كان طالباً صغيراً.. وسمع كلام /رضا توفيق/. لقد قص لنا هذه السالفة ليظهر مقدار سخرية رضا توفيق بالوضع السياسي الحاضر، أما أنا فلم أفهم الأمر كما فهمه هو.

في أحد أيام العيد ذهبت مع اثنين أو ثلاثة من زملائي إلى منزل السيد سامي في حي /فندق زادة/. الحي مازال في طور البناء. لم يكن منزله مجهزاً من الخارج.. المهم أن المنزل يُعتبر مقبولاً إلى حدٍ ما.

أما مدرس الرسم فلا يستحق أن يكون مدرساً، فهو يجعلك تكره مادة الرسم وبالتالي لا تحبها.. طبعاً الأمر بالنسبة لي مخالف كلياً.. فأنا أحب الرسم وقد حصلت على إعجاب المدرس.. كان يعاقب الطلاب الغوغائيين.. بشد آذانهم.. والضغط عليها بأصابع الإبهام.. يقول الطلاب أن هذه العملية مؤلمة للإنسان مثل لدغ النحل.. وأعتقد أن سبب تصرفه معنا بهذه القساوة راجع إلى عدم الاهتمام بمادتي الرسم والموسيقى.. يرونهما مادتين غير ضروريتين.. ولهذا فهم لا ينصتون للمدرس ولا يفهمون الدرس.. ورداً على موقف الطلاب كان مدرس الرسم يتصرف معنا بهذه القساوة.. لأننا لا نهتم به ولا بدرسه.. بالعكس.. فهم يسخرون منه ومن مدرس الموسيقا أيضاً..

لقد حاول المستحيل ليعلمنا الرسم المنظور.. وأول مرة أسمع هذه الكلمة منه.

أما مدرس الرياضية /التربية البدنية/ فهو السيد كمال، الذي يمتهن لأول مرة تدريس مادة التربية البدنية.. نراه في الأيام العاصفة الثلجية والباردة دون معطف، يوصينا بوضع ورقة الجرائد تحت ثيابنا.. على صدورنا وظهورنا لاتقاء برد الشتاء.. أحياناً يفتح أزرار قميصه ويظهر لنا ورقة الجرائد ولهذا لم يكن يشعر بالبرد أبداً.. من جهتي جربت وضع أوراق الجرائد على ظهري وصدري لإبعاد البرد عني. السيد كمال يلبس بزَّة كحلية ضيقة تبرز منها تفاصيل جسده.. صوته غليظ.. طلب منا شراء أحذية بلاستيكية بيضاء وبنطالاً قصيراً، وقميصاً أبيض.. أعتقد أنني للمرة الأولى لعبت كرة الطائرة.. في عام ١٩٦٠ التقيت بالسيد كمال كمعاون لمدير إحدى ثانويات البنات.. حاولت جاهداً أن أجعله يتذكرني.. ذكرته بأوراق الجرائد ولكن عبثاً.. ربما نسي أو تناسى ذلك.. لم أعد أذكر اسم مدرس مادة الرياضيات.. فاسمه صعب، لا أحد يذكره يلقبونه /بالكومرجي/ (أبو الفحم) لست أدري لماذا؟ ربما لتقدمه بالسن.. أو نحن نراه كذلك. يشرح لنا الدرس على السبورة.. لم يكن له أية علاقة حميمية أو صلة مع طلابه سوى شرحه للدرس.. ويشرح لنا كما لو أنه يتحدث مع عائلته وضيوفه ومعارفه في منزله أو خارجه.. بمثل كلام العجوز الكهل /التلفان/ يقوم بتدريس الرياضيات والهندسة.

ولا أنسى أفضال السيد خلوصي مدرس الموسيقا.. فهو المسبب غير المباشر الذي دفعني لكتابة المسرحيات والقصص.. أي أن له دوراً كبيراً وبشكل غير مباشر.. أما مدرس مادة التاريخ فهو السيد محمود وهو من مدرسي الثانوية العسكرية.

حضرة إبش

في محلة الشيخ زاده مسرحان متقابلان.. المسرح الأول اسمه مسرح الفرح والثاني مسرح الشعب.. في ذلك العام الدراسي.. دخلت كلاً المسرحين مرتين أو ثلاث مرات.. لقد أعجبتني مسرحية ناشيت.. ومسرحيات مجموعة إسماعيل بلبل.

في أحد الأيام وأنا أسير أمام مسرح الفرح.. وإذا بإعلان مكتوب على قطعة قماش بيضاء معلقة على باب المسرح.. يعلن فيها عن مسابقة مفتوحة في كتابة المسرحيات.. والمسرحية التي تفوز الدرجة الأولى ستعرض في نفس المسرح.. ربما كان المسرح يبحث عن نص هادف وجميل، وربما يريد جذب انتباه المشاهدين.. عندما قرأت الإعلان أحسست بفرح عارم.. على الفور اندفعت لكتابة المسرحية.. ولكن كيف أكتبها؟ كل ما حضرته عبارة عن مسرحيتين.. الأولى بمشاهد قصيرة، والثانية مسرحية طويلة.. حاولت كتابة مسرحية.. مستلهماً قصتها من تلك التي شاهدتها عندما كنت في الثامنة من عمري.. طبعاً لم أنجح.. فقد كتبت على ورق المسودة صفحتين أو ثلاث تلك تجربتي الأولى في الكتابة.. وفيما يلي ملخص للمسرحية التي لم أكملها وأنا في الثالثة عشر من عمري.

عندما نشرت مسرحيتي على شكل كتاب في عام ١٩٥٧.. قال عني صديقي كمال طاهر يوم ذاك لبعضهم: «من يكتب مثل هذه النصوص فإنه يُقَزِم، الكتابة الساخرة».

هذه الكلمات استعملها فيما بعد «الناقد طاهر ألانغو» عندما انتقد مجموعة قصصية صادرة حديثاً.. ومنذ ذلك اليوم وإلى الآن تستمر هذه المحاكمة المسبقة بحقي.. في إحدى مناقشاتنا صرخ كمال طاهر في وجهي قائلاً: «أنت تريد أن يكون كتابك الأول ناجحاً إلى أبعد الحدود»

(يعني تريد أن تراه أثراً خالداً). ولكي يعطي لنفسه الحق الكامل.. ادعى بأن كتابة الرواية حقٌ له.. وقال مفاخراً بنفسه: بأنه لا يكتب سوى الرواية.. مع أنني أعلم بأن كمال طاهر حاول كتابة النصوص المسرحية.. لكنه فشل فيها.. ومع هذا لم أقل عنه شيئاً.. وفي كتابه: «رسائل من ناظم إلى كمال طاهر».. كتابات قالها بحق ناظم منتقداً مسرحياته وشخصه.. ومع هذا لم أناقشه في هذه السيرة أيضاً.. ولم أقل له: بأنني أكتب المسرحيات منذ الثالثة عشرة من عمري، وأن هناك أكثر من خمس عشرة مسرحية غير منشورة ولم تُعرض كتبتها قبل «أن تخطَّ حرفاً».

لكن مقولته التي قالها بحقي: «إنه يكتب النصوص مثلي بهدف تقزيم المزاح أو الأدب الساخر».. ومازالت تقال وتدار حتى الآن.

في الثالثة عشرة من عمري لم أكتب مسرحية كي أشترك بها في المسابقة، ولكن بعد مرور أعوام وبالتحديد عام ١٩٧١ كتبت مسرحية «حضرة إِبش» مستلهماً قصتها من تلك المسرحية القصيرة التي شاهدتها وأنا في الثامنة من عمري.

في سجن انفرادي

في ٢٤ أيار من عام ١٩٧١.. داخل براكةٍ أميركية فارغة.. عانيت المرارة في هذا السجن بسبب عدم إعطائي الكتب والأوراق والأقلام.. في مثل هذا الوضع كنت سأقوم بمراجعة مذكراتي عبر خيالي وأضع مخططات للمستقبل، كي لا أشعر باليأس والقنوط.. وأنا أمشي دون انقطاع داخل البراكة. في الصيف الأول بعد استقلال استانبول.. استأجرنا منزلاً قديماً للسكن.. وسط إحدى الأزقة الداخلية من حي «جرّاح باشا».. من معارفنا سيدة تسمى «الخالة فاطمة» هي زوجة أحد الحلاجين، تعمل طاهية في منازل

الأغنياء.. جاءت في أحد الأيام باكراً، أخذتني إلى أحد المسارح التي تعرض فيها إحدى المسرحيات.. تلك كانت أول مسرحية أشاهدها.. المشاهدون يضحكون وهم يشدّون على بطونهم.. أكثر الضاحكين أنا.. مشهد صغير مازال ماثلاً أمام عيني.. رجل مسنٌ إلى حدٍ ما.. يضع على ظهره فروة.. ويتحول إلى وحش كاسر.. وخوف الآخرين منه يرغمهم على تلبية وتنفيذ أوامره.. يعبدونه.. حسب عادات القبائل البدائية.. هذا الرجل القاسي إذا نزع الفروة عن ظهره.. يتحول إلى إنسان عاقل.. هادئ.. رزين. يعمد الخادم على ترتيب نفسه، ويأخذ الفروة ويضعها على ظهره.. يبدأ الخادم هذه المرة بتوزيع الأوامر والنواهي لأهل البيت.. يركب ظهر سيده الذي جعله يسير على أربع.. ويصبح سيداً هذه المرة.. أزرع أرض البرّاكة ذهاباً وإياباً، وقد اشتدت الحرارة داخلها بسبب سقفها المعدني.. اقترب بعض الشيء من مذكراتي.. فأنا في الثالثة عشرة من عمري.. سأعرض بعض المشاهد من المسرحيات في /زادة باشي/ حتى ذلك الوقت لم أذهب إلى /دار البدائع/ لكن بعد ستة أشهر سأذهب إليها.. في عام ١٩٢٩ - ١٩٣٠ كنت طالباً في مدرسة داؤود باشا الإعدادية.. وقع نظري على إعلان عن مسابقة في مسرح الشعب بعنوان كتابة مسرحية. أولى مسرحياتي كتبتها في ذلك الوقت.. وهكذا بدأت بالأدب والإبداع.. موضوعها.. مستلهم من تلك المسرحية التي رأيتها عندما كنت في الثامنة من عمري.. من ذلك المشهد الساخر.. الفروة المسحورة التي إذا لبسها أحدهم وجعل الآخرين يتقيؤون الدم من ظلمه.. تلك المسرحية لم أستطع إكمالها.

أفكر الآن ملياً بتلك المسرحية التي رأيتها في طفولتي ومازال تأثيرها حتى الآن في ذاكراتي.

مع اهتمامي بكل المواد التي ندرسها، لكنني لم أستطع الاهتمام بالموسيقا بحيث لا أرى فائدة ترجى منها. لم أكن أحمل وحدي هذه القناعة.. الصف كله مع هذا الموقف.. ولهذا فإن الأجيال السابقة واللاحقة، لم يعرفوا الأغاني الفردية والجماعية.. هناك مقولة يتداولونها حول هذا الموضوع.. حتى وإن كانت صحيحة أم مفبركة فإنها تضع الحقيقة كاملة أمامنا.. ففي إحدى المسابقات الرياضية الدولية أنشدت الفرق الأجنبية نشيدها الوطني وعندما جاء الدور لمنتخبنا الوطني.. نظروا في عيون بعضهم لا يدرون ماذا يفعلون وماذا سينشدون، لأن النشيد الوطني التركي لم يوضع له لحن بعد.. وإذا لم ينشدوا.. فسنكون في موقف معيب أمام الجميع. فتحلقوا حول بعضهم واتفقوا على هذه الأغنية الشعبية المشهورة.. لأنه ما من أحد يفهم التركية هناك.. وهذه هي الأغنية: «وضعنا أسماك السردين على المقلاة.. فطارت نحو الهواء دون مبالاة».. فنالت استحساناً كبيراً من الجميع.

وهذه النسخة باللغة العثمانية: «هَمْصي دا قويدوم طوايا.. اوجتودا كيتي هوايا».

أنا أيضاً كنت أشارك زملائي في إزكاء الصخب والضوضاء في دروس الموسيقا.

في كل عام دراسي ثلاثة امتحانات.. وتمنح نتائج الأعمال المدرسية (الجلاء المدرسي) أيضاً ثلاث مرات.. كان مدرس الموسيقا في الثلث الأول من العام الدراسي السيد خلوصي إنساناً جدياً يرتدي أحسن الثياب.. فقد قطع العهد على نفسه إلاَّ أن يعلمنا الموسيقا.. ظلَّ مصراً على موقفه.. حتى ذلك الوقت كنا نعتقد أن درس الموسيقا عبارة عن بعض الأناشيد والأغاني التي علمنا إياها المدرس.. الذين يملكون حساً

فنياً يحفظونها وعند الامتحان يرددونها غيباً ويستحقون العلامة الكاملة.. أما أمثالي الذين لا يأبهون للموسيقى، تبقى المحصلة العامة لعلامات الموسيقى في حدود الوسط.. وبما أن صوتي رديء جداً ولا أمتلك حساً موسيقياً فلم أستطع حفظاً وغناءاً وإنشاد أي نشيد بصورة مقبولة.. ولذلك وجدت في الموسيقا مادة لا أهمية لها.. ودرساً وُضع عبثاً في المنهاج.

السخرية ستار لشخصية الفاشلين.. غطاء سري للفشل.. وخاصة لدى الفتيان.. الذين يخرجون هازئين ساخرين ولا يعجبهم العجب.. ليس هذا سوى نوع من الدفاع عن النفس وغطاءً لفشلهم. لو كان عندي بعض الأمل في النجاح بدروس الموسيقا حتى ولو بشكل بسيط لأصبحت طالباً مجداً فيها كسائر مواد المنهاج.

وزَّعوا علينا محصلات الثلث الأول من العام الدراسي في الوقت الذي كانت فيه علاماتي في المواد الخمس عشرة جيدة أمَّا علامة الموسيقى كانت سيئة، اثنين من عشرة.. حزنت كثيراً.. فهي المادة الوحيدة التي أنال فيها هذه العلامة المتدنية على مدى حياتي الدراسية كلها.. بعد ذلك كانت علاماتي تامة في جميع المواد.

من أين لي أن أعرف.. أن هذه العلامة الصغيرة.. ستدفعني نحو المسرح؟

لم يعلمنا الأستاذ خلوصي الأناشيد والأغاني فقط.. بل العلامات الموسيقية ومفاتيح السلم الموسيقي.. وتوابعها وقد حفظتها بسرعة. في دروس الموسيقا تكاد عيناي تجمدان على شفاه السيد خلوصي أستمع إليه بدقة متناهية.. من جهته، يعلم مدى اهتمامي بدروسه مع بدء الدرس يضع إشارة السلم الموسيقي على السبورة وفي مقدمته المفتاح... إلخ. يسأل الطلبة عن العلامات ثم يطلب منهم قراءتها بشكل الصحيح.. أنا

أيضاً نهضت بدوري وقرأت العلامات كلها بسهولة. ولما جاء دور قراءة السلم الموسيقي.. بدأت تخرج مني أصواتٌ كأصوات الغربان والطيور الأخرى.. بدأ زملائي بالضحك وإطلاق القهقهات العالية في الصف، مع ظنهم أنني أُخرج هذه الأصوات القبيحة عن قصد، لأسخر من المدرس وخاصة عندما كنت أنطق العلامتين لا، سي بشكل قبيح جداً.. كان السيد خلوصي يطلب مني ترداد /دو/ فرددتها مراراً.

أغفل المدرس وجود الطلبة في الصف.. لانشغاله بي.. فأجلسني بشكل صحيح وبصوت جميل، كما حزنت كثيراً لأنني سببت المتاعب للسيد خلوصي مقابل هذا الفشل.. لقد وضع لي السيد خلوصي علامات جيدة لأنه عرف اهتمامي بدروسه.

في الامتحان الثاني والثالث.. وصلت علامتي في الموسيقى خمسة من عشرة في الجلاء..

وفي نهاية العام الدراسي أعطاني السيد خلوصي ظرفاً كبيراً تقديراً منه لاهتمامي الشديد بدروسه.. اسمي وكنيتي مخطوطان على الظرف خرجت من الصف فرحاً.. وفتحت الظرف.. وإذا ببطاقة دعوة مسجلة بماء الذهب.. يدعوني إلى حضور مسرحية بعنوان (المدينة المحروقة) في مسرح دار البدائع.. فرحت كثيراً لهذه الدعوة وشعرت أن الدنيا كلها صارت ملكاً لي.

لم أكن أعرف موقع دار البدائع.. في يوم العرض ارتديت ثيابي الجديدة.. ووضعت شالاً حول رقبتي.. الدخول إلى المسرحية بهذه الدعوة أعجبني كثيراً.. عندما دخلت الصالون سُحرت بهيئته وجماله.. لقد تراءى لي أنه أجمل مكان في العالم ولا يمكن أن يكون له بديل.. الأرض مفروشة ببساط ناعم جميل.. وتجعدات الستارة الكبيرة بلون / الفيشنا/ تمتع عيون الناظرين. الجو الأول الذي يحيط بك والزحمة

الحقيقة يتماشيان مع الصمت، حتى الجو المحيط تشعر أن به نوعاً من التقدير والاحترام.

لا يوجد بين الحاضرين شخص من عمري.. كلهم رجال ونساء كبار من أعالي القوم.

بدأ العرض.. هذه أول حفلة موسيقية أستمع إليها.. وأحسست بالحيرة والدهشة عندما شاهدت مدرسنا السيد خلوصي يقود الفرقة الموسيقية.. مرتدياً البزَّة الخاصة بالموسيقيين. هذه المرة الأولى التي أرى فيها رجلاً يلبس /السموكن/.. خارج الأفلام.. خلال لحظات أصبح السيد خلوصي أعظم رجل في عيني.. لقد تراءى لي أيضاً، أنه بالعصا التي يحركها بيده.. يحرك الدنيا كلها وليس خمس عشرة آلة موسيقية.. كيف يكون هذا الأمر؟ وكيف.. يأتي رجل عظيم مثله ليعلمنا دروساً في الموسيقا؟ ونحن لا نقدم له سوى السخرية والضحك واللامبالاة.. بعد تلك الحفلة لم أر السيد خلوصي أبداً لكن بعد سنوات عرفت أن اسمه الكامل: /خلوصي أوكتام/ وقد أفردوا له حيزاً واسعاً في الموسوعات الموسيقية.. فهو مؤسس الكورس التركي، ومؤسس طاقم موسيقى بلدية استانبول الكبيرة.. ومؤسس طاقم الموسيقى العثمانية المؤلف من أربعين عنصراً عام ١٩١٤. إلى جانب ذلك فهو مدير المدرسة الموسيقية الداخلية التابعة للبلدية.. والسيد خلوصي أوكتام يتقن خمس لغات أجنبية.. وله مؤلفات كثيرة عن الموسيقى والتأليف الموسيقي. أقول الآن في داخلي لماذا يهمل هذا الرجل نفسه ويعطي دروس الموسيقا في مدرسة إعدادية صغيرة في داؤود باشا؟ لماذا يحاول تعليم هؤلاء الصغار اللامبالين؟ في هذا القسم من مذكراتي سأفسح مجالاً أوسع لشرح وتفصيل وتدقيق أنماط المدرسين. أنا أقبل أن أكون مسناً بدلاً من أن أقع في بحار الحسرة والحنين إلى الماضي. نعم أستطيع أن أقول أن مدرسينا

آنذاك كانوا حقيقة رجالاً وطنيين.. إذا ما قيسوا بالنسبة للزمن الحالي، فهم رجال أشداء وأوفياء ووطنيون بكل معنى الكلمة، وهذا ناتج على ما أعتقد بتأثرهم بتحرير الوطن.. وبالجمهورية التي بنيت حديثاً.. ولهذا السبب كان السيد خلوصي أوكتام وهو في سن الخامسة والثلاثين.. يناضل ويكافح لا من أجل تعليم الأطفال الذين هم في سن الثانية عشرة أو الثالثة عشر الموسيقى فقط.. بل لكي يجعلهم محبين للوطن، ومحبين للفن والموسيقا. أنا شخصياً لم أستفد شيئاً من دروسه ولكنه جعلني مدمناً على حضور الحفلات الموسيقية في دار البدائع.. هذا الاهتمام وجهني شيئاً فشيئاً إلى المسرح وكتابة النصوص المسرحية.. ولهذا فأنا مدين للسيد خلوصي أوكتام وأحمل له في أعماقي المزيد من التقدير والاحترام.

كتابة الرواية

رشاد، اسم الطالب الذي يجلس بجانبي في المقعد الدراسي.. فتىً طويل القامة نحيف.. وسيم إلى حدٍّ ما.. يرتدي كل يوم طقماً كحلياً وقميصاً أبيضَ.. ويضع شالاً حول رقبته.. تبدوا عقدة الشال صغيرة بالنسبة للزي آنذاك.. أصله من أزمير.. التي يصفها لي، كما يصف فيها حياته.. علمت منه بوجود حديقة عامة مشهورة هناك اسمها /بحري بابا/.. وكان يذكر لي هذه الحديقة دائماً ولست أدري لماذا استأجر غرفة في /أق سراي/.. مع أن أهله يسكنون أزمير.. وربما لأن صاحب البيت من أقربائه.. كان رشاد يأكل وينام ويتلقى العناية والرعاية من أهل ذلك البيت.. ويرسل له أهله من أزمير مبلغاً معيناً في كل شهر.. وحسب قوله فإن والده يعمل محامياً.. كان رشاد يحدثني بهمس عن علاقته الجنسية مع امرأةٍ أرملةٍ تعيش في ذلك البيت.. نعم علاقة جنسية؟ يبدو هذا بالنسبة لي ولمن هم في سني كمن يجمع النجوم من السماء واللعب بها مع أحلام وردية.

بدأت بكتابة رواية مستلهماً قصتها من الأحاديث التي كان يرويها لي زميلي رشاد في المقعد الدراسي.. اخترت عنوانها: «بئر مزدوج» تحكي قصة امرأةً كبيرة سوداوية العينين.. الرواية ساخرة إلى حدٍ ما.. تجري أحداثها في أزمير، المدينة التي لم أرها أبداً ولم أعرف عنها شيئاً.. ملأت دفتراً بالكتابة وبدأت بالثاني أردت أن تكون الرواية واضحة المعالم ولهذا السبب، كنت أعيد قراءتها قطعة قطعة.. وأقرأ لأبي بعض المقاطع منها.. نظرت إلى عيني والدي وقد اغرورقتا بالدموع وفيما كنت أقرأ له مقطعاً منها بدا شديد التأثّر بها. نعم إنها رواية مؤثرة كما أردتها.

نجحت في كتابتها إلى حدٍ ما.. حتى إنني بعثت برسائل إلى دور النشر الموجودة في /الباب العالي/، أسألهم فيها فيما إذا كانوا يرغبون بنشر روايتي أم لا.. أتذكر ثلاثة من الناشرين الذين كتبت لهم: مكتبة حلمي.. ومكتبة إقبال.. ودار نشر القناعة.. زوَّدتهم بملخص عن الرواية، محاولاً الظهور في رسائلي على أنني رجل كبير.. جاءني الجواب من داري نشر القناعة وإقبال.. كانت رسائلهم تبدأ /بالسيد المحترم/.. والرسالة مطبوعة.. وأعتقد أنهم حسبوني كاتباً له اعتباره.. ولذلك كانت سعادتي كبيرة.. حتى إنني مازلت محتفظاً بالرسالة حتى وقت قريب. إحدى الرسائل اعتذار لعدم وجود شاغر في خطة الطباعة.. والنشر عندهم ولذلك فهم يأسفون لعدم نشر وتبنّي روايتي.. كنت سعيداً وإن لم ينشروها وخاصة أن داراً كبيرةً للنشر ترد على رسالتي ظناً منهم أنني كاتب كبير.. وقد ذكرت لهم في رسالتي، بأنني على استعداد لإرسالها لهم، مع العلم أنها لم تر النور بعد.. لم أكتب منها سوى بضع صفحات وملأت دفتراً صغيراً فقط.

لم أعد أتذكر موضوع الرواية لكن صديقي محمد قرة حسن أوغلو يتذكر موضوعها لأنه كما يدعي أننا قررنا كتابة الرواية سوية.. كلانا

اشترى دفتراً سميكاً للكتابة.. وقال إنه لم يكتب شيئاً من روايته.. أما أنا فقد كتبت رواية أتحدث فيها عن حياة فتاة لعوب.

في كل مدرسة طلابٌ يطلقون عليهم لقب الأدباء.. وطالبان اثنان معروفان في الصف الأعلى من صفنا في إعدادية داؤود باشا.. كانا أديبين.. أحدهما /طاهر/ والثاني /حسام الدين/ كانت صداقتي مع طاهر جيدة جداً.. ومنزله يقع في إحدى طلعات /سماتيا/.. نذهب معاً في بعض الأحيان إلى هناك.. طاهر يتصرف كالمدرسين لأن مظهره يوحي بذلك.. عرَّفني على حسام الدين بعد قراءته مقاطع من روايتي.. والد حسام الدين تاجر لبيع المخللات في حي قوجة مصطفى.. أما حسام الدين فهو ولد هادئ بكل معنى الكلمة أعطيته روايتي ليقرأها.. كانت مكتوبة بالتركية القديمة /العثمانية/ عندما أعادها إليَّ أتذكر من نقده شيئاً واحداً.. قال يومها لي: «كتبت اللهب بلامين ويجب أن تكتب باللّهاب».

غضبت جداً من نقده هذا.. لأنني أكتب العثمانية دون أخطاء.. كيف حصل وكتبت حرفاً في غير محله؟ حقيقة ألا تكتب كلمة اللهب /ALEV/ بلامين.. كيف يحصل هذا.. أليست الكلمة عربية؟

انقضى سبعة وأربعون عاماً وأنا أمعن النظر في قاموس اللغة العربية لأعرف الحقيقة.. الآن نظرت إليه، وأنا أكتب مذكراتي.. بما أن كلمة اللهب أصلها تركي فهي تكتب بالألف.. وعكس ذلك خطأ.. هذا ما هو واضح في القاموس.

نعم.. إن حسام الدين الآن كاتب معروف باسم /حسام الدين بوزوك/.. يقول إنه قرأ روايتي ونقده لها كان بين الألف والآ.. ولكنه لا يتذكر شيئاً. ولا يعرف ما إذا كنا زملاء في المدرسة.. الأمور دائماً

هكذا.. نعيش نفس الحادثة ولكن الحادثة تدخل إلى مخيلة أحدنا ولا تدخل في مخيلة الثاني.

التعارف مع يوسف الطويل

في بستان السيد ناجي الكبير ثلاث عمارات.. إحداها يسكنه وهو القسم الأمامي أو /الواجهة/.. وفي القسم الخلفي بناء من طابقين نشغل غرفة واحدة من الطابق الأرضي منه.. أما البناء الثالث فهو مطبخ التكة.. وكونه مطبخ فيعدّ، كبيراً.. وإذا احتسب بيتاً فهو صغير.. أجَّر السيد ناجي البناء الذي كنا نسكنه.. المستأجر رجل مشهور جداً يقال له: الملاّ فاضّطررنا إلى مغادرة الغرفة والانتقال إلى بيت قريب من البيت الأول في مكان يسمى /يوسف الطويل/. ظل أبي يعمل في بستان السيد ناجي.. فهو يعتني بمزرعته وبحديقته الغناء.. كل ذلك دون مقابل ولكنه يبيع الخضراوات التي ينتجها. في هذا الوقت كانت حالتنا المادية قد تحسنت كثيراً بالنسبة إلى الماضي.. وكانت أختي تحلب أغنام السيد ناجي وعنزاته.. وأقوم بدوري بنقل الحليب إلى معمل المثلجات في بيازيدٍ الواقع جانب المقبرة.. انتقلنا مرة أخرى إلى منزل ملاصق للتكةفي /أوزون يوسف/. في ذلك الوقت كنا مرغمين على العيش جانب المقابر وجهاً لوجه.. والمنتشرة بكثرة بين الأحياء.. بحيث أن غالبية نوافذ تلك المنازل تطل على الأموات والأحياء.. متلاحمة فيما بينها، والتكات والمساجد كثيرة العدد فلكل تكةٍ ومسجدٍ مقبرة.. وإلى جانبها مراقد الصالحين.

أكبر الآثار الباقية في مخيلتي عن استانبول آنذاك هي تكات ومقابر استانبول القديمة ولا أكون مبالغاً إذا أحصيت عدد أحجار المقابر في تلك المنطقة لبلغت أكثر من رؤوس الأحياء.. والنساء الزنجيات اللواتي كن يجعلن الحياة متكاملة حولنا.. كنَّ بأعداد كبيرة. إلى جانب ذلك.. كان

لكل حي مجنونه الخاص به.. والأحياء إجمالاً لا تخلو من مجنون.. لكل واحد صفات ومميزات خاصة به، فهو لا يشبه مجانين الحارات الأخرى.. معظمهم مجانين مسالمون.. لا يشكلون خطراً على المجتمع.. وكل حارة تعتني بمجنونها الخاص بها، لقد احترقت تلك التكات والمقابر وزالت كلياً.. حسنٌ. وماذا حصل لأولئك النساء الزنجيات؟ هل ذُبْنّ أيضاً؟ وماذا حصل لمجانين الأحياء؟ يا ترى هل زالوا من الوجود ولم نعد نراهم أبداً؟

كانت التكة الملاصقة لبيتنا قد أغلقت مع مثيلاتها بعد قيام الجمهورية، ولم يكن شيخ التكة مناسباً لهيبتها.. عندما نقول (شيخ) فإن المرء يتخيله إنساناً مهيباً وقوراً كريماً معطاء.. مسموع الكلام.. يعرف الكثير ويتحدث القليل.. محترم.. خبير.. الشيوخ الذين رأيتهم في الآونة الأخيرة.. لم يكونوا كذلك ومنهم السيد ناجي.. أما شيخ التكة الملاصقة لبيتنا فهو من نوع آخر.. قذرٌ.. لا مبالٍ.. جيبه فارغ.. يده مشدودة.. أما صاحبة البيت الذي انتقلنا إليه.. كانت سيدة محترمة بكل معنى الكلمة وهي شقيقة شيخ التكة. هذه السيدة لها ابنة اسمها /ن/.. والسيدة /ن/ مطلقة.. وعندها ولد وبنت.. هذه السيدة /ن/ ترتدي أحسن الألبسة وتتبرج بالمساحيق، على خلاف باقي سيدات المجتمع.. فهي جميلة أنيقة.. جمالها وثيابها لم يكونا ظاهرياً فقط بل تجمع إلى جانب جمال الجسد جمال العلم والأدب سيدة حقيقية بوجهها القمري مثل الجبنة.. (عندما يجوع الرعيان يحلبون العنزات.. ويخثرون الحليب فيستحيل إلى جبن). ويقال أن زوجها القديم يملك مدرسة خاصة.. وبما أنني من المعجبين بالسيدة /ن/ فقد غضبت، من زوجها وقلت: «هل من عاقل يطلق مثل هذه المرأة الجميلة؟» أقول ذلك بيني وبين نفسي. كانت مشاعري نحو السيدة /

ن/ غير تلك التي نحو خيرت.. إحساس يشبه مقالة الشاعر «أحمد محب» في قصيدته بعنوان «السيدة فخرية».

البيت الذي انتقلنا إليه مؤلف من طابقين.. تدخل المنزل بعد صعود درجتين ثم تتجه نحو اليمين لتصل إلى غرفة صغيرة.. بأجر شهري.. أما أصحاب البيت فيسكنون ثلاث غرف من الطابق الثاني.. وهم: السيدة /ن/ ووالدتها وابنها وابنتها، والبنت فتاة جميلة في الرابعة أو الخامسة من عمرها.. وبما أنني في الثالثة عشرة من عمري فهي تصغرني بثمانية أعوام.. ولكن يتراءى لي أنها تصغرني بأكثر من أربعين عاماً، هذه الفتاة الصغيرة أحببتها كثيراً.. في الأوقات التي أنتهي فيها من دروسي أتجه نحوها وأقطع عليها الطريق وأداعبها. الغرفة الجديدة ملائمة جداً للدرس.. عندما أكون وحيداً، أقرأ دروسي بصوت عال.. والسيدة /ن/ أعجبت بي كثيراً وأحبتني واعتبرتني قدوة للاجتهاد.. ومع أني لا أحب المديح والثناء ولكن شعرت بنوع من الغرور عندما تمدحني السيدة /ن/.

من الإشاعات التي تقال هنا وهناك.. أن للسيدة /ن/ صديقاً شاباً يدرس في كلية الهندسة.. هذا الشاب عرفته منذ مدة.

في إحدى الأمسيات وبينما كنت ألعب مع ابنتها.. حضرت السيدة /ن/ مع صديقها الشاب.. وعرَّفته بي ومدحتني أمامه.. كان شاباً كبيراً، أنيقاً ووسيماً.. ولكن أرغمت على كرهه وعدم الإعجاب به، حتى أنني حقدت عليه.

مرضت الصغيرة الجميلة.. وحضرت لزيارتها عدة مرات.. ولكنها ماتت بعد فترة قصيرة.. حزنت السيدة /ن/ حزناً عظيماً على موت ابنتها وبعدها بعدة أيام جاءت إليَّ وقالت: أنها قررت وخططت على تزويج ابنتها بي بعد أن نكبر.. كيف يحصل هذا الشيء؟ بالنسبة لي.. هناك فرق شاسع في السن فأنا شاب ضخم وهي صغيرة جداً.

دامت علاقة الصداقة الوطيدة بيني وبين هذه العائلة على مدى سنوات طويلة.. حتى عندما كان سكننا متباعداً.. ذهبت لزيارتها أيام الثانوية والكلية الحربية.. وعندما أصبحت ضابطاً بقيت السيدة /ن/ وحيدة.. لم تجد لها زوجاً مناسباً. وهذا ما كان يحز في قلبي.. رافقها الشقاء في حياتها وهي إنسانة تستحق السعادة.. عرفت نساء كثيرات.. وقد أشفقت دائماً على هذه النوعية أمثال السيدة /ن/.

الطالب زكي

رفيقي في الشعبة الفرنسية الصف السادس.. يبدو لي أكبر من عمره كان طويلاً وعريضاً ويلبس أجمل الثياب مع قميص وربطة عنق كالفراشة.. ويضع نظارة إطارها كبير على عينيه.. فكان يشبه المدرسين أكثر من شبهه للطلبة.. ولكن الطلبة يتناقلون عنه حادثة حقيرة قام بفعلها.. في الوقت الذي لم يمض فيه وقت على ذكرى حرب الاستقلال فقد انصبَّ الكره على اليونانيين الذين كانوا متحفظين.

مجموعة من الطلاب هربوا من المدرسة وعددهم أكثر من خمسة عشر طالباً ومعظمهم من شعبة اللغة الفرنسية يترأسهم أبو النظارات ويشير إليهم بيديه ويقول: «اتبعوني» يقال أنه حمل عصا مدبَّبة في يده حاملاً في قلبه نوايا شريرة.

بين داؤود باشا وقوجه مصطفى تقوم كنيسة ولدى وصولهم إليها، نادى أبو النظارات كاهن الكنيسة طالباً منه أن يأذن له بدخولها بحجة إعطاء درس للطلاب داخل الكنيسة.. فتح الكاهن الباب باحترام وأذن لهم بالدخول فجالوا في أرجائها.. وعمد أبو النظارات على توبيخ الطلبة كأنه مدرس عادي.. فصدَّقه الكاهن.. في هذه الأثناء سطا بعض الطلبة على أيقونات وشمعدانات الكنيسة.. وأخذوها معهم، وعندئذٍ صافح أبو النظارات الكاهن وشكره على قبوله زيارتهم.

حادثة مضحكة، وأظن أن اسم الطالب كان «زكي» وقد انتسب بعد نجاحه في الشهادة الإعدادية إلى المعهد الفني لمسح الأراضي العامة.

دروس خاصة بالفرنسية

خالد أحد زملاء الصف.. ينطق حرف الراء مثل حرف /g/ الناعمة. لم يكن طالباً ناجحاً.. ولكنه طيبٌ ولطيفٌ، يحب مساعدة الآخرين.. تعلَمْ أنه فقير من لباسه وخاصة حذاءه الذي تراكمت في أسفله أنصاف النعل، والألبسة التي يرتديها واسعة عليه. تبدو أنها ثياب رجل كبير.. ربما أعطاه إياها أحد الأغنياء أو اشتراها بثمن بخسٍ من /سوق البراغيت/.. ومع هذا فهو لم يهتم بحاله ولم يشعر بالمرارة لأنه يلبس ثياباً وأحذية بالية.. يواجه وضعه المادي بالأمر العادي والبسط.. لا يحاول إخفاء أو إظهار فقره وعجزه المهم أنه مرتاح إلى أبعد الحدود.. يضحك دائماً فتظهر أسنانه البيضاء الوردية. بدأت صداقتنا عندما طلبت مساعدته لأضع نصف نعل لحذائي.. وقد ذكر لي: أن وضع نصف النعل غالٍ جداً.. وأفضل شيء أن نشتري النعل أو الجلد ونضعه بأنفسنا على الحذاء.. وحسب ما يدعي فإنه يقوم بهذا العمل لأحذية عائلته في البيت.

ذهبت إلى منزل صديقي كان يسكن مع عائلته منزلاً وسط بستان محاطاً بجدران متهدمة، منزلهم أشبه بمنزل شعبي ولكنه كبير وواسع.. مليء بالأمتعة والأثاث المكسور.. يسكنه مع صبيانٍ وبناتٍ من أعمارٍ وأحجام وأطوال مختلفة وصديقي هذا أكبرهم سناً. وحسب ما أتذكر فإن أصولهم من /أذربيجان/.. أما والده فكان يعمل عاملاً مياوماً أو نوعاً من العمالة يسمونها العمالة السوداء.. لقد وضع صديقي نصف نعل لحذائي.. كانت دهشتي أكثر عندما شاهدت العدَّة اللازمة لهذا العمل.. لقد كان البيت ممتلئاً بالعدة والأدوات المتنوعة.. جميع أفراد عائلته من صغيرهم حتى كبيرهم رائعون.. وطيبون.. ومحبوبون جداً وكرماء..

كلما أذهب إلى منزلهم يدعونني فوراً للطعام أو الشراب.. يعيشون نوعاً من بحبوحة الحب فيما بينهم مع وجود كل شوائب الحياة القاسية التي تطرق أبوابهم، الحب الذي يطفح من قلوبهم يجعل من البيت جميلاً جداً.. رغم وجود الأثاث البالي والمحطم.

التقيت مع هذا الصديق عدة مرات في الطرقات.. وآخر مرة قابلته عندما كنت طالباً في الثانوية العسكرية.. وهو ضابط صف في المدفعية.. لقد أصبح طويل القامة وعريض المنكبين ينتعل جزمة مصنوعة من جلد خام سميك.. لها مهمازان من الخلف ومع كبره يتحدث بروح طفل صغير موزعاً الحب والدفء لأقرانه.. ومحدثيه.. لم أره بعد ذلك.. ولكن لن أنساه أيضاً.. لن أنسى شخصه ولن أنسى منزله الذي كان يوزع الحب والدفء للناس. ثقافة المدرسة لم تعد تكفيني بعد النجاحات الرائعة التي حققتها في جميع المواد.. هذا النجاح دفعني للمزيد من التحصيل والمعرفة.. ثقافة المدرسة محدودة.. يجب أن أنصرف إلى نيل العلم حتى درجة عالية.. في المدرسة كنا نتعلم اللغة الإنكليزية.. وأعتقد أنه باستطاعتي تعلم الفرنسية أيضاً.. ولكي أخذ دروساً خاصة بالفرنسية يجب أن أكون غنياً.

كانت والدة صديقي المحبوب تعرف مدرس مادة الرياضيات، الملقب /بالكومرجي/، هذه المعرفة ناجمة من خلال عملها في منزل المدرس. ذكر لي صديقي أن أستاذاً يسكن جانب الكومرجي ويقوم بتدريس اللغة الفرنسية عبر ساعات خاصة.. وقال إن أسعاره بسيطة جداً.. فإذا كان الأمر كذلك، فأستطيع تأمين المبلغ من مصروفي الخاص، أو سأطلبه من أبي.

في يوم من أيام الشتاء الحالكة السوداء.. وبعد خروجنا من المدرسة قصدت مع صديقي منزل أستاذ اللغة الفرنسية.. البناء مؤلف من أربعة

طوابق.. إلى جانب محطة الترمواي. مدرس الرياضيات يسكن في الطابق الرابع، أما معلم الفرنسية فيسكن الطابق الثالث.. له زوجة وثلاثة أطفال.. صبيان وبنت.. في الأمسية الأولى لم يعطنا درساً.. تمت المقابلة بالحديث العام.. ومن خلال حديثه عرفت شيئاً آخر.. أنه رسام أيضاً.. بعد قليل جاءت ابنة مدرس الرياضيات أيضاً.. إضافة إلى فتاتين اسم إحداهن بيراي /Piraye/ اختيار اسم غريب لأبطال وشخصيات روائية ومسرحية تُعد بالنسبة للكاتب حادثة نفسية. فنحن لا نختار الأسماء من القصص والروايات.. بل من اللواتي يعشن معنا عبر ذكرياتنا.. من جهتي استعملت الأسماء المحلية في مجموعاتي القصصية وأعطيتها أدواراً واضحة وخاصة.

دُهشت، عندما رأيت ابنة مدرس الرياضيات هناك.. فتاة رائعة الجمال.. عكس والدها الشبيه بالروبوت الذي لا يتعامل مع الطلاب إلا من خلال شرح الدرس.

كانت (بيرايا) طالبة في مدرسة أمريكية.. هذا شيء عظيم في ذلك الوقت أن تكون طالباً في مدرسة أمريكية.. تقول: أنها تدرس الفن التاريخي.. هناك مواد للدراسة لم نسمع بها ومدارس رائعة لا نعرفها.. تقول بيراي: إن المدرِّس أعطاها وظيفة عن درس الفن التاريخي.. وقسم من الوظيفة يتطلب رسم هيكل يوناني قديم.. بيراي رسمت صورة هيكل أبوللو.. وحتى يكون الرسم مطابقاً، حضرت إلى منزل المدرس الفرنسي والرسام ليقوم بترميمها.. عمد المدرس إلى شرح كيفية رسم الهيكل للفتاة.. بعدها رجعت إلى البيت مساءً.. عقدت العزم، أن أتعلم الفرنسية ثلاثة أيام أسبوعياً بمعدل ساعة يومياً.. سأغادر المدرسة مساءً وأحضر إلى بيت أستاذ الفرنسية، كنت فرحاً جداً.. لأني سأتعلم اللغتين الإنكليزية في المدرسة والفرنسية من الأستاذ.

الآن وأنا أكتب مذكراتي تذكرت اسم مدرس اللغة الفرنسية الذي نسيته.. إنه حسين حسني.. من أبرز الشخصيات التي تعرفت عليها في حياتي.. قمت بزيارة لمنزله عدة مرات. كان منزله مكوناً من ثلاثة طوابق.. وقد استأجر منه الطابقين الثاني والثالث.

كان السيد حسين حسني.. يرتدي في بيته بنطالاً قصيراً «شورت» لم تكن تلك الكلمة الإنكليزية قد دخلت بعد إلى لغتنا. حتى أن عادة لبس الشورت لم تكن سائدة أصلاً بين الرجال.. لبسه شيء غير عادي.. كان بنطاله مصنوعاً من القماش الملون، يبدو أن زوجته قد خاطته.. في بادئ الأمر حسبت أنه سيرتدي بنطالاً عادياً لدى حضوري، لكنه ظل مرتدياً «الشورت» وتصرف معي كأي واحد من أهل بيته.. لقد أخذت هذه العادة عنه، فصرت ألبس الشورت مثله عند وجودي في البيت وبعد أن جاوزت الثلاثين من عمري.. أعلم أن الكثيرين يوجهون لي انتقاداتهم.. حتى أن سيدة عاملة لم ترغب العمل في بيتي لأنني أمشي في هذه الهيئة.. وأن أحد الكتاب الأصدقاء كتب مقالة ساخرة.. ينتقدني فيها على لباسي.. وكأنه لم يجد موضوعاً آخر ليكتبه.

اشترك السيد حسين حسني في حرب الاستقلال.. وسافر إلى فرنسا وتعلم الفرنسية هناك. سرِّح من الجيش برتبة نقيب فارس.. ويقال أن زوجته هي ابنة جنرال.. لم يكن راضياً عن زواجها له ومع هذا تزوجا بدون إرادة والدها لأنهما يحبان بعضهما كثيراً.. وأظن أن تسريحه من الجيش كان بسبب هذا الزواج.. كما تخاصم مع والد زوجته، كانت زوجته شابة جميلة شقراء.. رزينة ومتوازنة تستطيع أن تقول عنها أنها ابنة الباشا أما السيد حسين حسني فكان حنطياً.. قليل الشعر، له ثلاثة أطفال صبيان. وبنت صغيرة عمرها أربع سنوات أما الصبيان، أحدهما

في العاشرة من عمره والثاني في الثامنة. كان السيد حسين حسني لا يرسل أولاده إلى المدارس العامة لعدم رضاه بالمناهج الدراسية والكتب، وطرق التعليم.

سيشرف بنفسه على تعليم وتهذيب أولاده، معتقداً أنه باستطاعته تثقيفهم وتعليمهم أكثر من المدرسة. ودليل ذلك أن أولاده يتحدثون الفرنسية بطلاقة.

يتصرف السيد حسين حسني مع زوجته بالاحترام والتقدير.. فالحياة في منزلهما يسودها الحب والعطف والحنان.. وأخيراً تصالح مع والد زوجته.

الفقر بادٍ على هذه العائلة، يبدو ذلك من قلة الأمتعة والأثاث.. ولكنهم يعيشون في وئام ومحبة.. السيد حسين حسني يرسم لوحات ويؤمن طعام عائلته.. يشتري قطعاً قماشية نوع أطلس بألوان مختلفة وعلى شكل مربعات.. ويرسم فوقها مناظر بالألوان الزيتية.. تستغرق كل قطعة معه أكثر من ساعتين.. فكان يرسم أربع لوحات يومياً.. وباستطاعته أن يرسم أكثر من ذلك لكن التعب يعاجله.. يبدأ بالرسم فوق القماش المربع، معظم الرسوم مناظر طبيعية: القمر والليل، الأنهار والمروج، الجبال المغطاة بالثلج.. سواقي تنساب مياهها بين الأشجار وبيوت القرويين، مناظر البساتين وأشجار الفاكهة فيعتريني العجب وهو يرسم على هذه القطع الملونة.. ويجعل ألوان رسومه تمتزج مع نسمات الواقع المر. وخاصة الرسوم فوق الأطلس الأسود أو الكحلي.. وانعكاس الضوء والظل والظليل شيئ رائع.

كان يبيع هذه اللوحات بالجملة إلى الباعة في السوق المغلق.. يبيع اللوحة بليرة واحدة وبعض الأحيان يرسم على أوراق كبيرة من الكرتون.. لقد باع إحدى لوحاته إلى بائع سمك في آق سراي.. لم

يأخذ منه قيمتها دراهم، بل اشترى بثمنها سمكاً أما بائع السمك فقد أصبح بائعاً للبطيخ في الصيف.. وكم من الوقت وقفت أمام دكانه، أتأمل تلك اللوحة الجميلة.

لقد ضاق السيد حسني صدراً بالطلبة الذين يعطيهم دروساً في الفرنسية، تركهم جميعاً.. وبقيت الوحيد الذي أتعلم عنده.. كان يحبني.. ويقولون عنه إنه يُعلّم الفرنسية جيداً.. وطريقته في العطاء مثالية. يؤكّد دائماً على تصريف الأفعال لأنها أساس اللغة الفرنسية. في أمسية أحد الأيام، ذهبت إلى منزله، والسيد حسين لم يحضر بعد للمنزل طلبت زوجته مني الانتظار.. ثم حضر بعد فترة وجيزة إلى البيت فرحاً كان يرتدي ثياباً أنيقة.. وقميصاً عليه ربطة عنق فراشة..

لقد أرسلوا في طلبه للعمل في إحدى الشركات الفرنسية.. قال: إن لغته أعجبت الفرنسيين. لمست طريقة حياتهم أنها مناقضة لحياة منزلنا.. رغم أن دخلهم اليومي بسيط جداً.. فكانوا يأكلون الخبز مع الزيتون والجبنة والحلاوة.. دون انزعاج ولكن، إذا ما جاءهم مبلغ من المال من جهة أخرى، فإنهم يضيفون لطعامهم الخضار، الحلاوة والفطائر.. ويصرفون المال الموجود في أيديهم دون أن يفكروا في غدهم.

أكل البقلاوة والفطائر في تلك الأيام إشارة للغنى.. هذا الإسراف لم يعجبني ولم أحبّه.. قلت في نفسي: «إذا أكلتم ثلاثة أو أربعة أيام خبزاً وجبناً وبعدها تأكلون البقلاوة، وبدلاً من أن تأكلوا اطبخوا كل يوم فاصولياء مع طبيخ.. أليس هذا أفضل؟».

أصابني التعب من دروس المدرسة، ودروس الفرنسية الخاصة. في أحد الأيام وبينما كنا مندمجين بالدرس وإذا بالسيد حسين ينظر إلى

وجهي.. ولاحظ التعب في عيوني ربما عيناي تدمعان من النعاس.. لقد أعطاني وصية للراحة وأرشدني إلى طريقة أرتاح فيها.. قال: يجب أن تتمدد على ظهرك فوق المروج والتراب.. أبعد عنك الأفكار المقلقة التي تحملها، وانظر إلى النجوم في الليل.. طبّقت وصيته على شاطئ البحر، تمددت فوق الرمال وبدأت أنظر إلى السماء الصافية.. أذهب كل يوم سيراً على الأقدام إلى درس اللغة الفرنسية.. عند العودة إلى البيت يكون الظلام قد خيَّم على الأرض. الطريق يمر بين البساتين وأماكن الحريق.. في إحدى الأمسيات بينما أنا عائد إلى البيت قرب جدار أحد البساتين وأحاول الانحراف عند زاوية الجدار ظهر فجأة رجل أمامي.. وكما يقول الأقدمون: كأن ماءً مغلياً اندفق على رأسي.. هذا ما حدث لي في تلك الليلة.. مع أن الرجل الذي ظهر أمامي فجأة ليس إلاّ عابر سبيل عادي.. نظر الرجل إليَّ ومضى في حال سبيله. أما أنا بقيت مدة من الزمن مسمَّراً على الجدار.. وقد أخذ الخوف مني مأخذه. ثابرت على الدروس الخصوصية في العطلة الصيفية أيضاً. وعندما دخلت المدرسة الداخلية لم أعد أذهب إلى السيد حسين ثانية.

العادة السرية

عندما كنت طالباً، عاصرتني شخصية هامة في استانبول.. إنها دكتور/ لقمان حكيم/.. كان طبيباً مسناً.. يكتب عن قضايا صحية في الجرائد.. وتنشر في إحدى الزوايا الصحية باسلوب سلس يتفهمه العامة من الناس.. في الوقت الذي لم يكن فيه عدد مالكي السيارات الخاصة يتجاوز أصابع اليد الواحدة.. كان عنده سيارة خاصة به. ولكنها قديمة جداً معطّلة دائماً.. تقف في أحد شوارع استانبول.. سرت إشاعات كثيرة.. حول هذه السيارة الهرمة: مفادها: إن الشركة عرضت على الدكتور لقمان أحدث طراز من سياراتها، ومبلغاً ضخماً من المال مقابل إعادتها للشركة

الصانعة... ويقال: إن الدكتور لقمان رفض طلب الشركة من أساسه.. وقد ركَّز اهتمامه على نشر مقالاته في الصحة العامة.. في جريدة الجمهورية على الشكل التالي: «أخطار سحب واحد وثلاثون».

والتي يعتبر لفظها بالتركية نوع من قلة الأدب، بمعنى العادة السرية.

لم أكن أعرف معنى العادة السرية. ولكنني سمعت أن ممارستها تشكل خطورة كبيرة على صحة الإنسان. وخلال أيام الدراسة كان المدرسون والمربون والموجهون يتحدثون عن مضارها، ويحذرون الطلاب من ممارستها، وأن المصير هو فقدان الذاكرة، الإصابة بمرض السل، وربما الموت.. كانت تحذيراتهم شديدة إلى أبعد الحدود.

كان أحد زملائنا في المدرسة، كثير الغياب، يحضر دوام المدرسة مرة في الأسبوع وأحياناً كل عشرة أيام، تراه ضعيفاً، نحيل الجسم، أصفر الوجه، لا يقوى على الحركة عيناه غائرتان، استحال بياضهما إلى إصفرار، ومقلتاه أصبحتا بلون بنفسجي،خطواته متئدة، يكاد يسقط على الأرض، وفي كل مرة يأتي فيها إلى المدرسة، يحمل معه تقريراً طبياً سعاله جاف وقد ظهر الهزال على جسمه، فبدا طويل القامة نحيفاً. روى لبعض زملائه أن ضعفه ومرضه ناتج عن إدمانه للواحد والثلاثين (العادة السرية)، وعندما يطلبون منه الإقلاع عن هذه العادة، كان يجيبهم بأنه لايستطيع ذلك. أصيب بمرض السل، ورغم نصائح الأطباء له، لم يقلع عن عادته، بالرغم من معرفته أنها ستقوده إلى الموت.

انقطع عن المدرسة أياماً طويلة، ولما سألت عنه قيل لي إنه مات بمرض السل.

زملاء الصف

كان لي زميلان في المدرسة لهما اسم واحد «رشاد». أحدهما رشاد الذي ذكرته في إحدى رواياتي والآخر «رشاد بيه». كان هذا الأخير

ولداً عصبياً جداً، يهوى المشاجرة، قامته طويلة ووجهه صغير، وشعره أصفر وعيناه زرقاوتان وقد ملأ النمش وجهه.. عندما يتحدث يضرب شفتيه ببعضهما وهو يكبرني بعام أو عامين، مشيته هادئة تشبه مشية القبضايات، لا تفارق السكين جيبه ومع هذا كان ولداً طيباً.. أخوه الأكبر يبيع الأحذية لإعالة الأسرة.

لم أدر سبب ذلك: ذات يوم استلَّ سكينه على معاون المدير السيد سعيد، ولكن أحد الأساتذة تدخل بينهما، مما أدى إلى جرح ساقه، رشاد بالنسبة لنا شاب ناضج إلى حدٍ ما، يجيد استخدام اللكمات باستعمال المشط الحديدي (البوني)، وقد ساعدته في دروسه مرات عدة. بعد مرور اثنين وأربعين عاماً رأيته في إحدى الساحات، فعرفته مباشرة، وهو الآخر عرفني، لقد اصبح رجلاً متحذراً متحفظاً، سألته عن عمله، فقال إنه يعمل خادماً في المتحف أو حارساً، تبدو عليه ملامح الخجل في حديثه معي، لكنني تركته في حال سبيله حتى لا يزداد اضطرابه، لاحظت أنه يتحمل مسؤولية كبيرة جداً، فكانت الحياة حملاً ثقلاً على كتفه، له ثلاثة أو أربعة أولاد، وزوجة، لست أدري لماذا أفكر برشاد كثيراً. الآخرون لا يهتمون به، أما أنا فاراه بطلاً لمجموعة من الدراما الاجتماعية المجهولة، الاضطراب في حديثه، يبدو غير عادي، فهو يريد التخلص مني بأي وسيلة كانت.

زميل آخر في مدرستنا لم أعد أتذكر اسمه، ولد غير محبوب، مدلل، والده عقيد في الجيش، يتصرف بقيافة ابن العقيد يتدلل، ويلهو. يرى نفسه أكبر من الجميع.. فوقي، هل يحصل معكم ما حصل معي الآن. حرف واحد كي أتذكر اسمه، ولكن مع الأسف لا أتذكر. ما أتذكره أن أحد أحرف اسمه حرف الهاء، ربما هادي شيء من هذا القبيل. وبما أنه يملك نقوداً، فقد اشترى (كرة طائرة)، وملكيتها آنذاك نوع من

الفوقية على الآخرين، ولأنه يملك الكرة، فقد اشترك مع فريق المدرسة. وإلى جانب فشله في دروسه، كان فاشلاً في الرياضة أيضاً، ولكي يغطي فشله، ارتدى سروالاً قصيراً غالي الثمن وحذاءً بلاستيكياً رياضياً، أغلى. وبسبب أنانيته أخرج أحد رفاقنا من اللعب. بعد هذا التصرف، انسحبت أنا الآخر من الساحة كنوع من ردة فعل مني. ومن بعدي انسحب الآخرون من اللعبة، بقي ابن العقيد وحده في الساحة وبدأ يطلب من الآخرين الإشتراك معه في اللعبة، لقد ظنَّ أن كل من يناديه سيأتيه جرياً، لم يذهب إليه أحد من الأطفال (الأولاد) ضرب ابن العقيد الكرة عدة مرات، ثم دخل الصف. لم أستطع نسيان هذا التضامن الذي حصل بردة فعل عادية، ودون تخطيط مسبق.

الأولاد الذين في عمرنا، يميلون للكذب وتلفيق القصص على الآخرين، يرون في بعض المدرسين، شواذاً جنسياً. شائعة تسري بين بعض الطلاب، وربما هذه التصرفات من صفات المراهقة، هذه الإشاعة كانت تطلق على الأساتذة الذين يتصرفون بحنان وشفقة نحو بعض الطلبة العاقلين والفقراء. هذه الأحاديث تدور حول مدرس مادة الحيوان، الذي كان يستقبل أحد زملائنا في بيته واسمه (ز).

ولا أنسى ذلك الولد الطيب، المنطوي على ذاته، يتحدث قليلاً، ولا يشارك رفاقه في اللعب، ولا يتشاجر مع أحد، يظل عابساً ومع ذلك فهو محبوبٌ إلى حدٍ كبير، اسمه (إحسان)، يعيش في محيط قاسٍ. ذات يوم فتح لي قلبه مرة واحدة، كان عنده خالة (زوجة أب)، والده يعمل شرطياً في البلدية وقد تزوج حديثاً، إحسان يخاف زوجة أبيه كثيراً، لذلك أشفقت عليه. عندما أقرأ أو أسمع، أن شخصاً اسمه إحسان يعمل في مكان ما وبعمل جيد، أتذكر زميلي إحسان وأتمنى أن يكون هو زميلي القديم، الذي كان في صفي، وأدعو له بالخير.

زميل آخر اسمه مصطفى من أصل تتري كان مجتهداً جداً، يسكن في بيت صغير مؤلف من طابق واحد يشبه البيوت الشعبية. ذهبت مرة إلى منزله، فنظرت إلى وجه أمه، حقاً إنها تحمل ملامح التتار، جميل ومرتب رغم صغره، حيث لم أر في حياتي بيتاً أجمل منه.

عندما كنت طالباً في المدرسة الحربية في أنقره، اقترب أحدهم مني وصافحني، عمره يقارب عمري، وقال: هل تعلم أننا كنا سوية في المدرسة، في إعدادية داؤد باشا؟ أنا أسمي مصطفى، وكنا في صف واحد، وأدرس الآن في كلية الزراعة. لم أستطع التعرف عليه، قلت له عمداً لم أتذكرك، فتركني وعاد غاضباً بسرعة البرق، وبعد ذهابه تذكرته وقلت: ماذا حدث لي حتى لم أتذكر مصطفى ذلك الوجه التتري وابن ذلك البيت الجميل، النظيف، والطالب المجتهد.

نظرت إلى الخلف، حاولت اللحاق به، وأناديه بأعلى صوتي، ولكنني لم أستطع أن أفعل ذلك، هذه الحادثة، جعلتني أخجل من نفسي كثيراً، ومازلت حتى الآن أتذكر، عودته غاضباً مني وخجلاً من ذاتي.

كانوا يتحدثون عن الهرمونات الذكرية والأنثوية، يقال: إن الهرمونات الذكرية والأنثوية لدى الفتيان من عمري، متوازنة في الجسم، وهذا التوازن يتخلخل لدى البعض، حيث تكون الهرمونات الذكرية أكبر. أظن أن هذه المقولة صحيحة وقد لمستها لدى بعض الرفاق في المدرسة، عندما يتجاذبون مع بعضهم تظهر عندهم بوادر هذا الشذوذ، لم يكن هناك حواجز تمنع هذا التجاذب السري الموجود في أعماق كل واحد منا، هذا التجاذب كان على مستوى المشاعر والأحاسيس الكامنة والمغلقة.

زميلي مفيد يجلس بجانبي في مقعد الدراسة، إنه ولد أسمر اللون، عند انتهاء الدوام نذهب إلى بيوتنا، مع زميل آخر لم أعد أتذكر اسمه الآن، أحد الزميلين يظل ساكناً وهادئاً في المدرسة، ويصبح على العكس

في الطريق، يتحرش بي دائماً ويضايقني، ومن طباعي فأنا لا أحب المشاجرة أبداً، هجماته عنيفة عليَّ، في نهاية المطاف أوقفته عند حده، وضربته بشدة ليقلع عن عادته، ومع ذلك يوجه لي الشتائم باكياً من غضبه، ويفعل الشيء ذاته في اليوم التالي، يطلب مني أن أضربه بقسوة.

في أحد الأيام، استطاع الإفلات من يدي وهرب، وبدأ يرميني بالحجارة، وأنا أخاف الحجارة كثيراً، وسبب خوفي ناتج من منظر رأيته في فترة طفولتي، عندما شاهدت الدم يسيل من رأس أحد الأطفال بعد أن رماه أحدهم بحجر أصاب رأسه. ومرة ثانية وأنا في الرابعة من عمري، عندما انغرس حد الفأس في جبهتي وتدفق الدم بغزارة، خفت من الحجارة الموجهة نحوي من زميلي، فأخذت طريقاً آخر لأحمي نفسي، ولم أذهب إلى بيتي مع ذلك الولد ثانية.

لم أكن أُظهر حميمية علاقتي مع الآخرين، ولكن عندما أظل وحيداً مع نفسي، أصبح ولداً رومانسياً، بعض المشاعر والأحاسيس تفيض في أعماقي دون أسباب واضحة، وأقول في نفسي: «يجب أن لا أنسى هذه اللحظة أبداً» وأعتقد أن هذا ما يطلقون عليه في علم الطب النفسي التأمل، مع أن تلك اللحظة في حد ذاتها لا تُنسى، وعندما أقول (يجب أن لا أنسى هذه اللحظة» معنى ذلك أن صورة مؤثرة تمر أمامي، لدى عودتي من المدرسة. صادف مروري بجانب بناء خشبي مؤلف من طابقين، تصعد إليه عبر درجتين، وأمامه منزل صغير مؤلف من طابق واحد، تستند إلى جداره عجلة سيارة، وأمام البناء، طريق ترابية واسعة مليئة بكدر الوحل «يجب أن لا أنسى تلك اللحظة» عندما أكتب هذه العبارة معنى ذلك أن تفصيلات المكان مغروسة في ذاكرتي، مع أنه عادي جداً، فالإنسان لن ينساه، وسيبقى في ذاكرته، لست أدري لماذا أنا بهذا الشكل.

ربما لأن عمق إحساسي في تلك الفترة من عمري، بعد سنوات لم يراودني مثل هذه الأحاسيس. (محمد، وش) هما أفضل صديقين لي، كنت مع صديقي محمد في صف واحد، أما (ش) فكان في الشعبة الفرنسية، محمد فتى قوي، صامد أمام المصائب، يعيش في بيت عمه تاجر للجلود في السوق المغلقة، لقد توفي والده، وعمه السيد حسني رجل غني، كانت أحاديثي مع صديقي محمد صريحة للغاية، حتى مشاكلنا الخاصة كانت موضع نقاشي مشترك، محمد طالب مستقيم ومجتهد طويل القامة وقوي، استمرت صداقتنا حتى هذه الأيام، لكن الخلافات تظهر بيننا من حين لآخر، ومحمد الآن عميد متقاعد.

أما ش فهو صديق أثرَّ عليَّ من عدة جهات، وهو صديق يتمتع بروح السخرية، يؤلف نكتاً وطرائف عن كل حادثة يراها أو يسمعها، وفي مجرى حياتي الدراسية تعرفت إلى صديقين لهما هذه الصفات.

صديقي ش، له وجه أسمر وأسنان بيضاء وأنف طويل، يجذب الآخرين إليه بطرائفه ونوادره الرائعة، شخصيته أضفت عليه روح المرح والوداد، أطلق عليه زملاؤه اسم (الشارلو)، يسكن ش في منزله مقابل مدرستنا تماماً. وسط زقاق مغلق، بيت واسع من الخشب، والدته امرأة قديمة العهد كنصب تذكاري قديم، أما والده فيعمل حمالاً، يحمل سلة على ظهره لينقل حاجات الآخرين بها، إنه حمال لا نظير له في العالم، يخرج من بيته كل يوم في ساعة محددة فهو أشبه بموظف حكومي، يذهب إلى السوق ليقوم بواجبه، ولدى انتهاء عمله مساء، يترك السلة في مكان العمل ويعود إلى بيته في ساعة محددة أيضاً. يبدِّل ثياب العمل ويرتدي ثياب النوم. في الأيام التي لا يعمل فيها يرتدي ثياباً أخرى. كان مسناً إلى حد ما، فهو لا يشبه الحمالين أبداً، يتراءى لك أنه موظف وليس بحمال: رجل هادئ يعمل بصمت. كان الزوجان

يعتقدان أن مهنة الحمَّال مهنة لا تليق بالإنسان ولهذا السبب كانا يحاولان أن لا تصاب شخصية ابنهما الوحيد بالخجل، والشعور بالدونية، فهما متحفظان دائماً، ولهذا يشتريان لابنهما ش أجمل الثياب، اثنان من رفاقنا أصبحا ضابطين برتب كبيرة في الجيش، مع أنهما يرسبان دائماً عندما كانا في المدرسة، أحدهما أصبح مديراً لقسم المصورات، رقمه ٩٣٨ والآخر فاروق ورقمه أيضاً ٩٢٨ متخرج من الكلية الحربية.

حي قره باش

كان والدي يعمل في بستان السيد ناجي، يعتني بالأشجار ويزرع الأرض ليعيش من محصولها، لكن ذهاب أبي من وإلى ذلك البستان كان صعباً من جهة، ومن جهة أخرى لم يكن محصول الأرض يؤمن لنا القدر الكافي من المال لنعيش، بدأ أبي يعمل في أماكن أخرى ليكسب بعض الدراهم ويزيد من دخلنا، فاستأجر بستاناً مساحته أربع دونمات يقع في محلة قرة باش، كان الإيجار رخيصاً إلى حد ما. وبدأنا نزرع الأرض ونعيش من إنتاجها، فالبستان يحوي أنواعاً كثيرة من الأشجار المثمرة، وفي داخله آثار بناء محترق، هذا المكان الخرب يصلح أن يكون خزاناً للماء، جدرانه الأربعة مرتفعة عن الأرض قليلاً، أما القسم العلوي من الجدار، فأحجاره مهدمة، بينما السفلية سليمة، ومساحة هذا المكان تقارب ستة أمتار مربعة، أرضه مفروشة بالأسمنت، بعد قليل سأشرح بالتفصيل هذه القطعة الصغيرة من الأرض.

كان البستان محاطاً بالسياج من جوانبه الأربعة، وهو عبارة عن جدار، مبني على التراب دون أساس، أما أشجار البستان فكانت من جميع الأنواع والأجناس، أشجار الإجاص وهي الأكثر عدداً وتدر مبلغاً لا بأس به. أحد الأنواع نسميه الإجاص الباذنجاني لأن كل ثلاث حبات تزن كيلوغراماً واحداً، مثل هذا النوع من الإجاص لم أره في حياتي.

رغم مرور هذه السنوات الطويلة، ثمة نوع آخر يسمى (موستابي) من أجود الأصناف، أطلقنا عليه اسم (إجاصة بلا أنف).

هناك ثمار أخرى من الإجاص مختلفة الروائح والأحجام والطعم والذوق. بعضها مملوء بالعصير وبعضها الآخر الذواب (تذوب في الفم). وهناك شجرتان كبيرتان من التوت، وثلاث أشجار من الجوز. وخمس أو ست أشجار من التين، وأكثر من عشر أشجار من السفرجل. إلى جانب ذلك كله مجموعة كبيرة من أشجار الكرمة وأشجار مثمرة أخرى. الحقيقة: هذا البستان جميل للغاية، الرياح الصيفية تحمل تحت ظلال أشجاره نسائم رائعة عليلة، وبما أن هبوب الرياح متواصل، فقد انعدم الذباب أيضاً. داخل البستان بئر، وضع أبي عليه ملفافاً ودلواً لاستخراج الماء الصالح للشرب، الشيء الوحيد الذي يحد من سعادتنا عدم وجود منزل صغير نأوي إليه، لكن أبي شرع بإقامة بيت صغير، طبعاً إذا أردنا أن نطلق عليه اسم بيت، اعتمد والدي على نفسه في بناء البيت، لأن معلم البناء الذي أتى به ليساعده لم يكن لديه مهارة أبي في البناء، حتى أختي كانت تساعده في هذا المجال، لقد أقيم المنزل على التراب دون حفر أساس له، ولم يستخدم في بنائه الاسمنت أو الكلس. حتى الحجارة التي استخدمت تمَّ جمعها من أنحاء متفرقة من البستان ومن أطرافه. وهي أحجار غير متساوية ولا مستوية، كانت بأشكال وأحجام مختلفة وصغيرة إلى حد ما، فقد استخدم في البناء الطين المجبول بالتبن والأعشاب اليابسة بدل الإسمنت. أما الأبواب والنوافذ فكانت قديمة اشتراها والدي من الذين يهدمون الأبنية، سقفه مغطى بنوع من التوتياء القديم المهترئ.

وهكذا يقف المنزل الذي سنعيش في داخله على قدميه، لا يدخله طويل القامة إلا بعد إحناء رأسه نحو الأمام، أما عائلتنا فكنا جميعاً قصار

القامة. لم نضطر إلى إحناء رؤوسنا عند الدخول من بابه، ومن الباب إلى الغرفة الثانية التي كانت أرضيتها من التربة القاسية، وبملاصقة الغرفتين، بنى والدي حظيرة ومرحاضاً صغيراً لا يكاد يصمد أمام الأمطار والرياح والبرد القارس.

بالنسبة لي: فإن الدخول إلى هذا المرحاض وخاصة في أيام الشتاء الباردة عقوبة وعذاب، فالمرحاض، لا شكل له ولا حجم، بناء صغير على شكل قبة، وأما الحظيرة فكانت تستخدم مأوى للدجاجات، وكنا نملك الكثير منها. في أول غرفة وعند دخولك من الباب، سرير مصنوع من الخشب وهو على شكل أريكة طويلة، وقد أبدلنا السرير بآخر معدني على أطرافه الأربعة كرات معدنية صفراء. ولهذه الغرفة نافذة يتيمة صغيرة. أمامها منصة مرتفعة مصنوعة من الأخشاب، أما المدفأة المعدنية المصنوعة من الصاج، فكانت موضوعة خلف الباب، نشعلها بصعوبة بالغة صباح كل يوم من أيام الشتاء الباردة، هذه الغرفة مخصصة لأبي، وكنت أنام معه على فراش واحد، بينما كنت سابقاً أنام بمفردي في فراش واحد. وحتى انتقالنا إلى هذا المنزل، لم يكن هناك غرفة خاصة بي، وأما الغرفة الملاصقة فكانت لأختي، وقد وضعنا أمتعتنا في تلك الغرفة، فهي غرفة نوم ومستودع للأمتعة واللوازم المنزلية، لم أعد أتذكر فيما إذا كان لها نافذة أم لا، وأعتقد أنها كانت بلا نافذة، لأنها مُعتمة دائماً.

هذا هو منزلنا، كنت خجلاً من نفسي، لأن عائلتنا تسكن في مثل هذا المنزل بينما الأبنية الشعبية التي تبنى الآن على أطراف المدن، أجمل بكثير، بعد ذلك تغلبت على إحساسي وشعوري الفوقي، وأزلت الخجل عن كاهلي وبدأت أحضر مع زملائي وأصدقائي إلى بيتنا هذا أو بالأحرى إلى البستان، ولكن أليست غلبة الخجل نوعاً من الاضطراب،

إذا تغلبت على فكرة خاطئة، فمعنى هذا أن تلك الفكرة قد استقرت في أعماقك.

بدأت جدران البستان تتهدم بفعل عوامل الطبيعة والإنسان، وكان أبي يعيد بناء ما تهدَّم منها، أما مياه الأمطار فكانت تدخل بيتنا كل يوم ماطر، فيصعد والدي إلى السقف ويقوم بإصلاحه وإعادة تثبيت صفائح التنك.

كانت محلتنا آنذاك مأوى للخارجين عن القانون، والقبضايات، والمهربين، والهاربين من العدالة، فالمخدرات تباع فيها علناً، كالحشيش والهيروئين، وعلى مقربة منا وخلف الأسوار مكان لذبح الخيول والحمير.

لم ينقطع والدي عن العمل ليل نهار، يستأجر أحياناً بعض العمال للعمل بالأرض. كان يزرع جميع أنواع الخضراوات، كالسبانخ والملفوف والبندورة والخيار والبصل الخ. فالتربة خصبة لأنها لم تُزرع منذ مدة طويلة، والماء متوفر في ساقية صغيرة تجري أسفل البستان، هذه الساقية تسيل بقوة لدى هطول الأمطار، كما يضيف السماد الحيواني إلى أرض البستان. في أحد الأعوام زرعنا نصف البستان خساً، فالخسات سمينة وأوراقها الداخلية لها طعم الزبدة وجنينا من المحصول أرباحاً جيدة.

عندما تبدأ الثمار بالنضوج، يقطفها أبي ويبيعها في السوق القريب، وهكذا بدأت حياتنا المادية بالتحسن مقارنة بالماضي.

نماذج من البشر في حيِّنا

تسكن في حينا فئة من الناس غريبة الأطوار استعملْت، غالبيتهم كنماذج في قصصي، وأكثرهم غرابة المرأة /الهانم سكر/ وتلائمها كلمة الآغا أكثر من الهانم.. لا أستطيع الحديث عنها سوى القول بأنها رجل.. لكنها كانت امرأة أكثر من الرجال.. الجميع يعرفون أنها سحاقية.. ولكي لا نعتبر ذلك ضرباً من المستحيل، كانت ترتدي جلباباً طويلاً..

تتخايل في مشيتها كالرجال، صوتها خشن.. مخنوق إلى أبعد الحدود. ضعيفة ولكنها قوية العضلات. يقولون عنها إنها تحمل سكيناً وسط نطاقها.. حتى القبضايات يأخذون حذرهم منها.. جلبابها يشبه معطف الرجال. وتنتعل أحذية رجالية.. تصرفاتها كالرجال تماماً.. سعالها، مشيتها كالديك، نفث دخان سيجارتها، حديثها.. كانت تنادي أبي مثل كل الجيران /بالشيخ الأفندي/. لا علاقة لها بالجنس النسائي لا من قريب ولا من بعيد. تسكن في بيت صغير مؤلف من طابق واحد.. تعيش معها في نفس المنزل امرأة شابة، يقال إنها تولي عنايتها لتلك المرأة جيداً.. تتكلم بكلمات لا تخاف ولا تخجل من نطقها وكانت لقبُها / دوبرا.. دوبرا/.

نموذج آخر يعيش في منطقتنا، إنهم أنواع من البشر يطلق عليهم اسم (البسطاطية) البسطاطي رجل ملتح يسكن في منزل كبير وواسع مؤلف من طابقين.. يجمع كل شيء، يحكى عنه وعن قذارته القصص الكثيرة.. ما أعرفه عن هذا الرجل أنه يخرج من بيته باكراً.. ويبدأ بالطواف في الشوارع وأماكن الحرائق.. والعرصات الفارغة.. ويجمع كل ما يجده هنا وهناك ويخزنه في منزله ولا يعود إليه إلا بعد حلول الظلام.. كان لا يترك شيئاً في الطرقات.. كالورق، والكرتون، وقطع الأخشاب.. والمسامير الصدئة والبراغي.. وأحذية مستعملة فردية. مصافي السجاير.. وعلب الكونسروة.. والزجاجات الفارغة.. وكل ما يخطر على فكر إنسان.. يجمعها في منزله ويرتبها حسب أنواعها وأشكالها. يفرز المسامير الصدئة التي جمعها يرتبها حسب أطوالها يقولون إن شخصاً دخل بيته ورأى غرفة مليئة بالمسامير. وبما أنه مسلم متطرف فهو يكنّ الاحترام لأبي، فعندما يضع أبي علبة الدخان أمامه.. كان ينتزع منها سيجارتين.. يضع إحداهما في جيبه والأخرى يدخنها،

فكنت ترى والدي يرحب به كثيراً، وأحياناً يسخر منه ومن بخله.

مرت الأيام تباعاً.. ونشبت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ واستمرت خمس سنوات، عانت خلالها تركيا الأمرين.. من نقص المواد بأنواعها. ومن المواد غير المتوفرة وعلى رأسها تقريباً.. المسامير.. التي أصبح سوقها رائجاً جداً.. الجديد منها والقديم والمصاب بالصدأ والمعوج والمكسور عمد ذلك الشخص إلى بيع مساميره المخزنة بأسعار السوق السوداء.

تعاون الحيوانات

لو استطاع أبي بيع الثمار والخضراوات التي كان ينتجها من البستان، لربح مالاً أكثر. وحتى يقوم بذلك كان لزاماً عليه شراء عربة يدوية أو حمار أو أية واسطة نقل، حتى يستطيع نقل ثماره إلى السوق وبيعها. اشترى أبي حماراً وعندما رأيته لأول مرة في بستاننا، فرحت كثيراً. كان حماراً هادئاً ومحباً.. وأسميته الجلبي مع أنها كانت أنثى.

أحببت ترويضها قبل استخدامها ولكن لمرة أو مرتين فقط والباقي تركته لوالدي.

كان أبي يضع سلتين كبيرتين على طرفي الخرج ويملأهما بالثمار والخضراوات.. ويخرج لبيعها بعض الأحيان، وأحياناً يبيع حمولته بالجملة. ولكن الثمار والخضراوات ذات الأصناف المفقودة والجنس الجيد. كان يبيعها بالمفرق وفي الأحياء التي يسكنها الأغنياء.. اعتاد أبي على هذا الطراز من البيع. أحياناً يبيع الجبس والبطيخ. لوالدي أصدقاء ومعارف كثر يذهب لمنازلهم ويبيعهم إنتاجه من الثمار والخضراوات.

ولحماية بستاننا من السرقة، أحضرنا كلباً صغيراً أسمته أختي (فانور) وقد أصبح فانور صديقاً عزيزاً للقطة الصغيرة. كانا يلعبان ويتدحرجان ويصعدان فوق بعضهما البعض.. عندما كبر الكلب لم يترك شيئاً من عادته

في اللعب والنشاط والجري.. أما القطة فظلت هادئة، متزنة، لا تتعاون مع صديقها الكلب، ولا تريد اللعب معه.. أما فانور فلم يكن يفهم سبب نفورها.. كان يحاول ثانية وثالثة.. مشاركتها اللعب إلا أنه يلاقي الرفض وضربة المخالب من القطة.. كان يهرب أمامها.. ومع ذلك استمرت صداقتهما. في أكثر الأحيان ينامان معاً رأسه على حضنها أو بالعكس.

أصبح الكلب فانور صديقاً «للجلبي» أيضاً.. يقفز إلى ظهرها بين وقت وآخر وينام عليه ويحاول اللعب معها.. ينبح في وجهها ويمثل أنه سيقفز على ظهرها.. ولكن «الجلبي» تبقى هادئة لا مبالية.

كان فانور كلباً محبوباً.. متوسط القامة.. لحيته مكوّنة من شعيرات متباعدة طويلة. فهو يعلم أن أبي سيخرج من البيت عندما يراه يجهز نفسه.. يذهب معه يتبع إثره حتى يصل السوق، وعندما يركب أبي الحافلة يظل يجري خلفها حتى وصولها إلى السوق.

في الوقت الذي يكون فيه أبي مستعداً للخروج من البستان، كنا نحتجزه داخل الحظيرة، حتى لا يعدو خلفه. استطعنا تطبيق هذه العملية مرتين أو ثلاث. عندما يرى فانور أن أبي يجهز نفسه للخروج.. يندفع من الباب خارجاً قبل احتجازه داخل الحظيرة.. ويظل جاثياً متأهباً منتظراً قدومه.. ثم يذهب في إثره.. الشيء الذي يحيرنا حقيقة، كيف كان يعلم بخروج أبي إلى الشارع دون أن يخرج من باب البيت، فقد يجهز نفسه لعمل آخر.. ولهذا السبب كنا نحتجزه داخل الحظيرة قبل خروج أبي بمدة.. عندما يخرج أبي للبيع.. يظل فانور طوال النهار يجري من خلفه.

لقد فقست بيوض الدجاجات صيصاناً صغيرة.. كانت الفراخ تسرح مع أمها داخل البستان بينما الطيور الجارحة تطير في سمائه على علو شاهق ثم تنقض لتلتقط صوصاً صغيراً.. كانت الدجاجة الأم تصدر

أصوات الحذر القوية لتحمي صغارها ونفسها في حال انقضاض الطيور الجارحة، وعندما يسمع الصيصان صيحات أمهم التحذيرية يختبئون في إحدى الزوايا.. ويهرع فانور والقطة إلى مساعدة الدجاجة.. أينما كانا في البستان يحضران بسرعة إلى نجدة الدجاجة، كانا يمنعان الطيور الكاسرة من القبض على الصيصان.. فالكلب ينبح والقطة تموء والدجاجة الأم تفتح وتحرك جناحيها.. لتخيف بها الطيور المنقضة.

الأمر لا ينتهي هكذا.. «الجلبي» بدورها تنزع الوتد من الأرض وتجري نحو مصدر الصوت لتساعد الدجاجة والقطة والكلب، وتدافع عن الصيصان وهي تنهق بقوة، أما نحن فعندما كنا نسمع نباح فانور ومواء القطة ونهيق الجلبي وصوت الدجاجة الأم.. وأصوات الصيصان نفهم أن الطيور الكاسرة تنقض أو تهاجم الصيصان.. فنسرع بالخروج من الغرفة لنشاركهم الدفاع.

في أحد الأيام كانت سمفونية الجلبي والقطة وفانور والدجاجة قد بدأت. خرجت، من الغرفة مسرعاً وإذا بالجلبي تسحب وتشد رباطاها الذي اقتلعته من الأرض مندفعة نحو صديقاتها.. عندما وصلت إلى مكان المعركة وقفت ورفعت أذنيها نحو الطير الجارح وبدأت تنهق. كانت القطة والكلب والحمار قد شكلوا سمفونية دفاعية رائعة متكاملة.

في أحد الأيام لم أكن موجوداً في البيت دخل مسمار قديم صدئ حافر الجلبي.. يقولون إنهم عالجوها ولكن عبثاً.. عندها هوت على الأرض وماتت.. حاول بعض اللحامين شراء جسم الجلبي الميت من أبي إلا أنه رفض ذلك وقام بدفنها داخل البستان. وعندما استيقظنا صباح اليوم التالي وجدنا أشلاءها العظمية وقد عُرِّيت من اللحم. لقد أخرج اللحامون جسمها وأخذوا اللحم. لكن خوفهم من فانور.. أبقى عملهم ناقصاً، وهو عدم أخذ جسم الجلبي بكامله.

غرفة مملوءة بالكتب

دعا كونفوشيوس ذات مرة إلى ربه قائلاً: «يا رب أعطني منزلاً مليئاً بالكتب وحديقة ملأى بالأزهار».

في ذلك العمر لم أكن أحتاج إلى حديقة ملأىَ بالأزهار بل منزلاً مع غرفة مليئة بالكتب.. هذا ما يحزّ، في نفسي. فقلت: إن غرفة صغيرة جداً مليئة بالكتب تكفيني.

كانت مساحات بيوت استانبول القديمة كبيرة مقارنة بمساحة بيوت هذا العصر. فالغرف والسلالم مسطحة أكثر من اللازم وواسعة، وأسقفها عالية. وعندما صَغُرت مساحتها بدأ سكان استنبول يتمازحون فيما بينهم قائلين: «انظروا هذه البيوت مثل حبة الحمص» حتى المراحيض القديمة كانت أكبر من غرف النوم الحالية. وخاصة السقوف العالية ضعف أسقف المنازل الحالية كذلك سقوف المراحيض كانت عالية بقدر سقوف غرف النوم الحالية. عندما أدخل تلك المراحيض، كنت أقول في نفسي: «تكفيني غرفة بحجم هذا المرحاض حتى أملؤها بالكتب». لذلك دعوت ربي كما دعا كونفوشيوس ربه ودون أن أعرف مقولته هذه، كنت أقول: «ربي أعطني غرفة مثل المرحاض شرط أن تكون مليئة بالكتب». كنت راضياً بمرحاض صغير كمراحيض السفن.. محمياً من المطر في الأعلى ويمنع دخول الرياح من أرضيتها.

في أيام العطل الرسمية.. يوم الجمعة كنت أذهب إلى المكتبة العامة وأقرأ فيها الكتب.. فالمكتبة تغلق أبوابها ظهراً، عندها أذهب إلى حديقة الجامعة وأتناول غدائي الملفوف بورق الجرائد، وبعد الظهر إلى المكتبة وأبدأ بالمطالعة.

قرأت رواية استعرتها من المكتبة، هي الوحيدة المؤثرة ربما كانت رواية

لـ(أنطون تشيخوف أو غوغول) هذه الرواية التي قرأتها قبل سبعة وأربعين عاماً.. مازلت أحتفظ بها في ذاكرتي وإليكم ملخصاً لتلك الرواية: «شابان روسيان ثريان تراهنا فيما بينهما على أن يسجن أحدهما نفسه عشرين عاماً وإذا ربح الرهان فسيعطيه الآخر مبلغاً كبيراً من المال ظناً منه أن صديقه لا يستطيع أن يتحمل البقاء وحيداً في سجنه، وإذا غادر السجن قبل انتهاء المدة، عليه دفع ذلك المبلغ الكبير لأنه خسر الرهان. وسيُعطى المسجون كامل المبلغ في حال إنهاء مدة سجنه.. سيظل أحدهم حارساً على الباب.

يُغلق باب الغرفة الوحيد وتبقى النافذة الصغيرة للغرفة مفتوحة للشاب الغني النبيل. ويجلس الحارس على الباب.. بعد عدة أيام.. يطلب الشاب المحبوس كتاباً.. ومع مرور الأيام.. يزيد في طلب الكتب.. وتمر السنوات ويصاب الشاب الثاني بالإفلاس.. فيبذر ثروته وأمواله في القمار. ولم يبق له سوى أمل واحد.. وهو أن يخسر صديقه الرهان ويخرج من سجنه ويأخذ منه المبلغ المتفق عليه.

عمل المستحيل كي يحرض رفيقه للخروج من سجنه.. يطلب من الحارس أن يغضَّ الطرف عنه ويطلب منه أن يفتح الباب.. ولكن جميع محاولاته ذهبت هباء.

في آخر ليلة من ليالي عشرين عاماً.. سيعمد إلى قتل صديقه ويقول أنه انتحر.. وهكذا سيربح الرهان ويأخذ المال.. يذهب في ذلك الصباح نحو غرفة السجين فلم ير صديقه في الداخل.. النافذة مفتوحة. لقد هرب صديقه والآن باستطاعته أن يأخذ المال. دخل الغرفة فوجد رسالة كتبها له صديقه فوق المنضدة. «هاأنذا أهرب من هنا قبل ساعة واحدة من انتهاء إخلاء سبيلي كي أخلصك من دفع مال الرهان، لقد أغنتني قراءة الكتب خلال هذه المدة.. بحيث أشعر أنني لست بحاجة إلى المال

أبداً.. من جهتي أقدم لك جزيل الشكر والامتنان لأنك ساهمت مساهمة فعالة في إغناء فكري ومعرفتي».

أحداث صغيرة

اقتصرت مساعدة أبي في العمل بالبستان على رفع الماء من البئر وسقي بعض الخضراوات.. هذا العمل متعبٌ لكنه مدعاة للسرور.. الفرحة التي تلازمني هي عندما أرى الشتول تنمو، وهناك بئر آخر في أسفل البستان نطلق عليه اسم /بئر البستان/ لا نستطيع إغلاق فتحته الواسعة.. بحيث تتهدم جدرانه بين حين وآخر، فتستقر في قاعه.

إلى جانب سقاية الخضراوات، كنت أحضر الماء من النبع القريب بوعاءين نحاسيين.. لأغراض الشرب، أما ماء البئر فيستخدم لسقي المزروعات.

تتابُعُ الأحداث يجعلنا ننسى نسيان اليوم والتاريخ الذي نحن فيه. إنه الرابع من شهر نيسان لقد جرت حادثة لم أنسها مطلقاً.. في يوم الأحد من الأسبوع الأخير من شهر تشرين الثاني من عام ١٩٧٥ كنا جالسين في أحد المقاهي.. أنا وخمسة عشر عميداً متقاعداً وكلهم من زملاء الصف والدراسة.. يومها قال لي صديقي العميد محمد قرة حسن أوغلو:

ـ هل تتذكر يوم ٤ نيسان.. اليوم الذي نزلنا فيه إلى البحر.

وجرت أثناءها حادثة عادية.. لا أهمية لها أبداً.. ولكن هل من المعقول أن لا أتذكرها؟

يقال، إذا لم تسقط قشرة البطيخ في قاع البحر، فمعنى ذلك أن السباحة ممنوعة نظراً لخطورتها، ولكن في ذلك اليوم وعلى غير عادته سطعت الشمس بأشعتها وحرارتها على وجه ماء البحر.. كنا ثلاثة.. أحدنا وهو /ش/ لم ينزل البحر بسبب برودته.. نزلت البحر مع صديقي

بالسروال الداخلي، وسبحنا طويلاً وحتى لا نظهر برودتنا، لم ندهن جسمنا بالزيت الواقي لماذا لم ننس تلك الحادثة التي لا أهمية لها؟

لأنه بعد أسبوع من نزولنا إلى البحر.. كان الثلج قد هطل على استانبول بكثافة بالغة.

شهادة تقدير

الجد والنشاط والاجتهاد نتيجتهم النجاح.. تقدمنا إلى الامتحان الأخير وأخذنا سجل العلامات للفترة النهائية. في الامتحان الأول.. كانت النتيجة جيدة، العلامات كاملة عدا الموسيقا، أما في الامتحانين الثاني والثالث فعلاماتي، كاملة دون نقص علامة واحدة.. لاحظت إدارة المدرسة نجاحي الباهر.. فأرفقت مع سجل العلامات المدرسي شهادة تقدير خاص.

بعد هذا النجاح الكبير الذي حققتُه آنذاك، استمر حصولي على العلامات الكاملة والتامة ووصلت إلى مرتبة الأول على الصف حتى في المرحلة الثانوية. أما ما أفكر به الآن، أنه من غير الضروري أن ينال الطالب العلامة التامة وفي كل المواد.. ولكن وضعي كان استثنائياً آنذاك.. لوجودي في معركة طاحنة مع نفسي وبيئتي.. ثمة سلاح واحد كنت أحمله في داخلي وهو الجد والاجتهاد.. الاجتهاد.. سلاحي الأول والأخير في صراعي مع الحياة. شعرت أني لز تراخيت بعض الشيء لسقطت على الأرض تحت أقدام الذين لا يشفقون على أحد. ولهذا السبب فقط بذلت جهدي لأبقى دائماً الأول في صفي.. حتى لو لم أكن الأول في الصف الذي منعوني فيه من هذه المرتبة.. فقد بقيت مرغماً على ذلك.. كل علامة كاملة.. كانت بمثابة وثيقة تثبت انتقامي منهم.

وأعتقد أن هذه الكراهية موجودة لدى كل الطلاب الذين عاشوا

ودرسوا ضمن بوتقة الفقر والحرمان. ولكن هذا الحقد كان يذوب مع كل نجاح وصعود نحو الأعلى، والاقتراب من قمة البرجوازية والسعادة الفاترة التي كانت تذيب حقدهم.

كل نعجة معلقة بعرقوبها، من يقود السفينة فهو القبطان، هم من قالوا هذه الكلمات، الحقد الفردي عند البعض يدوم ويدوم حتى النهاية. وهؤلاء هم الأشخاص اللامعقولون.. وعند البعض يتحول هذا الحقد الفردي إلى حقدٍ اجتماعي.

العطلة الكبيرة

أمضينا ثلاثتنا جميع أيام العطلة مع بعضنا، ولكن عندما أذهب إلى المكتبة العامة أفترق عن محمد وش، قرأت في تلك العطلة جميع أعمال الروائي حسين رحمي المكتوبة باللغة العثمانية القديمة.

في الأيام الأولى التي ذهبت فيها إلى إعدادية داوود باشا.. كنت أحمل معي خنجراً صغيراً.. لماذا؟ لست أدري، قد يكون السبب إظهاره إلى رفاقي لأعمل من نفسي بطلاً أو أي شيء آخر.. حمل الخنجر عادة أخذتها عندما كنت أسكن في /تختة قلعة/، قد يكون من بيت بائع الرؤوس، لكن شخصيتي بدأت تتحول شيئاً فشيئاً إلى شخصية أخرى متزنة.

في تلك العطلة.. كنت أحمل في جيبي سكيناً مطوية صغيرة وجميلة، لم أحملها كالخنجر، بل من أجل الاستعمال العادي. كان الأولاد في ذلك الوقت.. مشاكسين.. عندما يكونون جماعات، فهم يتحرَّشون بالمارة وخاصة بالأولاد أمثالهم. يسخرون منهم ويهجمون عليهم. نحن أيضاً وقعنا في مصيدة جماعة من الأولاد.. كنا ثلاثة أنا ومحمد وش عائدين من سماطيا.. وبما أننا ذووا عقول متوازنة فقد رأينا أنفسنا كباراً، عقلاً وجسداً.. وفي الوقت الذي كنا نمر فيه عبر زقاق

ضيق وإذا بمجموعة من الأولاد يقدر عددهم بـ عشرة هجموا علينا بدون سبب وبدأوا بضربنا وشتمنا.. هجم عليَّ أكثر من أربعة ولم أستطيع التخلص منهم عندها أخرجت المطواة من جيبي وفتحتها كي أغرزها في بطن أحدهم وإذا بها تقع من يدي.. وسمعت من حولي وقع أقدام فإذا بصديقي محمد وش يهربان وأنا بدوري بدأت بالهرب.. لو لم نهرب لكانوا أشبعونا ضرباً.. وخلال هربنا كانوا يلاحقوننا بالشتائم ويتوعدون للمرة القادمة.. لماذا أخرجت تلك السكين المطوية من جيبي؟ ألم يكن باستطاعتي غرسها في جسم أي واحد منهم؟ ربما لم تقع السكين من يدي لكنني أنا من تركها تسقط على الأرض.

كنا نقضي أكثر أيام العطلة الصيفية، على ساحل البحر، وكنت أحمل معي عنباً وإجاصاً وبندورة وبيضاً.. وأعرّج على بيت صديقي محمد.. ونذهب معاً إلى منطقة معينة على الساحل. نذهب كل يوم إلى نفس المكان.. إنه مكان مرتفع.. ينحدر مباشرة إلى البحر بين الصخور ثم نسير بمحاذاة الشاطئ فوق الحصى الصغيرة.

محمد سباح ماهر أفضل مني.. يسبح ضارباً الماء بذارعيه فيصطدم كفه المفرغ إلى سطح الماء ويحدث صوتاً قوياً. في إحدى المرات ابتعد محمد في سباحته عن الشاطئ إلى داخل البحر.. فلم أعد أسمع أصوات كفيه وقدميه، نظرت بعيداً وإذا برأسه ينزل ويصعد.. وبدأ يصرخ النجدة.. أنجدوني كان إلى جانبنا زورق صيد صغير فصرخت بأعلى صوتي أنجدونا صديقي يغرق، وقذفت بنفسي إلى البحر.. كي أخلص وأنجد صديقي الذي يشرف على الغرق.. بعد ذلك لم أشعر بأي شيء.. ووجدت نفسي ملقىً على ظهر الزورق وإلى جانبي محمد وأصوات السباب والشتائم تنطلق من فم الصياد.

كان محمد قد غشَّ الصيادين وغشني.. ظن الصياد بأننا خدعناه،

عندما ناديت النجدة: أنقذوا صديقي الذي يغرق.. ظل الصياد يطاردنا فترة من الزمن داخل البحر.. حتى خلصنا أنفسنا بصعوبة من يديه.

على مسافة تربو عن خمسين متراً، تقف وسط البحر صخرة كبيرة أشبه بجزيرة صغيرة.. وقد غطى المحار أسفلها.. كان رفاقنا يصطادون المحارا الكبير ثم يشووه على النار ويأكلونه.. وأنا لم أذق طعم المحار في ذلك الزمن.

الأولاد الذين يسبحون هناك.. لم يرتدوا ثياب السباحة فجميعنا نسبح بالسراويل الداخلية.

بين وقت وآخر نسمع أصوات انفجارات، معنى ذلك أن بعض الصيادين يصطادون السمك بواسطة المتفجرات، كانوا يلقون المتفجرات في أماكن توضُّع الأسماك أو بين جحورها. قبل رمي المتفجر يجهزون زورقاً أو زورقين على مقربة من مكان الانفجار وبعد مدة من الزمن يغطسون في قاع الماء لجمع الأسماك الميتة والمغمى عليها.. الأسماك المغمية تتخبط على الشاطئ والميتة تطفو على السطح مما يسهل جمعها. وبما أن الصيد كان ممنوعاً بالمتفجرات يلجأ الصيادون إلى الابتعاد بسرعة عن مكان الانفجار بعد جمع قسم من الأسماك.

بمجرد سماعنا صوت الانفجار، نبدأ على الفور بتحضير أنفسنا والتوجه سريعاً إلى تلك الناحية.. عددنا أكثر من عشرة أولاد. عندما نصل إلى هناك.. يكون الصيادون قد ملأوا زورقهم بالسمك وهربوا قبل وصولنا بقليل. بما أن الصيادين قد جمعوا الأسماك الطافية بالشباك فتكون باقي الأسماك قد هبطت إلى القاع.. نبدأ بملء صدورنا بالهواء ونغطس نحو القاع ونبدأ بجمع الأسماك الميتة والمغمى عليها بسهولة.

جمال نادر

كان أصدقاء /ش/ يلقبونه بـ /شارلو/ لكثرة مزاحه.. الذين ينظرون إلى ش آنذاك والذين ينظرون إليَّ.. يقولون إن ش هو من سيكون كاتباً ساخراً وليس أنا. كان ش طالباً مجتهداً ومطالعاً شرهاً.. معجباً بالجمال يتذوق الفن.. يشتري كل مساء جريدة /أقشام/ (المساء) لاقتناء الرسوم الكاريكاتيرية التي يرسمها جمال نادر. أما أنا فأشتري جريدة /ميليت/ وأعتقد أن سبب شرائي لها حتى لا أكون دون /ش/، كان جمال نادر ينشر رسوماته الكاريكاتيرية في جريدة /أقشام/، أما في جريدة /ميليت/ فكانت تنشر رسومات /راتب طاهر/.. وكما هو الحال الآن مع مشجعي الأندية.. كنت أنا وش نشجع جمال نادر وراتب طاهر.

كانت جريدة /ميليت/ تصدر في منطقة جريدة تان، وصفّ، الأحرف يجري على آلة للصف مشهورة آنذاك.. وكانت جريدة / ميليت/ قد وضعت آلتين في الطابق الأول يراها المارة ويطلعون من خلف النافذة على كيفية صف الحروف وطباعتها.. ولم أبخل على نفسي أن أكون مع جموع المتفرجين. تعرَّف ش على منزل جمال نادر وكان معجباً به.

قال: إنه يسكن في الطابق الثاني من بناية ضيقة الواجهة.. مقابل جامع العلي و/ش/ يتوق لزيارة جمال نادر ليتحدث معه، وبما أنه لا يستطيع الذهاب وحده لمقابلته فقد حاول جاهداً أن يأخذنا معه أنا ومحمد.

أصرَّ علينا ونحن نمر أمام بيت جمال نادر.. كي ندخل معاً.. ولكنني رفضت وطلبت منهما الدخول.. وقلت لهما: أنا أنتظر كما هنا على الرصيف.. وعندما تتأخرون في الخروج.. أدخل أنا أيضاً.. ذهبا نحو الباب قرعا الجرس.. وأنا أراقبهما من مكان وقوفي فتحت امرأة الباب ودخلا ولكن بعد فترة قصيرة خرجا بسرعة.. السبب أن زوجة جمال

نادر لم تستقبلهما وطردتهما من منزلها. لقد انزعج المسكين ش وأحس بالألم والإحباط.

جريدة يارن /الغد/

إذا لم أكن مخطئاً.. فإن جريدة /يارن/ بدأت بالصدور آنذاك.. صاحبها /عارف أرُوج/، والجرائد جميعها تباع بخمسة قروش، لكن جريدة عارف تختفي مباشرة، وتباع في السوق السوداء بخمسين قرشاً.. شاهدت حادثة بيع تلك الجريدة بنفسي في هذا السعر.. أعلم أن تلك الحادثة مازالت ماثلة أمامي حتى الآن.. لقد شاهدت على بعض جدران مدينة استانبول لوحات إعلانية كبيرة، عليها صورة رجل يضع على عينيه نظارة وشعره أجعد.. وكتب تحت هذه الصورة العبارات التالية: «خائن الوطن المسجل». وفي أسفل العبارة كلمة «عارف أوروج».

قيل في تلك الأيام، أن علي ناجي صاحب جريدة /ميليت/ قام بطباعة هذه الأوراق وأمر بلصقها على الجدران، ومن مؤيدي حكومة عصمت باشا آنذاك.. أما عارف أوروج فكان معارضاً للحكومة. وقد كتبت الجرائد قبل يوم واحد من لصق هذه الإعلانات على الجدران أن عارف أوروج فرَّ إلى بلغاريا.

لماذا كانت جريدة عارف أوروج تباع بكثرة؟ أعتقد أن السبب لا يكمن في معارضتها للحكومة ولا لكونها جريدة محايدة.. بل لأن جريدة /يارن/ كانت تنشر يومياً صور فساد الحكومة، والدوائر والمؤسسات الحكومية.. ويُعتبر نشر صور الفساد آنذاك شواذاً وعملاً فريداً من نوعه. وهي صورة رائعة للمعارضة العامة. ولهذا السبب كانت الجريدة تباع بكثرة.

بعد سنوات طويلة عاد عارف أوروج من بلغاريا وبعد عام ١٩٥٠ عاد إلى إصدار جريدة /يارن/ ثانية.. ولم يكن على الجريدة أية

ضغوطات لكنها لم تبع أبداً.. وتعرضت للإفلاس بعد أيام لسوء البيع والتوزيع. في هذه الفترة تعرفت إلى عارف أوروج ونشرت في جريدته عدة مقالات.

قلت: لماذا قوطعت جريدة /يارن/ في صدورها الثاني؟ بالنسبة لي: عندما كانت الجريدة تنشر أخبار السرقات والفساد.. بـ٤٠ ألف أو خمسين أو مائة ألف.. فإن هذه المبالغ تعد كبيرة في ذلك الوقت أما عندما بدأت تنشر الجريدة للمرة الثانية.. هذه الأرقام.. لم تحظَ بالنجاح لأن المبالغ بدت صغيرة جداً نسبة للسنوات السابقة الأولى.

حتى أن القراء بدأوا بالسخرية من عارف أوروج قائلين: «كم لهذا السارق من وجدان وضمير حي، لأنه لا يسرق أكثر من خمسين ألف ليرة». حتى أن هذه الأقاويل بدأت تخرج على لسان الشعب: «ولِك يسرقوا بس يشتغلوا».

عندما كنت أنزل وأصعد عبر طلعة /أوغلو/ كنت أقف مطولاً أمام واجهات المكتبات.. أنظر إلى عناوين الكتب المعروضة.. وأسماء المؤلفين..وأفكر في نفسي وأتساءل: «يا ترى هل سينزل اسمي بين أسماء هؤلاء الكتاب والمؤلفين؟».

ابن الهانم

قرر ش ومحمد الانتساب إلى المدرسة الحربية.. وطلبا مني أيضاً أن أكون عسكرياً مثلهما، بما أننا أصدقاء وزملاء، فيجب أن نظل مع بعضنا أينما ذهبنا.. حتى تلك الفترة من عمري.. فكرت أن أكون رساماً وكاتباً. إلا أنني لم أفكر أبداً أن أكون عسكرياً، لأنني ما أحببت الحياة العسكرية، جلّ تفكيري هو الدخول إلى الجامعة بعد انتهائي من الثانوية.. ولكنني لم أستطع التفكير بكيفية الوصول إلى الجامعة. كان من الصعب جداً دخولها نظراً لشروط حياتنا القاسية مثل وجودنا في مكان

بعيد.. سكننا في غرفة واحدة.. أنام مع أبي في فراش واحد أقرأ دروسي على مصباح النفط وأسباب أخرى كثيرة.

أصر الاثنان عليّ كي نتسجل معاً في المدرسة الحربية، يجب علينا أولاً تأمين الأوراق الثبوتية المطلوبة وتقديمها قبل موعد التسجيل.. لقد عارضت الانتساب للكلية العسكرية وقلت: لا لن نكون عسكريين. ولهذا نشب خلاف حاد بيني وبين محمد. استمر نقاشنا حول هذا الموضوع مدة طويلة.

في إحدى المناقشات التي كانت دائرة بيننا.. قدمّ محمد دليلاً قاطعاً على صدق فكرته.. لم أستطع أن أقول له شيئاً.. كان محمد يسألني:

ـ هل غازي (يقصد مصطفى كمال.. لأن لقب أتاتورك لم يكن قد أُطلق عليه) أصله عسكري؟

ـ نعم عسكري.

ـ وعصمت باشا.. أليس هو الآخر عسكرياً؟

ـ نعم إنه عسكري.

ـ والمارشال جاقماك؟

ـ عسكري.

جميع الحكام المدنيون آنذاك من العسكريين.. عدَّدهم محمد واحداً بعد الآخر.. وفجأة قال:

ـ قل لي اسم حاكم تركي واحد لم يكن عسكرياً.

لم أستطع أن أقول له شيئاً.. لقد ربح محمد الجولة. إذاً كي يكون الإنسان كبيراً في تركيا.. يجب أن يكون عسكرياً.. الرجل الكبير بالنسبة لنا آنذاك واحد من هؤلاء الثلاثة. إما رئيس جمهورية، أو رئيس أركان، أو رئيس مجلس الشعب.. نعم وأنا أيضاً أريد أن أكون إنساناً كبيراً. وبما أن هذا المنصب لا طريق له إلا عبر العسكرية. كنت مرغماً

أن أكون عسكرياً.. شئت أم أبيت. ومع هذا كانت العسكرية لا تدخل أعماقي. قال الإثنان ش ومحمد كلاماً كثيراً وطويلاً لإقناعي، ومع كل هذا لم نستطع التفاهم.. سرنا في إحدى الطرقات الضيقة، اتجهت نحو الطريق المؤدي إلى البيت، وانصرف الاثنان عني.

ولكنهما عادا ثانية، وبعد مسير حوالي عشر خطوات سمعت صوت محمد من خلفي ينادي:

- ابن الهانم يخاف من العسكرية.. يا عيون أمو..

اتجهت نحوهما ونظرت إليهما.. وأحسست بحيرة شديدة.. من كلام محمد. وما قاله محمد ليس بكلام صديق، والصديق لا تخرج من فمه هذه الكلمات.

أنا ابن الهانم.. سأعلمهم من هو ابن الهانم الأصلي.. هذا هو السبب الرئيسي لدخولي المدرسة الحربية.. مقولته ابن الهانم.. عيون أمو.. بسبب هذه الكلمات قررت الدخول إلى الجيش.. ويومها كان قراري حكيماً وإلا لأمضيت حياتي دون دراسة.. ولن أستطع الدخول إلى أي مدرسة على الإطلاق.. حتى الآن أشكر محمد على هذا المعروف الذي فعله معي حتى ولو لم يكن مقصوداً.

المعاينة والمسابقة

في اليوم التالي قلت لمحمد وش بأنني سأذهب معهما غداً إلى المدرسة الحربية للتسجيل فيها. سنأخذ أوراقنا الثبوتية لقد جهزا كل الطلبات تقريباً. فالأوراق الثبوتية المطلوبة هي: «طلب انتساب، ست صور شمسية، شهادة حسن سلوك من المختار، مصدقة عن الشهادة من المدرسة». جمعت كل الأوراق عدا الوثيقة التي سأخذها من المدرسة. ذهبت إلى المدرسة وبما أن الوقت عطلة، فقد كانت مغلقة، ولم يبق فيها سوى مدرس مناوب واحد للأعمال الإدارية. وفي اليوم الذي ذهبت فيه

كان المناوب مدرس التاريخ السيد ممدوح، دخلت إلى غرفته.. وطلبت منه وثيقة للتسجيل في المدرسة الحربية.. السيد ممدوح يحبني كثيراً لأنني طالب مجتهد.. فطلب مني التراجع عن قراري هذا.. فقلت له: إنني عازم على ذلك، كان السيد ممدوح مدرساً لمادة التاريخ في المدرسة الحربية.. فشرح لي الوضع هناك.. لأنه على إطلاع ودراية بوضع المدارس الحربية.. ثم قال: حرام ن تنتسب إلى تلك المدرسة.. تابع دراستك في مدرسة مدنية فهذا أفضل لك.

شرح لي السيد ممدوح بالتفصيل الوضع والمستقبل ليقنعني ويعيدني عن القرار الذي اتخذته ولكنه لم يكن على علم بما نحن عليه من وضع مادي، وحالة البيت المأساوية، حيث من المستحيل الدراسة في بيت كهذا.

لم آبه لنصائحه.. وظل موقفي ثابتاً، أخيراً قلت له: سأدخل المدرسة الحربية. حينئذٍ صرخ السيد ممدوح في وجهي قائلاً:

ـ إذا كان الأمر هكذا.. فلن أعطيك الوثيقة.

خرجت من غرفته حزيناً بعد يومين ذهبت إلى المدرسة ثانية.. كان المناوب في ذلك اليوم السيد سعيد معاون المدير ورئيس قسم اللغة التركية في الشعبة الفرنسية، طلبت منه الوثيقة فكتبها على الفور وأعطاني إياها.

بعد مرور أربعين عاماً على هذه الحادثة.. كنت جالساً مع بعض الأصدقاء في صالة فندق /بارك أوتيل/ حيث عرفوني إلى السيد ممدوح وقد أحيل على التقاعد.. ذكرت له الحادثة وعدم إعطائي الوثيقة.. لم يتذكرها حتى ولم يأبه لكلامي.. مع أن الأمر بالنسبة لي كان كبيراً جداً.

وعلى الأغلب لم يكن يعرف اسمي ولا شهرتي في الكتابة والإبداع.

كانت أوراقنا الثبوتية جاهزة للتسجيل في المدرسة الحربية.. ذهبت وصديقيَّ إلى المدرسة وأنهينا مراحل التسجيل.. ومن هناك جرى تحويلنا إلى اللجنة الطبية في المشفى العسكري. وبما أن المعاينة جدية فقد استمرت أسبوعاً كاملاً. جرى فحص للعيون والأذن والحنجرة.. كان الطلاب المجتمعون أمام غرفة المعاينة يتحدثون عن أمور لا تصدق.. يقال: إن الطبيب المختص بالجلدية أو الخارجية قد ألقى بقطعة من النقود على الأرض وطلب من أحدهم التقاطها بهدوء.. عندها يعرف الطبيب إذا كان من يلتقط قطعة النقود لواطياً أم لا.. وعن فحص العصبية.. يقولون: إن الطبيب يشتُمُ كل من دخل إليه ليفحصه يشتم أباه، أمه، أخته.. إذا ردَّ الطالب الشتيمة بمثلها معناه أنه عصبي.. ولا يقبل في المدرسة الحربية وثمة معاينة فريدة من نوعها وهي إلى حدٍ ما تدعو إلى الحيرة والغرابة والضحك. نسمع مقولة ترددها العامة مفادها: «عندما يضرط لا يترك رماداً في المنقل»، ووفقاً لهذه القاعدة كانو يدخلون الطالب المراد معاينته ويجعلونه /يضرط/ فوق وعاء فيه رماد.. إذا كان الهواء الخارج من أسفله قوياً.. معناه أنه يتمتع بصحة جيدة.. أما إذا كانت التنفيسة ضعيفة.. معناه معلول وغير صالح للخدمة في الجيش. هذه المقولة بدأت تتردد فيما بعد بنوع من السخرية والضحك.. ثم إن هذه المقولة تقال للقبضاي ولمن هو بصحة ممتازة. «إذا ضرط لا يبقي رماداً في المنقل».

كان العم حسن من جيل أقدم من جيلنا، قد جمع مذكراته في كتاب عندما كان يدرس في المدرسة الحربية. جاء في هذا الكتاب أن الأولاد الذين تقدموا للمعاينة والفحص، كانوا يرددون نفس هذه الأقاويل فيما بينهم.. هذه المعاينة المطبقة في مدارسنا العسكرية اليوم، هي وليدة سنوات طويلة وليست وليدة عصرنا فقط.

خرجنا ثلاثتنا من معاينة الصحة سالمين من جميع العلل والأمراض، وحان وقت الامتحان.. فذهبنا إلى الثانوية العسكرية.. كان عدد المتقدمين ينوف على مائة طالب ما أتذكره أنهم أجلسونا في صفين وأجروا لنا امتحانين أحدهما شفهي والآخر كتابي.

لم أعد أتذكر شيئاً من الشفهي ولا الأسئلة التي أجبت عليها، أعلنت النتائج بعد أسبوع أو عشرة أيام.. وكنت بين الناجحين في وسط الجدول تقريباً.. وبدلاً من الفرح.. بدأت أخفي نجاحي في الدرجة المتوسطة.. وحزنت جداً لهذه النتيجة.. ولكثرة أعداد مرات الذهاب والإياب إلى الامتحانات والمعاينة صادقت، مجموعة كبيرة فيما بعد، وأصبحوا في مراتب عليا مثل: عاطف أرجيكان وصل إلى رئاسة الأركان العامة. ثم أصبح مدرساً أكاديمياً. وفي حركة ٢٧ أيار عينوه والياً.. صديق آخر اسمه: أنور الذي انتحر بسبب مكالمة هاتفية، وكمال الذي أصبح طياراً في القوات الجوية.. وأحيل إلى التقاعد برتبة عميد.. ومات منذ فترة قصيرة.

أعطونا وثائق القبول من المدرسة التي جرى فيها الامتحان ولم نعلم في أي مدرسة سيكون الدوام فأشاروا علينا بالذهاب إلى مدرسة /جنكل كوي/ الإعدادية.

تعهد نامة /كفالة/

ذهبنا نحن الثلاثة أنا وش ومحمد إلى مدرسة (جنكل كوي) الإعدادية العسكرية. وانتظرنا خارج الباب الحديدي الكبير. اقترب من الباب مسؤول برتبة نقيب.. وفتحه قليلاً، كانت مهمة النقيب معاينة الأوراق الثبوتية التي يحملها المنتسب ومن ثم يشير للمقبول بالدخول.

محمد وش دخلا أيضاً.. وعندما جاء دوري.. قال النقيب بعد أن قلَّب الأوراق بدقة:

ـ أين تعهد نامة؟ أنت ما معك تعهد نامة.

شعرت بأن الدنيا سقطت فوق رأسي.. ما هذا التعهد نامة؟ كيف شكله يا ترى؟ لم يخبرني أحد عنه، عندما دخل زملائي الاثنان من الباب ووقفا في الطرف الثاني بقيت وحيداً. وعلى الفور جالت الدموع في عيوني.. قال لي النقيب إن تلك الورقة أي (تعهد نامة) تؤخذ من الكاتب بالعدل.. وأشار إليّ بكيفية الحصول عليها.. سيكفلني أحد الأغنياء والذين لهم شأن كبير في المجتمع آنذاك أمام الكاتب بالعدل.. فإذا خرجتِ أو هربت من المدرسة قبل الانتهاء، فإن هذا الرجل سيدفع ضعف ما أُنفق عليّ طوال فترة بقائي في المدرسة.. ثم يجب علي بعد انتهاء الدراسة التعهد بأنني سأخدم الوطن مدة كذا سنة.. فلا يحق لي تقديم الاستقالة إلا بعد مضي كذا سنة ومواد أخرى كثيرة.. وسيكون أبي هو الكفيل عن هذه الشروط.. لأن عمري صغير ومن يوقع التعهد هو ولي أمري أي أبي. أما إذا رسبت في الكلية.. سأكون ضابط صف عادي وسأخدم الوطن مدة من الزمن.. كل هذه الشروط كانت مكتوبة في تلك الورقة.

دخل زميليَّ المدرسة وبقيت خارجها، سيناما تلك الليلة هناك، أما أنا فسأظل خارجها. فكرت بأنني سأموت إذا لم أنم تلك الليلة في المدرسة.. لأن الجميع سيخطفون الرتب العسكرية العالية، ولن يبقى شيء لي. وكما يقولون: «صاد طيراً فطار».. ركبت السفينة ثم الحافلة وتوجهت نحو البيت. الوقت بعد الظهر.. والدي المسكين ينام بعد تناول طعام الغداء.. أيقظته بنوع من الاضطراب.. فاستيقظ مذعوراً.. شرحت له الأمر.. نظر إليّ، وطلب مني الهدوء.. وأن الأمر عادي جداً.. وبما أنهم قبلوني في المدرسة.. وهذا هو المهم سنقوم غداً بتأمين التعهد نامة من أحدهم.. ولكن هذا الأمر لم يدخل إلى عقلي.. ألححت عليه ونظر

إلى وجهي والحزن بادٍ على وجهه نهض من مكانه وبدأ يفكر، كان عدد أصحاب البستان عشرة ورثة.. أحدهم يعمل صانعاً للأقفال والمفاتيح قرب جامع رستم باشا في تختة قلعة.. دكان الرجل مملوء بالأقفال والمفاتيح.. وكان أحول العينين طيب القلب قبل بالكفالة، فذهبنا إلى الكاتب بالعدل فوقع على الكفالة وكذلك أبي أيضاً وقعَّ على الشروط المنصوصة.

كانت الدقائق عندي ساعات طويلة.. خوفي الأكبر.. أن أذهب إلى المدرسة ويقولون لي: لقد تأخرت.. اذهب اليوم تعال غداً.

ذهبت إلى المدرسة العسكرية والتعهد في يدي.. أقبض عليه جيداً حتى لا يضيع أو يقع مني. وصعدت الطلعة القاسية الواصلة إلى المدرسة جرياً.. وقد حلَّ المساء استندت إلى ذلك الباب الضخم.. فجاء النقيب.. أخذ الورقة من يدي وأدخلني.

هذا هو النصر، أنا الآن أسعد ولد في هذا العالم.

أنا الآن طالب في الصف السابع من المدرسة الإعدادية العسكرية ورقمي ٤١٦٢.

هل أبدأ بالكتابة أم لا أبدأ

الكتابة أم عدم الكتابة

يتحدث شكسبير على لسان هملت هكذا «نكون أولا نكون هذه هي المشكلة كلها».

كل إنسان يقع في مواقف مزدوجة مثل نكون أو لا نكون، أكتب، أم لا أكتب، أسكت أم أتكلم، يقول الإنسان هذه الكلمات ويضيف: «هذه هي المشكلة». الإنسان التركي عبرَّ عن مثل هذه المواقف، وبما يشبه مقولة شكسبير بهذه الكلمات «المكان الذي يخرج منه صوت المزمار».

ها أنذا أقف في مثل هذا الموقف.. عندما وصلت إلى هذه النقطة من كتابة مذكراتي: «هل استمر في الكتابة أم أتركها؟».

يا ترى: هل من الواجب عليَّ أن أتحدث وأكتب عن تفصيلات حياتي التي عشتها في المدرسة الحربية خلال عامين كاملين؟ أم أدع بعض التفصيلات لأن ذلك الموقد المقدس رعاني وأنهضني وأعطاني قوة لشخصيتي..؟ تلك الأحداث والمواقف والتفصيلات التي سأكتبها ربما تجرح البعض وتؤذي البعض الآخر.

إعطاء هذا القرار اصبح صعباً جداً.. ما هو السبب الذي جعلني أقف حائراً ممسوخاً بين فكي الكماشة.. بين الكتابة وعدمها؟ لا أستطيع أن أجد المقولة المناسبة في وصف هذين العامين، مرت حياتي بين أناس كثيرين.. فيهم العاطل والباطل وفيهم الثرثري والقميء. وفيهم الناس العاديون البسطاء.. كتبت عنهم. ولكني لم أوضع مثل هذا الموقف الذي أنا فيه.. لم أستطع أن أعطي قرار الكتابة، عن هذين العامين اللذين قضيتهما في المدرسة الحربية، لم أستطع أن أشرح الموقف الحقيقي لذلك الجو الذي مررت فيه. ولكن أستطيع أن أعطيه هذه الصفة بين حين وآخر: «دغل أو غابة».

لماذا أعطيت هذه الصفة لهذا الجو الذي عشت فيه؟ كما أنه من الصعوبة أن يمر الإنسان أو الحيوان من خلال هذا الدغل المتشابك دون أن يجرح جسمه أو يخدشه.. لأن فيه الأشواك المتسلقة والزواحف السامة القاتلة.. والحيوانات البرية المفترسة. من الصعوبة أيضاً أن يمر هذان العامان دون أن أكون ضحية لسقوطات أخلاقية. ومن الجدير بالذكر أن أولاداً تتراوح أعمارهم بين العاشرة والثالثة عشر.. بعضهم عبر هذا الدغل بعد جراحات أخلاقية، ومنهم من سقط وسط هذا المستنقع اللاخلاقي الآسن.. حتى غرقوا فيه.. وفي قاع هذا المستنقع اللا أخلاقي تقبع

اللواطة.. وهناك أناس لا يتعاطون اللواطة ولا يحسبونها قلة أخلاق، وأنا كذلك أراها مرضاً وليس قلة أخلاق، وذلك بسبب عدم توازن الهرمونات الموجودة في أجسامهم أو عدم توازن /الكروموزوم/ عندهم.. ولكن لا يحق لأي إنسان أن لا يصفها إلا بقلة الأخلاق.. عندما يدفع الولد وهو في ذلك العمر إلى تلك الحالة أو الحادثة أو اللواطة قسراً باستعمال الترهيب والترغيب والخداع والقوة. حتى يعتاد عليها وتصبح عنده نوعاً من الإدمان ليس إلا.. ولكن أهم ما في هذه المشكلة هو: هذه الشذوذية التي تظل كامنة في الحياة الخاصة لكل شاذ.. وتأثيراتها التي تطول الحياة الاجتماعية برمتها. لأنها تؤثر في تكوين شخصيات أولئك الشواذ. هؤلاء الذين أصابتهم هجمات لواطية من غيرهم.. تظل فيهم مرارة الانتكاسة الذكورية ولا ينسونها أبداً.. ويتهجمون على غيرهم لرد اعتبار الرجولية المكسورة، وذلك بوضع أنفسهم فوق الذكورة والرجولة. ولهذا السبب ترى في قبضايات الحي وأغوات السجون حتى الدكتاتوريين أنهم تعرضوا للافتراس وهم أطفال من قبل غيرهم. وتبقى عدم التوازنات مطروحة ضمن المجتمع فيخرج أناس متطرفون غير متوازنين يؤثرون سلباً في عموم المجتمع الذي يعيشون فيه.

هل يجب علي الكتابة أم لا؟ هذه هي المشكلة كلها.. سألت زملائي وأصدقائي الذين عشت معهم هذا السؤال.. كتب أحدهم إليَّ ومازلت أحتفظ برسالته.. يقول فيها يجب عليَّ أن أكتب بسكينة وروية.. ويقول لي: إذا كتبت كل شيء بالتفصيل تكون قد خنت الموقد المقدس الذي قدم لنا الكثير. وصديقي هذا اسمه /شينازي/ بقيت معه تسع سنوات متوالية. وتطوع في الذهاب إلى الحرب الكورية وهناك فقد إحدى ساقيه وهو من الأصدقاء المميزين الذين سأعطي لهم مكانة كبيرة خلال مذكراتي.

يوم الأحد الأخير من عام ١٩٧٥ اجتمعنا أربعة عشر ضابطاً..

اختصاصنا العسكري واحد من فرقة الاستحكامات. كنا مجتمعين في أحد الملاهي بيننا عشرة عمداء متقاعدين من فرقة الاستحكامات وثلاثة من رئاسة الأركان.

أخذت برأيهم وسألتهم السؤال الذي يجول في أفكاري.. هل أكتب أم لا؟ خمسة منهم رفضوا الفكرة من أساسها أي عدم الكتابة، وذلك بتأثير من /شيناسي/ حتى إن أحدهم اتصل معي هاتفياً بعد عدة أيام.. وهو صديق أحبه وأحترمه واسمه مظفر.. قال عبر الهاتف: «يعني ألم يبق عندك مواضيع حتى تكتب في هذا الموضوع؟ أربعة منهم ظلوا على الحياد.. بدون نعم أو لا.. وقالوا: أن هذا العمل يخصني شخصياً ولا يخصهم. أما أربعة منهم فكان رأيهم بالكتابة يجب أن أكتب عن ذلك الوسط وبالتفصيل. فقد شهد أحدهم الأحداث نفسها بين عامي ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ وشهدها بعد مرور خمسة وثلاثون عاماً في مدرسة داخلية.

وتحدث أحد الأصدقاء وهو متقاعد من رئاسة الأركان وقال أن هذه الكتابات ستكون إيجابية، وستقدم النصح للمجتمع. وأضاف وهو يشير إلى أنفه المعقوف إن أنفي هذا أنكسر في شجار بيني وين ولد شاذ لواطي عندما كنت في الثالثة عشرة من عمري.. كان هذا الشاذ يحميه أولاد كبار أمسكوا بي من الجانبين وظل الولد اللواطي يضرب على أنفي حتى كسر عظامه، وكان الشاب الذي مسكني في الثانية والعشرين من عمره.

هل أكتب أم لا أكتب، هذه هي كل المشكلة؟

أحد الأصدقاء الذين أعطوني الموافقة على الكتابة. تطرق إلى الموضوع من ناحية أخرى وقال: إن الذين يعيشون في القرى والأرياف والمناطق النائية.. وكما هو معروف للجميع لا يستطيع أحد التصريح

به.. وهو مجامعة الحيوانات مثل إناث الحمير والكلاب حتى الماعز يعرفون جميع هذه العلاقات الجنسية الشاذة ولا يستطيعون المفاتحة بها علناً وأمام الجميع.. السؤال المطروح هنا من أين ستبدأ العلاقة الجنسية في المدن الكبيرة؟ وخاصة في المدارس الداخلية؟

ما من أحد يعطينا دروساً في الثقافة الجنسية. جميع المواضيع الجنسية مخبأة خلف العيب.

حادثة مأساوية

كان أحد أبناء شهداء حرب الاستقلال يدرس في مدرسة داخلية. / م/ ولد جميل جداً زملاؤه في الصف يكبرونه عشر سنوات. الفرق بين الأربعين والخمسين ليس كثيراً ولا ذي أهمية. ولكن الفرق بين العاشر والعشرين.. فرق شاسع وكبير، هكذا يتراءى للمرء.

شاب اسمه /ر/ إنسان حقير لا شبيه له.. اغتصب /م/ بالقوة والخداع والترهيب. و/م/ في الحادية عشرة من عمره أما /ر/ فهو في العشرين من عمره. لو حصل هذا الشيء مرة واحدة. ربما تبقى الحادثة مخفية ولا يسمع بها أحد. ولكن بعد ذلك صار /ر/ حامي حما /م/ يحيطه يحميه ولا يدع أحداً يقترب منه.

وكان الطلاب الآخرون يعرفون معنى هذه الحماية.. في نهاية ذلك العام الدراسي كان /ر/ قد طُرد من المدرسة لسوء أخلاقه كان /م/ ولداً ممتازاً وطيباً.. ولكنه وقع تحت براثن هذه الفئة اللاأخلاقية التي أكلت مشاعره وأحاسيسه.. ولم يستطع أي إنسان أو قوة أن تحميه أو تخلصه مما هو فيه.. في هذه المرة التقطه أحد الطلبة وكان يكبره بسبعة أعوام تقريباً واسمه / ك ـ جيب/ أينما ذهب /م/ ترى /ك جيب/ خلفه.. لم يستطع التخلص منه إلا بعد جهد طويل. تم طرد /ك جيب/ من المدرسة أيضاً مع بداية العام الدراسي التالي.

لم يكن لإدارة المدرسة علم بما يحدث للطالب /م/ فهم لم يطردوه من المدرسة.. جرى الانتقال من الإعدادية إلى الثانوية وإذا بـ/م/ صار شاباً وسيماً.. طولاً وعرضاً.. كان بشوشاً وذكياً ورياضياً وشجاعاً وقوي العضلات.. وكان لديه إحساس بالضحك المتواصل، يقرأ كتب / أرجمنت أكرم/ الذي يعرض فيها جميع أنواع المشاهد ويقلدها.. ثم يقص على زملائه ما قرأه. جميع رفاق الصف يحبونه وبما أن /م/ يريد نسيان ما أصابه قبل سنوات.. زملاؤه أيضاً يريدون تناسي ذلك.

حصلت حادثة لم يفهمها أحد من زملاء /م/ وهو أن /ر/ كان يزوره مرة في الشهر أو الشهرين.. كان /م/ طولاً وعرضاً وقوة أكبر من /ر/ الذي كان يكبره كثيراً.. ومع هذا كان /م/ يحني رأسه أمام /ر/ ولا يستطيع أن يفعل له شيئاً.. يظل أمامه مثل فارة حائرة أمام قطة تلعب معها.. لم يعرف الزملاء تصرفات /م/ المهينة والمذلة أمام /ر/. وكانوا يتحدثون أن /ر/ كان يعطيه أموالاً في كل مرة يأتي فيها إلى المدرسة.. لقد تحدث زملاء /م/ كلاماً طويلاً عن شذوذيته وكلمات أخرى لا تقال: وكانت هذه الأحاديث والأقاويل قد وصلت إلى مسامع /م/.

في أحد الأيام خرج /م/ إلى كرسي الصف أمام السبورة وبدا عليه الحزن.. الجميع جالسون في مقاعدهم.. تحدث /م/ عن الكلمات التي قيلت بحقه وأنه سمعها كلها. ثم تحدث عن الحادثة التي جرت معه قبل سنوات وأنه كان صغيراً جداً وكيف خدعه ذلك الإنسان الحقير واغتصبه بقوة. وبينما هو يتحدث، لم يستطع أن يتمالك نفسه.. فبدأ بالبكاء.. كانت الدموع تسيل من عينيه كالحبال.. وبينما هو يبكي بصوته الأجش.. ضرب بقبضته على الطاولة وذكر تلك الكلمات التي قيلت بحقه وقال: «الرجل منكم ليخرج أمامي» وشتم الذين تحدثوا عنه بالسوء.

دمعت عيون رفاقه.. وساد الصمت مدة طويلة في الصف. انتهت

الدراسة وقذف /م/ نفسه إلى الحياة العملية كباقي رفاقه.. تزوج.. وصار عنده أولاد. وقبل أن يمضي وقت طويل.. انتحر ذلك الشاب وقيل أن موته جاء قضاء وقدر. ظن الجميع أن وفاته نجمت عن تلك الحادثة ولم يفهم أحد سبب انتحاره لأن /م/ كان إنساناً متوازناً في كل جوانب حياته.

الحقيقة لا يعرفها سوى أشخاص قلائل جداً.. عندما اغتصبه /ر/ وهو في الحادية عشر من عمره.. كان قد صور تلك الحادثة المستهجنة بعدة صور فتوغرافية.. ويستعملها للضغط والابتزاز من /م/ لقد عرف رفاقه الحقيقة بعد فوات الأوان.. وعرفوا لماذا كان /م/ يحني رأسه أمام /ر/ في كل مرة يأتي بها إلى المدرسة.

كان /م/ قد بدا حياته العادية. تزوج وصار عنده أطفال ومع هذا بقي /ر/ خلفه.. لا يدعه وشأنه.. يبتزه.. يأخذ منه أموالاً طائلة.. مدعياً أنه إذا لم يدفع.. سيرسل بالصور إلى زوجته وأهلها وأهله.. كان /م/ الذي يملك شرفاً وناموساً وكرامة.. قد فهم أنه لا نهاية لهذه الابتزازات والتهديدات.. وأنه سيأتي يوم سيرسل فيه تلك الصور إلى زوجته.. عندها تكون نهايته. وهذه الحادثة بالنسبة له ستكون أسوأ من الموت. أخذته موجة من الحزن والهم.. أدت به إلى الانتحار على أنه حادثة عادية.. وانتهت حياته الدرامية.

الآن أسألكم يا قرائي الأعزاء، هل فهمتم السؤال الذي طرحته عليكم وعلى نفسي.. هل يجب علي أن أكتب مثل هذه القصص والأحداث الدرامية التي عشتها؟ وحياة /م/ ليست سوى واحدة من أشكال الحياة التي انكسرت داخل ذلك الجو المتعفن.. هل الكتابة عن ذلك الجو تأتي بالخير أم بالشر.. الإيجابية أم السلبية؟

وأعتقد أنكم تريدون معرفة نهاية /ر/ صار بلاءً بكل معنى الكلمة..

صار شاذاً.. وذا سوابق.. سجن وصار صديقاً لوالدة إحدى الفنانات المشهورات وهي /س. س/ وكان يبتزها أيضاً ويأخذ منها الأموال بقوة. في نهاية الأمر قتلها بعدة طعنات من سكينه.. وكتبت الجرائد عن تلك الحادثة.. عندما حكموا عليه بالسجن.. رأيت /ر/ هناك.. لم أعرفه بنفسي ولم أتعرف عليه، ولم أقترب منه. هو الآخر لم يعرفني.. وجنتاه غائرتان من تناوله وإدمانه على الحشيش.. حتى أن دماغه كان مشلولاً ضعيفاً مهزوزاً ومع هذا كان يعتبر نفسه أنه آغا ذلك المهجع بقوة سكينه.

يرافقه قبضاي مشهور جداً.. كان اسمه (نوري الأبيض) وهو شاب.. طويل.. عريض.. قضى اثني عشر عاماً في السجن.. ولهذا السبب عاش منعزلاً عن الجميع لأنه يريد الخروج من السجن.. في أحد أيام زيارة السجناء العادية.. حضرت امرأة لزيارة نوري الأبيض وقد أسند يديه على الشباك وهو يتحدث مع تلك المرأة الواقفة من الجهة المقابلة. وإذا بـ /ر/ مع اثنين من رفاقه ينهالون على نوري طعناً بالسكين من الخلف.. حتى جعلوه قطعاً وأشلاء، فتحوَّل مكان الزيارة إلى بحيرة من الدماء.. هذا هو /ر/ وهكذا ترون أن جرة الماء قد انكسرت من أجل الماء.

مرة ثانية أريد أن أعرف: هل أكتب أم لا؟ هذه هي كل المشكلة؟

لماذا أكتب

في آذار من عام ١٩٧٢ صدرت مجلة /اللسان التركي/ بعدد خاص عن الذكريات.. نُشرت في ذلك العدد الخاص.. مقالات وكتابات رائعة حول هذا الموضوع.. أي عن كتابة المذكرات واليوميات.. إحدى الكتابات الموجودة فيها أرشدتني نوعاً ما.. إلى الكتابة أو عدمها؟ أن أكتب أم لا؟

إليكم مقطع من مقالة بعنوان: «المذكرات والذكريات في الأدب التركي» كتبها السيد «إبراهيم أولغون».

يصعب على كاتب المذكرات الكتابة دون الدخول إلى جزء من الحياة العامة، والتطرق إلى حياة الآخرين والبيئة الاجتماعية المحيطة بهم. ولكن الهدف الأساسي من الكتابة.. هو أن يكتب الإنسان عن نفسه.. وحياته التي عاشها بكل صدق وأمانة، دون أن يكون طرفاً فيها، بحيث لا يخدع المؤرخ الذي يريد دراسة التاريخ فيما بعد.

كاتب المذكرات.. يكتب حياته ومشاهداته كما رآها بدقة. هذه الميزة الواقعية قريبة من المؤرخ، ولكن يجب أن تكون قريبة من الرواية أكثر منها إلى التاريخ، لأنها تتحدث عن الحقائق الشخصية الخاصة بالكاتب.. يجب أن تعكس لنا مزايا الشخصية التي يتحدث عنها. وبيان القيم المشتركة بين التاريخ وقصة الحياة.

كل إنسان عنده غاية أو هدف من وراء كتابة مذكراته. بعضهم يكتبها لينشرها فيما بعد، وبعضهم الآخر يكتبها براحة ليسجل ملاحظاته الدقيقة حول حياته والمجتمع الذي يعيش فيه. ولكن أفضل شيء في هذا المجال هو أن يكتب الإنسان يومياته ويبحر في أجمل الأشياء.. ويضفي على الكتابة نفساً من روحه المرحة.

ويمكننا أن نلخص سبب كتابة اليوميات والمذكرات وجمعها بما يلي:

أ ـ التخلص من خوف النسيان.

ب ـ وضع حقيقة عدم رضا الإنسان بالموت والفناء.

ج ـ الاستمرار دائماً في الكتابة.

د ـ توضيح رأيه وإعجابه ببعض الأشخاص الذين عاش معهم وعاصرهم.

هـ ـ محاسبة نفسه أمام التاريخ والمجتمع وإظهار إحساسه بالندم ثم الإحساس التام بالراحة بعد الاعتراف بالأخطاء.

و ـ إعطاء الدروس للأجيال القادمة.

ز ـ الدفاع عن النفس أو فضح الصفات السيئة لدى خصومه السياسيين.

من الصعب جداً أن يفرِّق الكاتب بين اليوميات وقصة الحياة بأي شكل كانت.. ما هو الهدف الذي أتوخاه.. عندما أكتب قصة حياتي.. وسط يومياتي؟ أنا أشترك مع رأي السيد /إبراهيم أولغون/ في كل ما قاله وما طرحه.. ربما أستطيع الإشارة إلى كل المواد التي أذكرها.. في كتابة مذكراتي. ولكن من الأسباب الرئيسية التي دفعتني إلى كتابتها.. شرح الحياة الاجتماعية التي عشت بداخلها بأدق تفاصيلها.. وحتى أكون قدوة حسنة للبشر.. وبالتالي ستكون شئنا أم أبينا درساً للأجيال القادمة.. وعندما يكون الأمر هكذا. فأنا مرغم أن أورد السيئات التي رأيتها وعشتها داخل مذكراتي كي لا تعود هذه السيئات إلى الظهور ثانية في المجتمع. لماذا أكتب أدق التفاصيل طبعاً من أجل منفعة الآخرين.

هل أكتب أم لا.. جوابي... نعم للكتابة.

غلمان أورهان

دخلت من الباب الحديدي الكبير إلى المدرسة الحربية الإعدادية. وجدت نفسي وسط صخب غريب، يصاب الإنسان بدوار جراءه، فهو أشبه بأزيز خلايا النحل.. عشرات الآلاف مئات الآلاف.. وأضعافها من هذه الأصوات الصادرة عن أكثر من ألف طالب... يعلوها بعض الأحيان السباب والشتائم والصراخات الحادة.

بعد قليل من دخولي مبنى المدرسة أُشعلت المصابيح، أتذكر طعام العشاء الذي تناولناه في تلك الأمسية. كان الطعام موضوعاً فوق طاولات طويلة مغلفة، وعلى كل طاولة ثمانية طلاب. لم أعد أتذكر نوع الطعام الذي أكلناه ولكن ما أعرفه تماماً.. أنه كان من أطيب الأطعمة التي أكلتها طيلة حياتي.. هكذا تراءى لي.. بعد العشاء دخلنا

الصفوف وسط صخب وازدحام الطلاب وصراخهم.. تَمُرّ، هذه الذكريات وكأني عشتها في حلم ضبابي دخاني.. نصف خيوطها غير واضحة المعالم، أشبه بلوحات امتزجت ألوانها ببعضها البعض وذابت.

كان بناء هذه المدرسة مؤلفاً من ثلاثة أقسام.. خارج الباب الحديدي الكبير تقوم حديقة أقيم عليها بناء الإدارة، المدير، الموظفون، وصيدلية المدرسة.. أما الحديقة الوسطى التي تصل إليها عبر الباب الحديدي الضخم، فقد أقيم عليها بناء من طابق واحد.. يضم مطعم المدرسة وحماماتها. وبما أن هذا البناء مبني في أعلى المنحدر المتجه نحو البحر.. كان يظهر من الأمام أنه طابق واحد ومن الخلف ثلاثة طوابق.. في الطابق الأول الصفوف المدرسية.. والطابق الأرضي مهاجع النوم.. أما القبو والثالث.. فيشمل المستودعات.

المهجع الذي اختاروه لي لم يكن فيه أحد من زملائي أو الذين أعرفهم.. صديقي محمد كان في مهجع آخر لوحده. وفي المهجع سرائر حديدية صغيرة صفت إلى جانب بعضها البعض.. وبكثافة.. صف منها ملاصق للجدران، وصفان آخران في الوسط. أعطوني سريراً يقع جانب أحد الجدران وسط المهجع، مع أغطية ووسادة نظيفة من القماش الأمريكي الأبيض. وبطانية من نوع القماش.

عندما خلعت ثيابي ودخلت الفراش.. بدت السعادة على وجهي، وبدا لي أن كل شيء رأيته وسمعته من الجلبة والضجة، والضوضاء، والشتائم، منذ دخولي الباب وحتى الآن.. كان رائعاً بكل معنى الكلمة.. غلبني النعاس ونمت وسط هذا الصخب الذي تخالطه الشتائم والصراخ اللذين لا ينقطعان أبداً.. واستيقظت في ساعة متأخرة من الليل وربما أول الفجر على همسات تبدأ ثم تنقطع، وأخرى تنقطع ثم تبدأ.. كانت تلك الأصوات والهمسات صادرة من السرير الذي بجانبي

فالمسافة بين السريرين صغيرة جداً.. نمر منها بصعوبة. في ذلك السرير ولدان وقد تحولت همساتهما إلى شهيق وأنين.. أغمضت عيني كي لا يعرفا أنني يقظ وأنني أراهما. ومع هذا كنت أراهما عبر رموشي.. خرج أحدهما من الفراش.. وغادر المكان.. في هذه اللحظات هرب النوم عن عيوني.. ولكنني كنت نائماً أو متمدداً كالقالب الجامد.. لا حس ولا حركة.. لم يمض وقت طويل حتى دخل ولد آخر في حضن ذلك الولد النائم.

أصابني الخوف والحيرة جراء ذلك، وقررت أن لا أغفو حتى بزوغ الفجر.. وحتى ينهض الجميع.. ومع هذا بقيت نائماً حتى بعد نهوض الجميع من النوم.

قررت أن أعرف اسم ذلك الولد الذي كان ينام في الطابق الأسفل من السرير القريب من سريري.. كانوا يسمونه (غلمان أورهان) منظر ذلك الولد لا أنساه أبداً.. بشرته بيضاء تشبه بياض الليمون الأصفر الذي ذُرَّ عليه غبار الطباشير البيضاء، صُفرة عالية ممزوجة بالموت. وجنتاه تلمعان فوق عظام الوجه.. قامته أطول من قامتي بعض الشيء. عظامه رفيعة.. وعمره أصغر من عمري.. يبدو نحيلاً.. يمشي بلا قوة، يجر خطواته وكأنه لا يستطيع حمل نفسه.. لم أتحدث معه مطلقاً لو تحدثت لشعرت أن شيئاً كريهاً سيخرج من فمه وأصاب بالعدوى.. رأيته في المدرسة لمدة خمسة عشر يوماً.

خلال هذه المدة لم أره يضحك، أو يلعب، أو يمزح أو يتشاجر مع أحد، أو يتداخل مع الأولاد الآخرين.. أو يتدافع أو يصرخ، وقد ازداد اشمئزازي منه بعد سنوات.. لم أشفق ولم أحزن على ذلك الولد المسكين.. لقد اختفى /غلمان أورهان/ وحضر ولد آخر لينام مكانه. بعد ذلك سمعت من الزملاء، أن المدرسة طردت غلمان أورهان نهائياً.

عندما يأتي الوقت سأشرح كل ذلك.. ولكن أعتقد أن المدرسة قد طردت في نهاية العام كل الأولاد الشاذين جنسياً.. وكأن الشيء الذي عمله غلمان أورهان، لماذا أقول الشيء الذي عمله؟ بل يجب أن أقول أنه بسبب الشي الذي عملوه به طُردوا جميعاً في نهاية العام.

الخروج إلى المعسكر

ما السبب الذي دعاني للشعور بالحزن وخيبة الأمل المريرة.. عندما أعادوني من باب المدرسة لأنني لم أحضر معي ورقة الكفالة /تعهد نامة/ ؟ يا ترى: هل السبب هو بقائي دون رتبة ولا منصب، لأن الذين دخلوا قبلي سيتقاسمونها كلها؟ لم استطع فهم طبيعة هذا الشعور، لماذا عدت كالمجنون إلى البيت، وأيقظت أبي بسرعة.. ليبحث لي عن كفيل غني معروف.. حتى أعود إلى المدرسة بالسرعة القصوى؟ لماذا لم أنتظر حتى صباح اليوم التالي؟ هل هو الخوف من أنهم لن يقبلوني؟ أم الخوف من المصير الذي كان ينتظرني في المستقبل؟ ربما تكون بوادر من هذا الشيء.. ولكن بعد مرور سنوات طويلة عرفت السبب الذي كان مصدره الرئيسي وضع منزلنا غير المستقر.. والتخلص من هذه الحياة القاسية.. يجب أن أعوضها قبل يوم وقبل ساعة من ذلك الكابوس الصامت المخيف الذي كان يمزقني، وما هي تلك الورقة التي أسموها/ تعهد نامة/؟ الجواب على هذا السؤال، جاءني بعد تسعة أعوام، عندما كنت طالباً في المدرسة الصناعية الفنية.. من مدرِّس مادة الكهرباء وقد قال يومها:

وضعونا في أدنى المراتب، وقادونا إلى أدنى المستويات، ولا نستطيع إزاحة هذا الحمل لأنه ليس بيدنا حيلة. إنها الورقة التي أسموها تعهد نامة؟ بما أننا أولاد في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرنا، فإن أولياء أمورنا يوقعون بدلاً عنا.. نعم! إنه عقد موقع من الأولياء لولد في الثالثة

عشرة من عمره؟ حتى تواقيع الآباء لم تكن كافية.. لابدَّ من كفيل آخر من أحد التجار الأغنياء للتوقيع على تعهد نامة أو الكفالة. ولكن من يتحمل مسؤولية الكفالة، وتعهد النامة لولد في الثالثة عشرة من عمره.. لم تقل الورقة إن هذا الولد لا يستطيع تحمل مسؤولية كل هذه الديون والوعود.. ربما لا ينجح في المدرسة العسكرية.. وهذا الشيء بنظر التعهد غير ممكن.. شيء سخيف: أعطي لتعهد نامة، بحيث إذا ترك العسكرية سيدفع ضعفي مصاريفه.. وجميع هؤلاء أولادٌ لآباء وأمهات فقراء. من أين لهم دفع كل هذه المبالغ الطائلة؟

وإذا رسب الطالب في أي صف عامين متتاليين يطرد من المدرسة.. ولا يرسل إلى بيته.. بل إلى القوات العاملة في الجيش.

وهناك يعطى رتبة رقيب، أما إذا كان عمره صغيراً فيسلَّم إلى والديه، وعندما يكبر.. يساق ثانية إلى الجيش ليكون رقيباً.

أمهات الأناضول يربتن على أكتاف أولادهن عندما يرسلوهن إلى العسكرية وهن يقلن: «إنشاء الله تعود وقد أصبحت جاويشاً». أحد زملائي الذين جاءوا من قرية بعيدة كانت والدته تظن أن أكبر رتبة في الجيش هي الرقيب /الجاويش/ فقالت له وهي تودعه: وتربت على كتفه: إن شاء الله تروح وترجع جاويشاً مثل أبيك يا بني.

زميلنا هذا أُرسل للقطعات العاملة وهو يبتسم في الوقت الذي كان فيه الباقون يبكون.. وعندما سألوه عن سبب فرحه وخروجه إلى المعسكر.. قال:

ـ أنا أسمع كلام أمي.. كانت أمي تقول لي: «إن شاء الله ترجع وقد صرت جاويشاً» وهاأنذا عدت وقد صرت جاويشاً.. وعندما تعلم بأنني عملت بوصيتها ستفرح كثيراً.

من ينجح في جميع مراحل دراسته في المدرسة الحربية يصبح

ضابطاً.. لا يستطيع ترك الخدمة من الجيش قبل انتهاء خدمته.. وهي خمسة عشر عاماً إجبارياً.. ولكن عندما بدأت الحرب العالمية الثانية صارت الخدمة غير محددة.. حتى الاستقالة أو التقاعد من رابع المستحيلات عدم الخروج من الجيش هو نوع من عادات المدارس العسكرية.

يتحدث العم حسن في كتابه /أسس النظام/ عن هذه العادة المشمولة في الجيش، في حديث جرى بين زميلين عسكريين.

ـ ما الذي سيجري إذا لم تنجح؟

ـ لا ليس هذا المقصود: فإذا بقيت عاماً آخر.. يرسلونك للقطعات العاملة؟

ـ وما هي القطعات العاملة؟

ـ معناها أنك ستظل تتدرب على الأسلحة على مدى ست سنوات. فهل هذا سهل؟.. يعني مستقبلك يحترق من أساسه.

الراسبون

التحقت في الصف السابع في المدرسة الحربية والمؤلف من ثماني شعب، والذي أصبح فيما بعد تسع شعب، وعدد الطلاب في كل شعبة يتراوح بين ٦٠ ـ ٧٠ طالباً، وبذلك يكون مجموع طلاب الصف السابع حوالي سبعمائة. أنا ومحمد كنا في الشعبة السابعة وقد أطلقوا على شعبتنا اسم /السابع ـ السابع/ أما /ش/ فكان في أحد الأقسام التابعة للغة الفرنسية وفي الشعبة السابعة أيضاً كنت أنا ومحمد من الناجحين في الصف السادس والترفيع للسابع فقط. أما الآخرون فكانوا من الراسبين في الصف السابع.. أي أنهم سيدرسون في الصف نفسه العام القادم. أما أنا ومحمد بما أننا حديثو العهد كانوا يسموننا «قيد وقبول». أما الراسبون فقد جاءوا إلى هذا الصف من مدارس عسكرية من أنحاء تركيا.

يعني أن معظم الراسبين في تلك المدارس.. حشروا في الصف السابع، ضمن سبعمائة من الطلاب.. وكان عدد المسجلين حديثاً.. طلاباً في مرحلة القيد والقبول.. لا يتجاوز الثلاثين طالباً، أما الباقون فجلُّهم من الراسبين.. يجتمع الطلاب داخل الصفوف على شكل جماعات حسب ترتيب مدارسهم.. أي أن كل مجموعة جاءت من المدارس الأخرى تبقى ضمن مجموعتها، فهم يجلسون في مقاعد متقاربة متلاصقة مع بعضها، وكان التعاون ظاهراً وواضحاً داخل كل مجموعة وكذلك الشجار والخصام مع المجموعات الأخرى. أما الراسبون وهم فئتان فئة من الذين لم ينجحوا في الامتحانات والثانية الذين لم يتقدموا إلى الامتحان.. وهذا معناه أن المدرسة كانت مليئة بالطلاب المشاغبين والكسالى والغوغائيين.

أعمار الطلبة على درجة كبيرة من التفاوت بين صغيرهم وكبيرهم. أي أن هناك فرقاً شاسعاً في الأعمار من جهتي كنت، في الرابعة عشرة من عمري. ومحمد في الخامسة عشرة وهناك طلاب أعمارهم في الثالثة عشرة.. وفي صفنا طلاب تتجاوز أعمارهم العشرين وما فوق.. بعض الطلبة الموجودين بيننا نمت شواربهم ولحاهم.

أخيراً، عرفت سبب وجود هؤلاء الكبار في العمر.. في الصف السابع كان الجيش الثالث في نهاية حرب الاستقلال بقيادة الباشا كاظم قرة باكير موجوداً في الأناضول الشرقي.. هؤلاء الطلبة الكبار كانوا أيتاماً فقدوا آباءهم وأمهاتهم ولا معيل لهم.. فعمد القائد الباشا كاظم قرة باكير، (الذي كان يحب الأطفال كثيراً ومؤلفاً لكتاب خاص بالأطفال عنوانه، العبرة النشيدية) إلى جمع الأطفال اليتامى وأدخل بعضهم المدارس الحكومية الداخلية.. والبعض الآخر دور الأيتام، والباقي الأخير المدارس العسكرية التي فتحت حديثاً. فالذين قبلوا في المدارس

العسكرية الابتدائية.. كان بينهم أطفال في الثانية عشرة من عمرهم.. وهكذا، عندما وصلوا إلى الصف السابع، كان بعضهم قد بلغ العشرين أو الواحدة والعشرين.

قضية اللواطة أو الشذوذ الجنسي الذي حاولت طرحه في بداية هذا القسم. كان له سبب آخر وهو فارق العمر بين الطلاب.

فطلاب العشرين وما فوق، وطلاب الحادية عشرة أو الثانية عشرة يقضون مع بعضهم معظم الأوقات، وينامون في مهجع واحد. هذا التوجه الخاطئ.. كان موجود سابقاً، وهناك وثائق تثبت ذلك. العم حسن الذي كان يكبرني بحوالي خمسة وعشرين عاماً الذي تعلم في المدارس العسكرية وتوفي عام ١٩٦٣، ألف كتاباً بعنوان «إشراقة الحرية» ثم نشر كتابه الشهير /أسس النظام/، تطرّق فيه إلى موضوع المدارس العسكرية وتحدث عن نفسه وكأنه بطل الرواية واسمه عماد.

سأعرض هنا مقطعاً من كتاب العم حسن يصف فيه مشاهداته الأولية في المدرسة العسكرية: عندما نظر عماد من الباب رأى طلبة كبار من عمر أبيه ومعهم طلبة صغار.. طلاب نمت شواربهم والتوت كقرون الكباش. يقرأون ويستظهرون وكأنهم في عمر ضابط الصف.. وبينهم أطفال لا تتجاوز أعمارهم السابعة يلعبون معهم. فكر ملياً وتمتم: «يا لها من مدرسة غريبة عجيبة؟».

كان عماد ينتظر بفضول وفي الوقت الذي كان ينتظر فيه مع بعض زملائه هؤلاء الكبار وقد أسندوا أجسادهم على الجدار.. يتحدثون.. وبعد مرور دقيقتين أو أكثر.. شاهد شاباً ربما هو في الخامسة والعشرين من عمره يقترب من المقاعد ليجلس في مكانه.

هؤلاء الذين أحضرهم الباشا كاظم قرة باكير من شرق الأناضول وأودعهم المدارس الداخلية.. كانت تنتظرهم حياة مريرة، وقد شهدت،

جوانب من تلك الحياة المأساوية.. انتقلنا إلى الصف الأول الثانوي.. عندما كنا في الصف التاسع والعاشر.. كنا نرى ضابط الصف كل يومين أو ثلاثة يأخذ طالباً من الصف ولا يعود به ثانية إلى المدرسة سمعنا أن الطلاب الذين يطردون من المدرسة كانوا من أصل أرمني.. طُرد حوالي ستة طلاب كونهم من أصل أرمني.. ولم يكن أحد يعلم عن أصلهم قبل إخراجهم من المدرسة. في أحد الأيام أسرَّ أحدهم إلى الإدارة أن هؤلاء من أصول أرمنية، فتمَّ طردهم مباشرة. هذه المأساة الحياتية لم نكن نعرفها ونحن في ذلك العمر.. وكنا نرى في طرد الأرمن حالة عادية ولم نشفق عليهم.. ولا نشعر بهم أو بآلامهم.. ويجب أن يكون عمري في الثلاثين حتى أفهم سبب هذا التصرف.

لنأخذ الجيش الأمريكي! فيه من جميع الأجناس والعروق.. الجيش السوفيتي.. أيضاً يضم في داخله من جميع الأعراق والقوميات والأديان والمذاهب.. وقبلهما الجيش العثماني، حيث جمع في داخله عناصر من جميع الأعراق والأديان والمذاهب.

القيد والقبول

كان الراسبون يسخرون من جماعة القيد والقبول /الطلاب المستجدون/.. عندما كان يرفع أحدنا صوته، يتصدّى له أحد الراسبين ويصرخ قائلاً: «اسكت ولك لسه ما نشَّف حبر قيد قبولك». وهذا يعني: أن تسجيلك في قيود المدرسة ما زال حديثاً.

الراسبون يشكلون لأنفسهم فوقية في سخريتهم من جماعة القيد والقبول.. وكانوا يوقظون الأحداث .. في ساعة متأخرة من الليل ويأمرونهم بتنفيذ الوقوف في نوبة الحراسة.. يدفعون النائم قائلين: «انهض ولك جاء دورك بالحراسة».. وهكذا يقف الطلاب المستجدون حرَّاساً حتى الصباح بدلاً من ساعة.. ويقال أنهم وضعوا أحد المستجدين

حرساً على باب المرحاض.. وظل هناك طوال الليل ونام أمامه.. عندئذ أخذوا بندقيته منه.

البوق الصباحي

ينتظم البرنامج الحياتي اليومي بصوت البوق الصباحي النداء الأول من أجل الحمام.. يسبقه بوق الاستيقاظ.. الطلاب يستيقظون حسب أدوار الصفوف.. كل صف له دور في الحمام.. عندما ينفخ بهذا البوق يقوم أحد الراسبين بدفع أحد جماعة الصف المستجد.. ويقول له:

ـ انهض ولك.. هذه تصفيرة الصابون.. اليوم دورك اذهب إلى النقيب المناوب واطلب منه صابوناً.

والطالب الذي تطاله هذه اللعبة.. يتحرك من مكانه ويذهب إلى غرفة النقيب ويقرع بابه ويوقظه في تلك الساعة المبكرة، فينظر إليه النقيب شذراً ويهم بضربه وطرده.

كان حمام المدرسة صغيراً.. يحتوي على أربعة مغاطس، بعد بوق الحمام.. يبدأ بوق الاستيقاظ ولحن بوق الاستيقاظ.. كان طويلاً إلى حدٍ ما.. يشبه مواويل الأناضول.. لست أدري لماذا كان بوق الاستيقاظ يؤثر على أحاسيسي ومشاعري.. لقد جعل الطلاب من لحن بوق الاستيقاظ مسرحية غنائية.. يرددونها فيما بينهم..

إذا أذنك ما بتحمل هالصوت.

ليش جيت عالعسكرية

أحب أنغام البوق لديَّ ذو النغمات الثلاث، وهو بوق الطعام، وكان الطلاب يرددون بعده مباشرة: «هيا إلى القصعة.. هيا إلى القصعة».

تتناغم عبارات هذه المقطوعة مع ترويحة لحن البوق الذي يدعو إلى الطعام. إذاً كان الأمر يتطلب تنفيذه بسرعة.. يضيف نافخ البوق

مقطعين صوتيين في نهاية العزف.. /تي تي/ «تيت.. تيت.. تيتيييت». لقد وضع الطلاب هذه الكلمات مقابل هذه التيتات بمعنى «هيا بسرعة».

هناك ساعتان للمطالعة بعد طعام الإفطار.. وساعتان بعد تناول طعام العشاء.. الدخول إلى المطالعة بالبوق أيضاً وكذلك بوق الانصراف الذي كنا نحب نغمته كثيراً، هناك بوق آخر للاجتماع، والتفقد، والنوم، كان لحن بوق النوم يدعونا إلى النوم العميق فور وضع رؤوسنا على الوسائد. هذا اللحن تُردِّده سفوح البوغاز لمدة طويلة، نهاية بوق النوم تمتد طويلاً بالحرف تي، إذا كان العازف يحذف /تي/ فهذا يعني إنه معلم ماهر في العزف على البوق، وكان بعض الأولاد يرددون مع العازف حرف /تي/ بأفواههم.. ويتسابقون مع /تي/ نافخ البوق لكن أنفاسهم تنتهي.. وتبقى في البوق مستمرة لمدة طويلة.

كان نافخ البوق.. يعمل خادماً في مدرستنا والخدم يسكنون على مقربة من المدرسة في حي شعبي أبنيته من صفائح التنك الصدئة والأخشاب المتعفنة.. يطلقون على ذلك الحي اسم /حارة التنك/، ويحمل سكانه فضلات الأطعمة والخبز إلى بيوتهم وعائلاتهم.

كان نافخ البوق عندنا يسمى /درويش/ ولده حافي القدمين دائماً لأنه مصاب بعجز في أقدامه.. وعندما انتقلنا إلى المرحلة الثانوية.. تشكلت فرقة موسيقية.. وكان بعض زملائنا الماهرين في العزف داخل هذه الغرقة. كان عزفهم يُسمع ويتردد صداه على سفوح التلال المجاورة.. ويسمع أيضاً في الثانوية الأمريكية للبنات وهو هدف الفرقة النحاسية بإيصال صوت عزفهم إلى بنات الثانوية.

أحد زملائنا خدم عسكريته عازفاً على البوق وتقدم بطلب للمدرسة الثانوية.. وعندما سأله المدير السيد حمدي إذا كان باستطاعته العزف جيداً.. قال له نافخ البوق القديم:

ـ شوها هالحكي.. يعزف أهم المقطوعات الطليانية.

كان هذا الرجل ينفخ في البوق بشكل رائع.. حتى أنهم كانوا يقولون أنه بين وقت وآخر يفجر البوق من قوة نفخه.

خليك مع دروسك

إحدى المواد التي ندرسها في الصف السابع.. مادة علم النبات.. مدرسنا السيد كمال كان شاباً يانعاً قصيراً، نحيفاً، صوته ناعم جداً، أنهى دراسته الجامعية حديثاً.. وهو مدرس ناجح، يتقن إلقاء الدروس على أكمل وجه.

يجلس الراسبون كل وسط جماعته. القادمون من /قونيا/ في جهة والقادمون من /ارذنجان/ في جهة أخرى.. والقادمون من /توقات/ في جهة. وكل مجموعة تعادي المجموعات الأخرى. لها رئيس أو رئيسين. وكل رئيس يحاول السيطرة على الصف بالقضاء على رؤوساء المجموعات الأخرى. وهكذا تبدو قوانين الصف مشابهة إلى قوانين السجون.

كانت أسماء النباتات تدرَّس باللغة العربية.. وأحياناً تعطى بعض الأسماء باللاتينية.. وأما أسماء بعض النباتات فكانت على النحو التالي: «فصيلة الصنوبريات.. البقوليات.. وأسماء أخرى كثيرة منها: الكأس والساق والجذور والأوراق.. كل هذه الأسماء كنا نأخذها بالعربية، ولم يكن حفظ الأسماء بالكلمات اللاتينية صعباً علينا».

بينما كان السيد كمال يرسم شكل إحدى النباتات على السبورة.. وإذا بضجة قوية تصدر من المقاعد الخلفية للصف، مكان جلوس القبضايات، كانوا يتشاجرون فيما بينهم دون سبب ظاهر.

يحاول السيد كمال جاهداً عدم الاكتراث بما يحصل في الخلف. أراد الاستمرار في شرح الدرس. ولكن الصراخ ازداد حدَّة.. أحد

الجالسين في زاوية الصف يصرخ للجالس الآخر في الزاوية المقابلة بلهجته المحلية:

ـ ليش عما تضطلع عليَّ ولا..؟.

والجالس في الزاوية المقابلة يصرخ بلهجته أيضاً:

ـ لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

بدا وكأن مشاجرة ستقع، وبدأت المهاترات بين قادة المجموعتين، صرخ أحدهم:

ـ لماذا تنظر إليَّ وكأني سعداناً أوقرداً يرقص أمامك؟

بدأ الصراخ والشتائم كأننا لسنا في صف دراسي، وكأن المدرِّس لا يشرح درساً.

القبضايات في حالة صراخ في مواجهه بعضهما، بينما يستمر كمال بشرح الدرس دون توقف، وكأنه لا يسمع شيئاً.. ولكن صراخ القبضايات تصاعد بشكل كبير.. في النهاية وجه السيد كمال صوته الناعم إلى ناحية الصوت وقال:

ـ أرجوكم يا أفندية أن يجلس كل واحد منكم في مكانه.

وأرجوكم الهدوء قليلاً.. الرجاء أن يجلس كل واحد في مكانه.

كان مدرسنا يردد هذه الكلمات دون توقف.

عندئذٍ توجَّه القبضايات نحو باب الصف.

وهنا تدخَّل السيد كمال للمرة الثانية:

ـ رجاءً يا أفندية.. ما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى لوَّح أحدهم بيده نحو السيد كمال.. وقال غاضباً:

ـ أنت خليك في شرح درسك.. لا تتدخل.. اشرح درسك وبس.

قال ذلك ومشى.

في تلك الأثناء قُرع جرس الانصراف، فأسرع السيد كمال نحو

الممشى بعيداً عن قاعة الدرس. لم أعد أتذكر نهاية تلك المشاجرة، لكن هذه المشاجرات والمشاحنات كثيراً ما كانت تحصل، بحيث أن القبضايات كانوا يحملون معهم.. الأسياخ.. والسكاكين والبونيات والسياط الجلدية.

هذا ما حصل في الأسبوع الأول من دخولي إلى المدرسة. فقد أجلسوني في أحد المقاعد الوسطى ثم انتقلت إلى مقاعد الصف الأمامي لقصر طولي. غمرني الفرح الشديد لدخولي المدرسة الداخلية فقد ضمنت حياة نظامية متوازنة.. حاولت أن أكون لائقاً ومناسباً وعند حسن ظن المدرسة.. لما أحاطتنا من العناية والرعاية.

ولهذا كنت أسجل الملاحظات في كل درس أحضره.. واستمع إلى المدرسين بدقة متناهية، واجتهدت في دروسي.. قررت أن أكون الأول في صفي.. كما كنت الأول في الصف السادس، في مدرسة داوود باشا الأعدادية.

لقد أرغمونا على كتابة كل ما يشرحه ويرسمه ويكتبه معلم أو مدرس /علم النبات/ لعدم وجود كتاب أو منهاج لهذه المادة وسط سخرية الآخرين.

وبما أنني مجتهد ومجدٌ في دروسي كنت أتمنى أن يطالبني المدرسون بشرح الدروس.

بعد انتهاء السيد كمال من شرح الدرس.. سألنا:

- من يستطيع شرح الدرس ثانية؟

إنها فرصة التي انتظرتها، هاهي أمامي.. رفعت يدي على الفور.. ولم أر أحداً غيري يرفع يده.. ناداني السيد كمال:

نهضت من مكاني وتوجهت نحو السبورة وإذا بأحد الطلبة يضع رجله أمامي فتعثرت ولكني لم أقع على الأرض. جمعت نفسي ونظرت

نحو الخلف لأرى الطالب الذي أراد إيذائي وإذا به يقول لي:

ـ ذكي.. يريد أن ينال استحسان الأستاذ.

نظرت إليه ثانية وقلت له هامساً:

ـ نلتقي عند الانصراف.

بما أن أكثرية الطلاب كسالى فهم يعادون جميع الطلاب المجتهدين.. ويسخرون منهم، وعندما يرفع أحدهم يده ليشرح الدرس، كانوا يقولون له بسخرية ذكي والله.

شرحت درس السيد كمال شرحاً مفصلاً كما شرحه هو: لأنني سجلت جميع الملاحظات وأصغيت جيداً إلى شرحه.. شكرني السيد كمال عدة مرات متتالية.. مستغرباً من وجود طالب مثلي يفهم الدرس في مثل هذا الصف الموبوء بالشجار والعنف، هذا هو نجاحي الأول في المدرسة العسكرية.

قبل أن أجلس في مقعدي، قرع جرس الانصراف.. وكما في كل مرة حصل صخب وتدافع وصراخ.. عمت الفوضى الصف.. مثل زجاجة الكازوز بعد خضها.. بقيت أراقب الولد الذي عرقلني قبل فترة ولكني لم أحظ به. فأنا لست من الذين أسامح الآخرين بما فعلوه بي.

خرجت إلى الممشى وبدأت البحث عنه.. فلم أجده.. توجهت نحو الحديقة الوسطى فوجدته هناك. لم أعد أتذكر كيف بدأ الشجار بيننا. المهم بدأنا بالشجار.. هو أطول مني قامة وأقوى بنية من جهتي.. الحقّ، معي في التشاجر مع هذا الولد. إذا لم أتشاجر معه وأغض النظر عما فعله معي تكون هي البداية.. ولن أقدر بعد ذلك أن أوقفه عند حدّه، ولهذا السبب كنت مرغماً على التشاجر معه.. وفي النهاية اتضح لي أن الولد ليس من الذين تستطيع الشجار معهم. فقد هجم عليَّ وغرس أظافره في وجهي، عندها وجهت له ضربتين قويتين فألقيته أرضاً

وجلست فوقه، وإذا بشيء كالرافعة يقذفني في الهواء بعد أن أمسك برقبتي. وصرت أهتز على ساعده مثل كيس مملوء على الرافعة.. مع إنني ضربت قدميَّ في الهواء عدة مرات إلا أنني لم أستطع تخليص نفسي من يده.

لو رأيت هذا المشهد بنفسي فسأرى منظراً مضحكاً إلى أبعد الحدود. في البداية حسبت أن الذي رفعني من رقبتي هو أحد الضباط.. ولكن اتضح لي أنه لم يكن ضابطاً.. بل كان يقول للولد: «اضربه ولك.. اضربه أنت أيضاً..» إذن لم يكن ضابطاً. لولا تدخل هذا الشاب لكنت لقنت هذا الفتى درساً لن ينساه، وعندما تركني الشخص الذي رفعني، سقطت على الأرض ثم نهضت مباشرة، فوجدت أمامي عملاقاً لا أملك القوة على قتاله.

شاب أشقر، شواربه كبيرة وجهه مليء بحب الشباب أو المراهقة.. يكبرني على الأقل بستة أعوام.

بعد ذلك عرفت الوجه الخفي لهذا الأمر فالشاب الذي رفعني على الهواء هو من منطقة /قاضي كويلو/ وقد رفع قدمه أمامي بتشجيع من هذا الشاب الأشقر يرعاه ويحميه.

وهذا الفتى يدخل ضمن مجموعة الفتيان الذين تحدثت عنهم سابقاً. ينتظرونه حتى نهاية العالم الدراسي، ليطردونه من المدرسة.. لرسوبه في صفه عامين متتاليين. وبما أن عمره صغير لم يرسلوه إلى القطعات العسكرية بل يسلموه إلى أهله.. أما الولد الأشقر حامي (قاضي كويلو M) فقد كان فتى جميلاً، يضع المساحيق النسائية على وجهه، ويقص حواجبه.

هذا الشجار بيني وبين الفتى (ن) علمني درساً كبيراً. يجب عليَّ أن لا أدعهم يسخرون مني.. ولن أسمح لهم بالسخرية مني. عليَّ أن لا أضع نفسي في مواقف تجعلني مكروهاً بين زملائي.. يجب أن أجتهد

وأكبر في نظر المدرسين.. وفي الوقت نفسه لا أجعل نفسي مكروهاً من زملائي.. لأنهم يكرهون كل مجتهد.. عليّ أن أجد طريقة جديدة بحيث أحصل على حب الطرفين.. حب المدرسين وحب زملائي.

بعد عدة تجارب وجدت هذا الطريق في حياتي الدراسية صرت مجتهداً وفي المرتبة الأولى ومحبوباً من الجميع.

الشيء الذي لم يكن موجوداً فيَّ

يقول فرويد: «الولد شاذ جنسياً من عدة نواحي»، الشذوذ الذي يتحدث عنه فرويد.. هو الشذوذ الطبيعي عند الأولاد، وأعتقد أن الشذوذ الموجود لدى الفتى (ن) لم يكن من هذا النوع أعتقد أن لديه عدم توازن في الهرمونات.. حيث الهرمونات الأنثوية هي المسيطرة إنه مريض بحاجة إلى علاج.

توقفت الدروس مدة عشرة أيام قبل الامتحانات.. فالمدرسون لا يحضرون إلى المدرسة وأعطونا الحرية الكاملة قبل الامتحان للدرس والاجتهاد. الباب الحديدي السميك.. الضخم مفتوح على مصراعيه والطلاب يأخذون كتبهم ودفاترهم ويخرجون للدرس في البراري.. ويصلون إلى ما بعد المقبرة.

جلست في الصف على المقعد الأمامي.. وخلفي بصفين أو ثلاثة كان (ر. ت) يجلس على مقعد، في إحدى الأمسيات أخذني إلى جهة وأعطاني سراً من أسراره.. قال: في أحد الأيام خرج مع (ن) إلى البراري للدرس وأمضيا النهار كله مع بعضهما في البراري ونال منه كل ما يريده.. كان (ر. ت) ولداً طيباً ونظيفاً وعلى حسب ما أعرف أن هذا الفعل السيئ جرى له للمرة الأولى والأخيرة.

هؤلاء الفتيان الشواذ، يسيئون للآخرين، ويقودونهم إلى طريق الضلال.

لا تفكر فيما جرى

الموقف الذي وقع فيه السيد كمال مدرس علم النبات عندما أسكته أحد الطلاب وقال له: « أنت خليك بدرسك» يظهر لنا ما آلت إليه هيئتنا التعليمية والتربوية.. حادثة مشابهة رواها لنا زميل آخر يدرس في الشعبة الفرنسية.

وجَّه أحد المدرسين سؤالاً إلى أحد القبضايات الجالسين في المقاعد الخلفية للصف.. يجيبه الطالب القبضاي جواباً لا علاقة له بالدرس ولا بالسؤال الذي طرحه، لا من قريب ولا من بعيد.. لم يتمالك الطلاب أنفسهم عن الضحك.

قهقهة قوية صدرت من أحد الطلاب.. طفت على جميع الأصوات والضحكات، هذا الطالب يدعى /فخري اليهودي/ لقد تغاضى المدرس عن الجواب.. ولكنه طلب من فخري اليهودي التزام السكوت وعدم الضحك بهذا الشكل. فينهض الطالب القبضاي ويبدأ بتوجيه الشتائم ويقول للمدرس:

ـ لا عليك يا أستاذ.. ليقرع جرس الانصراف وانظر ماذا سأعمل به وبعائلته.

القمار بأنواعه كان سائداً في المدرسة، وفخري اليهودي من أكبر المقامرين لكن أحد الزملاء في المدرسة قال لي: لقد هرب فخري اليهودي من المدرسة.. خوفاً من القتل وظل غائباً لمدة خمس عشرة يوماً.. وخلال هذه الفترة كان يلعب القمار في الدهاليز القديمة للمدرسة.

وسط هذه الأجواء والمواقف الصعبة والقاسية كنا نتعلم، لا تظنوا أن كل شيء يبدو سالباً في المدرسة.. من جهتي تحدثت عن ناحية واحدة.. ولكن إلى جانب ذلك.. هناك مدرسون وضباط أكفاء، ودراسة جيدة

إلى أبعد الحدود. وهذا ما سترونه في الصف الثامن الذي سيترك في نفوسنا آثاراً عميقة.

السيد زكي

لم يستطع المدرس كمال تحمل تصرفات بعض الطلاب.. فعمد إلى ترك المدرسة نهائياً.. خلفه مدرس آخر لمادة علم النبات يسمى السيد ذكي.. إلى جانب عمله فهو متخصص في طب أسنان. شاب في مقتبل العمر.. يتراءى لي أنه في الثلاثين من عمره.. يرتدي ثياباً جميلة وعمله التدريسي جيد إلى حدٍ ما، فقد طلب منا جمع نماذج من النباتات. من جهتي قمت بجمع كمية من النباتات والأزهار البرية وألصقت كل مجموعة على صفحة من الدفتر، وكتبت في أسفل النبات أو الزهرة اسمها وفصيلتها.

هذه المجموعة مازالت عندي حتى الآن.. بين حين وآخر أجمع أولادي وأقلِّب لهم هذا المصنف الذي صنعته قبل ثمانية وأربعين عاماً.. تلك كانت وظيفة مدرسية.

اليوم صديقي محمد عميد متقاعد من سلاح الاستحكامات، وكما تعلمون دخلت مع محمد المدرسة العسكرية في آن واحد.. منذ عدة أيام اتصلت به هاتفياً وسألته عن مدرسنا السيد زكي.. لم يتذكر حتى اسمه. أما أنا.. أتذكر جلوسه أمامنا.. وتنظيف صدأ أسنانه بأظافره.. من جهتي كنت أحزن لهذا المنظر، وأقول: في نفسي كيف يتصرف معلم ممتاز بهذا الشكل أمامنا.. وبالعكس، الأشياء والأحداث التي يتذكرها محمد لم أتذكر منها شيئاً.. والأحداث التي يعيشها شخصين قد تكون من صميم حياة الأول، أما الآخر فلا يعرف عنها شيئاً.

قبل نهاية العام الدراسي.. تبدل وضع السيد زكي كثيراً.. تراه حزيناً دائماً فقد عرف بعض الزملاء بأسباب حزنه.. وحسب ما كتبته ونشرته

الجرائد كانت خطيبته قد ألقت بنفسها من نافذة منزلها وماتت بعد هذه الحادثة تغيب السيد ذكي عن المدرسة عدة أيام.. ولكنه عاد إلى الدوام ولكن بشخصية أخرى.. شخصية حزينة كئيبة.

العازب ـ المنزلي

كانوا يسمحون للطلاب الذين لديهم آباء وأمهات ومنزل في استانبول بقضاء أيام العطل الأسبوعية في منازلهم، كانوا يسمونهم المنزليون أو طلاب المبيت. أما الطلبة الذين لا يخرجون في العطل الأسبوعية لوجود آبائهم وأمهاتهم في المناطق النائية.. كانوا يسمونهم / العزَّب/ يسمحون لهم قضاء النهار خارج المدرسة ويعودون مساءً للنوم فيها.

الأولاد الصغار المنزليون يعودون مساء الجمعة إلى المدرسة بحذر وخوف شديدين. لأن مجموعة البلاء والمصائب.. تكون في انتظارهم أمام الباب الحديدي للمدرسة.. مجموعة البلاء والمصائب هذه تتكون من بعض قبضايات الدرجتين الثانية والثالثة.. وجبة الغداء التي تقدمها المدرسة يوم الجمعة هو الطبيخ بالحمص، وبما أن المنزليون غير موجودين في المدرسة.. فكان الحمص يزيد في المطبخ.

هؤلاء القبضايات الذين تحدثت عنهم على أنهم قبضايات من الدرجة الثانية والثالثة يجمعون حبات الحمص المتبقي في حلل الطبخ.. ويغسلونها جيداً ويجففونها تحت أشعة الشمس، ثم يضعون حبات الحمص المجففة في لفافات ورقية على شكل قبعات. وعندما يعود المنزليون إلى المدرسة.. يقف هؤلاء القبضايات أمام الباب ويقولون:

ـ شوف ولك هذا حمص.. /بلبي/ صنعناه من أجلك.. هيا خذه.. أي اشتريه.. ويبيعونهم الحمص المجفف تحت الشمس قسراً.

بعض هؤلاء، يخرجون إلى البراري.. ويجمعون أنواعاً من الثمار

البرية ويضعونها داخل الأوراق القبعية ثم يبيعونها.. كان بيع الحمص لمجفف أكثر إنصافاً من بيع تلك الثمار البرية التي كانت تشبه الفريز.. أما القبضايات الكبار أي من الدرجة الأولى.. فكانوا لا يعملون بهذه التجارة القسرية، الصغار العائدون من منازلهم.. لا تخرج من أفواههم كلمة إلا أرغب بالشراء لأن أكثر الباعة كانوا كبار السن.. فينهالوا عليهم ضرباً ويبيعونهم بصورة إجبارية.. طيب ماذا على الباعة أن يفعلوا غير هذا؟ هؤلاء الصغار جميعهم أيتام.. ليس لديهم آباء وأمهات ولا أقارب. من الذي سيعطيهم المال ليعيشوا مثل الآخرين؟ وفوق ذلك كله.. كانوا يدخنون السجاير مدمِّرين بذلك حياتهم ومستقبلهم.

لم يبيعوا الحمص لجميع العائدين من بيوتهم.. بل يختارون الصغار منهم في العمر.. ويبيعونهم القبعة الواحدة بعشرة قروش.. وإذا لم يشتريها أحد بعشرة قروش.. فيبيعونها بخمسة قروش.. وأحياناً تهبط إلى القرش الواحد.. ومن لا يدفع القرش.. ينهالوا عليه بالصفعات بالنسبة لهم لديهم كل الحق. كانوا يقولون:

ـ شو ولك حبيبي.. بقيت ساعات طويلة لأصنع لك هذه الحبات.. وأنت لا تشتري لماذا؟

كنت صغيراً عمراً وجسداً.. وباستطاعتهم بيعي من هذه القبعات اللبلبية إلا أنهم لم يطلبوا مني الشراء أبداً.. لو طلبوا مني بكل تأكيد لاشتريت قطعاً منهم.

بعد شهر أو شهرين من دخولي إلى المدرسة.. مُنع هذا البيع القسري في أجواء المدرسة.. ولا أعلم ما السبب.

الأخت نعمت

كان التفقد يُؤخذ كل مساء في الساحة التي نسميها: الحديقة الوسطى خارج الباب الحديدي السميك.

وعلى سفح الجبل المقابل للمدرسة، شيِّد قصر خلف المدرسة، ولم تكن هناك أية بنايات جانب وحول هذا القصر.. كنا نسمي ذلك القصر //قصر السيد حكمت// السيد حكمت يعمل كيميائياً يقال أنه يستعمل قسماً من قصره /مخبراً كيميائياً/ ويصنع فيه بعض المواد الكيميائية ويبيعها.. السيد حكمت أصبح مدرساً لمادة الكيمياء في مدرستنا لفترة من الزمن. إنه شاب بشوش يرتدي طقماً كحلياً مقلماً بخطوط بيضاء متباعدة وهو نفس الرداء الذي كان يرتديه ملك إنكلترة إدوارد الثامن ولهذا السبب صار ذلك القماش واللون والأقلام موضة استانبول آنذاك.

هناك فتاة تعمل في قصر السيد حكمت وتسكن في حي /فاني كوي/ يناديها الطلاب /آبلة نعمت/.. كانت فتاة جميلة إلى أبعد الحدود.. وربما يبدو جمالها بالنسبة لنا لسبب عمر المراهقة لدينا.. كانت تأتي كل يوم من منزلها إلى القصر سيراً على الأقدام وتعود مساءً بنفس طريق عودتها إلى منزلها وقت التفقد عندنا في الحديقة الخارجية.. فالطلاب وخاصة الكبار منهم ينادونها باسمها ويعذبونها.. ويقذفونها بالكلمات النابية.. ليس هذا فحسب بل كانوا يتمددون على الطريق ويقولون لها أثناء مرورها «بالله عليك دوسي عليَّ كليني مثل اللقمة». ومع ذلك لم يتحرشوا بها، لماذا؟ لأن الأبلة نعمت كانت فتاة مرحة.. رائعة.. مع مضي عامين كاملين على تنقلها لم تخرج منها كلمة واحدة.. أو ترد على تصرفات الطلاب حتى أنها لم تقدم شكوى بحقهم للضباط.. كانوا يحاولون إضحاكها.. ولكنها لم تضحك.. يحاولون إغضابها فلم تغضب.. يتوسلون إليها، فلا تسأل عنهم.. تمشي بين المتمددين على الأرض.. لا مبالية أفكر الآن بالآبلة نعمت كثيراً.. وأتساءل ماذا حصل لها؟ ولماذا سميت بالآبلة هل لأن عمرها أكبر من عمرنا أم لأنها فتاة جميلة؟! ثم إن الأولاد يحبون التقرب منها فسموها

آبلة نعمت.. بعد ذلك عرفت ماذا حصل لها لقد تزوجت من أحد زملاء صفنا.

مصيبة منير البهلوان

كما أن لكل قسم بطله، كان لكل صف بطله الخاص. وهناك بطل خاص للمدرسة، ولهذا السبب كانت قوانين السجون هي المطبقة في المدرسة.. مصيبة المصائب.. قبضاي صفنا كان يشبه آغا المهجع في السجن.. يعني أنه كان يدرس في الصف السابع في إحدى صفوف القسم الألماني يسمونه منير البهلوان، هذا الإنسان.. لن أقول عنه أنه طالبٌ لأنه لا علاقة له بالطلبة ولا بالمدرسة ولا بالدراسة.. عمره بين ٢٢ ـ ٢٣ وربما نراه أكبر عمراً.. نسبة إلى أفعاله وتصرفاته.. لم يكن ضخماً.. بل قصير القامة بدين.. يشبه إلى حدٍ ما صورة /بوذا/ وهو جالس وبطنه يظهر أمامه، لا أعلم إن كان بهلواناً حقيقياً أم لا.. لأننا لم نر مصارعته أبداً. لكن شهرته كانت تدور بالبهلوان لقد وزع الخوف في قلوب الجميع بحيث كل من في المدرسة يأخذ حذره منه ويتحاشاه، ولم يكن عابس الوجه مثل الأبطال الآخرين.. بل يبتسم ابتسامة ذابلة ابتسامته الذابلة هذه تظهر وكأنه مستعد للأكل والقضم، وكان منظره بالقضم أكثر رعباً من الوجه العابس.. يتحدثون أن في جسمه بقايا طعنات سكين. كان ينقل الآثار ويحملها وهو فخور بها.. مثل فخر الإنسان بالوسام الذي يناله في إحدى الحروب.. لم أعد أتذكر تماماً.. فقد أصيب في شجار مع أحدهم بطعنة سكين في كرشه، وعالج نفسه على أكمل وجه قبل أن تسمح الإدارة بذلك.

كان منير من الراسبين في الثانوية.. وكان القبضاي المسمى /القاتل صلاح الدين/ وهو أيضاً من القسم الألماني.. من منافسي منير البهلوان.. والقاتل صلاح الدين من راسبي ثانوية /مال تبة/.

وكما يعيش السلاطين ضمن مجموعة كبيرة من الجواري.. كان منير البهلوان يعيش مثلهم.. ولكن لم يكن عنده جواري.. بل كانت معه مجموعة كبيرة من الغلمان.. حرمه مؤلف من أربعة أولاد صغار.. وهذا ليس بسر للآخرين.. الجميع يعرفون مدى صلاته بالأولاد.. علناً دون خوف أو حذر.. وهناك أولاد آخرين غير الأربعة الذين يسيطر عليهم كلياً.. عند البوق الصباحي الاستيقاظي كنا ننهض من فراشنا فوراً.. أما منير فلا ينهض ولو عزف مائة بوق كان يتحرك من مكانه في الوقت الذي يريده.. الأولاد الأربعة يتحركون معه.. وهم في حالة من المزح.. والتمسيدة والتسميد.. بعضهم يساعده في ارتداء بنطاله والآخر في جوربه والثالث في حذائه.. وهكذا لم يكن منير البهلوان يذهب إلى المطعم لتناول طعام الإفطار.. بل يرسل أحد غلمانه ليأتيه بالطعام.. حيث يتناوله وهو في سريره والأولاد الأربعة.. دائماً معه.. يطوفون حوله طول الوقت.. وعندما يحل المساء.. كان بعضهم يقوم بعمل المسَّاج أيضاً.

بعد طعام الإفطار والعشاء.. كنا ندخل إلى قاعات المطالعة.. ساعة صباحاً وساعة مساءً في إحدى الأمسيات وفور خروجنا من قاعة المطالعة بعد عزف بوق النوم كنا نتوجه إلى مهاجعنا.. جماعات.. جماعات.. ثلاثة.. ثلاثة.. خمسة.. خمسة.. هكذا. وصلت أمام باب مهجعنا من يدخل إلى المهجع.. يعود راجعاً على الفور.. الذين لم يدخلوا بعد كانوا يسألون الواقفين في الممشى عن سبب وقوفهم هنا.. فيجيبونهم «ادخلوا وشوفوا» بعضهم لا يدخل والبعض الآخر ممن عنده فضول لمعرفة المجهول في الداخل.. يدخلون.. ثم يخرجون مباشرة بعض الخارجين يتبسمون ويضحكون والبعض الآخر يظل ساكتاً لا تخرج من فمه كلمة واحدة والبعض يهربون.. ويصعدون الدرجات بسرعة البرق.

كانت مصابيح مهجعنا مطفأة ولكن الداخل لم يكن مظلماً بما فيه

الكفاية.. دفعني أحدهم من خلفي فاندفعت داخل المهجع.. ما رأيته.. عجيب غريب لا يستطيع أقوى شاذ في العالم أن يطبق ما رأيته في المهجع.. المهجع مظلم.. المصابيح كلها مطفأة.. نور ضعيف من مصباح يدوي صغير.. ينشر نوره على سقف المهجع.. ضمن هذا الإطار الضوئي المنتشر ظل ممتد على مساحة مترين أو ثلاث.. وهو ظل ذكر منير البهلوان هذا ما كان يراه الداخل إلى المهجع.

يتراءى لي أنه لا يستطيع أي إنسان أن يطبق هذه الحركة اللاأخلاقية.

هكذا كانت مصيبة منير البهلوان.. مصيبة وبلاء، من نوع خاص، وقد طُرد من المدرسة مثل الآخرين.. ولم أعد أتذكر.. هل طردوه مباشرة.. أم انتظروا حتى نهاية العام الدراسي.

صور من المزاح

لعبة خيال الظل التي طبقها منير البهلوان تعد شيئاً عادياً في مدرستنا. هناك مزاح ثقيل مع الطلاب الذين يغطون في نومهم ويعلو شخيرهم. ما يقوم به الطلاب هو طلاء وجه النائم بالحبر وعندما ينهض الأخير من نومه ويذهب للمغسلة ويرى آثار الحبر الممزوج بالماء، فيصاب بالحيرة والدهشة. الأهم في هذا النوع من المزاح حصوله أيام الشتاء، حيث يدخل الطلاب صفوفهم دون غسل وجوههم بالماء البارد.. وعندما يرى الضابط المناوب أو المدرس هذه الحالة فيظن أن هذا التصرف قد جاء عمداً ليخلق الفوضى في الصف. ويلجأ المسؤول في المدرسة إلى فرض العقوبة المناسبة التي تصل أحياناً إلى حدِّ الضرب.

منظر آخر مضحك، كان بعض الطلاب الذين يثقل نومهم أو يملأون المهجع شخيراً يدهنون وجوه بعضهم. عندما يستيقظ الطالبان ينظران إلى بعضهما، وكل واحد منهما لا يعرف حال وجهه. يقول الأول: انظر وجهك ويطلق ضحكة عالية، فيجيبه الثاني: انظروا إلى

وجهه هذا الأحمق وهو يسخر من الآخرين ولا يرى وضعه. عندها يبدأ الطلاب بالسخرية من الاثنين.

هناك أنواع لا تحصى من عمليات المزاح التي يجري اختراعها يومياً.

صلاح الدين بابيك

أعزائي القراء: أشعر بين حين وآخر وأنا أكتب مذكراتي إنني بحاجة ماسة إلى مخاطبتكم ومناقشتكم. وبالأخص ليست مناقشتكم،، بل أريد أن افتح قلبي لكم،. المذكرات التي أكتبها الآن، أقسم لكم أنها اصعب ما كتبته طوال حياتي،. حيث من المفروض أن تكون كتابتها سلسلة وسهلة للغاية،، فكتابة المذكرات لا تحتاج إلى إبداع جديد، أو الكتابة بأسلوب أدبي أخّاذ.

اليوم أكتب مذكراتي،، أضمنها بواقعية وشفافية وبكل تفصيل، مشاعري، وما عانيته في مجرى حياتي القاسية. إذا كان الأمر كذلك، لماذا تصعب عليَّ الكتابة؟ أجلس خلف طاولتي، أكتب سطراً أو سطرين.. ثم أضع القلم على الورقة، وكأن شيئاً يدفعني إلى ترك مقعدي، وأبدأ بالدوران وسط المنزل، أفتش عن شيء غير موجود في ذاكرتي.. أخلق الحجج الواهية كي لا استمر في الكتابة.. بعض الأحيان وكثيراً ما يهاجمني النعاس ليس بقصد النوم، بل للهرب من الكتابة.

جميع القصص والروايات والمسرحيات التي كتبتها، لم اشعر بأي صعوبة في كتابتها. كانت لديَّ الرغبة الجامحة في أن أكتب الكثير، ليطلع ويتمتع القراء بما كتبته وسأكتبه. لقد وجدت سبب السأم الذي كان يشدني لعدم الكتابة، وجدته بعد تفكير طويل وعميق، وهو: الحقيقة أنني أردت كتابة قصة حياتي من أعماقي، وما كان يوهن عزيمتي ناتج عن خجلي من أمور قد لا تبدو وللقارئ أنه يجب عليَّ ذكرها، وربما أجد الحرج في توضيح بعض النقاط الغامضة وغير الصحيحة،

وأعلم أن من واجبي تسجيل كل ما أراه صحيحاً. هناك دافع داخلي يدعوني للكتابة، لكن مشاعري وأحاسيسي تقيّدني وتمنعني.

يقول تولستوى عند كتابته مذكراته:

إذا لم أدخل في أدق التصرفات والأحداث في حياتي وأنا أكتب مذكراتي، فهذا معناه أنني لم أتدخل في مشاعري، ولم أجعل أفكاري تعود إلى الماضي، وتسجل كل خطوة، وعمل، وتصرف قمت به، وأكون قد وقعت في بحر من الأخطاء. بما أنني قررت الكتابة فيجب أن تكون التفرعات والتفصيلات حقيقية، حتى ولو غرست فيَّ هذه التفرعات الاضطراب والألم، ووضعتني في مأزق صعب للغاية مع الآخرين، وحتى إلى أقرب وأعز الناس لديَّ. عندها تكون المذكرات تاريخاً فإن فائدتها لا تقدر بثمن. فالكاتب لا يعكس الأحداث التاريخية فقط، لكنه في الوقت نفسه يكون مرآة صادقة لكل الأشخاص المحيطين به.

بهذه اللغة الرائعة يقدم لنا تولستوي، مدخلاً رائعاً وطريقاً واضح المعالم في عملية كتابة المذكرات، ويصبح قدوة لكل من يرغب كتابة مذكراته.

وليعذرني القراء ما أوردته وما سأورده في مذكراتي من حوادث وقصص وانحرافات جنسية قد يرفضها أو يستهجنها البعض، ولكنها الحقيقة التي عاشها مجتمعنا آنذاك.

من ذكرياتي التي تجعلني أقف متردداً في كتابتها، وتوقظ مشاعر الاضطراب والتوتر في شخصيتي، هي المغامرة المخجلة التي قام بها الطالب صلاح الدين بابيك.

كانت مقاعد صفنا قد وضعت في أربعة صفوف.. يجلس في المقاعد الأولى قصار القامة أمثالي، ثم تتدرج حسب الطول. بابيك

طالب قصير يجلس في المقاعد الخلفية بدلاً عن الأمامية، لكن أحدهم وهو من الأقوياء يصرُّ أن يجلسه لجانبه. بابيك طالب حسن الشكل والهيئة ومحبوب من رفاقه. يهتم كثيراً بهندامه الشخصي في الوقت الذي كنا نلبس الثياب البالية. كان بابيك يرتدي أجمل الثياب التي أخاطها عند أمهر الخياطين. يتظاهر بالكبرياء والعجرفة، هذا الأمر عادي لدى أمثال هؤلاء الذين تتمرغ وجوههم في الوحل. لذلك فهم يبيعون رجولتهم وشخصيتهم للآخرين بأثمان بخسة، هذا ما رأيته أيضاً فيما بعد لدى بعض المساجين.

نعم: فجميع الذين لديهم اضطراباً في الهرمونات، ونقصاً في مظاهر الرجولة الخارجية، يتعرضون دائماً للاغتصاب الجنسي، ويتفاخرون بذلك مفضلين إعطاء مظاهر هندامهم الخارجي على دناءة نفوسهم.

«بابك» من أمثال هؤلاء، يبيع رجولته للآخرين، ويتشاجر مع البعض الآخر، مستنداً في تصرفاته إلى حماية الطلاب الأقوياء في الصف. كان الجميع يعرفون أنه شذوذيته، بعيداً عن النواهي الأخلاقية. ارتدى في إحدى المرات بنطالاً، بدلاً من إخاطته من الخلف، فقد وضع له كبَّاسات لربط قطعتي البنطال. هذا البنطال أخاطه بطراز خاص، وربما قدمه أحدهم هدية، مما يوضح مدى سهولة اللواطة والشذوذية عنده.

أنا وأمثالي من الفتيان، لم نكن قد بدأنا بحلاقة ذقوننا. هناك فتى من عمرنا يجلس أمام بابك، جسده مملوء بالشعر مثل تيس الماعز كان يحلق في الحمام شعر جسده بآلة الحلاقة، ولم تمض فترة أسبوع حتى ترى شعر جسده وقد برز من جديد، وأصبح كالدب تماماً. منظر لا يصدق عند الحلاقة، كان يُبدل شفرتين وثلاث شفرات ليتخلص من الشعر.

الشاذون الذين لديهم حامٍ واحد تحفظ كرامتهم إلى حدٍّ ما لدى

الآخرين. أما الذين لا حماة لهم فلم يأبهوا لشذوذيتهم. ومن كان لهم حماة قدماء، تراهم متشائمون دائماً، يعرضون أنفسهم على الجميع، مقابل مبالغ تافهة. عدد كبير من هؤلاء جرى طردهم من المدرسة. بعض الذين طردوا عادوا إلى رشدهم واكتملت شخصيتهم. لقد أصبح أحدهم نجماً من نجوم كرة القدم. هذا الشخص من الصعب جداً كتابة ووصف شذوذيته بسبب موقعه.

تعرَّفت على فتى آخر وهو ابن إمام أحد الجوامع في حيِّنا. شاهدت تصرفاته في مكان عمله، حتى لا أزعجه، كنت أتحاشاه ولا أدنو منه.

فتى آخر من هؤلاء الشاذين، أصبح بطلاً في السباحة، كان رياضياً بكل معنى الكلمة، وكما سمعت فإن هذا الفتى لا يخفي شذوذه الجنسي عن الآخرين. كان يعلم أنه سيطرد من المدرسة ولن يخدم في سلك الجندية. هذا الفتى يكبرني بقليل، ولكن لا أحد يحتقره أو يحط من كرامته، لأنه كان قوياً، يفاجئ كل من يتكلم عنه بلكمة من قبضة يده القوية.

كنا أكثر من سبعمائة طالب في الصف السابع. طُرد معظمهم قبل انتهاء العام الدراسي، لكن عندما بدأت العطلة، فقد كانوا يطردون أكثر من عشرين طالباً في اليوم، وأصبح عدد المفصولين عن المدرسة حوالي أربعمائة طالب. أسباب طردهم كانت لفشلهم في الدراسة، ورسوبهم في الصف لعامين متتالين، لكن السبب الرئيسي هو شذوذهم.

في العام التالي، وعندما انتقلنا من الصف الثامن إلى الثانوية، طُرد أكثر من مائة وخمسين طالباً.

في السنوات التالية، أصبح الصف نظيفاً، ولم يبق إلا الطلاب المجدِّين الذين نعرفهم جيداً، لعيشنا المشترك ليلاً نهاراً في مدرسة داخلية واحدة، وعلى مدى سنوات طويلة.

إبراهيم أبو القازنلي

نشرت الصحف اليومية وقائع جريمة حصلت قبل خمس عشرة سنة. وهي أن شرطياً اسمه إبراهيم، أقدم على قتل زوجته الخائنة عندما قبض عليها متلبسة بالخيانة في فراش زوجها مع رجل آخر. حيث أفرغ مسدسه في جسد الزوجة. أفاضت الجرائد بالحادث آنذاك، وانحازت في دفاعها إلى جانب الشرطي. وخلاصة قولها أن إبراهيم شرطي محبوب من قادته وزملائه. الذين قدموا له مساعدة مادية ومعنوية، وأوكلوا محامياً للدفاع عنه.

كيف لي أن أعلم أنَّ هذا الشرطي كان رفيقي في الصف السابع؟

خلال سنوات الدراسة، كان الطلاب يطلقون ألقاباً على بعض زملائهم تتوافق مع تصرفاتهم. أحد هذه الألقاب «فلان أبو الجرس»، «شبع أبو الجرس»، «غاب أبو الجرس». حسّان أحد زملائنا في الصف، نحيف طويل القامة، لا ينفك عن التفكير دائماً في الطعام. نهم، شره، طماع، أطلقوا عليه لقب «أبو الجرس». سبب هذه التسمية، أنه ما أن تبدأ الحصة الرابعة من الدرس الصباحي، حتى يبدأ التفكير بالجرس، لأن طعام الغذاء يقدم بعد انتهاء الحصة الرابعة.

وعندما يدنو موعد قرع الجرس يقول: «جرس بطني يرن» طبعاً من الجوع. وفور قرع الجرس، يندفع بالسرعة نحو المطعم، ويغرف في صحنه كمية كبيرة من الطبيخ تعادل لأربعة أشخاص. لقد طرد زميلنا حسان من المدرسة، لرسوبه عدة مرات وفشله في الدراسة، وأرسل للخدمة العسكرية العاملة.

طالب آخر اسمه «جاويد»، لقبه «جرس جاويد»، سبب تسميته: أن جاويد كان يعزف وسط الفرقة الموسيقية في المدرسة على آلة نحاسية. يسكن جاويد في منزل مجاور لمنزلنا، ألتقي به من حين لآخر، نجلس سوية ونتحدث عن أيام الطفولة والدراسة والمدرسة، ونستعرض رفاقنا

كل حسب عمله وتصرفاته وأخلاقه. أنهى جاويد خدمته العسكرية وأحيل إلى التقاعد برتبة عميد. كان صديقاً ودوداً بكل معاني الكلمة. أتحدث عنه الآن بصفة الغائب، حيث توفي منذ فترة قصيرة.

جاويد أيضاً مثل سائر رفاق الصف، من الذين يزينون مقاعدهم بأوراق ملونة وغيرها. هذه الصفة بقيت عالقة في ذاكرتي. عندما زارني في منزلنا: بدأ يحدثني عن أيام الطفولة وخاصة في مدرسة (جنكل كوي) العسكرية. قال: إن تلك المدرسة لا تعتني بالطلاب. وأنه كتب رسالة إلى وزارة الدفاع، شكى فيها إدارة المدرسة. ذكر فيها أن الإدارة لا تعطي الطلاب حقهم (لم يكتب الرسالة عن طريق التسلسل). وعندما حضر المفتش العام للجيش تبيَّن أن شكواه صحيحة، فقرروا إرساله إلى المدرسة العسكرية في استنبول.

عندما كان جاويد يقص عليَّ ما جرى له.. كنت أدوِّن كل كلمة يقولها: وفيما يلي مقطعاً من حديث قاله لي:

كما تعلم القصص في الحمامات. فقد وقع عامل الحمام أسيراً في أيدي القوات الروسية. وذات يوم دخل إبراهيم الحمام، فقص له العامل ما قاساه من العذاب في الأسر الروسي. انتهره إبراهيم وقال: أنت تكذب.. عندها تمادى عامل الحمام وأطنب في الحديث عن سوء معاملة الروس. نهض إبراهيم غاضباً وانهال بالضرب على عامل الحمام.

أنا شخصياً ذهبت إلى الحمام، فقص لي عامل الحمام ما جرى له مع إبراهيم وقال لي: لأنني تحدثت عن الروس وقساوتهم ووحشيتهم، تشاجر معي وضربني. خرجت من الحمام وتوجهت إلى الضابط (صاري عمر) وقلت له: يا سيدي إن إبراهيم أبو القازان يتشاجر مع كل شخص يذكر الروس أمامه بسوء المعاملة.

المهم يا سيدي: فقد اتضح أخيراً أن إبراهيم أبو القازان كان عميلاً

للروس. واعترف بأصله الروسي، وعندما علمت سلطات الأمن بذلك، طردته من المدرسة.

بعد ذلك بعدة أعوام، شاهدته في الشارع مرتدياً لباس الشرطة.. ثم كتبت الصحف أن شرطياً أقدم على قتل زوجته.. إنه إبراهيم أبو القازان.. ومرّت سنوات، وكنت قد توجهت إلى مديرية الزراعة لشراء زيت، وإذ به يظهر أمامي، وعندما سألته عن عمله أجاب إنه يعمل حارساً في مديرية الزراعة.

لقد عرضت ما قاله أجاويد بالأسلوب الذي حدثني به، وسجَّلته فوراً كما هو. عندما طُرد إبراهيم من المدرسة لعمالته للروس، كان في السادسة عشرة من عمره، ومن غير المنطقي أن يكون عميلاً وهو في هذا السن. كان أصله من كازاخستان، ولقبه إبراهيم الكازاخنلي. كان أجاويد يروي الحادثة لي وهو مؤمن كل الإيمان بعمالة إبراهيم، دون الشعور بالشفقة أو الرحمة. عندما تحدث أجاويد إليَّ كان بصحة جيدة، لكن المنية وافته بعد عدة أيام من لقائنا الأخير.

المعطف الأحمر

معظم زملائي في الصف، لم يكن لهم معيل أو وليّ أمر حتى يبعثوا لهم بالنقود. هؤلاء الزملاء، يبحثون دائماً عن طرق لكسب المال الذي يساعدهم في حياتهم الدراسية. إحدى هذه الطرق أو الأساليب: لعبة سحب الشوكولاته.. ولعبة أخرى اسمها «لعبة حياة». وهي عبارة عن حبة سكاكر توضع داخل علبة لها أرقام سعرها أربعون بارة،... كان الباعة ينادون: اشتر حياة بأربعين بارة. هذا النداء كان شائعاً في تلك الأيام. الأولاد الصغار في الخامسة والسادسة... الرجال المتقدمون في السن... يعلقون علبة حياة حول أعناقهم متدلية على صدورهم وينادون: «اشتر حياة بأربعين بارة». جميع الصحف تحدثت آنذاك عن الأسعار

الرخيصة في زواياها اليومية. حتى رساموا الكاريكاتور انصبت رسومهم حول هذا الموضوع. أما صانع هذا النوع من السكاكر فهو شخص يدعى «عبد الواحد». كان الباعة ينادون بأعلى أصواتهم: حياة جديدة من عبد الواحد، حياة جديدة بأربعين بارة. لقد امتلأت استنبول بسكاكر عبد الواحد. سأعطي فكرة موجزة عن مصاريف الطالب اليومية والشهرية. زميلي كامل مثلاً: والده مزارع فلاح، كان يرسل لابنه ثلاث ليرات شهرياً. هذا المبلغ يعتبر في ذلك الوقت كبيراً جداً. يدخن كامل يومياً علبة دخان خاص بالعسكريين. أي أن مصروف الدخان يدخل ضمن الثلاث ليرات.

أما صديقنا جاهيد، فكان يرسل له والده ليرتان ونصف شهرياً. وهو موظف في المناطق النائية. أما أنا، فكان والدي يعطيني شهرياً خمسون قرشاً. وأحياناً ليرة واحدة.

أما والد نجاتي فهو موظف، وعائلته مؤلفة من ستة أولاد. كان يرسل لابنه مرتين كل سنة، من ليرتين إلى ثلاث ليرات.

الزملاء الذين يملكون ألبسة جديدة، ولا يذهبون إلى منازلهم وقت العطلة الأسبوعية، فكانوا يؤجرون ثيابهم الجديدة إلى زملائهم. أما أعلى إيجار للألبسة الجديدة فكان للرداء الأحمر، حيث بلغ إيجاره خمسين قرشاً في اليوم، وخاصة إذا كانت بطانته حمراء.

المعاطف التي تقدمها المدرسة، لها ستة أزرار تصطف من الأمام. المسافات بين الأزرار متباعدة، ثلاثة إلى اليمين وثلاثة إلى اليسار. أما المعاطف التي يخيطها الخياطون، فعليها ثمانية أزرار في كل جهة أربعة. هذه الأزرار تتباعد عن بعضها لدى وصولها قريباً من الكتف، حيث يبدو الكتف عريضاً، والخصر رفيعاً.

جاهد يملك معطفاً رصاصياً، بطانته حمراء. بعض المعاطف التي

تقدمها المدرسة لونها فضي غامق وياقتها من القماش السميك. قامة جاهد قريبة من قامتي، على خدِّه آثار نوع من الدمامل (دملة ديار بكر)، مدمنٌ على التدخين، عصبي المزاج، تتبدل قسائم وجهه لحظة الغضب، لكنه مستقيم وطيب. وكان من الطلبة الذين لا يخرجون من المدرسة في العطلة الأسبوعية لعدم وجود أقارب له في استنبول.

معظم الذين يستأجرون ألبسة زملائهم، لهم علاقات غرامية مع الفتيات. رغم أنه لا علاقة لي بالفتيات، فقد استأجرت معطف جاهيد، ولا أعلم فيما إذا أخذ أجرته أم لا. منذ أن لبست المعطف سامرتني شكوك وأحاسيس داخلية سرية. لم أعد أتذكر ما هو الإحساس السري الذي تولَّد في أعماقي، هل إذا لبست معطف جاهيد سأجذب الفتيات إليَّ. قلت في نفسي: لو لبست ذلك المعطف في تلك العطلة، سأتعرف إلى إحدى الفتيات. وستكون هذه الفتاة صديقة لي.

عندما قدّم لي جاهيد معطفه، بدا وجهه عابساً مقطب الحاجبين، ولا أنس أنه قال لي آنذاك بعصبية مفرطة:

ـ شوف ما بدِّي منَّك أجرة ولا أي شيء، لكن دير بالك عالمعطف، لا ترجع وعليه البقع والأوساخ... اصطفل.

لبست معطف جاهيد بلونه الرصاصي الفاتح والياقة الحمراء. وخرجت من المدرسة بعد ظهر يوم الخميس، ولكي تظهر البطانة الحمراء للناس، فيجب أن تكون الياقة مرفوعة نحو الأعلى. كنت أرفع الياقة في الأماكن غير ممنوعة، والتي لا يتواجد فيها الضباط. وتجولت في مناطق كثيرة متنقلاً إليها بالحافلات.. وأخيراً توجهت إلى المنزل. يا للأسف لم أصادف في الطريق أياً منهن، ولم يلفت المعطف أنظار الفتيات حتى ولا العجائز، ولا إلى شخصي، حتى والدي وأختي لم يأبها للمعطف وبطانته الحمراء.

في اليوم التالي بدا الشتاء قاسياً والأمطار غزيرة، ولديَّ رغبة جامحة بالذهاب إلى المدرسة، لكنني كنت أخشى أن يراني أحد مرتدياً هذا المعطف، أو أن يتبلل بالماء، لذلك قررت عدم الذهاب للمدرسة.

عندما لم أعد للمدرسة صباح يوم الجمعة، شعرت بالأمل يضرب أعماقي، لابدَّ أن إنساناً ما سيراني مرتدياً هذا المعطف.. ومع ذلك لم أعد إلى المدرسة مساء الجمعة، لكن عدت إليها صباح السبت. اعتذرت للضابط عن غيابي يوم الجمعة بحجة أنني مريض، فأعفى عني.

لكن الشيء المعيب هو لقائي مع جاهيد.. كما يقول المثل «العين التي ترعاها جيداً ستدخلها قشة». عندما كنت سائراً في الشارع سقطت قطرة ماء من إحدى المداخن وأحدثت على المعطف بقعة سوداء. عندما رآها جاهيد صرخ قائلاً: «ولك حبيبي لم أطلب منك أجرة.. ولك لم أطلب منك شيء سوى المحافظة على نظافة المعطف، فهل هذا جزائي؟».

كان جاهيد يصرخ بأعلى صوته الرفيع مثل الديك.. قلت في نفسي: لو أخذ أجرة لكان أفضل لي. وفي هذه الحالة أستطيع الوقوف في وجهه والتصرف معه بقسوة. لكن بما أنه أوصاني بالمحافظة على المعطف، فلديه كل الحق في تأنيبي. كنت مُرغماً على السكوت، وأحنيت رأسي نحو الأرض، وكررت اعتذاري له، لكن قلت في نفسي «هذا الولد يأخذ دراهم الناس ويريد أن يبقى معطفه جديداً».

بعد هذه الحادثة لم ألبس ثياباً مستعارة، ولم أطلب من أحد شيئاً من هذا القبيل. حافظت على صداقتي مع جاهيد. فهو ولد طيب ولكنه عصبي المزاج، لم يكن مجتهداً ولا كسولاً. تخرجنا سوية من المدرسة وأصبحنا ضابطين. ومنذ ذلك الحين لم ألتق به، وحسب ما سمعت أن جاهيد انتحر في إسكندرون.

الدراهم والخبز

كان رغيف الخبز يباع بثلاثة قروش، فارتفع سعره إلى ثلاثة قروش وعشر بارات. وقد عارضت الصحف هذه الزيادة التي لا يمكن للشعب أن يتحملها، وطالبت الحكومة بإنزال العقوبات بمن يتلاعب بخبز الشعب. ثم ارتفع إلى ثلاثة قروش وثلاثين بارة، وعندما انهيت الدراسة الإعدادية، كان سعر الرغيف قد وصل إلى ستة قروش وعشر بارات.

يشرح لنا كبار السن توالي ارتفاع أسعار الخبز آنذاك، وفي الوقت نفسه يتحدثون عن رخص الأسعار. كانت مقولتهم الشعبية «عشر خبزات، عشر جبنات». أي أن أحدهم يذهب إلى البقال ويقول له: عشر خبزات، عشر جبنات فكان يعطيه بعشر بارات خبز وعشر بارات جبنة. لذلك كنا نعيش على أفضل حال، وكل شيء متوفر. الله يرحم تلك الأيام.

يستحيل على الأبناء تصديق كلام آبائهم هذا. لقد بدت هذه الكلمات للأولاد كأنها نوع من العبث أو الخداع. لأن الإنسان في ذلك الوقت، لم يستطع أن يُشبع بطنه بأقل من عشرة قروش. في تلك الأيام يشترون نصف رغيف خبز، وقطعة جبنة و٢٥٠ غ عنب بعشرة قروش، فأين الرخص؟.

من الصعب جداً تصديق كلام الأولين عندما يقولون: كانت وجبة الطعام بعشر بارات وأولادنا اليوم لا يصدقون عندما نقول لهم أن سعر وجبة طعامنا كانت بعشرة قروش.

العملة الورقية المستعملة آنذاك هي فئة «مائة بارة» لونها أرجواني، وتساوي قرشين ونصف. ورغم صغر هذه العملة الورقية، لكنها ذات قيمة شرائية لا يستهان بها.

أصغر عملة معدنية هي خمس بارات. ومع ارتفاع الأسعار

والتضخم المخيفين، لم يعد لهذه القطعة (خمس بارات) أي قيمة. وبدأ اليهود بجمع هذه القطع المعدنية من الأسواق، الأمر الذي أدَّى لفقدانها وبالتالي أصبح البيع والشراء صعباً لعدم توفر هذه العملة الصغيرة.

لا جديد في الجبهة الغربية

نوافذ غرفة صفنا تطل على البحر، وبما أن عدد الطلاب كبير، فكانت الإدارة تقوم بإبدال أماكن الصفوف من حين لآخر. انتقل صفنا إلى غرفة في نهاية الممشى، نوافذها مطلة على الحديقة، لكن الغرفة كانت مظلمة إلى حدٍّ ما.

عندما أتذكر هذه الغرفة، أتذكر مدرس الرسم السيد جواد وهو يشرح لنا لوحة لأحد مشاهير الفنانين «أريك ماريا ريمارك» المسماة «لا جديد في الجبهة الغربية». أتذكر شرحه للوحة وهو يبكي. كان المدرس جواد رساماً ماهراً ومعروفاً، أكثر رسوماته بالألوان المائية. يسكن في إحدى القرى المطلة على مضيق البوسفور. يبدو صغيراً نحيفاً سريع الكلام، يتحدث وهو يحرك جميع أعضاء جسمه دون توقف. أي أنه رجل متوتر الأعصاب مفعماً بالأحاسيس والمشاعر.

تعرَّفت على جميع المدرسين في المدرسة الحربية، وكنت أرى في المدرِّس جواد كفاءة ومعرفة ونضجاً أكثر من باقي المدرسين، ولهذا أحببته بكل مشاعري.. وحفظت له المودة والاحترام، ومازلت كذلك حتى الآن وأنا أكتب هذه المذكرات. ما أروع أمثال هؤلاء المدرسين الطيبين الذين يملكون المعرفة والرؤية الصادقة. إلى جانب ذلك يحملون في صدورهم الحب والتسامح، فهم وطنيون قوميون زرعوا الحب والوفاء للجمهورية الحديثة. فقد آمنوا بها، ويئسوا من الانقلابات التي كانت تحصل. لهذا فهم يتحدثون معنا بقلوبهم ومشاعرهم وليس بلسانهم.

الكلمات تخرج من قلوبهم وليس من أفواههم. تحرق المكان الذي تنزل فيه. كم تمنيت أن أكون مثلهم، وقد حاولت جاهداً أن أكون مثلهم. لقد جاؤوا ليؤسسوا عالماً جديداً، ليساعدوا الكبار والصغار، ويلقنوهم الحياة الجديدة. نعم هؤلاء المدرسون الطيبون كانوا السبب الرئيسي في زرع التناقض والآلام والشقاء.

بعد ذلك بدأ التناقض يسري في أعماقي.. بين وطنيتهم الحقيقية والواقع الذي نعيش فيه. حيث بدأت الصراعات التي لم تنته أبداً. وكان السيد جواد واحداً من أولئك المدرسين الناضجين المخلصين.

لم تكن دروسه مستحبة لدى جميع الطلاب. فهم (أي الطلاب) يسخرون من مدرس الرسم ولا يأبهون لدروسه. والحقيقة أن السيد جواد كان مناسباً وملائماً لكل أنواع السخرية، بحركاته، تصرفاته، سرعة إعطاء الدروس، تلعثمه، كان الطلاب يثرثرون مع بعضهم في درسه، مصدرين ضجيجاً وأصواتاً منكرة. الصياح واللامبالاة شعار درس الرسم. ومع هذا لم يستطع أحد أن يسخر من مدرس الرسم، فهو على الأقل يبذل جهوداً جبارة في مساعدتنا للاقتراب من فن الرسم وحبِّه. لكن هذا من رابع المستحيلات.

كان مدرس الرسم رجلاً بكل معنى الكلمة، تملؤه المشاعر والأحاسيس الوطنية، يظل لمدة طويلة وهو يشرح بإسهاب عن كتاب «لا جديد في الجبهة الغربية». بحيث تغرورق الدموع من عينيه كاللآلئ. الجميع يلزم الصمت عندما يتحدث عن الجبهة الغربية.

لقد تُرجم كتاب «لا جديد في الجبهة الغربية» إلى اللغة التركية بعنوان «هدوء الجبهة الغربية». وبما أن الحرب الأولى بدأت فقد أطلقوا عليها اسم الحرب العالمية الأولى. يتحدث مؤلف هذا الكتاب وهو ألماني عن هذه الحرب والمآسي التي خلفتها الخراب، الموت، ويوجه انتقاداً لاذعاً وكبيراً

للحروب ويصفها بالحقد والضغينة ونكران الشعور الإنساني.

(يجب علينا انتظار أربعين عاماً.. حتى نُشرت قصائد الشاعر «هنري باربوسا»، الذي يلعن في قصائده الحرب والقائمين عليها، وذلك أشبه ما تكون بملحمة «النار»).

الشيء المحير فعلاً، أننا كنا نتعلم الدروس الإنسانية المضادة للحروب في مدرسة عسكرية، حيث تجهزنا للقيام بالحروب.. كان مدرس الرسم يشرح لنا مشاعره، وهو يلعن الحروب، ويوصينا بقراءة هذا الكتاب: «اقرأوا هذا الكتاب يا أفندية...». عندما يتفوّه بهذه الكلمات تنهمر الدموع من عينيه. وللبكاء جوانب إيجابية رائعة في بعض الأحيان حتى للرجال.

لم أشتر الكتاب لعدم امتلاكي ثمنه، وربما لعدم وجود عادة شراء الكتب عندي. في ذلك الوقت ذهبت إلى المكتبة العامة في «بيازيد»، وطلبت هذا الكتاب، فكان الجواب أنه لم يصل بعد إلى المكتبة.

في السنوات الأخيرة أحببت الرسم، وبحافز من المدرس جواد زاد تعلقي فيه. في إحدى المرات قال لي: عندك موهبة، ولكن قبل الرسم يجب أن تكون فناناً في النقش والزخرفة.

يجب أن تقوم بأعمال النقش والزخرفة أولاً ودون توقف.. انظر (وتناول من جيب معطفه مجموعة من الأوراق الطويلة. عليها رسوم بالقلم الرصاص.. رأس إنسان بعدة أشكال واتجاهات شخص عادي.. سواعد، سيقان بأطوال مختلفة). هكذا سترسم دون توقف، حتى لو لم تملك أوراقاً للرسم. ارسم على دفتر صغير في جيبك. لا تجلس دون رسم. ارسم كل ما تشاهده، في الباخرة، في الحافلة، في البيت.. في كل مكان، ارسم من هم حولك، رجل، امرأة، طفل، ولد يلعب الكرة، البقال، المرأة... حاولت بكل طاقاتي تطبيق نصائح المدرس جواد، ولكنني لم أستطع. لقد فشلت جميع محاولاتي. انصرفت كلياً لدراسة

باقي المواد، ولم أستطع تكريس وقتي للرسم فقط. على كل حال.. لم يبق لديِّ الأمل أن أكون رساماً في المستقبل.

الرقم الإلهي

في بعض الدروس، مدرِّسون يطلقون عليهم اسم «أبو الصفر».

من بين المدرسين الذين عرفتهم وتعلمت على أيديهم، مدرس مادة الكيمياء «السيد نظام الدين» الشهير بلقب (أبو الصفر) كان مدرساً في المدارس الإعدادية، ثم انتدب للتدريس في المدرسة الحربية. يتقاضى هؤلاء المدرسون لدى ندبهم رواتب إضافية، فهؤلاء جاؤوا للتدريس اختيارياً وليس تعييناً، ولهذا فهم أكفاء، ولذا فإنني اعتبر نفسي محظوظاً، للعناية والرعاية التي لقيتها عندما انتقلت للمرحلة الثانوية.

اشتهر نظام الدين مدرس الكيمياء بسعة معرفته في مادة الكيمياء، ولكنه لم يظهر اهتمامه بها لدى تدريسها، كونه درسها في الصف السابع، أو لأنه يدرس أولاداً صغار لا اهتمام لهم بهذا الدرس، كما أنه لم يحاول إقامة حوار علمي في هذه المادة، ربما أصابه الضجر بسبب السنوات الطويلة التي قضاها في تدريس الكيمياء.

على مدى العام كله، لم يعجبني من دروس نظام الدين (أبو الصفر) إلا درساً واحداً، جذب انتباهي واستقر في ذاكرتي، لأنني وجدت هذا الدرس غريباً. لم يكن موضوع الدرس موجوداً في كتاب الكيمياء.

إذا نظرتَ إلى وجه السيد نظام، ترى حاجبيه على شكل حرف ٨ يصلان حتى الخدين وهما كثيفان جداً. كان الحاجبان يتحولان إلى ما يشبه خط الإشارة في اللغة التركية، في هذه الحال، كان وجهه يشبه قناعاً من نوع خاص.

ذات يوم، نهض عن الكرسي في الصف لشرح أحد الدروس، وقد رفع حاجبيه بقوة نحو الأعلى أي نحو جبهته. ماذا سيشرح؟ الذرة..

انفجارها، انفجار النواة، لم يكن علم الذرة معروفاً آنذاك، لكن من المعروف أن الذرة هي أصغر جزء في المادة، ولا توجد ذرات أصغر منها. بدأ نظام الدين يشرح في مجالات الذرة البروتون، النترون، الإلكترون.. حتى تحسبه أنه غائب عن العالم، وكأن الموجودين أمامه ليس نحن، بل طلاب دراسات عليا، يصغون إلى درسه ويفهمونه على أكمل وجه. يشرح لنا أيضاً أن المواد التي نراها في حالة السكون (جامدة) كالأحجار والتربة والأخشاب، ما هي إلا إحياء تتشعب الحياة في كل ذرة من ذراتها. كنا نصغي إليه مشدوهين وقد تعلقت أعيننا في فمه لنرى ولنسمع ما سيقول. ما جلب انتباهي للذرة هو قراءتي السابقة عنها. فقد ذهبت عدة مرات إلى منزل أحد أصدقائي، وكان له أخ يدرس في كلية الطب، والسنة الأولى من منهاج هذه الكلية هو دراسة الفيزياء، الكيمياء، العلوم الطبيعية، أخ صديقي يملك عدداً كبيراً من الكتب والمجلات العلمية النادرة، وكنت أتصفح هذه الكتب والمجلات خلال زيارتي له، وعندما تتوفر لديَّ الفرصة والوقت الكافيين.

أخ صديقي لديه مجلة اسمها «علم الطبيعة»، جذبت اهتمامي كثيراً، لأن العالم صالح مراد يكتب فيها بعض المقالات. وما جذب انتباهي في إحداها تلك التي يتحدث فيها عن حركة الذرة، وعملية تكبير وتصغير البروتونات. هذه العملية تساهم في تحويل بعض المعادن كالنحاس والحديد والفحم إلى معادن ثمينة كالذهب. مقالات أخرى كثيرة يتحدث معظمها عن الذرة، والقنابل الذرية.

أبو الصفر نظام الدين، يعالج الموضوع نفسه في درسه، ولم يتجاسر أحد أن يحرك ساكناً. الجميع يصغي إلى شرحه بدقة متناهية. وأعتقد أن ما يجذب انتباه الطلاب إليه، هو كثرة حركاته وانفعالاته، وليس موضوع الدرس. عندما يقرع جرس الانصراف يعود السيد نظام الدين

إلى وعيه، وكأنه عرف الوضع الذي سقط فيه. وأن انفعاله لم يكن سوى أمام أولاد صغار، ليس لديهم القدرة العقلية الكافية لاستيعاب مثل هذه الحقائق العلمية الفريدة.

كانت مقولة هذا المدرس يتناقلها المدرسون الآخرون، فهو يقول: العلامة التامة هي الخمسة، تابعة لله، العلامة أربعة هي لي، العلامة ثلاثة لمن يعرف أكثر من الآخرين. مدرس بخيل للغاية في إعطاء العلامات، ومن المستحيل أن ينال الطالب علامة تامة في الامتحانات. وربما كان اجتهادي في دروسه ناتج عن بخله في العلامات، حيث كنت مصمماً أن أحصل على العلامة التامة.

انتظرت بفارغ الصبر نتائج علامة الامتحان، لأني متأكد من حصولي على العلامة التامة. وبعد أسبوع طلب مني المدرس نظام الدين الإجابة شفهياً على أحد الأسئلة، وقال لي بالحرف الواحد: من جهتي لا أعطي العلامة التامة لأحد.. ماذا سنفعل الآن؟ فهمت من حديثه أن إجابتي على أسئلة الامتحان كانت ممتازة، وقال: بعد هذا الامتحان سأمتحنك شفهياً أيضاً.

ألقى عليَّ عدة أسئلة فأجبت على جميعها، وكان بودِّه توجيه أسئلة أخرى صعبة، لكن أسئلته لم تكن صعبة بالنسبة لي. ثم صرخ غاضباً وقد اكفهر وجهه وقال: يجب أن يقف كل واحد عند حدِّه. لا أريد أن يحصل هذا ثانية، لقد نلت العلامة الإلهية (الخاصة بالله وهي الخمسة).

عرفت أن هذه الكلمات تقول لي: عفارم عليك، لقد أخذت العلامة التامة في الكيمياء، وهي العلامة النهائية للعام الدراسي من المدرس أبو الصفر.

الشيخ البقال

قدمت إدارة المدرسة كل ما لديها من إمكانيات لتحسين أحوالنا. ورأيت

من واجبي أن أكون عند حسن ظن الإدارة بي، متلائماً مع تلك الإمكانيات.

الأطعمة التي يقدمونها لنا مناسبة وتعجبني، ورغم ذلك فإن الطعام الذي يقدم في بعض الأحيان لم يكن جيداً، فيضطر الطلاب وأنا منهم بالتوجه إلى البقالية القريبة من المدرسة.

صاحب البقالية إمام جامع، بما أن عدد المصلين قلائل جداً، لذلك فإن الإمام يقضي معظم أوقاته في البقالية. كان الطلاب يشترون خلال وجبة الظهر عندما لم تكن مرضية ومناسبة، يشترون البسطرمة والحلاوة والسجق، وأنا شخصياً كنت أشتري الدبس والطحينة.

كان الطلاب يتحرشون بالإمام ويمزحون معه، ويشاطرهم مزاحهم حتى يحصل على رضاهم ليشتروا منه. وقد وجد الإمام طريقة للدفاع بها عن نفسه، وهي أنه يقص عليهم الطرائف المضحكة، كما يتحدث معهم بلغة السباب والشتائم التي تعجبهم، شاهدت هذه الأمور تحدث يومياً وقلت: إن الضحك والسخرية سلاحان للدفاع عن النفس. والشيخ يعلم لمن يوجه الشتائم ولمن يوجه الطرائف واللطائف. نظرت إليه بدقة وهو يشتم، ويقص النكت، فوجدت من خلال ملامحه أنه يقوم بذلك من أجل سرور زبونه أمامه، وليس من أجل نفسه. وبهذه الطريقة منع الطلاب الشباب من التحرش ببناته. الطلاب ينادونه بالشيخ، ولم يكن الإمام يأبه لكلامهم بهذه الطريقة بل كان يدافع الإمام عن نفسه.

الممثل

كانت الإدارة تستخدم الطلاب الأقوياء لإيصال أوامرها وطلباتها للطلاب، ويجعلون من هؤلاء ممثلين للأقسام. لقد وضعوني ممثلاً لأحد الأقسام رغم عدم أهليتي، ولا أملك الشروط اللازمة. يجب أن يبقى الصف هادئاً لا ضجيج ولا حركة. وتأمين صف بهذه الخصوصية صعب عليَّ.

علَّمونا عند دخولنا المدرسة بعض التصرفات التي تبدو هامة: الشكوى تعبير عن الميوعة، الشاكي يشبه المرأة. في هذا الجو لم نستطع تقديم أي شكوى رغم أن الحق معنا. وأن تكون مخبراً فأنت قليل الناموس ومنحط وحقير والفتنة أشد من القتل.

هكذا يقول لنا الضباط، ومع ذلك فهم يستخدمون بعض الطلبة كمخبرين. تماماً كالأب الذي يأخذ الرشوة وينبه أولاده قائلاً إياكم وأخذ الرشوة لأنها منافية للأخلاق.

بالنسبة لي كل واحد يجب أن يأخذ حقه بيده لتلافي الشكوى. وجدت حلاً وهو عدم الوقوع في الظلم.. تصرفت بطرق.. تمنعني من الوقوع في هذا الشرك.. شرك أن يكون الحق معك، ولهذا لم أذهب إلى الضابط لتقديم الشكوى بحق زملائي المشاغبين.. وأن إسكاتهم هو من مهماتي الخاصة.

كان حفظ النظام في أوقات المطالعة المسائية صعب للغاية. وإذا حضر الضابط المسؤول ووجد الفوضى فسأكون المسؤول، وسأتعرض لتوبيخ من الضابط. لقد وجدت طريقة تمنع الضوضاء في المطالعة المسائية. كما ذكرت سابقاً، أقصّ، عليهم حكاية هربي من المنزل، فيسود الصمت، وأحياناً يطلبون مني إعادة القصة مرتين أو ثلاثة، وإذا حضر الضابط إلى الدرس، أقوم بتمثيل أنني أعطيهم درساً.

أقص عليهم هربي من المنزل، وأضيف للقصة البهارات والفلفل وأخترع أي شيء من بنات أفكاري. كانت فترة تمثيلتي قصيرة جداً، فقد تخلصت من هذه الوظيفة التي لم أحبها.. لأن هذا التمثيل ليس من شأني. الكثير من الزملاء قُتلوا بسبب ذلك. معظم الزملاء يحبون عمل الممثل لأنه طريق الطالب للنجاح.

مرة أخرى جامور شوكت

في المدرسة طالب يدعى شوكت. قد يكون من الطلاب الأقوياء أصحاب المشاكل، الاسم شوكت يطلق على كل طالب يهوى المشاكل والمشاجرات، وقد التقيت ببعض هؤلاء في السجن. وجميع الذين يحملون هذا الاسم يفتخرون بأنفسهم، ويرفعون أنوفهم اختيالاً وتجبراً.

التقيت بزميلي شوكت في مدرسة الوفاء الإعدادية، ومرة ثانية في المدرسة الحربية. في العام الذي رسبت فيه بمدرسة الوفاء كان قد نجح وسبقني، لكنه رسب في الصف الأول في المدرسة الحربية. شوكت من أعز أصدقائي، تسكن عائلته في بناء مخصص لدار الاجتهاد لصاحبها عبد الله جودت. منزله معروف بسبب اللوحة الكبيرة لدار الاجتهاد المعلقة على طول واجهة البناء.

استمرت صداقتي مع شوكت حتى في المدرسة الحربية. وفي أحد الأيام وخلال الفرصة بين الحصتين الدرسيتين، سرت برفقته وسط الممشى، وإذا بشوكت هذا يبتعد عني قليلاً، ثم يهجم وينهال على بقبضتين قويتين. حسبت أن ذلك مزاحاً، لأنه كثيراً ما تحدث هذه المزحات الثقيلة في المدرسة، أمّا تصرف شوكت لم يكن مزاحاً على الإطلاق. لكنني تقبلتها على أنها مزحة. وبما أن المزحة لا تكون من طرف واحد، فقد بادرته بضربتين قويتين. حسب شوكت أن ينتظر الرد، وإذا بنا نحن الاثنين نأخذ أوضاع ملاكمين على حلبة المصارعة. قبضة من الأمام وقبضة لحماية الوجه. وبدأ شوكت يضربني مرة بالقبضة اليسرى ويتبعها بلكمة قوية باليد اليمنى وهو يقفز ويدور حولي. هل هذه مشاجرة أم ملاكمة أم مزحة؟ لم أفهم طبيعة تصرف شوكت، والأسباب الداعية للمشاجرة غير موجودة أصلاً. ربما اعتبرها مشاجرة لسبب لا أعرفه. هذه المشاجرة كالعبث واللعب لأنها بدون سبب.

أنزلت يديَّ من وضع الملاكم رداً على تصرفه. بقي فترة في وضع الملاكم، ثم أنزل يديه بعد زمن قصير مرغماً على ذلك. كان شوكت طويل القامة بدين، لم أنسحب من المشاجرة خوفاً منه، بل لعدم معرفتي أسبابها. ولهذا قطعت علاقتي مع شوكت. أما هو فقد رسب في الصف وتخرَّج في العام التالي.

لماذا أكتب هذه الذكريات التي لا تحمل أية أهمية في مضمونها؟ طبعاً لا أهمية لها، لكنها تركت في أعماقي أثراً لا يُمحى، التقيت بعد زمن طويل بشوكت، وكان سائراً في طريق صاعد يلهث من التعب. يمشي عدة خطوات ثم يقف ليرتاح، تنفسه غير طبيعي، أصوات تنفسه الحاد كانت مسموعة لمسافة عدة أمتار لقد أصيب بالربو، لم أبادره السلام وسرت في حال سبيلي.

الفارس نظمي

السيد نظمي الذي يدعى زُبير، نقيب فارس، مدرس مادة التربية البدنية على مدى جيلين في المدرسة الحربية، كان رجلاً طويل القامة، عريض المنكبين، شعره أجعد كساه الشيب قبل أوانه.

يقول: إن رفاقه أصبحوا من صفوف القادة في الجيش.

ربما في هذا الكلام مبالغة، فقد كان السيد نظمي كبيراً قياساً لرتبته العسكرية الحالية، فيجب أن يكون عميداً أو لواء. كان يرتدي لباس الرياضة ويبدأ معنا التمارين الرياضية، الرأس عالٍ، والصدر مفتوح، وعضلات ساعديه مشدودة، يقوم ببعض الحركات على الثابت والمتوازيين يعجز عنها الجميع. أما عائلته فهي مؤلفة من زوجة وولد وبنت أصغر من عمرنا بقليل. كان يُصحب ابنه الذي يشبهه لدرجة كبيرة، بشعره الكثيف وعينيه السوداوين إلى المدرسة ويمارس معنا التمارين الرياضية.

كانت رواتب الضباط في تلك الأثناء خفيفة للغاية حتى عند تخرجنا. الجميع محرومون من كل شيء. حتى السيد نظمي كان في ضائقة مالية شديدة لضعف راتبه. أشعر بخجل لهذا الوضع السيء وأنا أكتب عن هذا الإنسان السيد نظمي. كنا نناديه زبير نظمي، لقب اشتهر به. نعم إن نظمي يعاني الفقر والحرمان مثلنا، بحيث كان يقوم بكتابة عدة نشرات عن الرياضة ويبيعها لنا. هذه النشرات أو الكتيبات أشبه بدفاتر الجيب عليها رسومات لمصطفى كمال أتاتورك. ورغم أنها سيئة الطباعة والورق فقد كانت تباع بخمسة أو عشرة قروش. يشرف ممثلوا شعب الصف على توزيع وبيع الكتيبات وجمع أثمانها وإعطائها للسيد نظمي.

أصبح السيد نظمي موضع سخرية من الطلاب، وبعض المدرسين، هو الآخر يهيئ الجو المناسب للسخرية والمزاح. وأعتقد أن هذه الليونة نابعة من حبه للأطفال. وعندما ينتقل مدرس الرياضة من الثابت إلى المتوازيين، ويقفز من حبل لآخر ومن حلقة لأخرى، أمام الأطفال كانت الأجواء تمتلئ فرحاً، وتتعالى الهتافات عاش.. عاش وتليها التصفيقات الحادة.

كان الطلاب يتوسلون إليه بأن يقص عليهم تاريخ حياته.. يوافقهم على ذلك ويبدأ بسرد قصة حياته.

في أحد الأيام الماطرة أدخلنا الصف لعدم وجود صالة رياضية في المدرسة. وشرح لنا بعض حركات الجمباز والتمارين. الكلمات التي قالها قبل سبع وأربعين عاماً بقيت عالقة في ذاكرتي. تحدَّث عن فوائد الرياضة، بالحضور إلى المدرسة سيراً على الأقدام، وكأنه تنبأ عن الضائقة المرورية في عصرنا.

كان يقول: يجب على الإنسان العصري أن يلائم نفسه وحياته مع الواقع الحضاري والتقدم العلمي. يجب أن تكون أجسامكم مثل

المعجون الطري، خفيفة مثل النابض، ومن لا يعتني بلياقة جسده ويخصُّه بالقوة والمنفعة، سوف يدوسه المارة بأقدامهم والسيارات بأطرها. أثناء شرحه الدرس، كنا نتبعه بحركاته، فنحسب أنه يسير في مكان مزدحم بالمارة والسيارات.

ـ السيارة قادمة بأقصى سرعتها نحوكم.. ماذا ستفعلون؟ ليس من مكان تهربون إليه لا إلى اليمين ولا إلى اليسار؟ عندها صنع من إصبع الإشارة والإصبع الوسطى، ساقين وقال: هكذا يقفز أستاذكم أمام السيارة فيضحك الطلاب طويلاً.

مديرنا

مديرنا هو العقيد إسماعيل حقي.. كان رجلاً عصبي المزاج، سريع الغضب، جسمه بدين، وعند الغضب تتحول وجنتاه إلى حمرة الرمان، ولهذا لقِّب بـ صاحب الرأس الأحمر. يقال أنه كان يدرس اللغة التركية قبل مجيئه لمدرستنا. يقطن مع عائلته في بناء خارج الباب الحديدي للمدرسة. علاقتنا لم تكن عادية ولا سيئة معه، لأننا لم نجتمع به أبداً، ورؤيتنا له نادرة.

بعد تفكير طويل، وصلت إلى قناعة مفادها، أن الإدارة لم تعين لنا المدرسين المتخصصين والأكفاء، يعينونهم مثل أي ضابط في قطعة عسكرية. لم يعينوهم لتدريس الطلاب في المدرسة. هذه الصفة الواضحة في عموم تصرفاتهم. وما من شك أن بينهم مدرسون أكفاء.. مثلاً مديرنا إسماعيل حقي كان رجلاً مقبولاً، ولكن أعود لذاكرتي، لا أجد فيه خصلة إيجابية واحدة، ولم أجد ذكرى واحدة تذكرني به. أتذكره فقط في أحواله العادية، وساعة غضبه، وكيف ينهال على الطلاب ضرباً وبقسوة لا متناهية.

كان في مدرستنا عدد كبير من أبناء الشهداء. والعقيد إسماعيل حقي

يعرف آباء بعضهم. وعندما يغضب من أحد هؤلاء الأولاد كان يصرخ في وجهه ويقول له: كان والدك رجلاً ممتازاً /يا جحش ابن الجحش/ لم أسمعه وهو يلفظ هذه الكلمات، لكني سمعت زملائي، يقولون: أن لديه عصا غليظة مرقمة ومعلقة على جدار الإدارة، يعاقب الطلاب بها حسب أخطائهم، حيث لكل خطأ رقم على العصا. وكل طالب يرسل في طلبه معناه أن هناك عقوبة.

قبل أيام، سرد لي أحد زملائي القدامى وقد أصبح لواء متقاعداً.. قال: عندما كان في الصف الثامن أرسل في طلبه إسماعيل حقي، عندئذ لف حول جسمه عدداً من البطانيات ثم لبس ثيابه فوقها كي لا تؤثر فيه ضربات المدير. فهو ولد يافع في الرابعة عشرة من عمره، والمسؤولون لا تطال الرحمة قلوبهم على أمثال هؤلاء. ربما كان العقيد إسماعيل حقي إنساناً جيداً، لكنه لم يكن معيناً في مكان يستطيع فيه إظهار طيبة قلبه وإنسانيته، وفي جميع الأحوال، لم يكن من المربين الصالحين.

السيد سعاد معاون المدير في مدرستنا، وكان تأثيره كبيراً في المدرسة. رجل بشوش دائماً ومثقف، يملك أرضية علمية عالية تمكنه أن يكون مدرساً ممتازاً لطلاب الصف السابع. بعد ذلك سمعت أنه ذهب إلى ألمانيا. رتبته عميد ركن متزوج من ألمانية. وما أعلمه أن زواج الضباط من الأجنبيات كان ممنوعاً، لهذا السبب أقدم على طلاقها وقدم استقالته من الجيش وتخلى عن مراتبه العسكرية الأمر الذي زاد احترامي له. أنجبت له زوجته الألمانية ولدان: الأول أصبح مهندساً في الطيران، استشهد في حادث سقوط طائرة عندما كنا في المرحلة الثانوية، لذلك فإن الابتسامة التي كانت على وجه والده سعاد قد اختفت. أما قبل ذلك، فكان يشرح الدروس جيداً، فهو على إطلاع بأصول الحديث والمناقشة، لا يغضب، ولا يشتم، ولا يضرب أحداً.

استمرت علاقتنا مع سعاد معاون المدير لأنه بقي مدرِّسنا. سمعت منه ذات يوم كلاماً أصابتني الحيرة منه، قال: إنه لم يذهب إلى الحلاق أبداً، لحلاقة ذقنه أو لقص شعره، وعندما نسأله من يقص شعرك ويحلق ذقنك يقول: أقوم بنفسي.

عندما وصل عمري إلى الخمسين، لم أذهب مطلقاً إلى الحلاق، لأنني أقص شعري بيدي مثل المعلم سعاد.

دروس علم السكان

في تلك الأيام، كان لكل مادة كتاب واحد. هذا الكتاب يُدرَّس في عموم تركيا. لم تكن دور النشر الخاصة تطبع الكتب، بل كانت الطباعة مناطة بوزارة التربية، والورق المستخدم من الطراز الأول، ولم تكن الفوضى سائدة في توزيع الكتاب المدرسي كما هي عليه اليوم.

كتاب علم السكان ضخم مطبوع بشكل لائق وأنيق. وقد أمر الباشا مصطفى كمال بتعديل الكتاب وإضافة بعض الملاحظات عليه. أما مدرِّسو هذه المادة فهم من نوعية خاصة، لهم باع طويل في إدارة البلاد. ثيابهم طريقة تفكيرهم، تصرفاتهم، أحاديثهم، كلها من نوع خاص، مصاغة بطريقة متوسطة بين الشرق والغرب، وبين العهد العثماني والجمهوري، المحلي والأجنبي. كل شيء فيهم خليط بين حضارتين وعهدين. من يرتدي اليوم لباس ذلك المدرس القديم، ويخرج به إلى السوق. الجميع ينظرون إليه باستغراب، الأطفال يسيرون خلفه يصفقون ويهتفون ويسخرون منه. هذا المدرس أضاف إلى لغته التركية لغة أجنبية بحيث يتكلم ببعض كلماتها الأولى ويطعمها بالثانية.

العطل الأسبوعية

في يوم الخميس من كل أسبوع، وبعد تناول طعام الغداء، نخرج

من المدرسة إلى منازلنا ونعود إليها مساء يوم الجمعة. من جهتي كنت أقضي غالبية العطل الأسبوعية مع زملائي الذين لا يذهبون لمنازلهم، وما يدفعني لذلك هو أنني أستطيع الدراسة في المدرسة أكثر من البيت، لأن منزلنا ضيق وصغير لا يؤمن لي الراحة ولا الجو المناسب للدراسة، إضافة لذلك أحب قضاء الوقت مع زملائي الذين أكنّ، لهم كل المودة والحب.

طبعاً لم يكن عندنا غرفة مستقلة في منزلنا حتى ولا فراش لأنام فيه، كان منزلنا يُدخل القلق والأسى في أعماقي، لذلك تغمرني السعادة عندما أبقى في المدرسة. إضافة لذلك أخرج مع زملائي إلى سفح الجبل المجاور، ونصعد إلى قمته، ومن هناك نطل على الأفق البعيد، السهول الخضراء، الخلجان الزمردية التي تعكس أشعة الشمس، نتأمل العالم. على قمة الجبل محطة للأرصاد الجوية، كانوا يسمحون لنا بالدخول إليها والتعرف على الأجهزة بداخلها، لم نكتف بالصعود للجبل بل نعبر البساتين وخاصة التي تحوي أنواع الفاكهة. نقطف ثمار السفرجل والتفاح. تبقى رحلتنا عبر الطبيعة من الصباح حتى المساء، نلهو ونلعب ونضحك، دون شعور بالجوع، ودون تناول الطعام الذي يُقدم لنا يوم الجمعة.

وبما أنني لم أقض طفولة سعيدة في حياتي، فقد عوَّضتني هذه الأيام الجميلة، حيث أعود إلى طفولتي وأشبع رغباتي في اللعب والضحك، وأشعر بسعادة لا حدود لها.

أحياناً، كانت تظهر بعض الأمراض السارية في المدرسة، فكانوا يوصدون الأبواب ولا يسمحون لأحد بالدخول والخروج، أي أننا أصبحنا في حجر صحي. ثم تأتي بعثة من وزارة الصحة، ليقدموا اللقاح بطريقة الحقن بالأبر أو التطعيم، وأحياناً يقدمون شراباً دوائياً.

استمر الحجر الصحي أكثر من أسبوعين، عندها كتبت رسالة إلى والدي حتى لا يقلق بشأني. ومع هذا حضر إلى زيارتي يوم الجمعة، لم أستطع الخروج لملاقاته، بل تحدثت إليه من خلف باب الحديد، كما يفعل المساجين. تلك هي المرة الأولى التي يحضر فيها أبي إلى زيارتي، ومن ثقته الكبيرة بي، لم يسألني عن دروسي ولا مذكراتي، وهل نجحت في الامتحان وترفعت إلى صف أعلى. كان يعرف مسبقاً أنني سأكون من الناجحين.

السيد حكمت

كان السيد حكمت عميداً ومدرساً للتاريخ. قصير القامة، مائل بأحد كتفيه، أعتقد أن هذا الميل ناجم عن مكوثه الطويل في القراءة، والكتابة، ويعتبر السيد حكمت من أفضل مدرسي مادة التاريخ حتى انتهاء المرحلة الثانوية. في تلك الفترة كان المقرر الذي ندرسه هو التاريخ الإسلامي، المدرس حكمت يشرحه بأسلوب رائع، أشعر أنني أعيش أحداثه لحظة بأخرى، ويتكلم عن أحداث جرت قبل خمسة عشر قرناً وكأنها تحدث الآن.

عندما يشرح عن عمر بن الخطاب، وأبو بكر الصديق، أشعر أنني ابن حي لهما. هذه الدروس المفضلة كانت تدرس في الجامعة. ومع هذا دونتُ كل ما يقوله السيد حكمت على دفاتري التي بلغ عددها سبعة دفاتر، وجميعها من التاريخ الإسلامي.

كنت أصغي بكل جوارحي لشرح السيد حكمت، لكن الامتحانات تبقى صعبة بالنسبة لي، ولم أحصل على العلامة خمسة إلا بشق النفس وبصعوبة بالغة. أعتقد أن سبب ذلك هو ضعف ذاكرتي، ورغم دراستي المتواصلة، تبقى ذاكرتي هي السبب. لم أستطع حفظ دروسي غيباً، وخاصة في الدروس التي تتطلب حفظاً. وبعد سنوات توصلت إلى نتيجة أن ذاكراتي لم تكن هي السبب.

للسيد حكمت طريقة وأسلوباً رائعين، في شرح الدرس. يدخل في أدق التفاصيل والأحداث التاريخية، يسردها مثل حكاية مشوقة للغاية. أصغيت طويلاً إلى شرحه، بانتباه وشوق شديدين. وبسرعة فائقة، كنت أنسى ما سمعته وقرأته. حتى النسيان لعب دوراً كبيراً في ضعف ذاكرتي ووضعت دروس التاريخ في مصاف الدروس الصعبة. أخيراً لم يشرح لنا السيد حكمت الأسباب المؤدية إلى بعض الأحداث في التاريخ الإسلامي. يبقى ذلك لتقديرنا وتحليلنا في المستقبل.

الإنكليزية

أتذكر الآن اسم السيد عاطف مدرس اللغة الإنكليزية، لكنني لا أتذكر شيئا عن شخصيته. الجملة الوحيدة التي ظلت عالقة في رأسي، إنهم ينادونه «مستر عاطف».

كانت لدي رغبة قوية في تعلم اللغة الإنكليزية وغيرها من اللغات الأجنبية... حاولت جاهداً طوال حياتي المدرسية، دراسة اللغات والاجتهاد بها لكنني لم أنجح.

لم نتعلم اللغة الإنكليزية كما يجب. في الكلية الحربية زميلين فقط من أصل الألف أتقنا اللغة الإنكليزية لكنهما لم يكونا ناجحين في باقي المواد. إن سبب نجاحهما في تعلم الإنكليزية، أنهما يملكان مميزات وخصائص تعلمها.. لقد توصلت إلى قناعة شخصية حول عدم إتقان اللغة الأجنبية. فالوسائل المتبعة في تعليم اللغة عندنا غير منتجة، فيجب أن يجدوا طريقة مناسبة في هذا المجال. الذين تعلموا الإنكليزية هم الذين يملكون المؤهلات والإمكانيات الخاصة. وأعتقد أن باستطاعة هؤلاء تعلم اللغة دون الذهاب للمدارس.

حلمت كثيراً بأنني سأتعلم الإنكليزية ذات يوم. بدأت بتسجيل الملاحظات على دفتري في ساعات المطالعة الصباحية والمسائية. طبعاً لم

أنجح في هذا المجال، ومع ذلك وجدت طريقة لنفسي أستطيع فهمها وهي: أن أسجل الملاحظات باللغة الإنكليزية، وعندما تمر كلمة لا أعرفها، أسجلها باللغة التركية. وبما أن هذه الملاحظات مضحكة وغير نافعة، فلم أظهرها لزملائي حتى لا يسخروا مني.

تربية الشخصية

بين حين وآخر، كنت أقع فريسة لبعض الأحاسيس والأوهام الغامضة. لم يكن لها من سبب ظاهر. فقد اعتقدت أن سببها ما هو إلا نوعاً من الفوقية على زملائي. هذه الأحاسيس الغامضة، كانت تنتابني في فترات معينة تجعلني أعيش في عزلة على مدى أسبوعين وثلاثة عن زملائي. والبقاء وحيداً أكتب الشعر المنثور. أتذكر أنني بقيت وحيداً في الصف رغم أن زملائي ذهبوا للمهجع إلى النوم.

أتذكر أيضاً أنني في ليلة عاصفة، وقفت خلف النافذة أراقب البروق والرعود، وأصغي إلى أصوات العواصف الهوجاء. في تلك الليلة جادت مخيلتي بعدة أبيات من الشعر والخواطر، كتبتها في تلك المرحلة. لكنني أتلفتها عند انتقالي إلى الكلية الحربية، بعدما لاحظت أنها سخيفة لا تساوي شيئاً.

قرأت مجموعات كثيرة من الكتب في جميع المواضيع، دون اختيار، لعدم توفر حرية الاختيار. أقرأ كل كتاب يقع تحت يدي. أحد هذه الكتب يتحدث عن تربية الشخصية وتقوية الإرادة. حاولت جاهداً منذ نعومة أظفاري تقوية إرادتي. لقد وقعت تحت تأثير هذا الكتاب. ومن النصائح التي أوردها الكتاب.. الالتزام بالصمت وعدم الثرثرة. حاولت الصوم عن الكلام لتقوى إرادتي، جرَّبت ذلك، بقيت أكثر من أسبوعين عدا العطلة الأسبوعية دون التحدث مع زملائي بكلمة واحدة.. ولم أظهر لهم ذلك لا من

قريب ولا من بعيد. لكن عدم الإفصاح عن ذلك كان أصعب من التحدث إليهم.

تركت الصيام عن الكلام لتعرضي لضغط نفسي من زملائي. لو استمر صيامي فترة أخرى لقالوا عني: أنني مختلٌ عقلياً، وأصبحت مجنوناً، وسأقع فريسة لسخريتهم، ولن أستطيع التخلص منهم بعد ذلك. وهذا معناه أنني سقطت في مستنقع من الأوحال لن يستطيع أحد انتشالي منه.

المطمورة

في الأعوام السابقة كانت المصارف والبنوك تقوم بفتح حسابات التوفير للمبالغ الصغيرة، ولكن في الأعوام التالية بدأت المصارف والبنوك تستقبل المبالغ الكبيرة.

الجميع يطبقون مقولة «قطرة قطرة تصنع بحيرة»، أي أن المبالغ الصغيرة تُجمع في المصارف وتتحول إلى بحيرات من النقود. لقد أوجدت المصارف القديمة مطمورات صغيرة توضع فيها النقود القليلة، وهي وعاء على شكل صحن تُجمع فيه النقود التي سترفد البنوك. أعتقد أن أول مصرف استخدم المطمورة هو «بنك العمل». دعاية المطمورة نشرت في جميع وسائل الإعلان. الصحف، المجلات، لوحات الإعلان الجدراية.

أعتقد بأنني سأصبح غنياً إذا ما وفرت المال بهذه الطريقة، واعتقدت أيضاً، أن جميع أغنياء العالم، أصبحوا أغنياء بهذه الطريقة. وأوصوا أن جمع المال لا يتم بكثرة العمل بل بقلة المصروف. هذا الاعتقاد ظلَّ سائداً سنوات طويلة، يعني أنه باستطاعة الإنسان أن يكون غنياً بواسطة التوفير.

مصرف آخر يدعى «بنك استنبول للحرفيين» فقد أوجد هذا المصرف

نوعاً من المطمورات التوفيرية. وزَّع منها مطمورات معدنية مغلَّفة بجلد ملون، ولكنها أصغر من التي وزعها بنك العمل. وهكذا بدت مطمورات الحرفيين جميلة وأنيقة ومطلوبة أكثر من غيرها.

يقع مصرف الحرفيين في زقاق ضيق في إحدى أزقة استنبول، وحوله البنايات المتلاصقة. ويشغل المصرف الطابق الأول لإحدى هذه البنايات.

وفرت بعض النقود، ورغبت في شراء مطمورة. في أحد أيام العطل المدرسية توجهت إلى مصرف الحرفيين وأخذت مطمورة مغلفة بالجلد بلون سماوي، وفتحت حساباً باسمي وأخذوا توقيعي. أردت أن يكون توقيعي جميلاً، ولهذا مارست توقيعي بكثرة على دفاتري في الصف وفي أوقات فراغي. رغبت أن يكون توقيعي نظامياً ومختلفاً عن الآخرين، وتوصلت في النهاية إلى توقيع رسمته بحروف متقطعة وحادة M. NISNET هذا التوقيع يشبه إلى حدٍّ ما الأحرف الصينية.

اعتمدت هذا التوقيع في المصرف، وهو أول توقيع باسمي أضعه على ورقة رسمية. لقد جذب هذا التوقيع انتباه الموظف المسؤول، حيث نادى سائر الموظفين وأطلعهم على التوقيع، فشرعوا بالضحك لسبب أجهله. هل جاء ضحكهم للسخرية بي أم اعجبوا به لوجود قاعدة فنية له. شعرت هنا ببعض الغرور وشيء من الخجل. أخذت محفظة المصرف والمطمورة وخرجت من هناك.

كان والدي يعطيني خمسين قرشاً أسبوعياً، وفي بعض الأسابيع ليرة كاملة. ندفع منها للحافلة أربعين بارة (قرش واحد). درجة ثالثة، ومائة بارة للدرجة الأولى وخمسين للدرجة الثانية. وكنا ننتظر على المواقف ساعات لركوب حافلة الدرجة الثانية. حافلة الدرجة الأولى مطلية بالأحمر والدرجة الثانية باللون الأخضر.

كانت المدرسة تعطينا مصروفاً شهرياً ستين قرشاً، ولم نقبض هذا المبلغ كاملاً بل يقتطعون منه النصف تقريباً. ونقبض مبلغاً صافياً حوالي أربعين قرشاً. وكم تكون فرحتنا عظيمة عندما نستلم هذا المبلغ.

كان ابن السيد سليم يعطيني في كل زيارة لمنزلهم ليرتين تقريباً. ولذلك ثابرت على زيارتهم شهرياً. لم أفرِّط في هذه الدراهم، بل أوفر معظمها وأضعه في المطمورة، وبهذا كانت تراودني أحلام السعادة، وأحسب نفسي أنني سأصبح من أصحاب رؤوس الأموال. ملأت المطمورة وحملتها بفرح إلى المصرف وأودعتها هناك ومن شدة فرحي عزمت على ملئها ثانية.

لقد جعلت طريقي من جانب المصرف الذي أودعت فيه دراهمي، أنظر إليه وأبتسم وأقول في داخلي: هذا مصرفي كم هو جميل ورائع. وفي أحد الأيام وأثناء مروري كالعادة من حارة مصرفي، وإذ بالمصرف غير موجود. صُدمت.. هل هو مغلق؟ سألت هنا وهناك ولم أجد جواباً. الكل يقول لا نعلم أين هو.

عدت إلى المدرسة والكآبة تغمر قلبي، والقلق يملأ جوارحي! أين أصبح المصرف، أين دراهمي؟ بعد مدة من الزمن علمت أن المصرف أصبح على حافة الإفلاس.. تساءلت؟ كيف يقوم المصرف بتوزيع مطمورات ملونة جميلة ويقع في شرك الإفلاس؟ جمال المطمورة وحده بمثابة ثقة للمصرف. هذا ما يتراءى لي. في أحد الأيام أثناء مروري من جانب المصرف، شاهدت ملصقاً على باب المصرف مكتوب بالآلة الكاتبة ما محتواه: أنه استناداً إلى القانون التجاري رقم ... وتاريخ، وإلى القوانين الناظمة لعمل المصارف... وتنفيذاً لقرار المحكمة رقم... تاريخ... واستناداً إلى المادة... وتصفية الحساب... كلام من هذا

القبيل... من جميع هذه الكتابات لم أستطع أن أفهم سوى ما يلي:

يجب على المودعين الذهاب إلى المكان الفلاني ولمدة يومين في الأسبوع لاسترداد ودائعهم.

ذهبت إلى ذلك المكان: فإذا به دكان صغير، وفي داخله عدة أشخاص وأمامهم سجلات ضخمة. قدمت لأحدهم دفتر حساب توفيري والمطمورة، وبعد عدة كتابات أعطوني ورقة كتبت عليها أرقام كثيرة. نظرت إلى وجه الموظف المتردد وكأنه يقول لي: ماذا تريد لقد أفلس المصرف، وحضرتك أتيت إلينا لاستلام مبلغ تافه. هل من المعقول ما تفعله معنا؟ هذا ما قرأته في وجه الموظف. بعد ذلك شعرت بخجل شديد.

قالوا أنهم سيعيدون دراهم المودعين حسب الأرقام التي وزعوها علينا كل حسب دوره. حضرت عدة مرات إلى هذا الدكان، ولم يأت دوري. وفي أحد الأيام وجدت أن الدكان مغلق. هكذا أفلس مصرف الحرفيين. وقلت: كم كان حظي قليلاً بإفلاس المصرف.

حتى لو أفلس المصرف. هناك المئات من المصارف، لن أتراجع بسهولة عن قراري الذي اتخذته... يعني أنني سأكون غنياً شاؤوا أم أبوا. توجهت على الفور إلى بنك العمل واشتريت مطمورة من ذلك المصرف.

حتى لحظة الانفجار

لو لم يذكر زميل دراستي محمد حسن الحادثة، لنسيت موت علي كلياً. هذه الذكرى مازالت مخبأة في زاوية من زوايا ذاكرتي.

علي، ولد ذو وجه سمين مثل حبة البطاطا، وجسمه منفوخ مثل كيس التبن، وأنفه أفطس وكأنه تلقى عليه اللكمات. فهو يشبه إلى حدٍ ما مصارعي «بهلوان السمّون». ولد قبيح، ولكنه طيب القلب، محبوب، قليل الحركة... رسب في المدرسة العسكرية، إنه ولد فقير بدلالة أنه

يعمل بمصروفه. عندما يخرج من المدرسة أيام العطل الأسبوعية، يحضر علبة الشوكولاته، ويداعب الأولاد باليانصيب مما يؤمن به مصروفه الأسبوعي.

كنا نجلس على المقاعد بأعداد ثنائية، لكل طالب درجه الخاص، بعض الطلبة يزينون دروجهم ومقاعدهم بألوان زاهية وطريفة. وخاصة أنهم كانوا يلصقون الصور الملونة على الواجهة الأمامية للمقاعد.

كانت السرقات تحصل بكثرة، لهذا وضع كل طالب قفلاً على درجه. أحياناً يعمل بعض الطلاب على انتزاع وفتح الأقفال الصغيرة والضعيفة. لهذا أولينا مسألة الأمن أهمية كبرى. إضافة للأقفال كنا نضع حلقات فيها براغي نعلقها على الواجهة الأمامية، ومن الداخل كنا نضع قطعة حديد صغيرة نعلق بها الحلقة وهكذا يكون لدينا قفل سري بحيث لا يستطيع أحد فتحه.

من جهتي لم أضع قفلاً صغيراً ولا قفلاً سرياً، بل وضعت قفلاً قوياً رخيصاً. بعض الزملاء يبيعون قطع الشكولاته التي يربحونها من القمار بأسعار زهيدة، أحد زملائي ويدعى جاويد كان يبيع علبة الشوكولاته عدة مرات. درجه ومقعده مزينان بكل ألوان الطيف. وضع لدرجه قفلاً قوياً إضافة إلى القفل السري. يجمع أموالاً من لعب القمار، واستطاع أن يصل إلى توفير مبلغ خمسين ليرة قطعة واحدة وضعها في درجه. هذا المبلغ يبدو مرتفعاً فهو يعادل راتب ملازم أول. لقد سُرق المبلغ من درج زميلي، ولا أحد يستطيع سرقته سوى من يعرف مكان القفل السري. ويقال أن زميلاً آخر اسمه نوري وهو من المدمنين على المخدرات يعرف مكان القفل السري. بدأ زميلي جاويد بمراقبة نوري بشكل سري. استمرت هذه المراقبة أربعة أيام متتالية، وفي النهاية قبض عليه بالجرم المشهود وهو يسرق فئة الخمسين ليرة من أحد المتاجر.

حصل شجار عنيف بين الاثنين واستطاع جاويد في النهاية استرداد نقوده.

لم يكن علي البدين من الأولاد الطامعين الذين يشترون ألواح الشوكولاته من زملائه بسعر رخيص، يلجأ إلى حفظ علبة الشوكولاته في درجه، ويضع عليه قفلاً عادياً. لم يكن يوفر النقود، ولم يصرف النقود التي يربحها. تراهن علي وسليم وهو طالب رسب في إحدى المدارس الحربية، إذا كان باستطاعة علي أكل كامل ما في علبة الشوكولاته مقابل أن يدفع سليم قيمتها. كان هذا الرهان فرحة مناسبة لعلي لا تعوَّض.

فالشوكولاته التي لم يستطع أكلها من لعب القمار، سيشبع بطنه منها الآن. وإذا ربح الرهان فسيكون ربحه مضاعفاً، فهو سيبيع الشوكولاته وسيأكلها بعد أن يبيعها.

تجمع الطلبة الفضوليون حول علي، بحيث فتح العلبة ووضعها أمامه. العلبة تتسع إلى خمسين قطعة، شرع بإخراجها من أوراقها الحمراء، وبدأ يأكلها وهو يعد: واحد... اثنان... ثلاثة... في البداية بدأ الأكل بنهم، ثم تراجع. عشرون... واحد وعشرون.. خمس وعشرون.. ثم توقف وطلب كأس ماء ليشرب: أجابه سليم ما في شرب. والدي يستطيع أكلها إذا شرب الماء. أجاب علي لم يكن عدم شرب الماء وارداً في الرهان. على كل حال تابع... ثلاثون.. واحد وثلاثون... أربعون... خمسون. أدخل علي القطعة الأخيرة وكأنه يُدخل حجراً في فمه. لم أعد أتذكر هل أخذ علي ثمن علبة الشوكولاته أم لا. لكن ما أعلمه أن وجهه أصبح أحمر ثم أزرق وغاب عن وعيه، ثم نقلوه إلى المشفى العسكري ولم نعد نرى ذلك الوجه أبداً.

لقد مات علي في المشفى العسكري من جراء أكل علبة الشوكولاته

حتى الانفجار. يقول الطلاب عن ذلك المستشفى كما كان يقال عن الجنود الأتراك في اليمن إنها مقبرة الأناضول. لذلك من يدخل المستشفى لن يعود سالماً.

زملائي في المدرسة يخافون كثيراً من مشفى حيدر باشا العسكري، أما أنا فقد أمضيت فترة دراستي كلها دون أن أذهب ولو لمرة واحدة إلى ذلك المشفى. لم يكن لي أية علاقة مع الأطباء أو الممرضين ولا مع الأمراض والأدوية. مرضت مرة واحدة وقضيت يوماً في المستوصف المدرسي. وعلى مدى سنوات طويلة لم أصب بالمرض ولم أذهب إلى الطبيب.

الانتقال إلى الثانوية

لم أكن أعرف ضريبة الطرق، لكنني عرفت من خلال الصحف أن على كل قروي يدفع ست ليرات ضريبة سنوياً. ومن لا يستطيع دفع الضريبة، كانت الجندرمة تحضر للقرية وتأخذ المتخلفين للعمل في الطرق لمدة ثلاثة أيام بدلاً عن الضريبة. هذا الظلم الذي لحق بالمساكين المغلوبين على أمرهم أيقظ في داخلي مشاعر الحقد والتمرد على القوانين القديمة.

كنت سعيداً في المدرسة، أملك الثياب الجديدة، الكتب، الدفاتر، الطعام الجيد، الدفء في فصل الشتاء، أعلم أن سعادتي هذه جاءت بفضل عرق هؤلاء المساكين الذين يدفعون سنوياً ست ليرات ضريبة. يطعمونني الطعام الذي لا يستطيعون الحصول عليه. شعرت باشمئزاز تجاه الحكومة التي احترمتُها وقدرتُها ذات مرة. وبسبب هذا التذمر التحقت بالكلية الحربية. وأنا في الصف التاسع كنت مديناً لشعبي، لأولئك المساكين الضعفاء، كنت أعرف ماهية هذا الدين الذي أحمله تجاههم. لقد أصبحت طالباً في الثانوية بشخصية أخرى جديدة.

سرقة المطمورة

وضعت المطمورة التي اشتريتها من بنك العمل في درج مقعدي. وكنت أضيف إليها النقود التي أوفرها أسبوعياً. لقد أوشكت أن تمتلئ، فحضَّرت نفسي لآخذها إلى البنك بعد أسبوع.

في صباح أحد الأيام خرجت من المهجع متوجهاً إلى الصف فوقع نظري فجأة على القفل مكسوراً، فتحت الغطاء.. فلم أجد المطمورة، توجهت فوراً إلى مكتب الضابط المناوب /أحمد/ الواقع في نهاية الممشى وهو برتبة نقيب. وأعلمته بسرقة مطمورتي، ردَّ عليَّ النقيب بعصبية وغضب، ووبخني لأنني لم أضع المطمورة في مكتبه.

لم أستطع استعادة النقود التي وفرتها سابقاً من بنك العمل الذي أعلن إفلاسه وهاهي المطمورة الثانية التي اشتريتها من بنك العمل قد سرقت أيضاً وهي مملوءة بالنقود.

لقد شدَّت عملية السرقة هذه من عزيمتي، وزادت إصراري على شراء مطمورة ثالثة.. يجب أن أصبح غنياً بأي شكل وطريقة.. يجب أن أدّخر النقود وأنال شرف الثراء. لم أعد أتذكر الآن من أي بنك اشتريت المطمورة الثالثة. ربما من بنك العمل أو من البنك الزراعي. هذه المرة وضعت المطمورة الثالثة في غرفة النقيب /أحمد/ ولدى عودتي من كل إجازة كنت أدخل مكتبه وأضع بعض النقود فيها لقد أضحت مطمورتي في مكان آمن جداً، لا يستطيع أحدٌ سرقتها.

بعد فترة قصيرة عثر زملائي على مطمورتي الثانية المسروقة ملقاة على جانب الممشى المظلم، وقد كسر قفلها وأفرغت من النقود.

هناك حديقة داخلية ما بين الحديقة الوسطى والصفوف.. وتطل عليها النوافذ المفتوحة دائماً، بدءاً من الطابق الأول للمدرسة.. هذه النوافذ

دون زجاج يستطيع أي إنسان الدخول منها إلى صفوف المدرسة عن طريق الممشى المظلم.

الطلاب الشاذون وحدهم يدخلون إلى هذا الممشى المظلم، لقد عثروا على مطمورتي المكسورة في إحدى زوايا الممر. بما أنني أضعت مطمورتين فقد أصابني نوع من الإصرار والعناد الأحمق.. كنت أصرف القليل وأدخر الكثير من النقود التي أستلمها من أبي ومن المدرسة. وأضعها في المطمورة الكائنة في خزانة النقيب /أحمد/. شعرت برغبة جامحة في ملء مطمورتي بسرعة جنونية في يوم واحد.. لأودعها البنك وبذلك يكون لديّ حساب خاص.

لقد امتلأت الثالثة إلى أكثر من نصفها تقريباً.. وكما هي العادة وبعد عودتي من إجازة العطلة الأسبوعية. ذهبت إلى غرفة النقيب /أحمد/ ولم يكن موجوداً آنذاك.. وكما أفعل في كل مرة.. فتحت الخزانة والنقود في يدي.. المطمورة غير موجودة في مكانها؟

ظننت أن النقيب /أحمد/ وضعها في مكان آخر. فانتظرت عودته، وعندما جاء، سألته عن مطمورتي وسرعان ما زجرني بغضب وكأنني المذنب.. نعم.. كان يتهمني بشكل غير مباشر.. وكأني أخذت المطمورة.. والآن أحاول اتهامه بسؤالي.. أين ذهبت مطمورتي. لم يقل لي هذه الكلمات بصراحة.. ولكن نبرة كلامه، توحي بذلك، لم أتفوّه بكلمة واحدة.. والآن أصبحت متهماً بكل معنى الكلمة.

كان يصرخ في وجهي: «من يستطيع أن يدخل إلى هنا ويأخذ مطمورتك، لا يستطيع أحد دخول غرفتي، والذين يدخلونها أنا أثق بهم».

خرجت من غرفته دون أن أنطق بكلمة واحدة.

بعد مدة سأفهم لماذا يحاول النقيب وضعي في قفص الاتهام.. كان

عرفاء الصفوف ورؤساؤهم، يدخلون غرفته، حتى أن بعضهم كان يشغل غرفته وكأنها له، ومهما تكن النتيجة، فقد اتخذت قراراً قطعياً بسلوك طريق الثروة رغم الخسائر المتتالية والهزائم المتتابعة.. التي تحاول نسف قراري لهذا.. اشتريت مطمورة رابعة.

فكرت أن أكتب حوادث المطمورات على شكل قصص قصيرة. ولكن لو كتبتها لن يقتنع أحد بصحتها، ولن يصدقني القرّاء.. بما أنني لم استطع الاحتفاظ بثلاث مطمورات، فمن العبث المحافظة على الرابعة. إذا صدقوا بسرعة سرقة ثلاث، فسرقة الرابعة لن يكون فيها درهم من الصدق، طبعاً معهم الحق.. في عدم تصديقهم.. نعم.. لقد سرقت مطمورتي الرابعة أيضاً أما كيف؟ هناك مستودع في الطابق الأول من المدرسة.. توضع فيه محافظ وأمتعة الطلبة.. الباب الخارجي يظل مقفل دائماً، ويفتح مرتين في الأسبوع يدخله الطلاب جماعات ويضع فيه كل من لديه محافظ وأمتعة، وبما أنني لا أملك محفظة، أو غرض آخر، فقد وضعت مطمورتي داخل محفظة أحد زملائي. كنا في الصف الثامن.. ودخلت المستودع مع زميلي.. وعندما فتح زميلي المحفظة فلم يجد المطمورة في داخلها.

إياكم أن تعتقدوا أنني تراجعت عن فكرتي التي كنت مصرّاً على تحقيقها وهي.. الثراء من الإدخار والتوفير.. اشتريت المطمورة الخامسة. ولكن لم أستطع الاحتفاظ بها أيضاً مع النقود التي فيها. عندما يأتي دورها سأقص لكم ما جرى لها.

نعاج العوس

لم أكن أحب منزلنا الكائن في حي /قرة باش/.. القريب من /مولانا قابي/ لأنني لا أملك فيه شيئاً. ولهذا السبب لم أحتفظ بالمطمورة في البيت.. لشعوري أنه ليس بيتي. أحببت فناءه، حديقته، بئره، أزهاره،

أشجاره، أكثر من داخله.. أحببت الحيوانات كثيراً وطلبت من أبي شراء بعض النعاج.. لأني عزمت على العناية بها لأبقى على مقربة من منزلنا.

يقام في المنطقة أسبوع لبيع الحيوانات، يدعى سوق الخيل، كانت تباع في ذلك السوق الطيور الداجنة، وحيوانات النقل والنعاج. ذهبت مع أبي إلى السوق فاشترى لي نعجتين.. من صنف العوس. تلك تسمية هذا النوع المشهور بكثرة حليبه، أكثر من باقي الأصناف. لكنها بحاجة إلى رعاية وعناية دائمة.. لا ترسل مع الرعاة بل تبقى دائماً في الظل، يحضرون لها الأعشاب الخضراء وفي الشتاء.. تعيش داخل الحظيرة.

أحضرنا النعجتين إلى المنزل.. بعد أن جرى تلقيحهما، ولدى حلول العطلة الصيفية.. أنجبت النعجتان خرافاً صغيرة.. وهكذا أصبح لدينا خروفين ونعجتين.

صداقة طويلة

في إحدى العطل الأسبوعية التقيت زميلاً لا أعرفه سوى بالشكل. كان يدرس معي في إعدادية داود باشا في الصف السادس. وبما أنه كان يدرس في القسم الفرنسي، فإننا نعرف بعضنا بالملامح فقط، دون الانخراط بعلاقة الزمالة أو الصداقة، حتى إنني لم أتعرف على اسمه.. ولكنه كان ودوداً ورائعاً بكل معنى الكلمة ومحبوباً من قبل الجميع. ومع هذا استمرت صداقتي معه على مدى سنوات طويلة. بعد هذه المقابلة القصيرة وإذا كان هنالك من رابطة لهذه الصداقة فنعود للاتصال الهاتفي، بيننا مرة أو مرتين في العام، وهي نابعة من فراق السنوات الطويلة، وشروط حياتنا القاسية. اسمه /محمد حلمي/، أباه وأمه ينادیانه بـ (محمد). أما زملاؤه فينادونه بـ حلمي.

كان حلمي ولداً رائعاً بكل معنى الكلمة.. ودوداً.. ومحباً.. وصديقاً وفياً على الدوام. يملك رغبة كبيرة في أن يصبح ضابطاً. لم أر أحداً

سواه حتى من ضمن الزملاء الضباط.. يحب هذا السلك مثله. وأعتقد أنه لو صار ضابطاً لكان من خيرة ضباط هذا البلد. كان حبه لهذا السلك.. نابع من حبه للزي الذي يرتديه الضباط. ومن حبه المتطرف للحياة النظامية ونتيجة حبه اللباس الرسمي للضباط، فقد وقعت بسببه في مواقف حرجة وصعبة للغاية.. عندما يحين الموعد لهذا.. سأقص الحادثة بالتفصيل.. كنت أقضي أياماً في منزله ضيفاً. وذات ليلة كنت نائماً عنده، نهضت من فراشي، فلم أجد لباسي العسكري، كان حلمي يستيقظ قبلي.. فيرتدي لباسي العسكري ويخرج من البيت، دون أن يراه أحد من أهله.. فأضطر للبقاء عندهم لغاية عودته خائفاً. لأنه لو قبضوا عليه بلباسي سوف يطردونني من المدرسة. وكان يعود إلى المنزل.. في ساعة متأخرة من الليل. لم أرغب بإزعاج حلمي أو أدعه يزعل مني، بسبب طيب قلبه وكرم أهله، اعرف أنه يحبني كثيراً، نحن أصدقاء لدرجة كبيرة، هناك مقولة معبِّرة لسكان المدن: «الماء الذي نشربه فقط يذهب إلى معدتين مختلفتين». أما أبناء القرى والبلدات فيقولون: «صداقة حتى الروح»، هكذا توصف صداقتنا.

رغم حبي الشديد لحلمي أن يكون ضابطاً.. فإن الفرص لم تسمح له بذلك، لأنه ترك الدراسة بعد الصف السادس في مدرسة داود باشا الإعدادية. بدأ يعمل لدى شخص يقوم بتركيب وصناعة الأسنان.. لم يكن مجتهداً في دروسه أبداً، وبالرغم من ذكائه ومهارته فقد اعتقدت بأنه لا يحب الدراسة، لكنه كان ماهراً جداً في الأعمال اليدوية.. يعمل لدى أحد أطباء الأسنان في شيخ «زادة باشي» حيث تقع عيادته في نهاية الشارع. تدخلها عبر باب ضيق، مكونة من ثلاث غرف، وصالون واسع.. وعلى الجدار الخارجي لوحة كتب عليها «عمر بلال ـ طبيب أسنان» وكتابة أخرى بالفرنسية (Dentiste). كان الطبيب عمر بلال

طبيباً مسناً ضعيفاً. ونادراً ما يحضر لعيادته أما ابنه زكي بلال فهو طبيب أسنان أيضاً يثابر على العمل في العيادة، شاب زكي بدينٌ تساقط شعر رأسه مبكراً. وكان لباسه جميلاً وأنيقاً إلى حدٍ كبير.. أما زوجته فكانت بدينة ومكوَّرة ومتأنقة في ثيابها قياساً بنساء عصرها.

كان حلمي يعمل في تلك العيادة.. وقولي يعمل هناك.. أكون قد ظلمته.. فهو القائم بكل أعمال العيادة حتى عمليات الترميم والتبديل.. كانت إحدى الغرف مخصصة لهذا النوع من العمليات.. التي يقوم بها حلمي جعلني أعجب به أكثر، لأنني شخصياً أعجز عن القيام بمثل هذه الأعمال. أحسّ بالدهشة والحيرة.. عندما يتبادر إلى ذهني السؤال: أين وكيف تعلم حلمي هذه الأعمال. حلمي الفاشل في دراسته والمدهش في عمله.. يقوم بكل عمليات الإصلاح والترميم وبعض الأحيان يحشو أسنان بعض المرضى.. ويغلفها بالذهب أو البلاتين أو بأي معدن رخيص آخر. ويداوي الأسنان على طريقته حيث لم تكن الآلات التي تعمل بالكهرباء قد وُجدت. كان أطباء الأسنان ينزعون عصب السن بآلة يديرونها بأيديهم أو بأرجلهم.. كما تعمل الدراجة الهوائية. أطلقوا عليها اسم المخرطة.. كنت أصاب بالدهشة والعجب عندما أرى حلمي ينتشل أعصاب الأسنان ويملؤها بالأدوية وبأشياء أخرى.. إنها مهارة فائقة يصعب عليَّ تنفيذها.

لدى حلمي رغبة شديدة ليكون لباسه، ومستواه وتصرفاته أكبر من عمره، كثيراً ما يقول لي: هذه الكلمات: «هؤلاء من أتباع /خالد شادي/ ويقال أن هذا الشخص واحد من المؤسسين الأوائل لطب الأسنان في تركيا».

كان حلمي يربح الأموال الطائلة من عمله هذا، وكما قلت سابقاً، يحب الظهور بأنه رجل هام ومرموق من لباسه.. لقد أطلق شاربه وهو

في ذلك العمر.. يرتدي معطفاً أبيض، ويضع على رأسه قبعة بيضاء أشبه بالعصبة، وينتعل حذاء خفيفاً أو خفّاً كان موضة العصر آنذاك.. بعضهم يطلق على هذا الحذاء بالفرنسية /مون شير/ ومعناه يا عزيزي.. كما يطلق اسم (مون شير) على الذين ينتعلون مانع الغبار فوق أحذيتهم. هذا المانع ينتعل من طرفي الحذاء ويربط بواسطة أزرار.. المغزى من انتعال هذا النوع من الأحذية هو منع دخول الغبار والوحل إلى الحذاء.. ولكنه لا يستخدم إلا للزينة فقط. كان لدى حلمي مانعين للغبار بلونين مختلفين.

من الناحية الحياتية.. مستواه أعلى مني بكثير.. أما صديقاته فكثيراً ما يقص عليَّ غرامياته مع الفتيات.. أستمع إليه وكأنه يقص عليَّ حلماً.

تربية السراي

كان حلمي الابن الأكبر للشيخ حيدر وهو شيخ التكية الموجودة في /قره بابا/، هذه التكية تقع في /جينبرلي تاش/ والشارع الذي تقع فيه يسمى أيضاً شارع /قره بابا/.. ولسبب ما وبفضل الجمهورية الانقلابية تحول اسم هذا الشارع إلى اسم /دونم/ (أي منعطف).

السيد حيدر هو آخر شيخ للتكية.. ويقضي العرف آنذاك بالسماح للشيخ وأولاده من بعده السكن في دار التكية. ولكن بعد قيام الجمهورية، وإغلاق جميع الزوايا والتكيات حُرِّم على الأولاد من السكن فيها.

كانت العائلة مكونة من أربعة أفراد.. الأكبر حلمي والأصغر أحمد.. ووالدهما السيد حيدر ووالدتهما من أصل شركسي.. وكنيتهم /قره بابا/ كانت التكية قد أخذت اسمها من مؤسسها الشيخ قره بابا.. وكانت والدتهما تطلب مني أن أناديها: يا أمي. من جهتي كنت أتمنى النطق بهذه الكلمة لكنه من الصعب أن أقولها.

بدأت بقضاء أكثر ليالي العطل الأسبوعية في منزلهم، وأحسب

نفسي كواحد من أفراد أسرتهم.. الأب والأم يظهران الحب، يتقرّبان مني، يثقان بي وحبهما لي نابع من طلبهما الملح بأن أكون صديقاً لولدهم فهم يثقون بصداقتي، لأن حلمي لم يكن ذلك الصديق الهادئ، بل ولداً يمارس تصرفات غير مقبولة، وعندما أكون معه كنت أمنعه بالإقلاع من تصرفاته المتطرفة.. فهو يحبني ويمتثل لإرادتي ورغبتي.

كانت تكية قره بابا مكونة من حرملك.. وسلاملك (الاستقبال) العائلة تسكن في قسم الحرملك الكائن في الطابق الثاني، أما قسم (السلاملك) فكانت مكونة من غرفتين.. وصالة كبيرة للحفلات والبناء مكون من طابق واحد.. أما غرفة الاستقبال أو السلاملك.. فكانت غير مستعملة تستطيع الدخول إلى الحرملك من باب الشارع الرئيسي ومن ثمّ السير نحو ساحة مرصوفة بالحجارة حيث مقام أو مرقد الشيخ /قره بابا/ مؤسس التكية.. ومراقد شيوخ آخرون.. وعندما تجتاز الساحة.. تدخل المنزل.. يعني أن مراقد بقية المقامات كانوا يعدُّون من أهل البيت.. رغم أنهم غير موجودين معهم أصلاً.. فهم مشتركون مع أهل الدار بصمتهم الدائم. فالموجودون تحت التراب كانوا يؤثرون على الموجودين فوقه بصمتهم المطبق الدائم.. في الطابق الأول.. مطبخ واسع جداً.. يستعمل كغرفة للطعام.. في الطابق الثاني.. أربع غرف وصالون.. الغرفة الوسطى.. خاصة بالسيد حلمي.. كنت أنام معه في تلك الغرفة وفي سرير واحد.

يقال إن السيد حيدر كان يعمل رئيساً لمؤذني السلطان عبد الحميد. صوته ناعم.. عميق.. ومحروق ومؤثر.. الموسيقيون والمتدينون وقراء الموالد يحضرون إلى السيد حيدر ويأخذون دروساً في أصول القراءة الدينية.. سمعت صوته عدة مرات ويقال إنه كان يعمل في السابق محاسباً في مركز الدين العام.

وله دور وفضل كبيرين في تهريب وتأمين الأسلحة إلى الأناضول أثناء حرب الاستقلال.. وعمل كمسؤول كبير في مديرية اللوازم العامة التابعة للدولة.. وعندما تعرفت عليه كان يعمل محاسباً في سوق السمك.

للسيد حيدر ذقن خفيفة الشعر.. وكان الكماليون آنذاك يعتبرون أصحاب الذقون متخلفين ورجعيين.. مع إن السيد حيدر لم يكن في يوم من الأيام رجعياً.. وتربية ذقنه ليس لأنه رجعي، أو لأنه شيخ.. بل لإصابته بمرض جلدي، وهذه الذقن الخفيفة لتغطية المرض.

كان يضع على رقبته قماشاً ناعماً خفيفاً.. عندما طلبت منه الدائرة التي يعمل فيها حَلْقَ ذقنه رفض الطلب وقدَّم استقالته.

لقد تحول هذا المرض الجلدي بعد عامين إلى مرض خبيث تسبب في وفاته.. كانت زوجته (هانم السراي).. أماً طيبة بكل معنى الكلمة.. تحب ولديها بشكل غير عادي، وتضحي من أجلهما، لم أنس حادثة سردتها لي، توضح فيها مدى التربية الحسنة.

والقصة: أن هذه الفتاة الشركسية قبل زواجها سجنت منذ نعومة أظفارها في إحدى السرايا.. كما تسجن الطيور في الأقفاص.. وعندما أضحت شابة قالوا لها: إنهم سيزوجونها لشيخ شاب وهو شيخ إحدى التكيات.. فهي لم تر في حياتها شيخاً.. ولا تعرف ما هي التكيات.. ولم تسمع عنها شيئاً، بل كانت تسمع عن الشيوخ قصصاً أسطورية.. وهم: (أي الشيوخ) بالنسبة لها مخلوقات مقدسة.. فوق الإنسان.. إنهم كالملائكة.. لا يشربون ولا يأكلون ولا يخرجون إلى المرحاض.

تزوجت من السيد حيدر.. وفي اليوم التالي لزواجها.. شعرت بإحباط شديد.. ودهشة عندما ترى السيد حيدر يتجأشأ.. فالملائكة بالنسبة لها لا تتجأشأ والشيوخ أيضاً لا يتجشؤون.. لم تصدق ما رأته

وما سمعته. ولكن السيد حيدر جعلها تصدق.. وذلك بعملية إخراج الغازات من معدته ولعدة مرات متتالية.. عندها ساور الشك قلب العروس الشابة، يا ترى هل تمَّ زواجها من إنسان لا يمت للشيوخ بصلة، مدَّعياً إنه شيخ.

كانت تلك الأم الطيبة تسرد قصتها على مسامعي وهي تضحك.

الخيبة الكبرى

في صباح أحد الأيام سمعت أن شيئاً ما غير عادي حصل في المدرسة. قالوا إنه ألقي القبض على النقيب أحمد واحتجز في إحدى غرف دار الأيتام الكائنة في الحديقة الخارجية. أصبنا جميعاً بالدهشة والحيرة وتوزعت الهمسات بين الطلاب. لم يستطع أحد تخمين ما جرى وما هي أسباب توقيف النقيب أحمد.

يتكون الصف السابع من تسع شعب.. ولكل شعبة عريف ونائبه.. وقد ألقي القبض على بعض العرفاء ونوابهم مع بعض الطلبة. لن أتحدث عن تفاصيل هذه الحادثة المُرَّة والمريرة. ولكنها أصابتني بخيبة أمل وإحباط مدى حياتي، حادثة لا يصدقها العقل أبداً. من كان يصدق أن ذلك الضابط الاستبدادي والذي يخشاه ألف طالب على مستوى أعمارهم كلها.. القبضاي والمسكين والعاقل والمجنون، الموثوق به، استطاع أن يخبئ شذوذه الجنسي على مدى سنوات طويلة.. وشغل مهمة ضابط أمن المدرسة العسكرية الكبيرة كلها.

طالب اسمه /باكير/ يدرس في الصف السابع في شعبة اللغة الألمانية. وأظن أنه يسكن في حي /الفاتح/ وهو ابن لضابط متقاعد.. كان ولداً نحيفاً.. أسمر اللون.. لم يكن يحمل في شخصيته وسامة الرجال ولا جمال الأنوثة.. يقال إن النقيب أحمد حاول امتحان باكير وفق معطيات تفكيره.. واقترح عليه عدة مسائل حول الجنس واللواطة، ولكن بشكل

غير مباشر حيث طلب من باكير ممارسة اللواط مع أحمد. لكن باكير فهم كلام أحمد من الناحية العكسية، وكان باكير محقاً في تفكيره.. لأنه من الصعب جداً أن يكون هذا الضابط المستبد.. الديكتاتور. شاذ جنسياً.. عندما ذهب باكير إلى بيته في العطلة الأسبوعية.. قص لوالده الضابط المتقاعد ما جرى بينه وبين النقيب أحمد كما فهمه هو. فما كان من والد باكير إلا أن ذهب إلى المدرسة وقصّ على الإدارة ما سمعه من ابنه.. بعدها مباشرة.. تم تفتيش بيت النقيب وغرفته في المدرسة.. فوجدوا دلائل وإثباتات بخط يده.. تدينه بشكل مباشر. ما هي تلك الوثائق والأدلة التي وجدوها؟ كان النقيب يكتب في يومياته كل شاردة وواردة حصلت معه.. دفاتر ملأى بالأسماء والأرقام والصفات والتاريخ واليوم.. لم يتكتَّم على شيء.. يوميات امتلأت بها الدفاتر.. عندها ألقي القبض عليه وعلى كل الأسماء المذكورة في اليوميات.

كتابة المذكرات واليوميات ضرورة من ضروريات الإنسان.. ولكن كيف تكون هذه اليومية واضحة وضوح الشمس.. والإنسان يستر هذه العيوب حتى عن نفسه.. فكيف بالأحرى أن يكتبها للآخرين.. ربما هذا تصرف خاص ليعرف نفسه على أكمل وجه. أو يريد توضيح نفسه للآخرين كما يحلو له. أو كما يعترف المسيحيون للكاهن عن ذنوبهم.. كتابة المذكرات أو اليوميات ربما هي مداواة الإنسان لنفسه بنفسه.

رأيت أناساً آخرين أوقعوا أنفسهم في مآزق ومواقف صعبة جداً بكتابة يومياتهم.. بعض الطلبة يشترون دفاتر المذكرات.. ويكتبون عليها يومياتهم مع أن الوضع في المدارس العسكرية يمنع كتابة المذكرات لأي كان.. لأنه في أية لحظة يدخل أحد الضباط إلى الصف أو المهجع ويفتش دروجنا وخزائننا بكل حرية.. وكثيراً ما تمّ طرد العديد من الطلاب نتيجة الإطلاع على دفاتر يومياتهم.

بدأ النقيب أحمد بكتابة يومياته منذ أيام الثانوية شرح اشتراكه في الحرب العالمية الأولى وهو شاب صغير، وقاتل على الجبهة الشرقية. وكيف أن وحدته حاربت بقوة وخسرت الكثير من أفرادها.. وأنه ولأول مرة يشرب الخمر بعد تلك الحرب الطاحنة. ويقال أنه جرت قراءة يوميات النقيب أحمد داخل المحكمة العسكرية أثناء محاكمته. لو أن الأمر لي لنشرت تلك اليوميات.. وأعتقد أن الشباب والإداريين يستنتجون العبر والدروس من هذه اليوميات.

لم نر النقيب أحمد بعد ذلك في مدرستنا.. حتى الطلبة الذين تم إلقاء القبض عليهم معه.. لم يعودوا إلى المدرسة. فقد طردوا منها.

بعد هذه الحادثة فهمت سبب غضبه مني عندما قلت له إن مطمورتي سرقت. كان يعرف أن أحد الطلبة الذين يدخلون إلى غرفته.. قام بسرقتها، ولكنه تكتم على الأمر. بعد ذلك بسنين صادفت النقيب أحمد عدة مرات في استانبول وهو يلبس اللباس المدني.. وقد تراءى لي أن وشاحاً من الحزن يحيط به.. لم يتناقص احترامي له، ولكن عندما تحدثت معه اتخذت موقف الحذر وشعرت بالاضطراب.. وبعد أن افترق عنه.. أغضب على نفسي وعلى موقفي الضعيف الذي وقعت فيه. كان يلبس الثياب الأنيقة حتى في حياته المدنية. ويحمل محفظة في يده سمعت أنه يعمل كاتباً عند أحد المحامين.. بعد سنوات علمت أن المحامي الذي يعمل عنده هو /حسين أولاش/. ثم انتقل للعمل كمقاول ليرفع بعض الشيء من دخله.. رُزق بثلاثة أولاد.. لم يبارحوا تفكيري، فقد أشفقت عليهم ورثيت لحالهم.

هذه الحياة الدرامية والمريرة التي عاشها هذا الرجل.. لا توجد إلا في القصص والروايات.. وأتمنى أن يكون القراء والأعزاء قد فهموا أن ما كتبته وصرحتُ به لا يعد شيئاً إذا قيس بالأحداث التي لم أكتبها.

البارودة الأولى

انتهى العام الدراسي ولكن النتائج لم تظهر بعد. أي أننا لم نستلم محصلة علاماتنا.

لقد ابتدأت فترة المعسكرات التي تمتد خمسة عشرة يوماً.. ومحصلة العلامات ستوزع في نهاية المعسكر.. كنا نقضي فترة المعسكر في المدرسة.. وقد أعطوا لكل واحد منا بارودة.. وأخذوا تواقيعنا على سجل تضم رقمها ونوعها.

مستودع الأسلحة كائن في الطابق الأرضي من المدرسة.. بعد طعام الإفطار نستلم أسلحتنا وعتادنا ونخرج إلى الساحة للتفتيش الصباحي. في ذلك العام وزعوا علينا قصعة من البلاستيك ولم يزودونا بالجعبة التي تُحمل على الظهر، ورغم نجاحي في حياتي القصيرة. وبسجلي النظيف ومهارتي الشخصية. فإنني لم أحب حمل البارودة بأي شكل من الأشكال.. لم أعرف في طفولتي أنني لا أحب البارودة.. ولكن أدركت السبب بعد وقت طويل وتفكير عميق. من ضمن العتاد الذي وزع علينا القبعة حسب قياس الرأس والحذاء المطابق لقياس القدم وكذلك الثياب، ولكن الذين يحملون البارودة لم يكونوا بطول واحد. هناك من هو بطول مائة وثمانون سنتمتراً وآخر بطول مائة سنتمتر. كان حامل البارودة الجلدي يحدد حسب أطوالنا.. ولكن لا يمكن تبديل طول البارودة.. من جهتي كنت قصير القامة.. وبقيت هكذا.. وعندما كنت أحمل البارودة على كتفي.. فإن قبضتها تصل حتى ركبتي.. وعندما تتدلى على يميني تبدو وكأنها ساقٌ ثالثة بالنسبة لي. ولم تكن البارودة وحدها فقط بل هناك حقيبة الظهر، وكيس الخبز والجعبة والمطرة إلى جانب مقص الحديد لقطع الأسلاك المنظار والمحفظة لحفظ الخرائط.. والمنكوش والمعول، عندما نجري كنت أختفي وسط

ارتال الطلاب وتمنيت أن أرى نفسي من مكان بعيد وأضحك على وضعي. أصوات الأمتعة المحمولة أشبه بضجيج أقدام الحيوانات الهاربة من الاصطبل. ومنذ العام الدراسي الأول من المدرسة الحربية.. وزعوا علينا كمامات واقية للغازات السامة..وعندما كنا نلبسها نشعر مع حمولة باقي العتاد نوعاً من القهر الخفي، وأظن أن عدم حبي للبارودة نابع من قصر قامتي.

لقد تعلمنا خلال فترة المعسكر طرق فك وتركيب البارودة، والنظام المنضم، والجري عبر الطبيعة على قمم الجبال ونتلقى الدروس هناك. لقد علمونا أن البارودة هي ناموس وشرف العسكري. يحظر تركها في أي مكان، أو الاستيلاء عليها من قبل العدو.

البورسي (نسبة إلى بورسة)

حزنت جداً لإرسال نهاد إلى الفوج المقاتل. لرسوبه في صفه، عامين متتاليين. لقد جاء من مدرسة بورصة العسكرية إلى الصف السابع، قامته أقصر من قامتي، أشقر اللون، عيناه زرقاوان صغيرتان، صدأ دائم في أطراف عينيه، مصاب بداء رجفان الجنون، يملك قوة الجبابرة بالقياس إلى طول قامته.. عضلاته قاسية جداً.. كان ولداً قبيحاً وعنيداً. بعيد كلياً عن النظافة.. تصدر عنه رائحة كريهة. بسبب السيلان الدائم في أذنه والأوساخ المتراكمة في داخلها وخارجها. يتراءى للناظر إليه أنه ولد صغير لكنه يكبرني بعامين أو ثلاثة.. عمره بين الخامسة عشر والسادسة عشر.. يحلق ذقنه يومياً لقد تعلمت منه طريقة سن موسى الحلاقة بشحذه على كأس من الزجاج، يظل يشحذ موسه ويحلق ذقنه على مدى ستة أشهر كاملة وأحياناً لسنة واحدة. لم أعرف شيئاً عن عائلته.. هل كان وحيداً مقطوعاً من شجرة بلا عائلة؟ أم أن عائلته فقيرة حيث لا أحد يرسل له النقود. وهل أحضر معه بعضاً منها عندما جاء من بورصة؟

كان شرهاً في التدخين، عزيز النفس عصامي، لم يكن يطلب من أحدٍ شيئاً أو يقبل من الآخرين أي شيء.

وسبب حبي له ناتج عن حادثة جرت بيننا. ثقتي بنفس وبمعرفتي لا يطالهما الشك، فأنا أحصل دائماً على العلامة الكاملة في مواد الدراسة.. وأنال الاحترام والتقدير من المدرسين.. ونتيجة ثقتي وإعجابي بنفسي.. كنت أرى زملائي أطفالاً مبتدئين من الناحية العلمية. ومن المستحيل وجود واحد منهم يوازي درجتي العلمية وأن ما أعرفه لا يعرفه زملائي وما يعرفونه.. أعرفه أكثر منهم. نعم.. لم أكن أنانياً.ز ولكنني معجب بذاتي.

كنا نقرأ انعكاس الضوء وانكساره والمرايا المستوية والمحدبة والمقعرة.. في مادة الفيزياء، فأنا الوحيد الذي فهمت درس آلة التصوير وظهور الصورة معكوسة عبر العدسة، ظننت أن هذه العملية تشبه إلى حد كبير نقطة تجمع الضوء وتشكيله المحرق، ولهذا حدث نقاش حاد بيني وبين نهاد البورصلي، وأظهر خطأ معرفتي في هذه العملية. قلت: هذا الولد رسب عاماً في صفه وهو غير مجتهد في عامه الحالي.. فكيف له أن يظهر أخطائي. لم يكن نهاد البورصلي من الطلبة الذين يُغلبون بسهولة في النقاش. فاقترح على الفور أن نقوم بتجربة، ذكرت له: أن العدسة الزجاجية غير متوفرة، فقال إنه يستطيع أن يصنع واحدة منها. الوقت بعد الحصة السادسة فتش عن زجاجة مكسورة وسط الحديقة الداخلية وذهبنا معاً إلى الحديقة الوسطى.. وبدأ بتدليك الزجاجة على الرمال الرطبة أو المبللة بالماء. ثم أثبت كيف تتحول الأشكال معكوسة عبر هذه الزجاجة. كان وجه نهاد الأشقر قد صار أحمراً وهو يحك الزجاجة على الرمل. سألته من أين حصلت على هذه المعلومات؟ أجاب أنه عندما كان يدرس في مدرسة بورصة.. كان يصغي جيداً إلى شرح مدرس مادة الفيزياء.

لقد أعطاني نهاد البورصلي درساً لا أستطيع أن أنساه طول حياتي. كل واحد لديه موهبة يتفوق فيها على الآخرين، هناك أشياء ومعلومات كثيرة لا أعرفها.. ولكن هناك آخرون يعرفونها.

بعد هذه الحادثة كبر نهاد في عيني كثيراً، وأصابتني الحيرة وقلت: لماذا لا يكون هذا الولد ناجحاً ومجتهداً في دروسه؟ هل لأنه كان يدرس كثيراً؟ لقد شكى لي مراراً من عدم استيعابه الدروس ويقول: «إذا أرسلوني إلى الفوج.. هذا معناه أنني انتهيت.. فنيت». بعد تلك الحادثة رأيت أن من واجبي التقرب من نهاد ومساعدته في الدروس وإعطائه دفتر الملاحظات التي كنت أسجلها في كل درس. ومع هذا فشل في دروسه ورسب في الصف. وهذا هو سبب حزني لإرساله إلى الخدمة الميدانية.

عراة أمام الفرقة الموسيقية العسكرية

انتهت فترة المعسكر ووزعوا علينا سجل علاماتنا.. كانت أرقام علامات الفصلين مسجلة عليها.. علاماتي جميعها تامة في المذاكرات والامتحانات لم يحصل أحد غيري على العلامات التامة في جميع شعب الصف السابع لذلك تقدم السيد سعاد معاون مدير المدرسة وهنأني لتفوقي الدراسي.

ابتدأت العطلة الصيفية الكبيرة وتوجه الجميع إلى بيوتهم في المناطق النائية وبقي في المدرسة بعض الطلبة الذين لا عائلات لهم ولا منازل، عددهم يربوا على الخمسة عشر طالباً.

لم أكن أرغب بالذهاب إلى البيت.. وإذا ما ذهبت فماذا سأفعل هناك؟ لا أملك غرفة، ولا خزانة، ولا طاولة لأضع فيها أمتعتي وأغراضي، غرفة صغيرة جداً.. أقضي فيها كل أوقاتي من طعام ونوم وقراءة، واستقبال الضيوف. شعرت بالانزعاج يملأ جوارحي، عندما

سأذهب إلى منزلنا ويحضر الضيوف، سأضطر للاستماع إليهم ولهذا فإن سعادتي هي البقاء في المدرسة.. هناك نكون أحراراً، لا أحد يتحرش بنا. الطعام لم يكن دسماً بالشكل المطلوب ولكنه منوَّع وبكميات لا بأس بها. ولم يكن أحد يسألنا عن سبب بقائنا في المدرسة. كل صباح نتسلق الجبال والسفوح حتى المساء، نقطف الأزهار والورود من جانب المرصد، والأشجار المثمرة.. عقدنا صداقة متينة مع أصحاب حديقة جميلة. الطبيعة كلها كانت بمثابة حديقة لنا.. ومضيق الفوسفور حوضاً لا نهائياً لحديقتنا هذه وخاصة البحر الهادئ الجميل.

كانت أحذيتنا قد أصابها الاهتراء من كثرة الجري بين الصخور والأماكن الوعرة وضرب الأحجار الصغيرة على أنها كرات.

في الصيف لم نكن نلبس الجوارب، وغالبية الزملاء يميلون إلى ارتداء البنطال القصير الواسع.. وموضة ذلك العصر هي: أن يكون البنطال ضيقاً من الأعلى وواسعاً من الأسفل ليقترب من شكل الجناحين عند المشي ويصدران صوتاً عند ارتطامهما بالساقين.

تنفيذ هذه العملية، ضرب جناحي البنطال على الطرفين بالتناوب بحاجة إلى مهارة وخبرة، كان الزملاء يضعون فوق ألبستهم الداخلية ما يشبه الخنجر حتى يُوسعوا أطراف بناطيلهم.. يطلق على هذه القطعة اسم /قاما/ وهي من نفس قماش البنطال ولكن على شكل مثلث. لم أكن أبالي آنذاك بالموضة أو بالموديل، ولذلك لم أضع تلك القطع فوق ألبستي الداخلية.

في صباح أحد الأيام وكعادتنا تناولنا فطورنا على أكمل وجه. وتسلقنا الجبال.. ونزلنا من سفوح المرصد إلى البحر، شاهدنا بعض الأماكن محروقة في تلك المناطق وجدران القصور القديمة ما زالت موجودة.. وكما العادة.. خلعنا ثيابنا وألقينا بأنفسنا إلى البحر. نسبح ونقضي أوقاتاً جميلة داخل تلك المياه الشفافة والبراقة ودوامتها القاسية.

الوقت منتصف شهر حزيران، طلبة /ثانوية كوللي/ مازالوا في المعسكر.. أما معسكرنا فقد انتهى. بينما معسكرهم يستمر شهراً كاملاً.. وكما هو المعروف كان طلاب الثانوية.. يخرجون من المعسكر كل صباح يتدربون على الأسلحة والنظام المنضم في البرية، وبما أنه لدى الثانوية فرقة نحاسية.. فكان الطلاب يسيرون بخطواتهم على وقع موسيقى هذه الفرقة التي تسير أمامهم.

في الوقت الذي كنا نلهو فيه ونلعب ونصرخ ونحن نسبح في البحر. وصل إلى أسماعنا صوت الفرقة النحاسية /الباندو/ أصبنا بالخوف وشعرنا بالإحراج والحيرة.. وفكرنا في أي مكان نستر فيه أنفسنا. لأن الضباط المرافقين للطلبة كانوا يسيرون قرب ألبستنا العسكرية التي خلعناها على الشاطئ، ولم نستطع العودة ونرتدي ثيابنا ونختفي.. صوت الفرقة النحاسية يقترب باضطراد هناك نقيب ظالم في ثانوية كوللي.. يسمى النقيب /زلفي/.. ليقض الله على اسمه وشكله. لو وقعنا في يده.. معناه احترقنا على أكمل وجه. ألقى هذا النقيب الذعر في قلوب الفتية، فقد صرخ أحدهم: «زلفي قادم» شعرنا بأن زلزالاً أصاب السماء والأرض.

ونحن في دوامة الذعر والحيرة والاضطراب.. لا ندري ماذا نفعل هل نسبح إلى إحدى الأطراف. أَم نواصل السباحة نحو عمق البحر؟ وإذ بنا نسمع أمراً عسكرياً:

ـ الكتيبة وقوف..

وقفت الكتيبة فوق الجرف الصخري، وهدأت أصوات الفرقة النحاسية.

صرخ النقيب عمر لطفي وهو من ضباط الثانوية بأعلى صوته موجهاً أمره لنا:

ـ اخرجوا من البحر بسرعة.

لم يكن عندنا المتسع من الوقت، حتى نتشاور فيما بيننا.. وبما أنه لا رجوع إلى الشاطئ ثانية.. فقد بدأنا بالسباحة نحو الشاطئ المقابل.

كنا نسمع من خلفنا صراخ النقيب عمر لطفي وهو يقول:

ـ ارجعوا.. ارجعوا

تابعنا السباحة بقوة ولكن صوته ما زال يسبح خلفنا يضرب مسامعنا ويطلب عودتنا إلى الشاطئ ونحن نرتعد من الخوف والهلع. ولم نقدِّر فيما إذا كنا نستطيع الوصول إلى الشاطئ المقابل أم لا!.. بكل تأكيد لا نستطيع! حتى لو وصلنا إلى هناك، ماذا سنفعل ونحن سبعة أولاد عراة تابعنا السباحة دون تفكير بما سيحصل. استنفذت جميع طاقاتي، وتقطعت أنفاسي، كل ذلك حتى لا نقع في يدي النقيب عمر لطفي.

وقفت للحظة ونظرت نحو الخلف، فإذا بالبعض يعودون. كرَّر النقيب عمر لطفي صراخه واضعاً يديه على فمه بما يشبه البوق ويقول:

ـ عودوا إلى الشاطئ بسرعة.. وإلا سآخذ ثيابكم وأعود بها.. هيا ارجعوا.

الواضح أنه هو الأخر قد أحس ببعض الخوف لأن سبعة أولاد لا تزيد أعمارهم عن ١٤ ـ ١٥ عاماً أصبحوا في وضع الخطر. تراءى لنا أن النقيب سيعود مع جنوده بعد أن ابتعدنا عن الشاطئ، ولكنه لم يتركنا في حال سبيلنا.

اضطرنا هذا الموقف للعودة إلى الشاطئ ونحن في موقف ضعيف جسدياً ونفسياً، والنقيب عمر لطفي يقف كالعمود فوق الجرف الصخري.. همس لي أحد الزملاء.

ـ آه.. لو شاهد القاما.. الموجودة قرب البنطال.. في الوقت الذي كنا نحاول ارتداء ثيابنا وإذا بالنقيب عمر لطفي يصرخ من الأعلى:

- احملوا ثيابكم تحت إبطكم وتعالوا إلى هنا كما أنتم.

بدا صوته ناعماً.. حملنا ثيابنا الخارجية والداخلية وأحذيتنا على شكل صرَّة وصعدنا نحوه.. وضعنا النقيب عمر لطفي أمام الفرقة النحاسية.

ثم أعطى إيعازاً لطلبة الثانوية:

- استعد.. الكتيبة إلى الأمام سر:

بدأت الفرقة النحاسية بالعزف.. وجنود الكتيبة يسيرون على وقعها وأمامهم مجموعة من الأولاد المبللة أجسادهم بالماء، ومن الخلف الفرقة النحاسية ومن خلفنا طلبة ثانوية كوللي.

كنا نمشي بنظام واضعين خطواتنا على إيقاع الفرقة.

همس أحدنا:

- إذا تركونا نمشي عراة هكذا حتى «جنكل كوي» فستكون المصيبة الكبرى.

لنرى ماذا سيحل بنا عندما نصل إلى المدرسة.

وصلنا أمام مدرسة كوللي. ودخل الطلبة مع الفرقة وعندها أمرنا النقيب عمر لطفي قائلاً:

- هيا ارتدوا ثيابكم.

سمعنا أن عقوبة قاسية ستفرض علينا، ونقلنا إلى الثانوية. وزاد خوفنا من وضعنا هناك، لكن النقيب لم يفعلها.. بل أعطانا بعض الإنذارات والتوجيهات.

بعد ذلك صرنا ننزل البحر من مكان لا يمر فيه أحد من المشاة.

بدأ عدد الطلبة الباقين في المدرسة يتقلص يوماً بعد آخر.. من جهتي فقد ذهبت إلى البيت. أمضي أيامي في العمل بالمزرعة. أصبح عندنا ست نعاج.. في كل صباح كنت أسير أمامها وأخرج بها خارج أسوار المزرعة. ومنها إلى حديقة المشفى اليوناني.. كانت تلك الأماكن خالية

في ذلك الوقت من السكان والحديقة ملائ بالأعشاب كنت أترك الأغنام ترعى وأجلس تحت شجرة كثيفة الظل أقرأ كتاباً.

وعندما أحس بالجوع أتناول رغيف الخبز الملفوف بورق الجرائد.

أحياناً كنت أذهب إلى المكتبة العامة الكائنة في بيازيد. وأظل هناك طول النهار أقرأ الكتب. ومن أهم التسليات التي مارستها خلال العطلة هي.. ذهابي إلى البحر في سماطيا.

سيرك بني عمَّار

لم أعلم بحضور سيرك إلى استنبول ذات يوم.. ولم أسمع من الآخرين أيضاً بشيء من هذا القبيل، أول سيرك رأيته في حياتي هو سيرك بني عمار.

في إحدى حارات استانبول تقوم أرض منبسطة واسعة وفارغة في حي «والماغ»، وإلى جانب تلك الساحة ثكنة عسكرية. كانت تستخدم هذه الساحة مركزاً لتدريب الجنود ولذلك أطلقوا عليها اسم تعليم خانة.. لم يكن في تلك الساحة غرفةً أو بيتاً أو عمارة واحدة. وإلى جانب كونها تعليم خانة فهي موقع لجمع الفضلات.. كان سيرك بني عمار قد أقيم في تلك الأرض الواسعة.. ومن كثرة الدعايات والإعلانات تعرف سكان استنبول على هذا السيرك.. وتناوب على حراسته رعاة بقر كثيرون حيث نصبت الأسلاك الشائكة حول السرك، والحواجز العالية.

يقول بعض الناس أن الكلاب والقطط المتشردة الكثيرة الموجودة التي كانت تجوب شوارع استانبول وأزقتها. بدأت تتناقص باستمرار لأن من كان يأتي بقطين أو كلب واحد.. يدخل السيرك مجاناً.. هذه القطط والكلاب تقدّم للسيرك لتكون طعاماً للأسود والنمور.

أنا شخصياً رأيت أناساً وهم يحملون القطط داخل سلال. أيقنت على

الفور أنها مأخوذة إلى السيرك. وهكذا يكون سيرك بني عمار قد جلب الصخب إلى جو استانبول الهادئ واستمر عرضها فيها أكثر من شهرين.

الخجل الدائم

هل يحصل معكم وتحسون بالخجل بين وقت وآخر من جراء تصرف مخجل عندما كنتم أطفال.. هذا ما يحصل معي دائماً بمناسبة أو غير مناسبة.

عندما أتذكر حادثة مخجلة قمت بها في حياتي الطفولية أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني.. أترك الخجل جانباً.. هذه الحادثة تحرك أعصابي ومشاعري منذ خمسة وأربعين عاماً، وهي خاصة بأبي:

كان أبي يبيع الحاصلات الزراعية التي يزرعها في الأرض التي استأجرها ليعيش من مردودها. وأحياناً يشتري الخضار ويبيعها باستخدام الحمار الذي اسمه «جلبي»، حيث ينتقل به بين الأحياء القريبة من منزلنا.

هذا العمل لوالدي كان يؤرقني، ويكاد يقضي عليَّ، فهو لا يليق بشخصيته ومكانته، باستطاعته القيام بأعمال أخرى أكثر دخلاً ومردوداً وكرامة. فهو يمتلك الموهبة والعلم والمعرفة لكن للضرورة أحكام. لم يستطع أن يجد عملاً غير هذا العمل الذي كان يقدم لنا الحياة والطعام والستر، وخاصة أننا كنا نمر بظروف اقتصادية قاهرة وصعبة جداً. لم يكن أبي يبيع إنتاجه من الخضراوات التي يشتريها وينقلها على جلبي.. في الشوارع أو الأسواق، بل يأخذها إلى منازل معارفه أو محلاتهم.. يجلس عندهم يرتشف الشاي والقهوة ويتناقش معهم ويبيع خضراواته أيضاً.

قضيت يومين أو ثلاثة أيام في منزل صديقي الحميم حلمي.. خلال تلك العطلة الطويلة.. وبما أنني أصبحت قريباً من هذه العائلة فكان عليَّ أن أعطي لهم صورة عامة عن عائلتي.. شئت أم أبيت ولهذا السبب

كذبت عليهم كذبة كبيرة عندما سألني السيد حيدر عن شخصية أبي وهويته وعمله.. أجبته فوراً ودون تفكير.. أبي شقيق السيد ناجي. شيخ التكية الذي عمل والدي في مزرعته مدة من الزمن.. وعلى الأغلب كان السيد حيدر يعرف السيد ناجي جيداً.

كانت عائلة «قرة بابا» تقوم بسياحة يوم الجمعة وهو يوم العطلة الرسمية الأسبوعية.. إلى بعض الأماكن ومنها الجزيرة فأخذوني معهم.. وبما أن حلمي يعمل في صناعة الأسنان فكان مردوده أو دخله كبيراً ومصروفه أكبر.. وكان حلمي يقدمني إلى أصدقائه خلال السياحات التي نقوم بها، وأمه تجهز قبل يوم واحد مجموعة كبيرة من الأطعمة مثل المحاشي والفطائر ولحم الدجاج المشوي والمقلي.. وتضع هذا الطعام داخل السلال، كما يأخذون معهم ما يلزمهم لطهي الطعام وغيره، مثل زيت الزيتون والصابون والمناشف. في أحد أيام العطل تقرَّر زيارة مقام / سنبل/ الواقع خارج مولانا قابي.. وهي زيارة دينية، ومكاناً للنزهة. الطريق إلى سنبل يمر خارج أسوار أحد التكيات الواقعة إلى جانب الطريق. وكان شيخ هذه التكية صديقاً حميماً للسيد حيدر.. وكما علمت فأن شيخ هذه التكية، كان مثقفاً وعالماً، ناضج العقل والفكر والمنطق. وعندما عرفوني بأنني ابن أخ السيد ناجي.. بدأ يحقق معي قائلاً: أنا ما أعرفه أن ليس للسيد ناجي أخ لا أصغر منه ولا أكبر لو انشقت الأرض وابتلعتني لكان أفضل لي. وكما يقال في كل زمان ومكان: «لا يوجد أصح من الكذبة». لم أكن أتوقع أن كذبة صغيرة ستؤدي إلى كذبات أكبر.. ربما عرفوا الحقيقة من تصرفاتي المخزية. ولهذا السبب فقد أبدلوا الحديث مباشرة كي لا يحرجونني.

بعد استراحة وجيزة.. غادرنا التكية وذهبنا إلى تكة سنبل أفندي، فقد تجمعت هناك عائلات كثيرة استقرت فوق مروج /جيلا خانة/ في تلك

المنطقة آبار كثيرة فإذا نظرت من فوهة البئر إلى أسفله، ترى الماء في العمق. بعض تلك الآبار أصيبت بالجفاف.. ويقال أن بعض الدراويش كانوا ينزلون إلى تلك الآبار الناشفة ويعيشون داخلها على مدى أسابيع كي يقتلوا الشياطين التي في أعماقهم.

وقبل أن تنتهي نوبة الخجل بعد أن عرفوا كذبتي، وإذا بي ألتقي مع أبي وهو يقود أمامه الحمار.. وكنت وقتئذٍ مع حلمي متجهين من بيازيد تجاه /شيخ زادة باشي/ وبما أن السلال كانت فارغة فمعناها أنه باع كل بضاعته.. وفجأة أدرت رأسي نحو الجهة الأخرى غصباً عني ودون إرادتي.. يعني سأقنع نفسي بأني لم أره. لم أكن أرغب في أن يعرف حلمي أن أبي إنسان عادي يبيع الخضار على ظهر الحمار. لكن أبي كان قد رآني سمعت صوته الحار الناعم.

- ابني..

تحدثت مع أبي.. ولكن كنت في حالة اضطراب وخجل.. طبعاً وقعت داخل مواقف وتصرفات مخجلة.. ولكن هذه الحادثة كانت قد جعلتني أغطس في بحر الخجل. كلما أتذكرها أحس بالخجل أضعافاً مضاعفة وحتى الآن. كلما أتذكر ذلك الموقف المخزي أدير برأسي إلى جهة أخرى حتى لا يراني أحد.. أتألم وألمي هذا يهزني دائماً.

بعد ذلك تعرفت عائلة قرة بابا على أبي وأختي وأصبحنا أصدقاء.

العروض الرومانية

أتذكر أننا ذهبنا في إحدى ليالي العطلة المدرسية إلى كازينو صيفي يقع الآن في منتزه تقسيم. في تلك السنوات.. ازدحمت استانبول بالراقصات والممثلات والفرق الموسيقية، معظم أعضاء هذه الفرق من هنغاريا ورومانيا.. وسبب مجيئهم لا يتعلق بأمل الحصول على المال في

استانبول الفقيرة بل لأن هذه الفرق لم تحصل على المال من البلدان الأخرى، ولأن استانبول مدينة مكبوتة جنسياً.

ذات يوم تجولت مع حلمي في أنحاء متفرقة من استانبول وأنفقنا مبلغاً لا بأس به. وعند المساء دخلنا الكازينو الصيفي المفتوح.. هناك نادٍ يطلق عليه نادي الجبلية داخل حديقة تقسيم، وهو بناء من الخشب. بينما كنا نتنزه داخل الحديقة في تلك الأمسية الصيفية.. أحسست بضيق كبير في أمعائي، حظ سيئ للغاية.. هكذا.. أريد التخلص من هذا المغص اللعين.. ماذا أفعل.. لا يوجد مرحاض عمومي، واستانبول منذ نشوئها فقيرة بالأماكن العامة.. أمشي ذهاباً وإياباً.. إلى أين أذهب. أريد أن أفرغ ما في أعماقي.. ذهبت إلى إحدى زوايا الحديقة وجلست خلف إحدى أشجار الورد.. حتى تخلصت من الكابوس الذي كان يلاحقني.

وقف حلمي مثل الحارس في مكان قريب.. الحديقة رائعة.. أعشابها مزَّينة كشعر الرأس.. نظيفة إلى حدٍ كبير.. بعض الأحيان يعمد الضحك على إخفاء الخجل عند الإنسان.. ذهبت وحلمي إلى الكازينو ونحن نضحك، حيث ستقدم فيه الفرقة الرومانية عروضها الفنية.

جلسنا حول إحدى الطاولات.. جاء النادل وترك أمامنا جدولاً. دهشتنا كبيرة لدى إطلاعنا على الأسعار.. أحترنا في أمر عالمنا هذا، لم نكن نفكر ونقدِّر أن الأسعار غالية بهذا الشكل. يجب أن يكون الكازينو قد رفع أسعاره بمناسبة قدوم الفرقة الرومانية.. جلسنا على الطاولة ولا مناص من الهرب. كنا نظن أن العيب سيلاحقنا إذا تركنا الطاولة وغادرنا الكازينو من الذي سيعيِّبنا؟ هل هو النادل؟ طيب ولماذا.. لأنهما لا يملكان نقوداً.. وهما في الخامسة عشر من عمرهما.. ولا حد يعرفهما.

كانت المثلجات أرخص أكلة في الجدول.. ولكن النقود التي معنا لا تكفي لاثنين معاً. سألني حلمي عن المبلغ الذي معي، عادة أوزع أجزاء

العملة على جيوبي.. أضع في كل جيب بضعة قروش أو بارات.. تحسباً للطوارئ والضياع والسرقة.. عددت النقود التي في جيوبي دون أن أظهرها للجالسين من حولي.. وعدَّ حلمي نقوده أيضاً دون يلحظه الآخرون أيضاً.. عندما تجمعت نقودنا بدا أنها تكفي بصعوبة، ثمن قطعتين من المثلجات.. وزادت بعض الشيء.. قرشين أو ثلاثة.. لم أعد أتذكر.. قلنا للنادل كي يأتي لنا بالمثلجات.

وفي الوقت الذي كنا نأكلها.. كانت أصابعي تمتد إلى جيبي بين حين وآخر تعد النقود.. وكأنها ضاعت أو وقعت أو سرقت. حتى ونحن نشاهد العرض.. لم أخرج يدي اليمنى من جيبي.. كنت أعد أجزاء النقود دون توقف. لقد امتلأ الكازينو بالزبائن نظرت بأطراف عيني إلى الطاولات من حولنا. لم أر أحداً يأكل المثلجات.

كانت طاولات الزبائن مزدانة بالشراب، والمقبلات واللحومات.. فرحنا جداً لأنهم لم يطردونا من الكازينوا كوننا نأكل المثلجات فقط.. كنا جالسين في آخر الصالة وهذا من حسن حظنا.. الفتيات الرومانيات يرقصن على النمط الغربي بحيث يرفعن أرجلهن إلى مستوى الرأس فتبدوا ثيابهن الداخلية المزركشة بالدانتيل. أما نحن لم نكن في حالة تسمح لنا بالتمتع في مفاتهن.. كنا مشغولين بعد وحساب قطع النقود في جيبنا.. فالعرض الروماني بالنسبة لنا أصبح كالسم.. عندما وضع النادل فاتورة الحساب فوق الطاولة قبل نهاية العرض بقليل.. جمدنا في أماكننا.. لقد حسبنا نقودنا وفق معطيات الجدول.. ولكننا لم نكن نفكر بحصة النادل التي تساوي عشرة بالمائة (بخشيش). لقد أضاف النادل تلك النسبة على الفاتورة. جمعنا نقودنا وعددناها مرة ثانية وثالثة، وكأن النقود ستزيد مع كل عدة جديدة.. نقودنا تكفي /دون زيادة ولا نقصان/ أفرغنا جيوبنا.. وكلها من فئة نقود معدنية صغيرة فئة مائة بارة

وعشرين بارة وقرش واحد.. خرجنا من الكازينو.. لقد شعرت بالراحة بعد أن أفرغت أمعائي خلف الوردة.. وبالحرية بعد خروجنا من الكازينو أيضاً.. سرنا صامتين بعض الوقت.. ثم بدأنا بالضحك ساخرين من أنفسنا.. لم يبق معنا حتى أجرة /الحافلة/ للعودة.

لو أننا نملك النقود لأمضينا تلك الليلة بشكلها الاعتيادي.. الطبيعي.. يعني كنا أكلنا وشربنا وفرفشنا ومتعنا أنفسنا بالنظر إلى الفتيات الرومانيات ورجعنا إلى البيت. لم تكن هذه الحادثة قد تركزت في ذاكرتي كما هي الآن.. الحياة التي لا تترك أثراً في الذاكرة بالنسبة لي. لا تُعد حياة حقيقية.

عقدة الحياة

كنا ندرس في الصف الثامن مادة /جسم الإنسان/ واسمها أيضاً مادة / التشريح/ وبالفرنسية تسمى /أناتومي/ ومعناها بالقاموس التركي /علم تشريح الأعضاء/.

المدرس إسماعيل حقي مكلف بتدريس علم تشريح الأعضاء.. كنت معجباً به وبدروسه، أستمع إلى شرح مادته بدقة متناهية.. وأسجل كل ما يشرحه على شكل ملاحظات.

ذات مرَّة أقدم السيد إسماعيل حقي على شرح درس /شجرة الحياة/ لا أعرف معنى كلمة شجرة الحياة بالتركية.. فهي عقدة موجودة في نهاية الرأس الخلفي وتتفرع عنها مجموعة من الأعصاب السمباتية.. يقول إسماعيل حقي أنه لو وخزت هذه العقدة برأس دبوس، لقضي على الإنسان مباشرة.

شرح لنا الدرس بشكل رائع.. بحيث تراءى لي أن أحدهم غافلني وأدخل الإبرة في أسفل رأسي. وشرح لنا أيضاً أن العاملين في مسالخ الخنازير يقتلونها بهذه الطريقة.. كي لا توسخ الدماء أرض المسلخ.. ولتبقى الدماء أيضاً داخل أجسامها.

في اليوم الذي أعطانا فيه السيد إسماعيل حقي هذا الدرس.. كان بعض الزملاء يلعبون لعبة /الحمار الطويل/ خارج أوقات الدوام. انقسم اللاعبون إلى قسمين.. القسم الأول ينحنون قرب بعضهم البعض.. والقسم الثاني يقفزون فوقهم، إذا ما سقط القافز على الأرض.. يدخل مع القسم الأول وينحني نحو الأرض.

كنت أجلس على المقعد الأول في الصف، وإلى جانبي زميلي آدم كامل وزميلي هذا يحب التحدث بالكلمات العامية التي يستعملها الناس في الأماكن الشعبية.

وفي المقعد الذي خلفنا يجلس الطالب /جمال/ والذي جاء إلى مدرستنا من مدرسة /بورصة/ العسكرية لرسوبه هناك. جمال هذا يملك رأساً كبيراً وعينان كبيرتان سوداوتان ووجه غليظ موشى بآثار جروح كثيرة. ما أشبه وجهه بوجه رجل طُبعت صورته على كتاب للغة الإنكليزية.

كان جمال أيضاً بين اللاعبين /بالحمار الطويل/ فقد انحنى نحو الأرض في مقدمة الآخرين واسند يديه على النافذة المقابلة لباب الصف. وتمدَّد الآخرون بالقرب منه. كان على القافزين الابتعاد إلى الخلف مسافة قصيرة للحصول على قوة في القفز، شدّ أول القافزين على نفسه بقوة وقفز قفزة طويلة حتى اصطدم بالنافذة وكسر زجاجها. قطعة مدببة وكبيرة من الزجاج على شكل مثلث. انغرست في جذر رقبة جمال. بدت واضحة وهي تهتز على رقبته عندما وقف جمال على قدميه.. ومن تأثير درس السيد إسماعيل حقي عن عقدة الحياة.. ظننت أن الزجاجة قد انغرست في تلك النقطة من رقبته.. نقلوا جمال إلى المستوصف دون أن يرفعوا القطعة الزجاجية. لم أعد أتذكر عودة جمال من المستوصف لأن رقبته بقيت مربوطة لمدة من الوقت.

جمال الآن عميد جوي متقاعد.. رايته بعد أربعين عاماً ذكرته بحادثة الزجاجة، لأنني لم أقدر على نسيانها. هو الآخر ذكر لي حادثة تخصني ولم يقدر على نسيانها أيضاً.

كان جمال يجلس في مقعد خلف مقعدي.. فهو مولع بقراءة الروايات.. يثرثر كثيراً في دروس المطالعة والمذاكرة.. في إحدى ساعات المطالعة المسائية التفت نحوه وقلت له:

ـ الظاهر إنك قررت الخروج إلى الفوج أيها الزميل.. هذا يخصك، تصرف كما يحلو لك. أما هدفي فهو أن أصبح ضابطاً.

تصرَّف كما يحلو لك، الرجاء أن تدعنا ندرس.

هذه الحادثة التي لم أتذكرها أما جمال فيتذكرها ويقول:

ـ ثمة نقطة تحول كبيرة في حياة كل إنسان.. وكلمتك هذه أثرت عليَّ كثيراً.. بحيث بدأت أفكر بسلوك طريق الجد والمثابرة. أي أن كلماتك أشبه بسوط أفاقني من نومي، وأرجعني إلى وعيي. كلماتك هذه لا أستطيع أن أنساها أبداً.

الموت يتفتح أزهاراً على جسده

يتراءى لي أن المدرسين عندنا.. هم أفضل المدرسين في العالم.. هذه الحقيقة اقتنعت بها.. مثلاً عندما يُذكر أمامي داود شكري فهو بالنسبة لي ملحمة بطولية.. ماذا أعرف عن حياته حتى أرفعه إلى مراتب البطولة؟.. لا شيء ولكنني ضخمت صورته في عيني حتى جعلتُ منه بطلاً وأسطورة قومية.

لم أفكر أبداً بهولاء السياسيين الذين يرتدون البناطيل المخرزة أو المقلمة، والقبعات المزركشة. ولكن أفكر بهؤلاء الأبطال الذين أفنوا أنفسهم دون أن يعلموا أنهم أبطال ووطنيون.

من لباسهم تعبق رائحة البارود، ومن نظراتهم ترى الأمل بالنصر..

أقول هذه الكلمات من أجل السيد داؤد شكري.. ولا أقولها عبثاً وبأسلوب أدبي مضخم ومبالغ به.. أقولها من كل قلبي.. لقد مضى أكثر من عشر سنوات على الحرب.. ولكن آثارها مازالت مغروسة في أرواحهم.. وأعماق أجسادهم. لم يبق لهؤلاء الضباط سوى ميداليات الاستقلال، وهي كافية تغنيهم عن كل شيء. ولكن هناك أوسمة غير مرئية وجروح دامية في أرواحهم.. يتناقلونها حتى الآن.

هل تعرفون ماهية القنابل الانشطارية.. هي قذائف مدفعية.. عندما تنفجر على الأرض تنقسم شظاياها على شكل قطع معدنية كروية.. ويعادل تأثيرها عند انفجارها أكثر من انفجار مائة طلقة بارودة دفعة واحدة.. كانت هذه الشظايا.. قد ملأت جسد السيد شكري أثناء الحرب.. وقد أُخرج بعضها من جسده بواسطة العمليات الجراحية ولكن معظمها ما زال في داخله.. لأن الأطباء لم يقدروا على إخراجها.. هذه الشظايا تتنقل داخل جسده كأنها أحياء.. تبدِّل موقعها من مكان لآخر.. وبمقدورها الوصول إلى القلب.. وإغلاق الأوردة التي تنقل الدم إلى القلب.. كان السيد شكري يرعى الموت ويعتني به ويبقيه داخل جسده.

داود شكري أحد ضباط الهندسة العسكرية.. طويل القامة.. أشقر اللون عيناه سماويتان غامقتان.. من الشارة الزرقاء على ياقته تعلم أنه من قوات الهندسة العسكرية.. كأن هذه الشارة تعكس زرقة عينيه.. بياض أسنانه هيئته التي تجذب الاهتمام، أبيض الوجه، صبوح لّماع، لم تكن ثيابه أنيقة ولكنها كانت رائعة على جسده.. إنه إنسان لا تفارق الابتسامة وجهه.. ويستطيع الآخرون التعرف عليه.. دون أن يعرّفهم عن نفسه شيئاً.. ظل على مدى أربع سنوات مدرساً لنا. لم أره مرة واحدة يضحك مظهراً أسنانه.. ولكنه لم يكن عبوساً ولا تبدو على وجهه

علائم القساوة. كان يحب طلابه كثيراً. ولكنه لم يظهر لهم هذا الحب بالكلام أو التصرف معهم.. ما نوع هذه المهارة التي يتمتع بها.. باستطاعته إعلامنا.. عن أحاسيسه ومشاعره الباطنية دون إظهارها علناً.

عندما تخترق الشظايا العنقودية جسده.. أو جلده.. كانت تغلق بعض الشرايين والأوردة.. فتظهر على جلده القروح والجروح.. التي يضمدها بأقمشة من الشاش.. بعد فترة.. تتحرك الشظايا القريبة من جلده.. وتأخذ اتجاهاً آخر.. الجروح تندمل.. فتظهر شظية أخرى.. تفتح جرحاً في مكان آخر من جسده.. في ساعده وساقه وظهره وصدره.. كان الموت يتفتح أزهاراً في جسده.. والجروح تنفجر تباعاً في رقبته وعنقه.

كنت أرى السيد شكري وقد لفَّ عنقه ورقبته بالشاش. أشعر بالألم يهز أعماقي لم يتحدث معنا مرة واحدة.. عن حربه ولا عن جراحه الأليمة، يجب أن يكون متقاعداً لسبب صحته.. وأن يكون ضابطاً كبيراً لأن تلك الشظايا أبعدته عن الحرب.. ونقلته إلى الخدمات الثابتة. ظلت رغبته الدائمة أن يكون معطاءً وخيراً لوطنه.. لم يرغب أن تتحول مشاعره وطموحاته وتستثمر في السياسة.. ولا أن يحولها بهدف الشهرة ولم يفكر بالمادة بأي شكل من الأشكال. رضي أن يكون مدرساً. معطاءً وخيِّراً في القسم القادم سنرى كيف عمل مصطفى كمال ليكون مدرساً.

قلت قبل ذلك: يتراءى لي أن المدرسين الذين علموني هم من أحسن وأفضل مدرسي العالم.

لم يكن السيد داؤد شكري يقف عند إعطاء الدروس فقط.. كان يحاول تعليم طلبته مادة الفيزياء.. يتصرف أو يفعل كما الآخرين: «من يريد الإصغاء ليصغ ومن يريد الاجتهاد والمثابرة على الدراسة فليفعل ذلك».

يردد دائماً: من يدرس ينجح ومن لا يدرس لا ينجح.. يقول هذه الكلمات.. كما يقول كل أب لابنه.. يجب أن ينجح الطالب في صفه قسراً وعنوة.. ويجب أن يتعلم مادة الفيزياء من ألفها إلى يائها.. وعلى الطالب أن ينجح شاء أم أبى.

كانت مرحلة ما بعد حرب الاستقلال.. مرحلة مغايرة.. فقر مدقع لكن مع سعادة لا توصف. عندما قال مصطفى كمال أتاتورك: «أننا سنلحق بالمدنية المعاصرة».. كنا نؤمن بمقولته تلك. الآن يضحكون من السياسيين الذين يكررون هذه الكلمات.. الذين يضحكون.. محقون.. لأن شبابنا يعرفون.. أنه من المستحيل أن نتوصل إلى تلك الحقيقة ونحن منصبون في أحضان الإمبريالية.

ما أسعد جيلنا.. الجيل المظلوم.. والمقهور.. والمغلوب على أمره، والذي عاش فرحة ما بعد حرب الاستقلال.. سعادتنا كانت متغلغلة داخل التاريخ قبل أربعين أو خمسين سنة وآمالنا التي لا تنضب للمستقبل. نابعة من تلك السعادة العابرة ولن تستطيع أية سياسة حقيرة أن تمحو هذه الآمال من أعماقنا.

بعد عشر سنوات من حقيقة داؤد شكري.. حسبنا أن رؤوسنا ستصطدم على صخور الإمبريالية والرأسمالية.. ورأينا كيف دُفع وطننا إلى تلك الأحضان القذرة.. ومع كل معارضتنا قهرونا وأذلونا.. تلاءم البعض مع هذا الواقع رغماً عنه.. وساروا ـ في ذلك الاتجاه القذر.

ولم يكن السيد داؤد شكري سوى واحداً من أولئك الأبطال الكثيرين. إنه رمز.. جميع المدرسين.. كانوا يضحُّون من أجل الشعب والوطن.

لقد ظن داود شكري وأمثاله أن اليونانيين هم الأعداء الحقيقيون لهذا

الوطن، بعد أن حاولوا احتلال أرضنا.. ولكن بعد سنوات طويلة. عرفنا أن الإمبريالية الأمريكية هي عدونا المشترك لنا ولجيراننا اليونانيين.

من الطبيعي جداً أن يكون السيد داؤد شكري عدواً لدوداً لليونانيين لأن الشظايا العنقودية تمشي في جسده.. كان العداء لليونانيين في تلك المرحلة مستحكماً بحيث أصبحنا أعداء للون الأزرق الذي يشكل أحد ألوان العلم اليوناني. فعندما لم نتعرف على عدونا الحقيقي.. نقول: إن الأعلام والألوان والرموز هي عدونا. العدو الحقيقي للسمك ليست الصنَّارة.. بل هو الإنسان الذي أوجدها وصنعها.. واصطاد بها. ولكي نفهم ماهية العداوة الحقيقية للون الأزرق وللاحتلال اليوناني في تلك المرحلة. يكفي أن نقرأ هذه الرباعية التي قرأها علينا السيد داود شكري.

«لا نريد سماءً زرقاء ولا نهاراً صافياً
لتسوَّد السماء ولتكن رمادية
أنا راض عن ليل طويل.. لا نهائي
وليبقى الهلال مرسوماً على سمائي».

لا أدري من الذي كتب هذه الرباعية.. ربما داود شكري. ولكنها كانت تعبر عن أحاسيس المجتمع آنذاك.

الأرض ليست كروية

أصبح العميد الركن المتقاعد السيد عادل لفترة من الزمن مدرساً لمادة الجغرافيا.. وبما أنه يملك روحاً عسكرية جدية وفوقية فقد أضحت مادة الجغرافيا بالنسبة لنا مادة غير محبوبة.

لا شك أنه كان يحاول جاهداً تعليمنا الجغرافيا، ولكنه لم يستطع جذب انتباهنا لهذه المادة.. في ذلك العام كنا ندرس الجغرافيا العامة وكما هي العادة وفي كل الدروس، فقد بلغت أعداد دفاتري لهذه المادة أكثر من ثلاثة. أحدهما دفتر مسودة باللون الأصفر، أدوِّن فيه

الملاحظات التي كنت أسجلها، ومن ثم أنقلها على دفتر آخر في ساعة المطالعة المسائية. وهناك دفتر آخر خاص بالخرائط والمصورات.

لم أعد أتذكر كيف جاءني الإلهام عندما كنا ندرس كروية الأرض. على أنها مثل برتقالة ـ الفكرة تأكدت لديَّ أن الأرض ليست كروية. لكن هناك دلائل وإثباتات أن الأرض كروية.. وكنت أحاول بشتى الوسائل دحض هذه الإثباتات والبراهين، وبينما كنت أسجل أفكاري بدقة على أوراق كبيرة تستعمل في الملفات تسمى /الأثر الجديد/، كتبت منها أكثر من أربع وعشرين ورقة ومع ذلك لم أتوصل إلى الشكل الحقيقي للأرض من هذه الملاحظات التي كنت أكتبها. ولكني قدمت بعض الطروحات أناقض فيها عدم كروية الأرض فقد وضعت تحت الجمل المهمة خطاً بالقلم الأحمر. وعنوان /المادة والانقسام/ أكتبهما بلونين.

لماذا فعلت هذا؟ ليس لأنني لا أعتقد ولا أؤمن بكروية الأرض.. حتى الآن لا أعلم لماذا تصرفت هكذا، ربما كان نوعاً من إظهار ذاتي للمدرس ولزملائي على أنني طالب مجتهد وذكي. وربما نوع من عادة مزمنة في رأسي.. أو لأظهر شخصيتي على شكل عالم. وربما نوع من الخداع والعبث وإعطاء نوع من الحركة لدرس الجغرافيا الجاحد. المهم أنني كتبت أكثر من أربع وعشرين صفحة حول موضوع معروض للمناقشة. وكنت أرى أن هذا العمل مهم جداً بالنسبة لي.. والآن أفكر بنفس الطريقة. إذا كتب طالب في الصف الثامن عن موضوع من المواضيع أكثر من ٢٤ صفحة معناه هذا مهم جداً.

وضعت هذه الصفحات في أحد الدروس أمام السيد عادل.. وأملي الوحيد أن يناقشني حول هذا الموضوع. سألني:

ـ ما هذا؟

لقد خرجت هذه الكلمة من فمه وكأنها قطع جليدية ضربت وجهي.

الهزيمة الأولى جاءتني عبر هذا التساؤل القاسي، لكن: ماذا لو قلت له: أن الأرض ليست كروية؟ لقد أحسست بالندم لأنني قدمت له الأوراق التي كتبتها، لكن الندم لا يجدي نفعاً بعد الآن. لم أستطع استرجاع الأوراق التي وضعتها أمامه.. وخاصة بعد أن نظر إليها وقرأ العنوان.. وقطب حاجبيه.. وصاح غاضباً.. خذ هذه الأوراق من أمامي. جمعتها على عجل وهرعت إلى مقعدي.

أصاب الفضول زملائي وأرادوا معرفة ما دار بيني وبين المدرس. عندما رنَّ جرس الانصراف تجمعوا حولي وسألوني عن المناقشة بيني وبين المدرس. ولكنني لم أستطع أن أبوح لهم بشيء.

من المؤسف جداً أنني لم أحتفظ بتلك الأوراق.

قبل بداية الدروس

انقطع السيد عادل عن المدرسة بعد افتتاحها بوقت قصير.. وحضر مكانه ضابط آخر برتبة عقيد. لتدريس مادة الجغرافيا، كان ضابطاً قاسياً، قوي الشخصية، انضباطي، ومهندم، اسمه /حقي زائف/ فهو متوسط القامة.. مكتز الجسم، قوي البنية.. رقبته أشبه برقبة مصارع متوسط الوزن.. يقص شعره على طراز «آلابروس».. ينتعل جزمة عسكرية لفترات طويلة.. وفي بعض الأحيان ينتعل الحذاء مع الطماق لفترة قصيرة لم يعد الضباط الآن ينتعلون الحذاء مع الطماق.

لقد رسم أحد الرسامين الإيطاليين لوحة لمصطفى كمال أتاتورك وهو برتبة /مارشال/ ينتعل الحذاء مع الطماق.. وكان لونه بنياً.

كان السيد حقي رائف يرتدي ثياباً أنيقة.. ومن خلال حديثه وما قصّه علينا عن حياته الخاصة، لماذا كان الضباط يرتدون ثياباً أنيقة: قال

إنه وصل إلى رتبة عقيد ولم يتزوج بعد، ولهذا السبب كان راتبه يكفيه لشراء الثياب الجديدة.

لقد أقام مع الطلاب علاقات حميمية.. ومن خلال حديثه علمنا أنه تزوج حتى لا يُحزن أمه.. وكما قال: إن أمه تحبه وقد ضحت كثيراً من أجله.. فهو غائب عنها في أكثر الأوقات بسبب الحروب المتتالية.. من الحرب العالمية الأولى /الحرب العمومية/.. إلى حرب الاستقلال.. سمعه ضعيف ناتج عن آثار دوي الانفجارات خلال الحرب العالمية الأولى وكما يقول: أنه حارب الإنكليز في القتال. لقد تمركزت وحدته على طول القناة داخل خنادق محفورة في رمال الصحراء، والرمال ضعيفة التماسك.. فعندما تسقط قذيفة على مقربة من الخندق.. ترتفع أعمدة الغبار في الفضاء بكميات هائلة وتهوي على السيد حقي رائف ويدفن تحتها. وعندما يجري إحصاء الشهداء وجمع جثثهم وجدوا السيد حقي مغمياً عليه، بعد هذه الحادثة أصبح سمعه ضعيفاً.

الضباط الذين اشتركوا في حرب الاستقلال يدرّسون في الكلية العسكرية وفي الوقت نفسه يواظبون على الدراسة في الجامعة.. وكان السيد حقي طالباً في الجامعة.. قسم الجغرافيا.. وقد أنهى دراسته بعد عام واحد.

يحمل في يده محفظة كبيرة من الجلد بنية اللون، هذه المحفظة تمتلئ عند المساء بالذفاتر والمصورات /الأطاس/ والكتب.. كم تمنيت لو أحصل على واحدة مثلها.

المحفظة مهمة بالنسبة لي.. فأنا لم أملك محفظة أبداً في طفولتي وشبابي.

كان السيد حقي رائف.. يعطينا ملاحظات عن دروس الجغرافيا مما يعرفها من خارج منهاج الكتاب. يشرح الدروس جيداً.. لقد امتلأت دفاتري بالملاحظات عن هذه المادة.

أصبح السيد حقي رائف مدرساً في الثانوية أيضاً.. وكانت سعادته في سلك التعليم لا توصف من خلال شرحه للدروس.. كما أصبح مدرساً في الصف التاسع أيضاً.. برنامج دراستنا في الجغرافية آنذاك هو الجغرافيا البشرية.. وقد ورد في أحد أسئلة المذاكرات سؤال عن تأثير البيئة على الأحياء.. كان هذا الموضوع رائعاً بالنسبة لي.. لأنه يبحث في معارف وعلوم خارجية.. وقد حضرّت نفسي جيداً فأجبت على السؤال مطولاً، أعجب المدرس بجوابي وقرأه في صفنا وفي الصفوف الأخرى.

بعض البقاليات تبيع المياه العذبة بالكؤوس، كما يباع عصير الفواكه.. في أماكن قليلة من المدينة.. في البداية كانوا يُباع كأس الماء بعشر بارات.. ثم ارتفع السعر ليصبح عشرين بارة. وأربعين بارة.. ثم قرشاً واحداً.. هناك دكان صغير مقابل ثانوية /غلطة سراي/ يبيع فيه كؤوس الماء.

في أحد الأيام خرجت مع حلمي بنزهة إلى حي باي أوغلو.. قاصدين أحد المسارح وبينما كنت أشرب كأس ماء من الدكان الصغيرة وإذا بأحدهم يمسك ذراعي من الخلف. التفت وإذا بالسيد حقي رائف ينظر إليّ ويقول هامساً:

ـ قفاك ممزق.. دير بالك.

كان السيد حقي رائف قد لفت انتباهه خلال مروره من جانبنا.

أحسست بالخجل وظننت أن بنطالي قد نزل كلياً وبقيت في تلك المنطقة المشهورة من المدينة عارياً.. كانت وصية الضباط لنا دائما هي:

ـ العيوب الصغيرة والبسيطة التي لا ترى لدى الآخرين.. يرونها فيكم مباشرة.. هذه العيوب والنواقص تجذب اهتمامهم لأنكم طلاب ضباط.. ويحاولون جاهدين إظهار العيوب فيكم لأنكم تلبسون الزي الرسمي.. ولهذا السبب يجب أن تهتموا بثيابكم إلى أبعد الحدود.

لقد وضعت يدي فوق مكان العيب.. لم نذهب إلى المسرح ولا إلى أي مكان آخر بل رجعت إلى البيت مباشرة.. بعد سنوات رأيت السيد حقي رائف في الشارع خجلت ولم أقترب منه والتحدث إليه.

الشيء الجديد الذي ظهر

ذكرت سابقاً أن المدرس الدكتور إسماعيل حقي كان يدرسنا في المرحلة الإعدادية /علم وظائف الأعضاء/ /فيزيولوجي/، وقد أصبح مدرسنا أيضاً في الثانوية.. منذ ذلك الوقت لدى ذكر اسم طبيب أو حكيم.. نتذكره على الفور.. كان رجلاً حكيماً صبوراً.. هادئاً. أتساءل الآن.. هل كان الغبار يحط على ثيابه؟ ولم تقفز نقاط الوحل على بنطاله؟

ألا يتسخ حذاؤه أبداً؟ يرتدي قميصاً أبيض.. ياقته ناعمة.. عقدة ربطة عنقه كبيرة.. لم نرى يوماً ربطة عنقه رخوة أو مائلة.. يلبس ثياباً داكنة، وحذاء أسود وسلسال ساعته مدلى على صدريته، تبدو على وجهه آثار مرض الجدري.. تصرفاته وحديثه ثقيلان عندما يتحدث أحدهم خمس كلمات كان ينطق كلمة واحدة.. هذا الثقل يعطيه نوعاً من الجدية والمناعة.. يتراءى لي أن الصمت يسود منزله.. لا حس ولا حركة ولا ضجة ولا فوضى.. هذا شعوري وكان يشرح الدروس بلذة عارمة.. جميع الطلاب ينصتون إلى شرحه دون أدنى ضجة أو همسة.. أنا على يقين بأنه يعمل مدرساً لا حباً بالمال ولا بالوجاهة ولكن حباً بالعلم.

وكان يطلب منا حفظ مفردات الأجنبية بالعربية.. حيث لم تكن تلك المفردات سهلة الحفظ.. مثال: /أمعاء الاثنى عشر/ وبواب المعدة/ الفؤاد.. وحفظ اسم جميع عظام الجسم بالعربية.. عندما كنا نلفظها بالتركية.. يغضب كثيراً مثلاً: عندما كان يقول أحد زملائنا كلمة / الرئة/ بالتركية.. يردّ عليه ساخراً.

ـ أية رئة.. هل هي رئة القطة التي يبيعها الأرناؤوطي.

يجب علينا أن نقول عن الرئة البيضاء /الرئتان/ وعن السوداء /الكبد/ أما أن تلفظ الأمعاء بالتركية فهي كلمة مقرفة.. يجب أن نقولها بالعربية /الأمعاء/ وهكذا تأخذ مادتها العلمية وتتزين الكلمة بالجمال.

لم يكن يقول المفردات التشريحية بالعربية فقط.. بل كان يقولها بالفرنسية واللاتينية.. ولكي أكون سباقاً في حفظ الدرس.. كنت أحفظها بالعربية والفرنسية واللاتينية.. لأحقِّق السبق على زملائي، ولهذا أصبحت أفضَلَ طالبٍ لدى الدكتور إسماعيل حقي. ولقد تقرر إجراء امتحان البكالوريا ونحن في الصف الثامن وطلبوا منا قراءة دروس الثامن والسابع والسادس كي ندخل امتحان البكالوريا.

كان امتحان علم دراسة الأعضاء في الصف الثامن قد مرَّ بشكل غريب جداً.

سألني السيد إسماعيل حقي أمام مدرسين آخرين:

ـ شيء جديد ظهر حديثاً.. هل تعلم ما هو؟

ـ إنه الفيتامين يا أفندم.

ـ أشكرك. اخرج.

انتهى امتحاني وأخذت العلامة التامة.

كنا قرأنا شيئاً عن الفيتامين.. وهذه المادة بدأت بالظهور في تركيا في عام ١٩٣٠ وبدأ الناس يتحدثون عنها، لكن أنواعها لم تكن قد وجدت بعد لا في تركيا ولا غيرها من الدول الغربية.. ولكن مغرفتنا بها ازدادت بعد عامين أو ثلاثة أعوام. قرأت خبراً عن الفيتامين في إحدى الصحف يفيد بأنه يطيل القامة. وبما أنني قصير القامة، فقد زاد اهتمامي بمعرفته إلى حدٍ كبير. عندما كنت في الصف الثامن كان طولي ١٥٨سم ووزني ٥٦ كيلوغرام. أما الآن لم يتغير طولي أما وزني فقد قفز إلى ٧٠ كيلوغراماً.

كلب متشرد يساعد رفيقه

إحدى مواد دراستنا مادة «الصحة العامة» ويدرسها الدكتور (فكري ثروت) وسمعنا أن أخيه الأكبر (أديب ثروت) انتخب عضواً في البرلمان التركي.

السيد فكري مدرس ممتاز.. يعرف كيف يجلب اهتمام الطالب إلى الدرس والاستماع إليه.. وبما أنه طبيب في الرعاية الصحية. فقد قال ذات مرة: إن الصحة مهمة جداً للإنسان، إذا تعرض الإنسان إلى حالة مرضية طويلة وخطيرة، يضعف جسمه وتسوء حالته والضعف معناه: القضاء على الشحم واللحم الاحتياطي الموجود في الجسم. في هذه الحالة: إذا كان الضعيف يتحمل المرض شهراً من الزمن فالبدين يتحمله لمدة طويلة.. لم يكن مدرسنا بديناً ولكنه مكتنز. بين حين وآخر يقص علينا حياته وذكرياته ليجذب اهتمامنا.. إحدى القصص رواها عن الحيوانات وذكرتُها في كتابي «لا تقل حيواناً وتمضي».

يقول: إنه كان يسكن في منطقة تسمى (طريق الديوان) وبينما هو جالس إلى جانب النافذة في الطابق الثاني، في أحد أيام الشتاء القارس.. أزعجه نباح الكلب.. فمدَّ رأسه من النافذة ونظر إلى الشارع فشاهد كلباً.. صغيراً يئن ويعوي أمام الباب. أرجله مكسورة.. فعالجه وأجرى له عملية جبر الكسر، وبما أنه كلب متشرد فقد هرب من البيت بعد شفائه، ولم يعد ثانية، في الشتاء التالي وفي صباح يوم ماطر، وبينما كان يقرأ جريدته الصباحية سمع نباح كلب.. فنزل إلى الشارع فرأى الكلب الذي عالجه وشفاه: ولكنه لم يكن وحده. بل كان معه كلباً ضخماً.. يئن من الألم حيث إن إحدى أرجله كانت مكسورة.

لقد أحضر الكلب الصغير صديقه إلى الدكتور ليضمد له رجله المكسورة كما فعل معه في العام الماضي.

كان السيد ثروت إنساناً وفياً مخلصاً أكن له كل الاحترام، ولكن لم أستطع أن أنسى إحدى كلماته التي قالها في أحد دروسه والتي أزعجتني كثيراً وهي:

- إن الراتب الذي يأخذه من سلك التدريس لا يكفي مصاريف تواليت لبناته.

بقيت كلماته مغروسة في ذاكرتي مثل اسفين، ربما قال ذلك وهو غاضب.

انتقل السيد ثروت بعد ذلك للتدريس في الجامعة.

حلاقة الذقن

في إحدى ساعة المطالعة المسائية.. شعرت بألم في أحد أضراسي، الألم يتضاعف كل دقيقة، وعندما تمددت فوق السرير، كانت أصابعي تنغرس في غطاء الفراش، وأضرب الوسادة بكل قوة.. نتيجة للألم الذي كنت أعاني منه.. بعد وقت قصير أخلد الطلاب جميعاً إلى النوم وحتى لا أدع صديقي النائم في الطابق السفلي من السرير يستيقظ من نومه كنت أقوي إرادتي وأضبط أعصابي، وأشد على أسناني.

قال لنا أحد المدرسين أو أحد الضباط: قال لنا ذات مرة، يستطيع الإنسان بقوة إرادته أن يتغلب على مشاعره وآلامه، مثلاً: إذا كان الإنسان لا يمتلك شيئاً يتدفأ به في الأجواء الباردة يقول: إن الجو ليس بارداً أبداً. أنا لا أشعر بالبرد «فإذا أقنعنا أنفسنا بهذه الكلمات معناه أننا قضينا على البرد حقيقة. وهكذا نكون قد رفعنا عن أجسامنا البرد بقوة إرادتنا. وإذا كنا نشعر بالجوع: نقول: أنا لست جائعاً أبداً، أستطيع أن أصمد يوماً كاملاً.. أنا شبعان».

لم أجد طريقة تخلصني من الألم الذي أعانيه، حتى حبات الأسبرين، التي أخذتها من أحدهم لم تفدني بشيء في تلك الساعة

المتأخرة من الليل، أنا الآخر حاولت أن أقضي على الألم بإرادتي.. فبدأت أخدع نفسي قائلاً: ضرسي لا يؤلمني: «ولكن عبثاً.. كانت قوة الألم أقوى بكثير من إرادتي أردت نسيان الألم.. أمضيت الليلة دون نوم.

عندما عزف بوق الاستيقاظ، كنت ما أزل مستيقظاً.. وأحس بالذنب والألم يلاحقاني.

في الصف الثامن أيضاً.. بدأت باستعمال موس الحلاقة. أحلق ذقني مرة في الأسبوع وذلك عندما أخرج من المدرسة إلى المنزل.

بحري بابا

كان مدرس اللغة التركية يسكن في الطابق الثاني مقابل مشفى «جراح باشا» يصل إلى المدرسة عند الساعة الثامنة صباحاً ويدخل غرفة الصف فوراً.. المسافة بين (جراح باشا) والمدرسة في (جنكل كوي) يقطعها مشياً على الأقدام، لأن الحافلات والسرافيس لم تكن متوفرة في جراح باشا آنذاك.

مدرس اللغة التركية من الضباط المتقاعدين أيضاً.. ينادونه «بحري بابا» شعره أشيب ولكنه في تمام الصحة والعافية لم أستطع تقدير عمره آنذاك لأنه حتى الذين هم في الأربعين من أعمارهم. نحسبهم من المعمرين بعقلية الطفولة نقول: إن سن الخمسين أو الستين معناه الكهولة والشيخوخة، لذلك يجب أن يكون عمر بحري بابا في الخامسة والأربعين من عمره في أسوأ الأحوال.. وهو من المدرسين الذين لا يستطيع المرء نسيانهم. عندما نلتقي بهم وهذا ما يؤكده الجميع أن (بحري بابا) كان مدرساً يخافه المرء ويخشاه ويقدره.. رغماً عنه. استطاع هذا المدرس أن يعلو بنفسه. هناك مدرسون وضباط يشتمون الطلبة بأبشع الشتائم أما بحري بابا فلم يشتم أحداً ولكنه يشتم بأدب

عندما يتهامس طالب مع أحد زملائه أو تصدر عنه حركة غير طبيعية.. كان يقول له:

ـ أنت وردة في أي حديقة؟

ـ وأكبر شتيمة كانت تلك التي يوجهها للطلبة العابثين الذين لا يهتمون للدرس.

ـ شوف بعدين أقول لك.. فلان ابن فلان ها.

هذه الشتيمة الثقيلة تفقد معناها السلبي.. عندما كانت تخرج منه.

لم يكن المدرسون أمثال إسماعيل حقي، وحقي رائف والدكتور فكري ثروت بحاجة إلى استعمال ألفاظ الشتائم.

قبل انتهاء العام الدراسي بقليل كنا ندرس المسرح في الأدب التركي ـ تراجيدياً (المأساة). دراما (أدب المسرح).. كوميدي (الهزلية). إضافة إلى التراجيديا.. الكلاسيكية في الأدب اليوناني القديم.

عندما كان بحري بابا يشرح هذا الدرس.. فإنني أتفاعل معه بكل جوارحي أصغي إليه باهتمام زائد لم أكن أفكر بشيء آخر. فجأة يقف عن الشرح ويشير إليّ بأصبعه ويقول لزملائي:

ـ انظروا.. سيأتي يوم وتقولون.. إن المدرس الفلاني قال في اليوم الفلاني إن نصرت أفندي سيكون كاتباً مسرحياً.. إنه يستمع إليَّ دون أن يرف له جفن.

أصبحت وكأنه قبض عليّ بالجرم المشهود لأن بحري بابا لم يقصد بكلماته هذه المديح بل يريد القول: بدل أن يكون ضابطاً يريد أن يصبح كاتباً مسرحياً.

إذا لم يقل تلك الكلمات. فأنا لا أستطيع تذكر بعض الزملاء، لكن قوله هذا جعلت بعض الزملاء يعيشون في ذاكرتي.

هناك بعض الناس لا يتذكرون حتى الكلمات العادية التي خرجت منهم. ولكنها أثرت فيَّ إلى أبعد الحدود.

كان الفتى /ف/ من قاضي كوي.. أسمر البشرة.. قد صرح لي في مناسبة لم أعد أتذكرها أنه يريد أو يتمنى أن يكون عقيداً متقاعداً. بدأ بتمثيل شخصية العقيد المتقاعد بكرشه الظاهر. فقد شبك يديه ببعضهما ووضعهما فوق صرته ونفخ كرشه نحو الأمام وقال:

مرادي أن أكون عقيداً متقاعداً.. وأترك كرشي في حال سبيله.

أوووه.. تعالى يا كرشي، يا ضناي..

التقيت بـ/ف/ في الطريق بعد مرور خمسة وأربعين عاماً.. كان عميداً متقاعداً يضع على عينه نظارة.. له وجه بشوش لكن لا كرش له كان عادياً مثل الناس.

ذكرته بكلماته.. إنه كان يريد كرشاً.. فكر جيداً ولكنه لم يتذكر حتى الكلمات التي قالها. أما أنا فأتذكرها كلمة كلمة. وكأنها تعيش معي.

الصورة الخازوق

كان التصوير الفوتوغرافي في المدارس العسكرية وسيلة من وسائل النجاح والانتقال إلى الصف الأعلى.. وربح النقود.. والتودد من المدرسين والإدارة. كان بعض الطلاب يقومون بتصوير المدرسين والضباط، وتقديم الصور مجاناً لهم.. كذلك يقوم الطلاب المهرة الذين يتقنون فن التصوير، بالتقاط صور للمدرسين والضباط، ومن ثم يبيعها للطلاب.

يطلق على هؤلاء الطلبة المصورون اسم المصورون الخوازيق. فهناك مصورون طلبة في الصفوف العليا والدنيا.. من الطبيعي أنهم يضعوننا على الخازوق، بإرغامنا على شراء الصور ليربحوا المزيد من النقود.

بشكل عام كان المدرسون يراعون ويساعدون الطلبة المصورين..

لينجحوا في صفوفهم.. يوجهون لهم الأسئلة السهلة، لأن هؤلاء المصورون لم يجدوا الوقت الكافي للدراسة والمطالعة لانشغالهم بالتصوير والتحميض وربح النقود.. حتى الأسئلة السهلة لم يتمكنوا من الإجابة عليها.

روايات وقصص وأحداث تُروى عن هؤلاء المصورين في الصفوف الدراسية.. كل واحدة من القصص والروايات تأخذ منحى معيناً من كثرة التكرار والترداد.

يقال: إن مدرساً سأل أحد المصورين سؤالاً بسيطاً عن المنطاد.. أما صيغة السؤال فهي كالتالي: كيف يرتفع المنطاد نحو الأعلى؟ وعندما لم يستلم الجواب.. أعاد المدرس شرح السؤال.

هل رأيت في داخل المنطاد أوزان أو أشياء ثقيلة.. ويجب أن يكون الجواب.. يجب على من في داخل المنطاد أن يرمي الأثقال الموجودة فيه رويداً رويداً حتى يرتفع نحو الأعلى. أليس كذلك؟

جرت العادة أن يدخل الامتحان كل طالبين مع بعضهما، فهمس أحدهم في إذن زميله للإجابة على السؤال:

- /آت.. آت/ يعني اشلح.. اشلح. وكلمة AT آت.. معناها حصان..

يريد القول إرم الثقل الموجود في المنطاد.

كان المصور الخازوق يفهم كلمة آت على أنها الحيوان أي الحصان.. فكان ينظر إلى المدرس واجماً وصديقه يهمس في أذنه.

- اشلح ولك أخي.. اشلح.

في هذه المرة أيضاً بدأ المدرس يسهل له الجواب.. فقال:

- ماذا يوجد في داخل المنطاد حتى يرتفع نحو الأعلى؟ لم يكن المصور الخازوق إلا أن يكرر ما همس به زميله وقال:

- يوجد حصان يا أفندم.

هذه الحادثة.. كانت تُحكى بعدة وجوه.. وجميع الحوادث صيغت بحق هؤلاء الطلبة.

قصة أخرى.. من الامتحان الشفهي لمادة الكيمياء.. يُقال: إن المدرس كتب رمز الماء على السبورة وسأل الطالب المصور.

ـ ما هذا؟

لم يتلق جواباً.

في هذه المرة كتب المدرس على السبورة /HH-O/ وسأله ما هذا؟

لم يجب المصور أيضاً. أومأ زميله الثاني الواقف إلى جانبه إلى الكأس الممتلئ بالماء فوق الطاولة.. بعينيه وحاجبيه.

يقال إن المدرس قد غضب بشدة وأشار إلى رمز الماء المكتوب على السبورة.

وقال صارخاً: ما هذا.. عندها نظر المصور الخازوق إلى الكأس الموضوع على الطاولة والذي أشار إليه زميله وقال: إنه الكأس يا أفندم.

ويقال أيضاً: إن أحد المدرسين طلب من أحد المصورين الخوازيق كتابة رمز الماء على السبورة فما كان منه إلا أن كتب كلمة: ماء. وسألوا أحدهم عن البيضة وكيف تعرف طازجة أم نيئة.

جواب: نضع البيضة داخل الماء.. إذا رست للأسفل تكون غير طازجة أما إذا طفت على سطحه فهي طازجة. ولكن الطالب لم يعرف الجواب.. يبدأ بالتحايل والسعال.. أفعل هكذا وأفحصها بالنور.. ألمسها بيدي ـ في النهاية قال: كي أعرفها طازجة أو غير طازجة.. أكسرها يا أفندم.

مصور صفنا اسمه /الطيف/ وكان زميلاً رائعاً وطيباً، وظل مصوراً حتى انتهائه من الثانوية. إذا أردنا الحصول على صور حياتنا الدراسية في الإعدادية والثانوية نحصل عليها بواسطة لطيف.

العميد المتقاعد المصاب بالسكري

في الطابق الثاني من منزل عائلة حلمي صالون كبير، فيه مصطبة ترى الشارع وأنت جالس من نوافذه الثلاث، كان السيد حيدر يرتدي جلابية في البيت مثل أبي.. الأشخاص الأكبر سناً منا يلبسون الجلابيات عند المساء.. أو عند تواجدهم في منازلهم، وقد بدأ لبس البيجاما حديثاً وكانت تعد نموذجاً فرنجياً. وإذا أراد السيد حيدر الكتابة كان يسحب خزانة صغيرة ويكتب فوقها وهو جالس على الأرض. على مقربة من فرع أحد البنوك في زاوية حي الترامواي.. يقع مقهى يسمى /قيراط خانة ديار بكر/. كان المثقفون القدماء أو الذين يطلق عليهم أصحاب ربطات العنق يتواجدون عادة في تلك المقهى التي سميت قيراط خانة أو دار المطالعة. كنت ترى رجل يخرج ثلاث أو أربع مرات يومياً من المقهى ويبول على الجدار الخارجي للمقهى.. كان ذلك المكان خالياً من المارة، ولم يكن مزدحماً كما هو الآن.

كان السيد حيدر يغضب كثيراً.. وهو يرى الرجل الطويل العريض يبول على جدار الزقاق.. طلب مني السيد حيدر في أحد الأيام أن ألبس ثيابي العسكرية وأقترب من الرجل وأقول له بضع كلمات. كنت سأقول له: إن ما تفعله عيب كبير، هناك عائلات كثيرة تقطن في الجوار وهم يشاهدونك، كان اللباس العسكري ولو كان للطلاب في ذلك الوقت مؤثر جداً. ولذلك كان الجميع يندفعون للعمل في وظائف الدولة التي تعطي لموظفيها لباساً رسمياً. حتى ولو كان لباس عامل البلدية.

لبست الزي العسكري ووقفت أنتظر الرجل بفارغ الصبر.. في كل الأحوال كان الرجل يخرج ويتبول في اليوم من ٣ ـ ٥ مرات على جدار الزقاق.

لم أنتظر طويلاً وإذا بالسيد حيدر يصرخ:

ـ أسرع يا نصرت: إن الرجل يتبول.

الحقيقة لم يكن هذا العمل من مهمتي، لكنني لم أستطع أن أقول للسيد حيدر لا.

أسرعت نحو الرجل الذي كان يتبول، بدا طويل القامة، يرتدي معطفاً كحلياً.. انتظرت خلفه حتى انتهى، والسيد حيدر يراقبني من النافذة.. مترقباً ما سيحصل بيننا، في هذه الحالة كان عليَّ أن أوجه للرجل كلاماً مشيناً.. وقلت له: لماذا تتبول هنا؟ ألا ترى بيوت وعائلات كثيرة تسكن قريباً.. أليس عيباً عليك أن تفعل ذلك؟ وأنت رجل طويل عريض ألا تخجل من نفسك.

نظر الرجل الطويل إليَّ وابتسم ابتسامة مؤلمة.. وقال: أنا عسكري عميد متقاعد.. عندما سمعت بأنه عميد متقاعد.. خفت كثيراً ولم يكن في مقدوري أن أتركه وأمشي. ومع هذا أخرج الرجل هويته العسكرية ورتبته وقال انظر، فهل تصدقني.. فكرت.. ربما يأتي يوم وأصير مثله عميداً متقاعداً وأتبول على الزقاق. لقد شرح الرجل لي بأنه مصاب بالسكري. وأن مرحاض المقهى ممتلئ دائماً.. ولهذا السبب يخرج بين وقت وآخر ويتبول.. شعرت بخجل وحزن شديدين عدت إلى البيت مثل المذنبين، وشرحت للسيد حيدر ما قاله لي العميد المتقاعد.

هذه الحادثة الحزينة والمؤلمة، علَّمتني شيئاً جديداً.. أن المصابين بالسكري يتبولون كثيراً.. لم يخرج ذلك الرجل بعد ذلك ولم يتبول هناك، ولم أره مرة أخرى في تلك الأنحاء وربما أحجم عن الحضور إلى المقهى.

بعد ذلك أفادني حلمي بأن الرجل لم يكن عميداً متقاعداً بل هو جنرال متقاعد واسمه /شاكر باشا/.

مباريات كرة القدم

كانت مباريات كرة القدم التي تقام على ساحة /بيلر بيي/ (سيد

الأسياد) قوية وممتعة إلى حدٍ كبير. مازلنا طلاباً في المرحلة الإعدادية لكن فريقنا الكروي.. قوي جداً فقد تجاوزت أعمار اللاعبين المرحلة الإعدادية أي أنهم أصبحوا كباراً في السن.. وكانت المباريات التي تقام مع المدارس العسكرية الأخرى وخاصة مع ثانوية (كوللي العسكرية) دورية ومنتظمة تحضرها الفرقة النحاسية.. حيث تقوم الفرقة النحاسية بعزف المقطوعات الوطنية لدى تسجيل كل هدف في مرمانا.

كانت المشاجرات القوية تحصل أثناء المباريات مع الفرق المدنية المحلية (غير العسكرية)، وأولادنا هم من يتسببون في نشوء هذه المشاجرات في أكثر الأحيان لأننا كنا نحكم على النتيجة مسبقاً.. من غير المعقول أن يتغلب فريق مدني عادي على أي فريق عسكري.. تلك قناعة مغروسة في أعماقنا.

عندما نشعر أن فريقنا على وشك الهزيمة كنا نقطع السياج ونحيل أرض الملعب إلى ساحة دخان ورماد.

أتذكر لاعبين اثنين من فريق مدرستنا في ذلك الوقت، أحدهم /بيك دب/ وهو ولد طويل وعريض يكبرنا بكثير.. ويجب عليه وهو في هذا العمر أن يكون قد أنهى المرحلة الثانوية منذ وقت طويل. يصاحب الأولاد الذين تحدثت عنهم سابقاً، في الحديقة الداخلية من المدرسة وفي المناطق المظلمة من قبو المدرسة، وبما نه كان يلعب بقساوة شديدة.. فكانوا يسمونه (دب +) لقد كان دباً حقيقياً بكل معنى الكلمة بحيث أن لاعبي الفريق الآخر.. لا يتجرأون على الاقتراب منه.

وعندما كان يضرب الكرة الثابتة من أمام مرمانا.. كان يوصلها إلى المرمى الآخر. ونحن نصفق له. على أن هذه الضربة هي فن متميز من فنون كرة القدم.. لم يتخرج /دب/ ضابطاً.

أما اللاعب الثاني الذي أتذكره.. كان فتى طيباً إلى حدٍ بعيد وبما أن

صوته جميل فكانوا يلقبونه /الحافظ/ كان /حافظ أ/ قوياً.. وطويلاً.. وعريض المنكبين.. وعندما ينفخ أو يشد صدره وساقيه.. يصبح مثل أبطال كمال الأجسام. وكان يدرس في القسم الفرنسي. يقول عنه زملاؤه أنه يقرأ كثيراً ولا يفهم شيئاً. هو الآخر من اللاعبين الذين يتدخلون على الكرة بقساوة شديدة ويشوطونها بقوة. في إحدى المباريات كان يقذف الكرة بقدمه.. من خط الدفاع الخلفي.. فيدخلها مرمى الخصم.. شيء غير معقول.. وعندما كان /حافظ أ/ في الثانوية انخرط في فريق المصارعة التابع للمدرسة.

يصارع في وزن /٨٧/ كغ.. كان قوياً.. ولكنه قليل التحمل يحتفظ بقوته إلى ما قبل دقائق من انتهاء المصارعة وينهيها ظافراً. ومع أن صوته جميل جداً.. لم أسمعه مرة يغني أغنية وينهيها. أي أن صوته وأداءه ينتهيان في الدقائق الأولى من الأغنية تماماً كما يفعل في مباريات المصارعة. أخوه الأكبر جميل الصوت مثله. ويعمل مع إحدى الفرق الموسيقية.. يعزف على الدف ويغني الشعر.. كانا متشابهين إلى حدٍ كبيرٍ. وكنا نرى أخاه داخل الفرقة الموسيقية المسماة /تانبوري صلاح الدين/ مع مشاهير الموسيقيين أمثال عازف البيانو الشهير /فوزي أصلان غيل/ وعازف الكمان المشهور /نجاتي تولك ياي/.. الذي توفي وهو في ريعان شبابه.

بعد الانقلاب العسكري في ٢٧/ آذار/ من عام ١٩٦٠.. كان / حافظ أ/ من بين الضباط الذين أحيلوا إلى التقاعد.. وهو من بين زملاء الدراسة الذين زاروني في مكتب المجلة التي أصدرتها آنذاك والمسماة / زوبك/ قرأت في وجهه أنه يريد شيئاً مني. وهو أن أكتب له خطاباً يلقيه يوم زفاف ابنته.. مثل الزملاء الذين كانوا يطلبون مني أوراق صغيرة في الامتحان.. ألح عليَّ بهذا الطلب.. حيث قال لي يومها: «اكتب لي كلمة معبرة ومؤثرة ليقولوا عني.. والله عفارم». فقلت له: إنك تكتب

هذا الخطاب أفضل مني.. وقد ظن أنني أضحك عليه بكلمتي هذه لأصرفه عني: هل من المعقول: أن لا يستطيع كاتب مشهور طويل وعريض كتابة خطاب في مثل هذه المناسبة؟!

وخاصة أنك كنت تكتب الرسائل الغرامية لزملائي في الصف.. عندما حضر إليَّ للمرة الثالثة.. أعطيته الخطاب الذي طلبه مني. بعد ذلك لم أره أبداً، يجب أن يكون /حافظ أ/ الطيب بين أحفاده الآن.

الإعجاب بالنفس

بدت التخلص رويداً رويداً من خوف الفقر ومن وضع منزلنا. حتى ومن الاضطرابات التي كنت أعاني منها في مدرستي. أكثر زملائي.. حالتهم المادية وأوضاعهم العائلية أشد سوءاً من وضعي المادي والاجتماعي.

ما أنا عليه يعود إلى ثقتي بنفسي والتخلص من الشعور بالدناءة.. لست أدري كيف انتابني هذا الشعور، هل جاء من تلقاء ذاته، أم من الصراع الذي كنت أعانيه بيني وبين نفسي «لم يكن ميداس.. يخفي أذناه الطويلتان عن الآخرين، لأنه لا يوجد مثلهما وكان يظهرهما وهو واثق من نفسه».

بدأت أدعو زملائي إلى منزلنا، وبما أنه لا يوجد مكان مناسب فيه فكنت أقدم لهم الطعام في حديقتنا.

في إحدى حفلات السمر هذه صادفنا طرد من النحل المنهزم من خليته.. واستقر على أحد أغصان شجرة الإجاص.. فحاول أحد الأصدقاء تعبئة الطرد عن الشجرة داخل سلة بوضع قليل من السكر داخلها، استقر طرد النحل عندنا لعدة أيام ثم عاد للهزيمة ثانية. وذات مرة بال حمارنا جلبي على ثياب أحد الزملاء وأظن إنه /حمدي طوران/ .. فما كان منه إلاّ أن خلع ثيابه وقمنا بغسلها وتنظيفها.

لم أكن أخجل من أن يراني الجميع.. كما أنا.. في منزلنا المتواضع ولكن أموراً سلبية بدأت معي.. فأنا طالب مجتهد وناجح وثقتي بنفسي عالية.. هذه الأسباب جعلتني شديد الإعجاب بذاتي. المصروف الأسبوعي الذي يقدمه لي أبي.. زهيد جداً.. القناعة الشخصية عندي. بدأت توحي لي بأن مصروفي الأسبوعي يجب أن يكون بقدر نجاحي في المدرسة.. وليس بقدر دخل أبي.

وأعتقد أنني صرخت في وجه أبي أكثر من ثلاث مرات عندما أرى المبلغ الذي يقدمه لي قليل. وبكل حقارة، خارج هذه الأحداث الثلاثة لم أقف في وجه أبي ولم أصرخ ولم أقلل من تقديري واحترامي له. في البداية كان يعطيني خمسون قرشاً.. ثم ارتفع إلى الليرة الواحدة.. كانت قيمة الليرة آنذاك تعادل أكثر من خمس وعشرين ليرة في عام ١٩٧٦.. طلبت منه أن يعطيني ليرتين.. أو ليرتين ونصف.. لماذا.. لأنني الأول في صفي.. واقع الحال ومن حقي أن أخذ أكثر من كل زملائي.. حتى إنني كنت قد أقنعت نفسي بهذا الحق /الباطل/.

وكان أبي القاسي والشديد مع كل الناس.. يبدأ بشرح نفسه ووضعه الاقتصادي وهو يقول بكل طيب وشفقة.. يا ضناي. كان أبي يعطيني ليرتين.. وكنت أحس بأنني أظلمه كثيراً.

كلّي بابا/ بابا المشعر

لكل زميل من زملاء الصف لقب خاص به، وأكثرية الألقاب اخترعتها وأطلقتها عليهم. لم ينزعج أحد من لقبه سوى بعض الزملاء.. حتى هذه الأيام.. ونحن في الستين.. /خنازير كبيرة/ ما زلنا ننادي بعضنا بألقابنا.. لقبي /كلّي/ - يعني كثير الشعر.

ففي شهر آب من عام ١٩٧٣ تخرجنا من كلية الحربية وعددنا أكثر من ألف وخمسين ضابطاً.ز أكثر من ألف منهم لا يعرفونني سوى /كلّي

نصرت/ أي نصرت المشعر/ ويفرقونني عن باقي الذين أسماءهم نصرت.. ويظنون أنهم الذين وضعوا هذا اللقب كلّي لكثافة الشعر في جسدي. مع إن هذه الكلمة لم تعط لي لكثافة الشعر، وليس الآخرين من أعطوني هذا اللقب.. أنا وضعته لنفسي في حادثة معينة. أي أن زملائي ظنوا أنهم يسخرون مني والحقيقة أنا الذي سخرت من نفسي.

كانت دفاتر المذكرات والإحصاءات تمتلئ بها المكتبات والمحلات التجارية آنذاك لكنها غالية الثمن، جميلة ومزينة.. بعضها مجلد بالجلد الأصلي وبعضها بالأغلفة السميكة.. وبعضها بالأطلس.. وهوامش أوراقها منجّمة ومزخرفة.. وقد طبع على أغلفتها الخارجية عبارة /دفتر مذكرات/ بزخرفة جميلة.. وفي أعلى الغلاف أيضاً رسم قلب وملاك الحب الذي يرمي السهم. وفي بعضها رسوم أزهار لدرجة أن لبعضها قفل ومفتاح، أو خيط للربط كانت هذه الدفاتر واسطة صداقة بين الشاب والفتاة.. والطريق الأمثل للقاء الجنسين.. أصحاب الدفاتر من الطلبة.. يقدمون دفاترهم لأصدقائهم المقربين ليسجلوا عليها مشاعرهم وأحاسيسهم اتجاهه.

الطالب وجدي القادم من بورصة من قسم اللغة الألمانية كان يرسم على دفتر مذكراته رسوماً جميلة أنا شخصياً.. أستطيع أن أرسم رسماً جميلاً مثله.. الفتيات يرسلن دفاترهن عن طريق طلبة آخرين إلى وجدي ليرسم لهن الرسومات.. كانت رسوماته لماعة بشكل غريب لأنه يمسحها بالصابون بعد الرسم.

كانت الأسماء المتبادلة في دفاتر المذكرات، أسماء مستعارة؟ لأن البعض لا يذكرون أسماءهم الحقيقة بعد كتابتهم الجواب.. بل كانوا يضعون إشارة أو رمزاً فقط.

ومن الأسماء المستعارة التي بقيت معلقة في ذاكرتي: عالم السماء ـ/

كهكشان/ أودرب التبانة، الربيع ـ العاصفة ـ بورا ـ الورقة ـ يبرق ـ كرة الثلج ـ شاب بوي ـ نجمة الراعي ـ الزهرة ـ المحارة... الخ. من هذه الرموز.. تفهم شخصية كاتب الجواب.. ذكراً كان أم أنثى.. وأوصافه تظهر بعض الشيء.. الذين تعجبهم الرموز يرغبون بالتعارف على صاحب الرمز، ولهذا السبب كان أكثرية الزملاء يطلبون مني أن أجيب عن الأسئلة المرسلة إليهم. كي يتعرفوا إلى صاحبة الدفتر ومن الأسئلة الرائجة.. التي كانت توضع على الدفاتر ما هي الزهرة التي تحبها أكثر؟ أي لون تحب من بين الألوان؟ أي زهرة تحبونها أكثر: الوردة أم البنفسج أم القرنفل؟

أنا شخصياً لم أكن أملك دفتر مذكرات أو غيره.. ولم أشعر بأية ضرورة لهما. ولكن كتبت كثيراً على دفاتر الآخرين. ورسمت كثيراً.. هذه الكتابات والرسومات أكتبها أيام العطل الرسمية كي لا أهدر وقتي في الأيام الأخرى.

أحضر لي أحد الزملاء لم أعد أتذكر اسمه.. دفتراً لإحدى الفتيات.. وطلب مني الإجابة على أسئلتها. طبعاً الأجوبة التي أعطيتها لم تكن تشبه الأسئلة الأخرى. ولكنها بدت مناسبة للأسئلة.. أسئلة صبيانية.. وأجوبة دون أدب.. صاحبة الدفتر يجب أن تكون عبثية.. أنا الآخر أجبت على أسئلتها بأجوبة أكثر سخرية وعمقا.. عندما رأت الفتاة الأجوبة قالت لزميلي: «من غير المستحيل أن تكون أنت قد أجبت على هذه الأسئلة.. قل لزميلك هذا أن يكتب هذه الكلمات على لسانه». وعندما جاء الدفتر ثانية إليَّ.. في هذه المرة يجب أن أجد اسماً مستعاراً باسمي لقد استعملت رمز زميلي /بال بابا/ فوجدت أنه من المناسب أن أجد رمزاً أو اسماً ملائماً لأسئلتها.. فاستعملت رمز /كلِّي بابا/ هذا اللقب انتشر في الصف. حيث بدأوا يقولون لي: (كلِّي بابا» بعدها قالوا:

«كلّي» فقط. كان زميل مقعدي /أوداميشل كامل/ ينادیني.. /ولك كلّي/ ولك مشعر/ وهكذا وضعت لقباً لي.. معروفاً حتى الآن بين زملاء الدراسة.

الشيوعي الأول الذي رأيته

قبل خمس وعشرين عاماً من الآن.. كان الناس يظنون أن الشيوعيين مخلوقات محيِّرة وأشد بشاعة من المخلوقات التي كنا نرى صورها في المجلات على أنها قادمة من المريخ.. نصفهم بشر ونصفهم الآخر مختلف.

في عام ١٩٥٥ كان الحزب الحاكم وهو الحزب الديمقراطي قد نظم وبشكل سري مسيرة أو مظاهرة مؤيدة لأتراك قبرص.. وعندما فلتت الأمور من أيديهم في أحداث ٦ ـ ٧ أيلول من ذلك العام.. حيث وصلت الخسائر في استانبول إلى مليارات الليرات.. عندها بدأت الحكومة بالبحث عن المسببين .. ليتستّروا أو يرفعوا الذنب عن أنفسهم. فبدأوا بالقبض على عدد كبير من اليساريين والشيوعيين.. بلغ عددهم أكثر من سبعين شيوعياً.. وألصقوا بهم التهم والخسائر وزجّ بهم في زنزانات سجن الكلية الحربية العسكرية.. رغم أن لا علاقة لهؤلاء بالأحداث التي حصلت في تلك الفترة. كنت واحداً من هؤلاء المساجين المقبوض عليهم، لأنني من استانبول. كان الجنرال رئيس المركز العمومي قد جاء إلى السجن ليرى الشيوعيين عن كثب (بعد انقلاب ٢٧ ذار عام ١٩٦٠، تم القبض على هذا الجنرال وسجن في /ياسي آدا/.. وحكم عليه). عندما كانت تُفتح الأبواب الحديدية الواحد تلو الآخر. كان هذا الجنرال يقف، على الباب وينظر إلى السجين الموجود في الحجرة بنظرات مطولة. وكأنه ينظر إلى مخلوق غريب قادم من المريخ.. إذا حدث هذا قبل خمسة وعشرين عاماً.. فكروا بما صار قبل خمسة وأربعين عاماً.

ساقص لكم الحادثة. ولكن قبل ذلك سأروي حادثة أخرى.. كي يكون الشرح أكثر وضوحاً وقبولاً.

زميلي الصحفي /أمين قرة كوش/ شاهد على ذلك. قبل ثلاثون عاماً ألقي القبض على أحد الطلبة الجامعيين بوشاية من البوليس السري.. كان الشهود يدلون بإفاداتهم داخل المحكمة قائلين إن هذا الطالب هو شيوعي.. وأكبر دليل على ذلك إنه يعزف الألحان الغربية بالتصفير في حديقة الجامعة.. تصوروا أن البعض كان يربط التصفير بالشيوعية.. كذلك عزف الألحان الفرنجية.. هذه حادثة مسجلة في محاضر المحكمة.

أستطيع أن أقص لكم أحداثاً أخرى تافهة ومضحكة حول هذا الموضوع مثلاً: عندما دخلت قوات الشرطة لتفتش منزل أحد المدرسين على أنه شيوعي.. قال لهم المدرس: أنا ضد الشيوعية أجاب البوليس: «أنا لا أسألك من أي نوع من الشيوعيين أنت.. المحكمة هي التي تعرف ذلك الشيء.. أنا لا أعرف شيئاً إن كنت شيوعياً أم ضد الشيوعية. ما أعرفه أنت شيوعي.

لنعد إلى ما قبل خمسة وأربعين عاماً في عام ١٩٣١ كنت طالباً في الصف الثامن وعمري ست عشرة عاماً.

في أحد الأيام أعطاني والد حلمي السيد حيدر عنواناً.. كنت سأرسل إلى هذا العنوان طاسة من /العاشوراء/ موضوعة ضمن سلة (وبما أنني كنت أحمل عاشوراء، يجب أن نكون في العاشر من شهر محرم).

والبيت الذي كنت سأذهب إليه.. يقع خلف جامع /قيزل توبراق/ (التربة الحمراء).. يسكنه ضابط كبير برتبة /مشير/ أو ماريشال. واسمه هارون الرشيد. وكان هذا بالذات من الضباط الذين رفعهم عبد الحميد إلى رتبة المارشال (وحسب ما قاله حلمي إنه كان من الضباط الذين خططوا لحرب الاستقلال).

وهارون الرشيد هو ابن لأحد أغوات الجركس القفقاسيين من قبيلة / بسناي/ والذين أتى بهم الآغا عيسى إلى تركيا. وتُعدَّ أمّ حلمي ابنة أخ هارون الرشيد. أي أن المارشال هارون الرشيد يعد عم الست إحسان والدة حلمي وإرسال العاشوراء إلى الباشا نوع من الاختفاء يقال إن الباشا يملك أموالاً كثيرة.. وتريد أم حلمي استرجاع بعض أموالها القيمة.. والرسالة التي كنت أحملها فيها هذه الطلبات.

عندما أعطاني السيد حيدر الرسالة قال لي: إن ابن الباشا هارون الرشيد.. يدرس في فرنسا شيوعي.. شيوعي.. شيوعي.. كيف يكون شكل الشيوعي يا ترى لأنني لم أر في حياتي شيوعياً أبداً.

ذهبت إلى العنوان المسجل فوق الظرف.. بناية حديثة مؤلفة من طابق واحد وسط حديقة كبيرة وتقع خلف جامع قيزل توبراق. أدخلوني المنزل، كان الباشا مسناً.. ولكنه قوي البنية.. وبما أن الفضول كاد يأكلني لرؤية ماهية وشكل ابنه الشيوعي.. فقد أردت رؤيته قبل كل شيء. التقيت به نظرت إليه بدقة متناهية وبنظرات مطولة.. واحتراز كبير، ثمة أحاسيس غريبة اجتاحت رأسي ودغدغت مشاعري.. ربما كان حقيقة طويل القامة أو أنه تراءى لي طويلاً لأنني سمعت عن شيوعيته قبل أن أراه.. وربما كان وسيماً حقيقة وربما أراه كذلك. وربما صوته غليظاً وربما غير ذلك لأنني سمعت عن كونه شيوعياً قبل رؤيته. كان يلبس فوق عينيه نظارة سميكة الإطارين.. ويحمل على طرف شفتيه غليوناً، يتحدث وهو قابض على الغليون بين أسنانه، يرتدي قميصاً /بنصف كم/ وباقته مفتوحة.. إنه إنسان لا يشبه البشر أو الناس الذين رأيتهم حتى الآن.. أو هكذا تراءى لي. لم أعد أتذكر كيف تحدثت معه وتحدث معي بطلاقة.. كان يستعمل الكلمات القليلة في حديثه. أخذني إلى إحدى زوايا المنزل.. حيث ارتدى هناك قميصاً أبيضاً طويلاً.. كان نحاتاً.. ودرس فن النحت في فرنسا.

ولأول مرة أيضاً كنت أشاهد نحاتاً بالقميص الأبيض. وعلى الرفوف هياكل غير مكملة ورؤوس.. وفوق الطاولة الخشبية الطويلة أدوات العمل وعجين من الوحل مغطى بأكياس الخيش.

تعلقت عيناي به إذاً.. الشيوعي مثل الرجل.. أو ما يشبهه، حرام.. كيف يكون هذا الإنسان شيوعياً وهو الذي ينحت مثل هذه الأشياء الجميلة؟

عندما قرأ الباشا هارون الرشيد الرسالة التي أرسلها له السيد حيدر كان قد ضحك بمرارة وقال ثمة أشياء كثيرة لم أعد أتذكر من كلماته شيئاً.

عندما رجعت إلى السيد حيدر شرحت له كل شيء. هذا هو الشيوعي الأول الذي أراه.. ربما كان ذلك الشاب مضاد للشيوعية.. من يدري؟

مواجهة كلام الناس

كان قائد قوات الانضباط في مخفر بيازيد النقيب /مجتبى/ ضابط يدور اسمه على كل لسان ويخافه الجميع.. من العساكر إلى الطلاب حتى القبضايات المدنيين وأصحاب السوابق والمجرمين. يقع المخفر قرب حمام /خليل باتمرونا/.. وكان أفراد الانضباط وضباطهم يضعون على ياقتهم في ذلك الوقت لوحة معدنية صفراء على شكل هلال تدعى «فراحي» أما شرطة الانضباط فيعلقون نجمة تنزل حتى صدورهم.. ويرتدون ثياباً أنيقة مزخرفة أما انضباط البحرية فكانوا أكثر أناقة من الآخرين نجومهم بيضاء، ومعظمهم متعلمون من أبناء استانبول تحديداً وخاصة الرقباء منهم.. كانوا قساة ولكنهم لا يفارقون معلميهم.

من كثرة الذهاب إلى المسرح فقد تعرفت إلى عدد من الشباب الذين أصبحوا أصدقائي، اثنان منهم غنيان جداً.. وثيابهما أنيقة جداً. طوال القامة اسم أحدهما /سعودي/ وربما شيء من هذا القبيل. في ليلة

الخميس ليلة العطلة الأسبوعية خرجنا من المسرح بعد منتصف الليل تقريباً ويجب أن أعود مع حلمي إلى البيت. ولكن لا أدري ما حصل كنا ستة طلاب عسكريين.. أنا وحلمي وسعودي وصديقه واثنان آخران.. ذهبنا إلى /باي أوغلو/ الطالبان العسكريان لم يكونا في صفي سرنا في شوارع /باي أوغلو/ فاقترح أحدنا وربما /السعودي/ أن نذهب إلى منزل /أنا ستاس/ .. فوافق الجميع على الاقتراح.

لم أستطع فراقهم لخجلي الشديد من هذه المجموعة. وصلنا حي باي أوغلو بعد منتصف الليل.. ثم دخلنا جادة /تارلا باشي/.. فمررنا بأحد الأزقة متجهين نحو تقسيم حيث انتابني خوف في أعماقي.. وحاولت جاهداً عدم إظهاره فالولد الذي يعرف منزل أنا ستاس في مقدمتنا.. ولنفرض أننا وجدنا منزلها ماذا كنا سنفعل هناك؟ إذا فُتح الباب.. إما أن يأخذوننا إلى الداخل أو لن يسمحوا لنا بالدخول. إذا لم يسمحوا لنا بالدخول فهذا عمل جيد، وإذا أدخلونا؟ سندخل وليحصل ما يحصل بعد ذلك.

في النهاية وجدنا المنزل الذي كنا نبحث عنه.. منزل.. مكون من ثلاثة طوابق، على مسافة عدة أمتار مصباح مضيء على زاوية الشارع، لكن المنزل غير مضاءٍ، أنواره مطفأة. كنا ندور ونلف أمام باب المنزل.. لا نعرف إن كانت أنا ستاس قد عادت من المسرح أم لا. وبدأنا المناقشة مع بعضنا: «لماذا لا نذهب إلى منازلنا بعد خروجنا من المسرح مباشرة؟».. البعض يقول: «لنطرق بابها» والبعض الآخر يقول: «لننتظر بعض الوقت.. وواحد يقول: لنتجول حول المنزل.. وننتظر عودة سيارتها». وصلنا إلى رأس الشارع في /تارلا باشي/ وإذ بنا أمام عنصرين من عناصر انضباط البحرية كانا طويلان ووسيمان من شباب استانبول.. أحدهما يعرج قليلاً باستطاعتهما احتجازنا نحن الثلاثة، أي طلاب العسكرية إلى مخفر الانضباط.. ونحن في الشارع وخاصة بعد منتصف

الليل بوقت طويل.. ويوقفونا حتى الصباح.. وفي اليوم التالي يأخذوننا إلى المدرسة ومن يدري ماذا يفعلوا بنا في المدرسة، ولكن العنصرين لم يظهرا أية شدة وقساوة.. فتحدث العنصر الأعرج بكلمات مهذبة رائعة.. وقال: إنهما لن يسيئا الظن بنا في هذه الليلة. وخاصة وجودنا في الشارع الذي تسكن فيه الممثلة /أنا ستاس/، في هذه الساعة المتأخرة من الليل.. ثم قال:

ـ ولكن من يدري ربما الناس يتحدثون عنكم.. وعندها ستواجهون الأقاويل يا أفندم.. نرجوا منكم أن تذهبوا إلى بيوتكم مباشرة.

دُهشت من كلامه: «ستواجهون الأقاويل يا أفندم».. هذه الكلمات لا ينطق بها سوى المثقفون والمتنورون الأفندية.. ومعنى هذه الجملة «ربما يتحدث الناس عنكم بكلمات لا ترغبون سماعها».

ماذا لو افترقنا عن بعضنا وذهب كل واحد منا إلى منزله.. لا.. ابتعدنا عن العنصرين الإنضباطيين البحريين بعض الشيء.. وعدنا إلى الشارع نفسه ثانية، لم أستطع الافتراق عن المجموعة ولم أنطق بكلمة واحدة.

شاهدنا العنصران الانضباطيان ثانية.. عندها.. ذهب كل واحد منا في حال سبيله.. ولم أعد أتذكر.. كيف افترقت عن حلمي، فقد بقيت وحيداً.. نزلت من الرصيف الأعلى إلى جسر غلطة.. ودخلت إلى الباخرة المسماة /بوغاز إيجي/ الراسية على الرصيف.. وتمددت فوق أحد المقاعد.. بعد قليل كان الشمس قد أشرقت.

بعد تخرجي من الكلية وجدت أن الشخص الذي أظن أن اسمه سعودي لم يعرفني وقد أصبح مديراً لأحد أماكن اللهو في استانبول.

كيفي كلار (حي الحور)

أحدهما بدين وقصير القامة والثاني ضعيف البنية طويل القامة وكلاهما يظهران في الأربعين أو الخامسة والأربعين من عمرهما. القصير

القامة يرتدي بنطالاً رمادياً.. وجاكيتاً كحلياً.. أما أزرار الجاكيت فهي لماعة من معدن أصفر.. نقش عليها ثلاثة حروف فوق الجيب الصدري (R - A - F) أما الطويل فكان يرتدي ثياباً من قماش /الفانيلا/ عرفتهما في ساحة سلطان أحد أيام الجمعة يوم العطلة الأسبوعية.. كانا يحاولان أن يقولا شيئاً بالإنكليزية.. عدد الذين يعرفون الإنكليزية آنذاك كانوا قلائل جداً.. اقتربت منهما دون خوف وقلت لهما:

- هل أستطيع مساعدتكما؟

هكذا رغم تعارفنا.. لأول مرة أتحدث الإنكليزية مع الغرباء.. الآن أحس بالحيرة من نفسي فأنا لن أخاف من أي تصرف خاطئ يصدر مني.

لقد أوصانا مدرس الإنكليزية: «تحدثوا وأنتم تنظرون إلى عيونهم نظرات ثاقبة دون خوف ولا وجل».. ومازلت أتمسك بوصاياه.. كان الفهم بالنسبة لي أصعب من إفهامهما.. قالا بأنهما يريدان الذهاب إلى / بوغاز ايجي/ أي /البوسفور/.. سرنا من جسر غلطة حتى وصلنا إلى ميناء السفن تناول أحدهما خريطة مطوية من محفظته وقال:

- كيفي - كلار

عندما عرف أنني لم أفهم عليه.. كررها عدة مرات:

- كيفي - كلار

بدأ القصير يلفظ الكلمة على شكل مقاطع كي - في - كلار هذه كلمة إنكليزية لا أعرفها ولم أسمع بها.. كانا يريدان الذهاب إلى كيفيكلار.. وبينما كانا يرددان هذه الكلمة.. سمع أحد حراس الميناء ماذا يريدان اقترب مني وقال:

- ولك أخي.. الجماعة صار لهما أكثر من ساعة وعما يطلبان منك أن تأخذهما إلى /ليفي - كلار/ (حي الحور) (جاءت الكلمة بالجمع الحور).

فهمت بعد ذلك أنهما لا يستطيعان لفظ الكلمة بالتركية.. وتخرج الكلمة محورة بالإنكليزية.

قطعنا التذاكر وركبنا السفينة الذاهبة إلى /كيفي ـ كلار/ كانت البواخر آنذاك تضع الأسطوانات على جهاز الحاكي فتصل الأغاني التركية إلى أطراف المضيق.

سألتهما إن كانا معجبان بالأغاني التركية.. فأغلقا آذانهما بيديهما دفعة واحدة.. للتعبير عن عدم حبهما وقبولهما للأغاني التركية.. حزنت كثيراً لتصرفهما وموقفهما.

سألتهما فيما إذا جاءا إلى استانبول كسائحين.. قالا أنهما موجودان في تركيا منذ وقت طويل.. منذ الأعوام التي كانت يقام فيها معمل /قرة بوك/ لصب الحديد، وأنهما مهندسان إنكليزيان يعملان على إقامة المعمل.

يا ترى هل كانت الحروف المطرزة فوق جيب سترته هي الحروف الأولى من اسمه؟ لا.. كانت هذه الحروف الحروب الأولى من جملة القوات الجوية الملكية R.A.F. وأن كلاهما مهندسان عقيدان في القوات الجوية الإنكليزية.

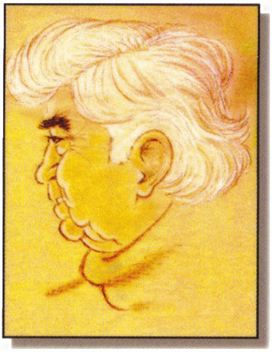
السفينة التي ركبناها.. سارت بخط منكسر على الضفتين لأنها كانت تمر على عدة موانئ.. وكانا المهندسان يصوران المضيق. وصلنا إلى /كيفي ـ كلار/ وقفت السفينة بعض الوقت على صفها الأناضولي.. ثم سارت حتى وصلنا إلى /بايكوز/ عندما نزلنا هناك كان بانتظارنا شرطيان وقالا بأنهما يريدان اصطحاب الإنكليزيين إلى المخفر.. سأل الإنكليزيان عن السبب. فقال الشرطيان عندما تذهبان إلى المخفر تعرفان السبب. خفت من ذهابهما إلى المخفر ولكن.. لم أجد الظرف مناسباً كي أتركهما وحيدين.. كان عليَّ أن أساعدهما بإنكليزيتي الضعيفة.

عندما وصلنا إلى المخفر.. فهمنا سبب وجودنا هنا.. فقد شاهد أحد المواطنين الإنكليزيان يصوران البوغاز.. فذهب إلى المخفر وأخبر عنهما وظن بأنهما جاسوسان ويقومان بتصوير مناطق ممنوعة.

تمَّ التحقيق معهما.. ثم أفادهما المفتش بأنهما كانا يصوران مناطق ممنوعة للتصوير.. فاقتادهما شرطيان إلى مديرية أمن استانبول. واشتد خوفي عندما عرفت أن سبب القبض عليهما هو تصويرهما أماكن محظورة في المضيق.. لو عرفت إدارة المدرسة بأنني كنت معهما وهما يصوران فإن طردي من الكلية حاصل لا محالة.. ومن يدري ماذا يفعلون معي غير الطرد وكأنني ورطت نفسي في عملية جاسوسية دون معرفة مني.. ومن المعيب جداً أن أتركهما لوحدها.

كانت مديرية أمن استانبول آنذاك في مكانها الحالي.. عندما وصلنا إلى هناك كانت الشمس على وشك المغيب دخلت معهما إلى المديرية.. تحدث أحدهم مع الإنكليزيين بطلاقة.. لم أستطيع فهم حديثهما من سرعة المناقشة. أخذوا منهما آلتي التصوير، ثم أعادوها إليهما بعد نزع الأفلام منهما.. وأخلوا سبيلهما.. والشيء الذي احترت منه أنهم لا يسألونني شيئاً.. كوني مرافقاً لهما.

عندما خرجنا كان الظلام قد خيَّم على جو استانبول تقدَّما إليَّ بالشكر وافترقنا هناك. لقد زال الخطر.. عندما وصلت المدرسة.. وجدت أن الطلاب تناولوا العشاء منذ وقت طويل.. وبدأ وقت المطالعة.



وهكذا سرنا

الصعود إلى القمة

أعزائي القراء

أشعر وأنا أكتب مذكراتي، أنني بحاجة إلى مخاطبتكم، بل لأفتح قلبي لكم، فالمذكرات التي كتبتها هي من أصعب ما كتبت طوال حياتي، المفروض أن تكون كتابتها سهلة سلسة، فالمذكرات لا تحتاج إلى إبداع جديد أو أسلوب أدبي، بل إلى واقعية وشفافية وشعور وإحساس عميقين.

أردت كتابة قصة حياتي من أعماقي، لكن ما أضعف عزيمتي، هو خجلي وحرجي في توضيح بعض النقاط الغامضة. وبما أنني قررت الكتابة، فيجب أن تكون التفاصيل والفروع حقيقية، حتى لو سبَّبت لي الألم، ووضعتني في مأزق صعب مع الآخرين، ومع أقرب وأعز الناس لديَّ.

وليعذرني القراء على ما أوردته في مذكراتي من حوادث وقصص وجنس قد ترفضونها وتقرفونها، لكنها الحقيقة التي عشتها في طفولتي وشبابي.